مكتبة

لويزا ماي ألكوت

# أولاد جو

ترجمة: بثينة الإبراهيم

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

مكتبة | سُر مَن قرأ أولاد جو

الكاتب: **لويزا ماي ألكوت**

عنوان الكتاب: **أولاد جو**

ترجمة: **بثينة الإبراهيم**

العنوان باللغة الأصلية: **Jo's Boys**

الكاتب: **Louisa May Alcott**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-82-3

الطبعة الأولى - أغسطس/ آب - 2021

3000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com takweenkw

www.takweenkw.com takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com Dar alrafidain

info@daralrafidain.com Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com Dar alrafidain

لويزا ماي ألكوت

مكتبة
t.me/soramnqraa

# أولاد جو

رواية

ترجمة

بثينة الإبراهيم

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا
دار الرافدين

# (١)

# بعد عشر سنوات

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لو أن أحدًا وصف لي ما سيحدثُ هنا من تغييراتٍ رائعة في عشر سنين، لما صَدقت»، قالت السيدة جو للسيدة مِغ، أثناء جلوسهما على الشرفة في پلمفيلد ذات يوم صيفي، تنظران حولهما بوجهين ملؤهما الفخر والسرور.

«هذا هو السحر الذي يصنعه المال والقلوب الطيبة. لا شك أن السيد لورنس لن يحظى بنصبٍ تذكاري أفخم من كلية كان واهبًا كريمًا لها؛ وبيت كهذا سيُبقي ذكرى العمة مارش خضراءَ ما دام قائمًا»، أجابت السيدة مِغ التي تسعد دومًا بالثناء على الراحلين.

«اعتدنا أن نؤمنَ بوجود الجنّيات، كما تذكرين، ونخطط لما نود طلبه منهن إن استطعنا أن نحظى بثلاث أمنيات. ألا يبدو لك أن أمنيتي قد أضحت حقيقةً أخيرًا؟ المال، والشهرة والكثير من العمل الذي أحبه»، قالت السيدة جو وقد جعدتْ شعرها بلا اكتراثٍ وهي تشبك يديها خلف رأسها مثلما اعتادت أن تفعل في صباها.

«لقد تحققت أمنيتي، وإيمي مسرورةٌ ملء قلبها بتحقق أمنيتها.

لو كان أحباؤنا أمي وجون وبِث معنا، لكان الأمر بالغ الروعة»، أضافت مِغ وقد تهدّج صوتها برقة، إذ غدا مكان الأم خاليًا.

وضعت جو يدها على يد أختها، وجلست الاثنتانِ صامتتين لبعض الوقت، تنعمان النظر في المشهد أمامهما بمزيجٍ من الأفكار الحزينة والسعيدة.

كأنّ في الأمر سحرًا حقًا، لأن پلمفيلد الهادئ تحوّل إلى عالمٍ صغير مشغول. إذ بدا المنزل مضيافًا أكثر من ذي قبل، وقد تجدد بطلاءٍ جديد وأجنحةٍ مضافة، ومرجٍ وحديقةٍ معتنى بهما جيدًا وجوٍّ ملائم، ولم ينله البلى عندما اندفع الأولاد المشاغبون في كل مكان، وواجه آل باير صعوبةً في الاقتصاد في النفقات. على التلة، حيث تُطير الطائراتُ الورقية، تقع كليةٌ جميلة بُنيت بتركة السيد لورنس السخية. كان طلابٌ مشغولون يروحون ويغدون على امتداد الدروب التي وطئتها يومًا أقدام الصبية، وكان كثيرٌ من الشبّان والشابات يتمتعون بكل الامتيازات التي منحتْها لهم الثروة والحكمة والإحسان.

داخل أسوار پلمفيلد كوخٌ بنّيٌّ جميل يشبه برج الحمام، تحضنه الأشجار؛ وعلى المنحدرِ الأخضر غربًا يقع قصرُ لوري ذو العمد البيضاء يتلألأ في ضوء الشمس. فحين طوّق البيتَ القديمَ النموُّ السريع للمدينة، وأفسد عش مِغ، وتجرأ على بناء مصنعٍ للصابون تحت أنف السيد لورنس الناقم، ارتحل أصدقاؤنا إلى پلمفيلد، وبدأ التغييرُ الكبير.

كان هذا التغييرَ السعيدَ؛ وقد خفّف من فقد الأحبةِ الكبار النعمُ التي خلفوها، فازدهر كل شيءٍ في المجتمع الصغير، ورأى الرئيس السيد باير والسيد مارش القس الملحق بالكلية حلمَهما المكنونَ طويلًا يتحوّل إلى حقيقةٍ جميلة. تقاسمت الأخوات رعايةَ الشباب بينهن، كل واحدةٍ اضطلعت بما يناسبها. فكانت مِغ الأمَ الصديقة لكل الشابات، وجِو المدافعة عن كل الشباب وموضع أسرارِهم، أما إيمي فالسيدة الجميلة التي تسوّي الطريقَ بنعومةٍ أمام التلاميذ المعوزين، وتستضيفهم بمودة، فلا عجب أنهم سمّوا بيتَها الجميل ماونت پارناسوس [جبل پارناسوس] وقد كان مليئًا بالموسيقى والجمال والثقافة، فتاقت إليه القلوبُ والأخيلة المتعطشة.

انتشر الصبيةُ الاثنا عشر في كل الأصقاع أثناء هذه السنوات، ولكنهم طوال حياتهم ظلوا يذكرون پلمفيلد العتيق، وعادوا إليه من جهات الأرض الأربع ليقصّوا حكاياهم المنوّعة، ويضحكوا على لهْو الماضي، ويواجهوا واجبات الحاضر بشجاعة جديدة، إذ إن العودة هكذا تبقي القلوب مرهفة، والأيدي نافعة من خلال ذكريات الأيام الخالية السعيدة. سنقصُّ حكايةَ كل منهم بكلمات قليلة، ثم نمضي إلى فصل جديد من حياتهم.

كان فرانز مع قريب تاجر في هامبورغ، وقد صار رجلًا في السادسة والعشرين ويبلي حسنًا. وكان إميل أروع ملاح «أبحر في المحيط الأزرق»[1] يومًا. أرسله خاله في رحلة بحْرية ليثير

---

(١) سطر من قصيدة ذائعة الصيت تسرد قصة اكتشاف كريستوفر كولمبس لأمريكا: «عام

امتعاضه من هذه الحياة الخطرة، لكنه عاد مسرورًا، فبدا جليًا أنه سيتخذها مهنةً له، ومنحه القريب الألماني فرصةً طيبة في سفنه، فكان الفتى سعيدًا. ولم يزلْ دان جوالًا، فبعد دراسة الأرض في أمريكا الجنوبية، جرب تربيةَ الخراف في أستراليا، ثم سافر إلى كاليفورنيا ليعمل في المناجم. وكان نات مشغولًا في المعهد الموسيقي، يتأهب لقضاء عامٍ أو اثنين في ألمانيا لصقل مهارته. وتوم يدرس الطب ويحاول أن يحبه، أما جاك فعمل بالتجارة مع أبيه، عازمًا على أن يصبح ثريًا. وكان دولي في الكلية مع ستفي ونِد يدرسون القانون. ومات دك الصغير المسكين وكذلك بِلي، ولم يحزن عليهما أحد، لأن حياتهما ما كانت لتصبح سعيدة وهما المعتلان عقلًا وجسمًا.

سُمّي روب وتدي «بالأسد والحمَل»، لأن تدي كان عنيفًا بقدر ملك السباع، وروب رقيقًا مثل خروف يثغو. وسمَّتْه السيدة جو «بابنتها»، ووجدته أكثر الأبناء طاعةً، فيه الكثير من الشهامة التي يخفيها الخلقُ الهادئ والطبعُ الرقيق. لكنها رأت في تد كلَّ عيوب صباها وتقلباته وطموحه ومرحه في شكلٍ جديد. كان تد شخصيةً بارزة في پلمفيلد، بخصلِ شعره الأغبر الشعثاء دومًا، ورجليه وذراعيه الطويلة، وصوته العالي وحيويته الدائمة. وكانت تعتريه

---

= ألف وأربعمئة واثنين وتسعين/ أبحر كولومبس في المحيط الأزرق. كان له ثلاث سفن وأبحر من أسبانيا/ أبحر تحت الشمس المشرقة وفي الريح والمطر. أبحر في الليل وأبحر في النهار/ ونظر إلى النجوم لتهديه السبيل....».

لحظات كآبة فيقع في حمأة القنوط مرةً في الأسبوع، وينقذه منها روبُ الصبورُ أو أمّه، التي تعرف متى تتركه وشأنه، ومتى تنفضه. كان محلَّ فخرها وبهجتها وعذابها أيضًا، إذ كان لامعَ الذكاء لفتى في عمره، ومفعمًا بشتى صنوف المواهب الكامنة، وكثيرًا ما فكّر عقل الأم بما سيؤول إليه هذا الصبي الفذّ.

تخرّج ديمي في الكلية بمرتبة الشرف، وعقدت السيد مِغ العزم على أن يصبح قسًّا؛ وهي تتخيل الصورة الأحب للموعظة الأولى التي سيلقيها الكاهن الموقّر الشاب، إلى جانب الحياة الطويلة النافعة المشرّفة التي سيحياها الفتى. لكن جون، كما تدعوه الآن، رفض مدرسة اللاهوت رفضًا قاطعًا، قائلًا إنه اكتفى من الكتب، ويحتاج أن يعرف أكثر عن البشر والعالم، فسبّب للمرأة العزيزة خيبة كبيرة بعزمه على أن يمتهن الصحافة. كانت مفاجأة؛ لكنها أيقنت أن العقول الشابة لا يمكن قيادُها وأن التجربة هي المعلم الأفضل، فتركته يتبع ميله، وما زالت تأمل أن تراه على المنبر. استشاطت الخالة جو غضبًا حين علمت أن في العائلة مراسلًا [صحفيًا]، وأطلقت عليه اسم «جنكنز» في الحال. لقد أُعجبتْ بميوله الأدبية، لكنّ عندها سببًا يجعلها تبغض المتطفلين، كما سنرى لاحقًا. غير أن ديمي عرف مراده، وشرع في خططه بهدوء، ولم تزحزحه عنها ألسنةُ الأمهات القلقات أو مزاحُ رفاقه. شجعه العم تدي، ورسم مسيرة رائعة، متذكّرًا دكنز ومشاهير آخرين بدؤوا عملهم مراسلين وانتهى بهم الأمر ليكونوا روائيين أو رجال صحافة مشهورين.

وأزهرت الفتياتُ، فكانت ديزي، عذبةً وبيتوتيةً كعادتها، سلوى أمها ورفيقتها. وجوزي في عمر الرابعة عشرة آصلَ اليافعين، مفعمةً بالمزاح والبدع كان آخرها شغفًا بالمسرح، الذي سبّب لأمها وأختها الهادئتين كثيرًا من القلق والمتعة أيضًا. وكبرتْ بِس لتصبح فتاةً فارعة الطول بارعة الجمال تبدو أكبرَ من عمرها بسنوات، ولم يزل لها الخلق الراقي والذوق الرفيع اللذان تحلّت بهما الأميرة الصغيرة، والإرث الغني من مواهب الأب والأم، يحوطها كل ما يُمنح من عون وحب ومال. لكنّ فخرَ المجتمع كانت نان المشاكسة، فمثل كثيرٍ من الأطفال الضجرين العنيدين، كبرتْ لتغدو امرأةً مفعمة بالحيوية والطموح الذي أزهر فجأة حين وجدت المُجدّة الطموح العمل الذي يناسبها. بدأت نان دراسة الطب في عمر السادسة عشرة، وفي عمر العشرين أخذت تمضي بجسارة، إذ الآن -والفضل للنساء الذكيات- كانت الكليات والمشافي مفتوحة أمامها. ذلك أنها لم تتردد في مرادها منذ أيام الطفولة، حين صدمت ديزي في شجرة الصفصاف العتيقة بقولها: «لا أريد عائلةً تثير قلقي. ستكون لي عيادة، فيها زجاجات ومدقّ، وأتجول بالعربة وأُشفّي الناس». وكان المستقبل الذي تنبّأت به الفتاة الصغيرة، وأخذت الشابة تحققه بسرعة، وقد وجدت فيه سعادتها، ولا شيء سيصرفها عن عملها المختار. حاول عددٌ من الرجال الصغار أن يثنوها عن رأيها، لتختار -كما فعلت ديزي- «بيتًا صغيرًا جميلًا وأسرةً تعتني بها». لكن نان اكتفت بالضحك، وألهَتْ العاشقين باقتراحها بأن ينظروا إلى اللسان الذي نطق كلمات الحب، أو أن يجسّوا النبض بأيديهم الذكورية

التي مُدّت إليها. فانصرف جميعُهم عنها إلا شابٌ لحوح، كان مثل ترادلز[1] مخلصاً، يستحيل كبحه.

هذا هو توم، الذي ظل مخلصًا لحبيبة طفولته بقدر إخلاصها لـ«مدقّها»، وقدم لها برهانًا على وفائه مسّ شغاف قلبها. فقد درس الطب من أجلها وحدها، بلا رغبة في الطب، ومع ولعه الواضح لحياة التجارة. لكن نان صارمة واستمر توم بعناد، آملًا بإخلاص ألا يقتل كثيرًا من إخوته البشر عندما يُمارس الطب. غير أنهما صديقان رائعان، منحا رفاقهما بهجة كبيرة في تقلبات هذه المطاردة الغرامية المرحة.

اقترب كلاهما من پلمفيلد عصرًا عندما كانت السيدة مِغ والسيدة جو تتجاذبان أطراف الحديث على الشرفة المقنطرة. لم يفعلا ذلك معًا؛ إذ سارت نان سيرًا حثيثًا على امتداد الطريق الجميل وحدها، وهي مستغرقة في التفكير في حالةٍ أثارت اهتمامها، وحث توم الخطى ليدركَها، كأنها صدفة، عندما تجاوز ضواحي المدينة، وهذا أحد أساليبه المرحة.

كانت نان فتاة جميلة، ذات بشرة فاتحة وعينٍ صافية، وبسمة رائقة، لها هيئة الاعتداد بالذات التي تتحلّى بها الشابات الجادات. كانت تلبس ثيابًا بسيطة أنيقة، وتمشي بارتياح وتبدو مفعمة بالحماس؛ كتفاها العريضتان مفرودتان، وذراعاها تتأرجحان بحريّة، وتتجلى

(١) أحد شخصيات رواية ديڤد كوپرفيلد لتشارلز دكنز.

مرونة الشباب والعافية في كلّ حركة. استدار الناس القليلون الذين مرت بهم للنظر إليها، كأنّ رؤية فتاة معافاة سعيدة تمشي في الريف في ذلك اليوم الجميل منظر يسرُّ العين. ولا بد أن يُوافقهم الرأيَ الشابُ ذو الوجه الأحمر الذي يسرع خلفها، وقد ارتدّتْ قبعتُه للوراء وكل خصلة مشدودة تمور بنفاد الصبر.

ثم انطلقت «مرحبًا!» هادئةً مع النسيم، فتوقفت نان، وقد حاولت جاهدة أن تظهرَ المفاجأة على محيّاها لكنها فشلت تمامًا، فقالت بدماثة:

«أوه، أهذا أنت يا توم؟».

«يبدو ذلك. حسبتكِ ستتنزهين اليوم»، وأشرق وجه توم المرِح بالسعادة.

«لقد عرفت ذلك. كيف حال حلقك؟»، سألتْ نان بنبرتها المهنية، التي تلجم دومًا أي عبث.

«حلقي؟ أوه، آه! أجل، تذكرت، إنه أفضل، كان أثر تلك الوصفة رائعًا، لن أسمّي الطبَ البديل احتيالًا ثانية».

«لقد كنتَ المحتالَ هذه المرة، وكذا كانت الحُبَيباتُ غير الدوائية التي أعطيتها لك. إن كان للحليب أو السكر شفاء الخانوق بهذه الصورة الرائعة، فسأكتب ملاحظة عنها. أوه يا توم، ألن تكف عن ألاعيبِك يا توم؟».

«أوه يا نان، ألن تكفّي أبدًا عن هزيمتي يا نان؟». ضحك

الثنائيُّ المرِحُ على بعضهما كما فعلا في الأيام الخوالي، التي تعود دومًا كلما زارا بِلمفيلد.

«حسنٌ، لقد علمت أنني لن أراك لأسبوع ما لم أخترع حجة لآتي إلى العيادة. إنك شديدة الانشغال طوال الوقت ولا أنال منك كلمة»، شرح توم.

«عليك أن تنشغل أنت أيضًا، وتربأ عن هذا الهراء. حقًا يا توم، إن لم تولِ انتباهك للمحاضرات، فلن تتقدم أبدًا»، قالت نان برصانة.

«لقد نلتُ كفايتي منها حتى الآن»، أجاب توم بهيئة الممتعض، «على الشاب أن يلهو قليلًا بعد تشريح الجثث طوال النهار. لا أطيق ذلك لوقتٍ طويل، رغم أن البعضَ يستمتعون به أيّما استمتاع».

«فلماذا لا تتركه إذن، وتفعل ما يناسبك أكثر؟ لقد رأيت هذا دومًا حماقة، كما تعلم»، قالت نان بشيء من القلق في العينين الثاقبتين اللتين تبحثان عن إشاراتٍ للمرض في وجه أحمر حمرة تفاح بولدون.

«تعلمين لماذا اخترته، ولماذا سأبقَى فيه وإن قتلني. قد لا أظهر بمظهر الرقيق، لكن لي قلبًا عليلًا عنيدًا، وسيقتلني عاجلًا أم آجلًا، فليس في العالم طبيبٌ بوسعه شفاؤه إلا واحدة، ولن تفعل».

كانت هيئة توم هيئة العازم، وكانت مضحكةً ومثيرة للشفقة في آن معًا، لأنه جادٌّ وواصل التلميح لمثل هذه الأمور دون أدنَى لمحةٍ للتشجيع.

عبستْ نان، لكنها معتادة ذلك، وعرفت كيف تعامله.

«إنها تداويه بأفضل السبل وأوحدها؛ ولكن المريض الحرون لا يعيش. أذهبتَ إلى تلك الحفلة كما أشرتُ عليك؟».

«فعلت».

«وكرست نفسك للجميلة الآنسة وست؟».

«رقصتُ معها طوال الأمسية».

«ولم تترك أثرًا في قلبك الحساس؟».

«لا شيء البتة. لقد فغرتُ فاهي في وجهها مرة، ونسيتُ أن أطعمها، وتنفستُ الصعداء عندما أودعتها إلى أمها».

«كرر الجرعة قدر ما استطعت، ولاحظ الأعراض. أحسب أنك ستتوسل إليها باكيًا في نهاية المطاف».

«أبدًا! أنا واثقٌ أنها لن توافق مزاجي».

«سنرى. أطعِ الأمر!»، بحزم.

«نعم أيتها الطبيبة»، بخنوع.

ساد الصمت للحظة، ثم كأنما نسِيَ سبب النزاع في الذكريات المبهجة التي أثارتها الأشياء المألوفة، قالت نان فجأة:

«يا للمرح الذي مرحناه في الغابة! أتذكُرُ كيف وقعت عن شجرة الجوز الكبيرة تلك وكدْتَ تدق عنقك؟».

«بلى أذكر! وكيف نقعتني في الأفنستين حتى غدوتُ بلون خشب

الماهوغني، وبكت الخالة جو على سترتي التالفة»، ضحك توم، وقد عاد صبيًا في لحظة.

«وكيف أشعلتَ الحريق في البيت؟».

«وهربتِ لجلب صندوق متاعك؟».

«أما زلتَ تقول «بحق سلاحف البرق؟»».

«أما زال الناس يسمّونك المشاكسة؟».

«ديزي تناديني كذلك، الحبيبة. لم أرَها منذ أسبوع».

«رأيت ديمي هذا الصباح، وقالت إنها تدير المنزل للأم باير».

«إنها تفعل ذلك عندما تدخل الخالة جو في الدوامة. إن ديزي مدبرة منزلٍ مثالية؛ ويجدر بك أن تتقدم لها إن لم يكن بوسعك الاهتمام بدروسك والانتظار حتى تكبر قبل أن تغرم».

«سيكسر نات كمانه على رأسي إن ألمحتُ إلى شيء كهذا. كلا، شكرًا لك. إن في قلبي اسمًا آخر محفور لا يُمحى مثل المرساة الزرقاء على ذراعي. إن (الأمل) شعاري، وشعارك (لا استسلام) ولنرَ من يستمر أطول من الآخر».

«إنكم أيها الأولاد الحمقى تحسبون أن علينا أن نكوّن ثنائيات كما اعتدنا ونحن صغار، لكننا لن نفعل شيئًا من هذا القبيل. يا لروعة پارناسوس من هنا!»، قالت نان وهي تغير الحديث بسرعة مرة أخرى.

«إنه بيت جميل، لكني أحب پلم القديم أكثر. ألن تجفل العمة

مارش إن رأت ما ناله من تغيير؟»، أجاب توم وهما يقفان عند البوابة الكبيرة لينظرا إلى المنظر البهيج أمامها.

أفزعهما هتافٌ مفاجئ، حين أتى فتى طويل له شعر جامح أشقر يقفز من فوق الوشيع مثل الكنغر، تتبعه فتاة رشيقة علقت في الزعرور، وجلستْ هناك تضحك مثل ساحرة. كانت فتاة صغيرة جميلة، لها شعر داكن أجعد وعينان لامعتان ووجه معبر جدًا. كانت قبعتها على ظهرها، وتنورتها أسوأ بكثير من الغدران التي عبرتها والأشجار التي تسلقتها، وأضافت القفزة الأخيرة شقوقًا عديدة.

«أنزليني يا نان من فضلك. أمسكْ بتد يا توم، لقد أخذ كتابي وسأحصل عليه»، نادت جوزي من مكانها، بدون أن تجفل البتة لمرأى أصدقائها.

امتثل توم وأمسك باللص من ياقته، أما نان فقد حملتْ جوزي من بين الأشواك وأوقفتها من دون كلمة توبيخ، إذ كانت في صباها صاخبة، وغدت متساهلة مع ميولٍ كهذه في الآخرين. «ما الأمر يا عزيزتي؟»، سألت وهي تضع الدبابيس على أطول الشقوق، وجوزي تُعاين الخدوش على يديها.

«كنت أحفظ دوري في شجرة الصفصاف، وجاء تد متسللًا وخطف الكتاب من بين يديّ بصنارته، فوقعتُ في الغدير، ولاذ بالفرار قبل أن أتمكن من النهوض. أيها المحتال، أعده إليّ هذه اللحظة وإلا صفعتك»، قالت جوزي ضاحكة معنفة في الآن نفسه.

بعد أن فرّ تد من قبضة توم، باغتته لحظة عاطفية، بنظرات رقيقة إلى الصغيرة المبلولة ذات الثياب الممزقة أمامه، فألقى خطاب كلود ملنوت[1] الشهير بأسلوبٍ تعوزه الحيوية. كان طريفًا للغاية، وأنهاه بالقول: «أتحبين الصورةَ يا حبي؟»، حين جعل من نفسه فرجةً إذ عقد رجليه الطويلتين وشوّه وجهه تشويهًا مفزعًا. وضع صوت التصفيق القادم من الشرفة المقنطرة حدًا لهذه الطرائف، وسار اليافعون على الدرب المشجّر مثلما فعلوا في الأيام الخوالي إذ يقود توم العربة الرباعية وتكون نان أفضل جوادٍ في الفريق. حيّوا السيدتين متورّدين منقطعي الأنفاس وجلسوا على العتبات ليرتاحوا، خاطتِ الخالة مِغ شقوق ثياب ابنتها ومسّدت السيدة جو على لبدة الأسد وأنقذت الكتاب. وسرعان ما خرجت ديزي وحيّت صديقتها، وأخذوا يتحدثون جميعًا.

«ستُقدّم كعكات المافن مع الشاي، يجدر بنا البقاء وأكلها، إذ تبرع ديزي في صنعها دومًا»، قال تد بألفة.

«إنه أحسنُ من يحكم، فقد أكل تسع قطع منها المرة الماضية، ولهذا فهو بدين جدًا»، أضافت جوزي، بنظرةٍ صاعقة لابن خالتها، الذي كان نحيلًا بقدر القِدة.

---

(١) بطل مسرحية «الحب والكبرياء»، لإدورد لايتن، وفيها يقع في غرام پولين، التي نكثت عهدها للماركيز بيزو، فيقنع الماركيز كلود ليتظاهر أنه أمير ويتقدم بطلب يد پولين، التي تكتشف الخديعة عندما اصطحبها بعد زواجه منها إلى بيت أمه الأرملة، فتُبطل الزواج.

«يجبُ أن أذهب لأرى لوسي دوف، إذ تعاني من الداحوس، وحان وقت شقّه. سأشرب الشاي في الكلية»، أجابت نان وهي تتحسس جيبها لتتأكد أنها لم تنسَ حقيبة أدواتها.

«شكرًا، أنا ذاهبٌ أيضًا. فجفنا توم ميريوذر مبرغلان، ووعدته أن أعاينهما، فيوفر أجرة الطبيب ويكون في ذلك تمرين جيد لي. ما زالت تعوزني الرشاقة في إبهاميّ»، قال توم، قاصدًا البقاء قرب معبودته كلما استطاع.

«صه! لا تحب ديزي سماع كلامكما عن نشر العظام. إننا نؤثر الكعكات أكثر»، ابتسم تد ابتسامة عذبة، وهو يستشرف الهدايا القادمة من الأطايب.

«أما من أخبارٍ عن قائد العمارة؟»، سأل توم.

«إنه في طريق العودة، ويرجو دان أن يأتي قريبًا. أتحرق شوقًا لرؤية أولادي معًا، وناشدتُ المسافرين للقدوم في عيد الشكر، إن لم يكن قبله»، أجابت السيدة جو وهي تبتسم للفكرة.

«سيأتون، كل واحد منهم، إن استطاعوا. حتى جاك سيجازف بخسارة دولار كرمى لواحد من حفلات عشائنا القديمة»، ضحك توم.

«ذاك الديك الرومي يُسمّن من أجل الوليمة. ولم أعد أطارده، لكني أطعمه جيدًا، وهو ينتفخ انتفاخًا بارعًا، بورِك فخذاه!»، قال تد مشيرًا إلى الطير الهالك، الذي يتبختر متباهيًا في الحقل المجاور.

«إن كان نات سيغادر آخر الشهر فلا بد أن نقيم له حفل وداع.

أحسب أن المسقسق العزيز سيعود (أول بَل)[1] آخر»، قالت نان لصديقتها.

احمرّت وجنتا ديزي، وارتفعت ثنيات الموسلين على صدرها وهبطتْ بأنفاسٍ سريعة، لكنها ردت بهدوء «يقول العم لوري إنه يتمتع بموهبةٍ حقيقية، وبعد التدريب الذي سيتلقاه في الخارج يمكنه أن يجني مالًا وفيرًا هنا، رغم أنه لن يكون مشهورًا».

«قليلًا ما يحقق الشباب ما نتوقعه لهم، لذا فمن غير المجدي أن ننتظر شيئًا»، قالت السيدة مِغ متنهدة. «إن كان أبناؤنا رجالًا ونساء صالحين نافعين، فعلينا أن نسعد؛ غير أن أمانينا بأن يكونوا أذكياء ناجحين أمر طبيعي».

«إنهم مثل دجاجاتي، كثيرات التقلب. فديكي الصغير الجميل هو الأغبى بينها، والديك القبيح طويل الساقين هو ملك الفناء، ذكيٌّ للغاية، يصيح عاليًا بما يكفي لإيقاظ أهل الكهف، لكن الجميل ينقّ نقيقًا وهو جبان إلى أبعد حد. وأنا ينالني الزجر، ولكن انتظروا حتى أكبر لتروا»، وبدا تد شديد الشبه بطيرهِ طويل الساقين، فضحك الجميع على نبوءته المتواضعة.

«أريد أن أرى دان مستقرًا في مكان ما. «إن الطحالب لا تنمو على حجر متدحرج»[2]، وها قد بلغ الخامسة والعشرين ولم يزل يطوف العالم بلا رابطٍ يربطه سوى هذا»، وأشارت مِغ إلى أختها.

---

(١) موسيقي وعازف كمان أمريكي من أصول نرويجية.

(٢) مثل للأشخاص كثيري الترحال من دون استقرار حقيقي، تفاديًا للمسؤوليات والأعباء.

«سيجد دان مستقَرَه في نهاية المطاف، والتجربة أفضل معلم له. لم يزل جلف الطباع، ولكنه كلما عاد وجدته تغير نحو الأفضل، ولن أفقد إيماني به يومًا. ربما لن ينجز شيئًا عظيمًا، أو يغدو ثريًا، ولكن إن تحوّل الصبي الجامح إلى رجل شريف، فسأكون راضية»، قالت السيدة جو التي تدافع دومًا عن الخروف الأسود في قطيعها.

«هذا صحيح يا أمي، سانِدي دان! فهو يعدل اثني عشر جاك وند يتبجحون بالمال والسعي نحو الثراء. سترين أنه سينجز شيئًا تفخرين به وسيأخذ الرياح من أشرعتهم»، أضاف تد الذي كبر حبه لداني بإعجاب الصبي بالرجل الجريء المغامر.

«آمل ذلك، بل أنا واثقة. إنه الفتى الذي يقدِم على أفعال متهورة ويأتي فخورًا بها؛ من قبيل تسلق قمة ماترهورن(١)، وقفْز غطسة رأسية في شلالات النياغارا، أو العثور على شذرة كبيرة. هكذا يبذر الشوفان البري، ولعله أفضل من محاصيلنا»، قال توم متأملًا، لأنه اكتسب قدرًا جيدًا من الخبرة في زراعة تلك المحاصيل منذ صار طالب طب.

«أفضل بكثير!»، قالت السيدة جو مؤكدة. «إني لأوثر أن أرسل ولديّ ليريا العالم هكذا أكثر من تركهما وحدهما في مدينة مليئة بالإغراءات، ولا شيء يفعلانه سوى هدر الوقت والمال والصحة، إن كان فيها بقية. كان على دان أن يعمل بطريقته وقد علمته الشجاعة والصبر والاعتماد على الذات. لست قلقة بشأنه بقدر ما يساورني

---

(١) إحدى قمم جبال الألب.

القلق حيال جورج ودولي في الكلية، فهما ليسا أكثر من طفلين عليهما الاعتناء بنفسيهما».

«وماذا عن جون؟ إنه يطوف أنحاء المدينة بوصفه صحفيًا، يكتب عن شتّى الأمور، من المواعظ إلى مصارعات الجوائز»، سأل توم الذي وجد أن نمط الحياة هذا أنسب لميوله من محاضرات الطب وأجنحة المشافي.

«إن لديمي ثلاثةَ حراس؛ المبادئ القويمة والميول المصقولة، والأم الحكيمة. لن تسوء به الحال، وستفيده هذه التجارب حين يبدأ الكتابة، أثقُ أنه سيفعل في وقت ما»، قالت السيدة جو بنبرتها المتنبئة، إذ كانت تتحرق شوقًا لتتحول إحدى إوزّاتها إلى طائرِ تم.

«تحدث عن جون الصغير[1] وستسمع حفيف أوراقه»، قال توم حين قطع الدربَ المشجر شابٌ حسن الهيئة بنّي العينين، يلوح بورقة فوق رأسه.

«إليكم صحيفة إيـﭬننغ تاتلر [ثرثرة المساء]! أحدثُ إصدار! قاتلٌ فظيع! فرار موظف مصرف! انفجار مصنع بارود، وإضراب عظيم لأولاد المدرسة اللاتينية!»، صخب تد وهو ذاهب لملاقاة ابن خالته بعدو رشيق لزرافة صغيرة.

---

(١) الأصل Jenkins وفي معنى الاسم أنه جون الصغير أو ابن جون، وكِلا التفسيرين ينطبقان على ديمي.

«قائد العمارة هنا، وسيقطع حبل مركبه ويعود أسرع من الريح متى استطاع إلى ذلك سبيلًا»، قال ديمي، «وهو يعيث فسادًا في كلمات الملاحين»، مبتسمًا لما يحمله من أخبار طيبة.

تحدث الجميع معًا للحظة، وانتقلت الرسالة من يد إلى أخرى لترى كل عين الخبر السعيد بوصول برندا من هامبورغ إلى المرفأ سالمة.

«سيأتي متسللًا غدًا ومعه مجموعته المعتادة من وحوش الماء والحكايا الشيقة، لقد رأيته مرحًا مسمرًا بنيًّا مثل حبة القهوة. قضى رحلة جيدة، ويأمل أن يكون معاونًا ثانيًا، إذ إن الفتى الآخر طريح الفراش برجل مكسورة»، أضاف ديمي.

«ليتني كنت مَن يجبرها»، قالت نان في نفسها بثنْيةٍ محترفة ليدها.

«كيف فرانز؟»، سألت السيدة جو.

«سيتزوج! هذه أخبار تسرّك. سيكون الأول بين الجمع يا خالتي، فقولي له وداعًا. اسمها لودميلا هلدغارد بلومنثال، من عائلة طيبة وموسرة وجميلة وفاضلة. يريد الولد العزيز موافقة عمي، ثم سيستقر ليكون برجوازيًا شريفًا. طال عمره!».

«يسرني سماع ذلك. أود أن يستقرَ أولادي مع زوجات طيبات وبيوت صغيرة جميلة. وإن سار كل شيء على ما يرام، فسأشعرُ أن عبء فرانز انزاح عن كاهلي»، قالت السيدة جو طاوية يديها برضا، إذ كثيرًا ما أحست أنها دجاجة قلقة لها ذرية كبيرة مخلوطة من الدجاج والبط بين يديها.

«وكذلك أنا»، تنهّد توم بنظرة ماكرة إلى نان. «هذا ما يحتاج إليه المرء ليبقى مستقرًا، وواجب الفتاة اللطيفة أن تتزوج بأسرع ما استطاعت، أليس كذلك يا ديمي؟».

«إن كان في العالم ما يكفي من الشبّان الصالحين. إن عدد الإناث يفوق عددَ الذكور كما تعلم، وبخاصةٍ في نيوإنغلند، وهذا ما يفسر الثقافة الرفيعة التي نحيا بها»، أجاب جون الذي يتكئ على كرسيّ أمه وهو يسرد تجربة نهاره هامسًا.

«إنه من تدابير الرحمة أعزائي، لأن الأمر يستلزم ثلاث نسوة أو أربعة لإدخال كل رجل إلى العالم، وعبره وإخراجه منه. إنكم مخلوقات مكلفة يا أولاد، ومن الحسن أن الأمهات والأخوات والزوجات يحببْنَ واجبهن ويقمْن به على أكمل وجه، وإلا فنيتُم عن وجه الأرض»، قالت السيدة جو برصانة وهي ترفع سلة فيها جوارب بالية، إذ لم يزل الأستاذ قاسيًا على جواربه، وشابهه أبناؤه في هذا.

«ما دامت هذه الحال، فإن لدى النسوة الفائضات الكثير للقيام به، والاعتناء بهؤلاء الرجال العاجزين وأُسَرهن. يتجلى ذلك لي كل يوم، وإني لسعيدة وشاكرة أن مهنتي ستجعلني عانسًا نافعة سعيدة مستقلة».

أثار تشديد نان على الكلمات الأخيرة آهات توم وضحك البقية.

«إنني أمتلئ فخرًا وسعادةً عظيمين بك يا نان، وأرجو أن أراك ناجحة جدًا، لأننا نحتاج حقًا نساءً نافعات هكذا في العالم.

يساورني إحساس أنني فقدت مكانتي وكان عليّ البقاء عازبة، لكن واجبي بدا ينحو هذا المنحى، ولست نادمة»، قالت السيدة جو وهي تضم إلى صدرها جوربًا أزرق كبيرًا باليًا للغاية.

«ولست بنادمٍ أيضًا. ماذا كنتُ سأفعل بلا أمي الغالية؟» أضاف تد بعناق بَنَوِي جعَل كلَيهما يحتجبان خلف الصحيفة التي كان غارقًا فيها للغاية للحظات قليلة.

«ولدي الحبيب، لو غسلت يديك بين الحين والآخر، لكان عناقك الحبيب أقلّ ضررًا على ياقتي. لا عليك يا حبيبي ذا الشعر الأشعث، إن بقع التراب والعشب أفضل من ألا نتعانق البتة»، وخرجت السيدة جو من ذلك الكسوف القصير وهي تبدو أكثر نضارة، رغم أن مؤخرة شعرها علقتْ بأزرار تد وياقتها تحت أذنٍ واحدة.

اندفعت جوزي، التي كانت تحفظ دورها في الطرف الآخر من الشرفة المقنطرة، فجأة بزعيق هادئ، وألقت خطاب جولييت في الضريح إلقاءً مؤثرًا جعل الأولاد يصفقون، وديزي ترتجف ونان تغمغم: «إثارة عقلية زائدة نظرًا لسنها».

«أخشى أن عليك تغيير رأيك في ذلك يا مِغ. لقد ولدت تلك الصغيرة لتكون ممثلة. لم نقدم شيئًا بهذه الجودة قط، ولا حتى في لعنة الساحرات»، قالت السيدة جو ملقيةً باقةً من الجوارب المتعددة الألوان عند قدميْ ابنة أختها اللاهثة متورّدة الخدين، عندما سقطت برشاقة عند دواسة الباب.

«إنه عقاب لي لولعي بالمسرح في صباي. أعرف الآن شعور أمي الغالية عندما توسلتُ إليها لأكون ممثلة. لا يمكنني الموافقة أبدًا، ولكن قد يتعين عليّ أن أتخلى عن أمانيّ وآمالي وخططي ثانية».

شابت صوت الأم نبرة تأنيب، جعلت ديمي يرفع أخته بهزة لطيفة وأمر حازم: «كفّي عن هذا الهراء في العلن».

«ارمِ بي يا أيها التابع، وإلا منحتك العروس المجنونة، مع أفضل ضحكاتي!» قالت جوزي وهي تحدجه مثل هُريرة مهانة.

حينما نهضت، انحنت انحناءةً رشيقة وزعمت زعمًا مؤثرًا «أن عربة السيدة ووفنغتن[1] تنتظر»، ونزلت العتبات وانعطفت عند الزاوية، وهي تجر وشاح ديزي القرمزي بأبهة خلفها.

«ألا تُفرح القلب؟ ما كنت لأطيق هذا المكان المملّ لو لم تكن عندي تلك الصغيرة التي تملأه حياة. فإن تحولت إلى الجد سأغادر المكان، فحاذر أن تقضي عليها في المهد»، قال تدي عابسًا في وجه ديمي، الذي يكتب ملاحظاتٍ موجزةً على العتبات.

«إنكما فريق. ويحتاج المرء قوةً لهزيمتكما، لكني أحب ذلك. يجب أن تكون جوزي ابنتي، وروب ابنك يا مِغ. لغمر السلام بيتك عندئذ، وغمر بيتي الهرجُ والمرج. علي الذهاب ونقل الأخبار للوري. تعالي معي يا مِغ، فقليل من المشي مفيد لنا». ووضعت السيدة جو قبّعةَ

---

(١) ممثلة إيرلندية، كانت حياتها الصاخبة أساس رواية بعنوان «پغ ووفنغتن»، للروائي البريطاني تشارلز ريد.

تد القش على رأسها، وانطلقت مع أختها تاركةً ديزي لمراقبة المافن، وتد لإغاظة جوزي، وتوم ونان لمنح مرضاهما المبجلين ربع ساعة سيئة.

# (٢)

# پارناسوس

مكتبة
t.me/soramnqraa

لقد أحسنت تسميته، وبدت الموسات في المنزل ذلك اليوم، إذ عند صعود الوافدين الجدد التلة حيتهم مشاهد وأصوات جميلة. وعند مرورهم بنافذة مفتوحة، نظروا إلى مكتبةٍ تحتلها كليو وكاليوپي، وأورانيا ومِلپوميني وثاليا، وهن يستمْتعن في الردهة حيث كان بعض الشباب يرقصون ويتدربون على أداء مسرحية؛ وإراتو تتنزّه في الحديقة مع حبيبها، وفي غرفة الموسيقى كان أپولو يقود بنفسه جوقةً متآلفةَ النغمات[١].

---

(١) ربات الإلهام أو الموسات عند الإغريق هن بنات زيوس وعددهن تسع؛ كاليوپي (الصوت الجميل) للشعر الملحمي، كليو (الشهيرة) للتاريخ، يوتيرپي (السرور) للعزف على الفلوت، ثاليا (المشاعر الطيبة) للكوميديا، وتيرپسيخوري (التي تبتهج بالرقص) للغناء الكورالي والرقص، وإراتو (الجمال) للشعر الغنائي، وپولومينا (الأغاني الكثيرة) للترانيم والتمثيل الصامت، وأورانيا (السماوية) لعلم الفلك. للمزيد راجع معجم الأساطير اليونانية والرومانية، جيني مارك ترجمة: أحمد عبد الباسط حسن، المركز القومي للترجمة، الجزء الثاني ص٣٠٠. وأپولو أحد آلهة الأولمپ الاثني عشر، وهو إله التنبؤ والكهانة وراعي الموسيقى والفنون وقائد الموسات، يعرف أيضًا باسم فويبوس أپوللون أي أپوللون الساطع. للمزيد راجع المصدر نفسه، الجزء الأول ص٢٦.

وكان أپولو العتيد صديقَنا القديم لوري، لكنه وسيمٌ ودمث كعهدِه، إذ أنضج الزمنُ الصبيّ ذا النزوات وصيّره رجلًا نبيلًا. فقد غيره كثيرًا القلق والحزن، إلى جانب الراحة والسعادة، وصارت مسؤولية تلبية رغبات جده واجبًا أدّاه أداء مخلصًا. يوافق الرخاء البعض، فيُزهرون تحت نور الشمس الساطع، ويحتاج آخرون إلى الظل، وتفيض حلاوتهم إن لامسهم الصقيع. كان لوري من الصنف الأول، وإيمي من الصنف الثاني، وهكذا كانت الحياةُ مثل قصيدةٍ منذ زواجهما، فهما ليسا متوافقَين وسعيدين فحسب، بل مخلصين نافعين ثريّين بفعل الخير الجميل الذي يحقق الكثير عندما تمضي الثروةُ والحكمة يدًا بيد مع الإحسان.

كان بيتهما مفعمًا بالجمال المتواضع والراحة، وهنا جذب المضيفُ والمضيفة المحبان للفنون الفنانين من شتّى الصنوف وأمتعاهم. أحاط لوري بما يكفي من الموسيقى، وكان راعيًا سخيًا للصف الذي يحب مساعدته أكثر. وكان لإيمي صنائعها بين الرسامين والنحاتين الصغارِ الطموحين، وازداد ولعها بفنها حين كبرت ابنتها لتشاطرها أعباءه ومسرّاته، إذ كانت إحدى اللاتي أثبتن أن النساءَ بوسعهن أن يكن زوجات وأمهات مخلصات، من غير حاجة للتضحية بالموهبة المميزة اللاتي مُنحنها، لصالحهن وصالح الآخرين.

عرفت أختاها أين تجدانها، واتجهت جو من فورها إلى المحترَف، حيث عملت الأم والابنة معًا. كانت بِس مشغولة بتمثالٍ نصفي لطفل صغير، أما أمها فوضعت اللمساتِ الأخيرة على رأسٍ جميل

لزوجها. كأن الزمن توقف عند إيمي، فالسعادة أبقتها شابةً ومنحها رغدُ العيش الثقافةَ التي تحتاج. كانت امرأةً راقية رشيقة أثبتت أن البساطةَ تعني الأناقة بذوقها الذي تختار به ثيابها، والتناسق الذي تلبسها به. قال أحدهم: «لا أميِّز أبدًا ما تلبسه السيدةُ لورنس، لكنني أشعر دومًا أنها أفضل السيدات ملبسًا في المكان».

كان حبها لابنتها جليًا، وحُقّ لها ذلك؛ لأن الجمال الذي تاقت له، بدا -في عينيها على الأقل- متجسدًا في هذه الصغيرة. ورثتْ بِس قوامَ أمها الشبيه بقوام ديانا، فلها عينان زرقاوان وبشرة بيضاء وشعر ذهبي، معقود في العقص الأنيقة ذاتها. كما كان لها أنف أبيها الوسيم وفمه، في قالب جسد أنثوي، وآه! كم كان مصدر فرح لا ينتهي لإيمي. وقد لاءمتها الميدَعةُ البسيطة الطويلة غير المزخرفة المصنوعة من الكتان، وواصلت العمل بانهماك فنان حقيقي، ساهيةً عن العينين المحبتينَ اللتين تنظران إليها، إلى أن دخلت الخالة جو تقول متحمسةً:

«كفّا عن صنع كعكات الطين يا فتاتيّ العزيزتين، واسمعا الأخبار!».

ألقت كلتا الفنانتين بالأدوات من يديهما، وحيّتا بألفةٍ المرأة التي يتعذر كبحُها، رغم اضطرام الإلهام اضطرامًا رائعًا وقد أفسد مجيئها الساعةَ الثمينة. كنّ مستغرقاتٍ تمامًا في الثرثرة عندما وصل لوري، الذي دعته مِغ، وجلس بين الأخوات بلا حاجز في أي مكان، وأصغى باهتمام إلى أخبار فرانز وإميل.

«لقد اندلعت العدوى، وستتفشّى بين قطيعك وتسلبه. كوني

متأهبة لشتى قصص الغرام والطيش في السنوات العشر القادمة يا جو. إن أولادك يكبرون وسيغطسون رأسيًا في بحرٍ مآزق أسوأ من أيّ شيء عرفته حتى الآن»، قال لوري مستمتعًا بهيئتها التي علاها مزيجٌ من الفرح والخوف.

«أعرف ذلك، وآمل أن أقدر على جرّهم والوصول بهم إلى بر الأمان. لكنها مسؤولية رهيبة، إذ سيأتون إليّ ويصرون على أن بمقدوري جعل قصص حبهم الصغيرة المسكينة تمضي على خير ما يرام. ولكني أحب هذا، وستسعد مِغ رقيقة القلب كثيرًا بهذه المشاهد»، أجابت جو، وهي تشعر بالراحة الكبيرة من ناحية ولديها، اللذين حفظهما صغر سنّهما من هذا في الوقت الراهن.

«أخشى أنها لن تستمتعَ كثيرًا عندما يبدأ نات يحوم قريبًا جدًا من ديزي. أنت تدركين معنى ذلك بلا شك. وبوصفي مرشدًا موسيقيًا فإنني مؤتمن سره أيضًا، وأود أن أعرف بماذا أشير عليه»، قال لوري بوقار.

«صه! لقد نسيت الطفلة»، قالت مشيرة نحو بِس التي عادت للعمل ثانية.

«بوركتِ! إنها في أثينا، ولا تسمع كلمة. كان ينبغي لها أن تنهض وتخرج. عزيزتي، خذي الصغير لينام، واخرجي في نزهة. إن الخالة مِغ في الردهة، اذهبي واعرضي عليها اللوحات الجديدة حتى نأتي»، أضاف لوري، ناظرًا إلى ابنته الطويلة، مثلما نظر بِغماليون إلى غالاتيا، إذ عدّها أجمل تماثيل البيت.

«حسن يا بابا، ولكن أخبرني من فضلك إن كانت جيدة»، ووضعت بِس أدواتها مذعنةً، وهي تنظر إلى التمثال النصفيّ نظرة مترددة.

«ابنتي الغالية، إن الحق يجبرني على الاعتراف بأن هذه الوجنةَ أكثر امتلاء من الأخرى، والخصل على سحنة الرضيع تشبه أبواقًا، وعدا ذلك فإنه يضارع ملاكَيْ رافائيل المغنيين[1]، وأنا فخور به».

كان لوري يضحك وهو يتكلم، لأن هذه المحاولات الأولى شبيهة بمحاولات إيمي الأولى، وكان مستحيلًا النظر إليها باعتدال مثلما تفعل الأم المتحمسة.

«لست ترى جمالًا في شيء غير الموسيقى»، أجابت بِس، هازةً شعرها الذهبي الذي كان الشيء اللامع الوحيد في أضواء الشمال الباردة في المحترفِ الكبير.

«حسنٌ، إنني أرى الجمال فيك يا عزيزتي. وما الفن إن لم تكونيه؟ أتمنى أن أضيف مزيدًا من الطبيعة فيك، وأن تبتعدي عن هذا الصلصال والرخام الباردين إلى ضوء الشمس، لترقصي وتضحكي مثلما يفعل الآخرون. أريد فتاة من لحمٍ ودم، لا تمثالًا جميلًا يرفل في مَيدعة رمادية، وينسى كل شيء إلا عملَه».

التفّتْ يدان مغبرتان حول عنقه وهو يتكلم، وقالت بِس جادة، مخللةً كلماتها بلمساتٍ رقيقة من شفتيها:

(١) ملاكين في خلفية لوحة «رافائيل مادونا تحت الظلة».

«أنا لا أنساك أبدًا يا بابا، لكني أودّ صنع شيء جميل تفخر بعده بي. تطالبني ماما كثيرًا بأن أتوقف، ولكننا حين ندخل هنا ننسى العالم في الخارج، إننا مشغولتان وسعيدتان جدًا. سأذهب الآن وأتنزّه وأُغنّي، وأكون فتاة تسعدك». غادرتْ بس الغرفة بعد أن ألقت بالمئزر، وكأنها أخذت كل الضوء معها.

«سررتُ لقولك ذلك. إن الصغيرة الحبيبة منهمكة للغاية في أحلامها الفنية لشابة في عمرها، وذلك خطئي، لكني أميل إليه بقوة، وأنسى الحكمة»، تنهدت إيمي، وهي تغطي الطفل بحرص بمنشفةٍ مبلولة.

«أظن أن طاقة الحياة في صغارنا أعذب شيء في العالم، لكني أحاول تذكُّر ما قالته أمي مرةً لمِغ، ينبغي أن تكون للآباء حصة في تربية الصبيان والبنات، لذا أترك تد لأبيه ما استطعت، ويعيرني فرتز روب، الذي يريحني ويجديني نفعًا أسلوبه، مثلما تنفع عواصفُ تد أباه. والآن نصيحتي إليك يا إيمي، أن تجعلي بِس تهجر كعكات الطين لبعض الوقت، وتتعلم الموسيقى مع لوري، ولن تكون عندها أحادية الموهبة، ولن يغار هو».

«مرحى، مرحى! يا لك من دانيال، دانيال حكيم للغاية![1] قال لوري شديد الابتهاج. «عرفت أنك ستساعديني وتقولين كلمة في

---

(١) إشارة إلى قول شايلوك في مسرحية تاجر البندقية: «ليس قاضينا إلا دانيال ذلك النبي الكريم. أجل هو دانيال. ألا أيها القاضي المليء بالحكمة على نضارة عودك، ما أجل قدرَك في نفسي!»، ترجمة خليل مطران، مؤسسة هنداوي.

صالحي يا جو. أشعر بشيء من الغيرة من إيمي، وأريد نصيبًا أكبر لي في ابنتي. هيا يا سيدتي، دعيني آخذها هذا الصيف، وسأعيدها لك ولفنّك الرفيع السنة القادمة عند ذهابنا إلى روما. أليست هذه صفقة عادلة؟».

«أوافق، ولكن في تجربة هوايتك، طبيعة تمتزج بها الموسيقى، لا تنسَ أن ابنتنا بِس، رغم أنها لم تتعدَّ الخامسة عشرة، فإنها أكبر من معظم قريناتها، ولا يجدر معاملتها معاملة الطفلة. إنها غالية جدًا على قلبي، وأود إبقاءها نقيةً جميلة دومًا كالرخام الذي تهواه».

تحدثت إيمي بأسى وهي تنقل أنظارها في الغرفة التي قضت فيها ساعات كثيرة سعيدة مع صغيرتها العزيزة.

««العين بالعين» كما اعتدنا أن نقول عندما كان كل ما نفكر فيه امتطاء إِلِن تري[1]، أو انتعال أحذيةٍ باللون الخمري»، قالت جو بمرح، «لذا عليكما أن تتقاسما ابنتكما بينكما، وتريا من يؤثر فيها أكثر».

«سنفعل»، أجاب الوالدان المحبّان، ضاحكيْن على الذكريات التي أثارها مَثَل جو.

«كم قضيت وقتًا ممتعًا في الوثب على أغصان شجرة التفاح الكبيرة تلك! لم يمنحني حصان حقيقي نصف تلك البهجة أو

(١) غصن شجرة التفاح التي اعتادت جو وإيمي امتطاءها وتخيلها حصانًا في الجزء الأول من الثلاثية (نساء صغيرات).

مكتبة 1074

التمرين»، قالت إيمي، وهي تطل من النافذة العالية وكأنها رأت البستان الحبيب القديم والفتيات الصغيرات يلعبن فيه.

«وكم لهوت بذاك الحذاء القديم!»، ضحكت جو، «عندي رفاته، فقد أبلاه الولدان. لكني ما زلت أحبه، وأحب أن أتبختر به تبخترًا مسرحيًا إن استطعت».

«أحَبُّ ذكرياتي إليّ الالتفاف حول مدفأة السُرُر[1] والنقانق. كم لهونا! وكم يبدو ذلك منذ زمن بعيد!»، قال لوري ناظرًا إلى المرأتين أمامه، كأنه يجد صعوبة في تصديق أنهما كانتا إيمي الصغيرة وجو المشاكسة.

«لا تقل إننا هرمنا يا سيدي. لقد أزهرنا فحسب، وصنعنا باقة جميلة جدًا محاطين ببراعمنا»، أجابت السيدة إيمي، وهي تنفض ثنياتِ ثوبها الوردي المصنوع من الموسلين، بهيئة الرضا الأنيقة التي اعتادت أن تبديها الفتاة الصغيرة كلما لبست ثوبًا جديدًا.

«ولا حاجة لذكْرِ أشواكنا وأوراقنا الميتة»، أضافت جو متنهدةً، لأن الحياة لم تكن يومًا سهلة عليها، ولم تزل تعاني متاعب داخلية وخارجية.

«تعالي واشربي شيئًا من الشاي يا عجوزي العزيزة، ولنرَ ما يفعله الشباب. إنك تعبة، وتريدين أن "تُسندي بأقراص الزبيب، وتنعشي بالتفاح"[2]، قال لوري مادًا ذراعًا لكل أخت، وقادهما

---

(١) كانون نحاسي ذو غطاء يستخدم لتدفئة السرر قبل الإيواء إليها. (المورد).

(٢) «أسندوني بأقراص الزبيب، وأنعشوني بالتفاح، فإني مريضة حبًا». نشيد الأنشاد، ٢:٥.

لشرب شاي العصرية، التي انسابت بحرية في پارناسوس مثل رحيق الأولّين.

وجدوا مِغ في الردهة الصيفية، وهي غرفة فسيحة بهيجة، يملؤها ضوء الشمس وحفيف الأشجار، إذ تطل النوافذ الثلاث الكبيرة على الحديقة. كانت غرفة الموسيقى الكبيرة في أحد جانبيها، وفي الجانب الآخر، في مختلَى عميقٍ علقت فيه ستائر بنفسجية أقيم معبد بيتي صغير. علقت ثلاث لوحات شخصية، وانتصب تمثالان نصفيان رخاميان في الزوايا، وأريكة وطاولة بيضوية، عليها مزهرية، كانت قطع الأثاث الوحيدة التي ضمتها الزاوية. كان التمثالان لجون بروك وبِث -من صنع إيمي- وكلاهما صورتان أنيقتان، وكلاهما مفعم بالجمال الهادئ الذي يستدعي دومًا مقولة «الصلصال يمثل الحياة، والجص يمثل الموت، والرخام يجسد الخلود». على اليمين، عُلّقت صورة شخصية للسيد لورنس، لأنه مؤسس البيت، يعلو وجهه مزيجٌ من الكبر والخير، جديدة وجذابة مثلما أمسك بالفتاة جو وهي تعجب بها. وفي مقابلها كانت لوحة العمة مارش -إرث إيمي- لها عمامة فاخرة، وأكمام هائلة، وقفازان طويلان متقاطعان بأناقة على صدر فستانها المصنوع من الأطلس بلون البرقوق. لقد رقق الزمن قسوة مظهرها، والنظرة الثابتة للرجل المهذّب العجوز المقابل لها تفسر الابتسامة المتكلفة الدمثة على الشفتين اللتين لم تنبسا بكلمة قاسية لسنوات.

وفي مكان الصدارة، وضوء الشمس الدافئ يسطع عليها، وزينة خضراء حولها دومًا، كان وجه مارمي الحبيب، صوّره بمهارة

وامتنان رسام بارع صادقته أيام كان فقيرًا لا يعرفه أحد. وبدا وجهها مفعمًا بالحياة كأنها تبتسم لبناتها، قائلة متهللة: «اسعدن، فأنا ما زلت معكن».

وقفت الأخوات الثلاث للحظةٍ ينظرن إلى الصورة الحبيبة بعيون ملؤها الإجلال الرقيق، والشوق الذي لم يفارقهن قط، لأن هذه الأم النبيلة عنت الكثير لهن وليس لأحد أن يحل محلها أبدًا. لقد رحلت منذ عامين فقط لتعيش وتحب من جديد، مخلّفة ذكرى حلوة لأنها مصدر إلهام وراحة لكل العائلة. شعرن بهذا وهن يقتربن من بعضهن بعضًا، وعبّر عنه لوري بالكلمات حين قال بجد: «لن أتمنى شيئًا لابنتي أفضل من أن تصبح امرأة مثل أمنا. وستصبح كذلك، بمشيئتك يا رب، وإن استطعتُ فعل ذلك، لأني أدين بأفضل ما لدي لهذه القديسة الحبيبة».

عندئذ صدح صوت جميل بغناء «السلام المريمي» في غرفة الموسيقى، ورددت بِس دون أن تدري، صلوات أبيها لها كأنها أذعنت لأمنياته طائعة. الصوت الرقيق الذي اعتادت أن تغني فيه مارمي أعاد المستمعين إلى العالم من السعي الخاطف خلف الأحبة والراحلين، فجلسوا معًا قرب النوافذ المفتوحة يستمتعون بالموسيقى، حينما جلب لهن لوري الشاي، جاعلًا المأدبة الصغيرة بهيجة بالاهتمام الرقيق الذي أولاه لها.

دخل نات مع ديمي، وسرعان ما تبعهما تد وجوزي، والأستاذ وروب تابعه المخلص، وكلهم متلهفون ليعرفوا المزيد من أخبار

«الأولاد». نشطت قرقعة الأكواب والألسنة، ورأت الشمس الغاربة جمعًا سعيدًا يجلس في الغرفة المنيرة بعد انقضاء الأعمال المختلفة للنهار.

غزا الشيب شعر الأستاذ باير، لكنه قوي وأنيس كعادته، إذ عنده العمل الذي أحبَّ، وأداه بإخلاص شديد جعل الكلية بأكملها تشعر بتأثيره. وكان روب مثله بقدر ما يمكن لصبي في مثل سنه، وقد سُمّي «الأستاذ الصغير»، فقد أحب هو أيضًا الدراسة وقلد أباه المبجل كثيرًا بشتى الطرق.

«حسنٌ، يا حبيبة القلب، سنستعيد أولادنا ثانية، كليهما، وحق لنا أن نفرح فرحًا عظيمًا»، قال السيد باير، جالسًا بجانب جو بوجه مشرق ومصافحة تهنئة.

«أوه يا فرتز، إنني سعيدة من أجل إميل، وإن أثنيت على خطبة فرانز أيضًا. أتعرف لودميلا؟ أهو اختيار حكيم؟»، سألت السيدة جو، مناولة إياه كوب شايها ومقتربة منه، كأنها ترحب بملاذها في السراء والضراء.

«كل شيء على ما يرام. لقد رأيت الصبية عندما ذهبت لإقرار فرانز. كانت طفلة عندئذ، لكنها عذبة وفاتنة. بلمنثال راض، كما أحسب، وسيكون الصبي سعيدًا. إنه ألماني قح ولن يكون سعيداً إلا في بلاده الأم، لذا سيكون صلة وصل بين العالمين القديم والجديد، وهذا يسعدني كثيرًا».

«وسيكون إميل المعاون الثاني في الرحلة القادمة؛ أليس هذا

برائع؟ إنني سعيدة أن كلا ولديك قد أبليا حسنًا، لقد تخليت عن الكثير من أجلهما وأمهما. إنك تراه أمرًا صغيرًا يا عزيزي، لكنني لا أنساه أبدًا»، قالت جو ويدها في يده بحب كأنها عادت فتاة وفرتز قد جاءها متوددًا.

ضحك ضحكته المبهجة، وهمس من خلف مروحتها: «لو لم آتِ إلى أمريكا من أجل الصبيين المسكينين، لما وجدت امرأتي جو. لقد غدت الأوقات العصيبة حلوة الآن، وأشكر الرب على كل ما فقدته، لأني ظفرت بنعمة حياتي».

«غزل! غزل! هذا غزل رهيب في الخفاء»، صاح تدي، مختلسًا النظر من خلف المروحة في تلك اللحظة المثيرة، مسببًا الاضطراب لأمه والبهجة لأبيه، إذ لم يخجل الأستاذ قط من حقيقة أنه لم يزل يرى زوجته أحب امرأة في العالم. أخرج روب أخاه في الحال من إحدى النوافذ، فرآه يقفز داخلًا من الأخرى، وأغلقت السيدة جو مروحتها وأمسكتها متأهبة لصفع براجم ابنها المشاكس إن اقترب منها ثانية.

اقترب نات مجيبًا طلب السيد باير للمعقة، ووقف أمامه بوجه ملؤه الحب والاحترام الذي يحمله للرجل النبيل الذي قدّم له الكثير.

«الرسائل جاهزة من أجلك يا بني. إنهما صديقان قديمان لي في لِيپزغ، سيكونان صديقين لك في الحياة الجديدة. من الأفضل أن تتعرف عليهما، لأن قلبك سينفطر من الحنين في البدء يا نات، وستحتاج من يواسيك»، قال الأستاذ معطيًا إياه عددًا من الرسائل.

«شكرًا لك يا سيدي. أجل، أحسب أني سأكون وحيدًا للغاية إلى أن أبدأ، ثم ستواسيني موسيقاي والأمل بالنجاح»، أجاب نات، الذي تطلّع إلى مغادرة أصدقائه والتعرف على أصدقاء جدد وخشي ذلك في آنٍ معًا.

لقد غدا رجلًا، لكن العينين الزرقاوينِ كانتا صادقتين كعادتهما، ولم يزل الفم ضعيفًا قليلًا، رغم الشارب المشذّب بعناية فوقه، والجبهة العريضة فضحت بجلاءٍ أكثر من أي وقتٍ سابق طبع الشاب في حب الموسيقى. اعتبر نات المتواضع والمحبّ والمطيع نجاحًا سارًا للسيدة جو رغم أنه ليس خارقًا. لقد أحبته وآمنت به، ووثقت أنه سيبذل قصارى جهده، لكنها لم تتوقع له العظمة بأي صورة، إلا إن صيّره حافزُ التدريب في الخارج والاعتماد على النفس فنانًا أفضل ورجلًا أقوى مما هو عليه الآن.

«لقد علّمت كل حاجياتك، أو علّمتها ديزي بالأحرى، وبعد أن تجمع كتبك سنهتم بأمر حزم الأمتعة»، قالت السيدة جو التي اعتادت تجهيز الأولاد لكل أنحاء الكرة الأرضية ولم تعد الرحلة إلى القطب الشمالي بذات شأن عندها.

احمرّ وجه نات لدى ذكر ذلك الاسم، أم كان ذاك النور الأخير لغروب الشمس على وجنتيه الشاحبتين؟ ودق قلبه بسعادة لدى تخيله ديزي تعمل على تطريز حرفي النون والباء[1] على جواربه ومناديله المتواضعة، إذ عشق نات ديزي، وكان حلم حياته النفيس

(١) الحرفان الأولان من اسمه نات بليك.

أن يجد لنفسه مكانًا بوصفه موسيقيًا ويفوز بهذا الملاك زوجة له. لقد نفعه هذا الأمل أكثر مما فعلت مشورة الأستاذ، ورعاية السيدة جو أو مساعدة السيد لوري الكريمة. فلأجلها عمل وانتظر وأمل، عاثرًا على الشجاعة والصبر في الحلم بذلك المستقبل السعيد عندما تقيم له ديزي بيتًا صغيرًا وهو يعزف على الكمان جالبًا المال إليها.

علمت السيدة جو بهذا، ورغم أنه لم يكن بالرجل الذي ستختاره لابنة أختها، فقد أحست أن نات يحتاج الرعاية المحبة والحكيمة التي ستمنحها له ديزي، ومِن غيرها ثمة خطرٌ في أن يغدو من الرجال اللطفاء الفاشلين الهائمين على وجوههم لافتقارهم إلى المرشد المناسب الذي يوجههم في العالم توجيهًا آمنًا. استاءت السيدة مِغ بلا ريب من حبّ الصبيّ المسكين، ولن تسمح بتزويج ابنتها الحبيبة إلا إلى أفضل الرجال على وجه البسيطة. كانت لطيفة جدًا، لكنها حازمة بقدر ما يمكن للرقيقين أن يكونوا كذلك. فهرع نات إلى السيدة جو لمواساته، وهي التي تنافح عن مصلحة أولادها بكل إخلاص. لقد بدأت مجموعة جديدة من المخاوف وقد كبر الأولاد المذكورين آنفًا، ولم ترَ نهاية للقلق والمرح في علاقات الحب التي أخذت تتبرعم بين جمعها. كانت السيدة مِغ عادةً أفضل حليف وناصح لها، لأنها تهوى قصص الحب الآن مثلما عشقتها عندما كانت صبيةً متوردة. لكنها في هذه الحالة تشددت، ولن تسمع كلمة استعطاف. «ليس نات قويًا بما يكفي، ولن يكون، ولا أحد يعرف عائلته. إن حياة الموسيقي صعبة؛ وديزي صغيرة جدًا، وقد يثبت الزمن بعد خمس سنين أو ست كلا الأمرين. لنرَ ماذا سيصنع

منه الغياب». وكانت هذه نهاية الأمر، فالبجعة الأم تزداد قوتها إن استُفِزت، رغم أنها تنقر آخر ريشاتها وتمنح آخر قطرة من دمائها لصغارِها الغالين[1].

دار هذا في ذهن السيدة جو عندما نظرت إلى نات وهو يحدث زوجها عن لِـﭙزغ، وعزمت على تسوية الأمور معه قبل سفره، فقد اعتادت سماع أسرار أولادها، والحديث معهم بحريّة عن الابتلاءات والإغراءات التي تكتنف حياة الجميع في البداية، وكثيرًا ما تفسدها، لافتقارهم إلى الرأي السديد في اللحظة المناسبة.

وهذا أول واجبات الآباء، وينبغي ألا تمنعهم الرقة الزائفة من الرعاية والرقابة، والتحذير اللطيف الذي يجعل من معرفة النفس وضبطها بوصلة الشباب وموجههم وهم يغادرون المرسى الآمن للبيت.

«أفلاطون وتلاميذه قادمون»، قال تدي الوقح، عندما دخل السيد مارش يحيط به عدد من الشبّان والشابات، إذ كان الرجل العجوز الحكيم محبوبًا من الجميع، وكثيرًا ما مدّ يد العون لحشده، فظل كثير منهم ممتنًا له طوال حياته على ما قدّمه من عون للجسم والروح.

---

(١) عُدّت البجعة الأم في العصور الوسطى رمزًا لحب الأم والتضحية من أجل الأسرة، إذ يقال إنها تجرح نفسها وتطعم دمها لصغارها إن لدغتهم الحية كي يعودوا إلى الحياة، حتى إن كان يعني ذلك موتها. وقد صُوّر هذا المشهد على الزجاج المعشّق في الكنائس والحلي ونُحت في الحجر لتزيين المقابر.

تقدمتْ بِس نحوه في الحال، فمنذ موت مارمي، كان الجد محل رعايتها، وكانت بهجةً للعين رؤيةُ الشعر الذهبي ينحني على الفضي عندما قرّبت كرسيه المريح وخدمتْه بابتهاج ورقة.

«إن شاي الفن جاهز هنا دومًا يا سيدي، أتود أن تشرب شيئًا أم تتناول من هذه الأطايب؟»، سأل لوري الذي كان يحمل السكّرية في يد، وفي الأخرى طبقًا من الكيك، لأن تحلية الفناجين وإطعام الجائعين عمل يحبّه.

«لا شيء منهما، شكرًا لك. لقد اعتنتْ بي هذه الصغيرة»، واستدار السيد مارش نحو بِس، وقد جلستْ على إحدى ذراعي كرسيّه حاملة كأسًا من الحليب الطازج.

«لتعش طويلًا وتفعل ذلك يا سيدي، وسأكون هنا لأرى التكذيب الجميل لأغنية (لا يعيش الشاب والهرِم معًا)[1]!»، أجاب لوري مبتسمًا للاثنين.

«الهرِم النكِد المزاج يا بابا، وهذا يشكل كل الفرق في العالم»، قالت بِس بسرعة، لأنها محبة للشعر وتقرأ أفضله.

««أرأيت زهورًا يانعة

تكبر في سرير مثلج لكاهن؟»»[2].

(١) من قصيدة تنسب إلى شكسبير.

(٢) من قصيدة لرتشارد كراشو، والكاهن يعني به نفسه.

اقتبس السيد مارش عندما دخلت جوزي وجلستْ على الذراع الأخرى لكرسيه، وهي تبدو مثل وردة صغيرة شائكة، إذ كانت تخوض نقاشًا حادًا مع تد، ومُنيتْ بهزيمة.

«أيتعين على النساء أن يُطعْن الرجال دومًا ويقلن إنهم الأذكى، لا لشيء إلا لأنهم الأقوى يا جدي؟»، قالت ناظرةً بغضب نحو ابن خالتها، الذي جاء يتبختر وابتسامة مستفزة تعلو وجهه الصبياني الهازل على الدوام فوق القوام الطويل.

«حسنٌ يا عزيزتي، هذا العرف قديم الطراز، وسيستغرق تغييره بعض الوقت. لكني أظن أن ساعة النساء قد حانت، وأرى أن على الأولاد أن يبذلوا قصارى جهدهم، لأن الفتيات يواكبنهم، وقد يبلغن هدفهن أولًا»، أجاب السيد مارش، متمعنًا برضا أبوي في الوجوه المشرقة للشابات اللاتي كن من أفضل التلاميذ في الكلية.

«إن الأتالانتيّات الصغيرات المسكينات تلهيهن أو تؤخّرهن عقبات تُلقى في طريقهن -وهي ليست تفاحات ذهبية على أية حال- لكني أرى أن لهن فرصة حقة إن تعلمن الجري أسرع»[1]، ضحك العم لوري، ممسدًا شعر جوزي المشعث، الذي انتصب مثل فراء هريرة غاضبة.

---

(١) أتالانتي في الأساطير الإغريقية صيادة عداءة، نبذها أبوها عند ولادتها لأنه أراد إنجاب الذكور فقط. وعندما ألح عليها لاحقًا لتتزوج اشترطت أن تتزوج بمن يفوز عليها في الجري.

«لن توقفَني براميل كاملة من التفاح حين أنطلق، ولن يعترِض سبيلي اثنا عشر تِد، ولو حاولوا. سأثبت له أن المرأة تجيد التمثيل مثل الرجل، إن لم تفقْه في ذلك. لقد حدث ذلك، وسيحدث ثانية، ولن أُقر يومًا أن عقلي ليس بجودة عقله، رغم أنه قد يكون أصغر»، قالت الشابة الثائرة.

«إن هززت رأسكِ على هذا النحو العنيف، فسترجين دماغك، ولو كنت مكانك لاعتنيت به»، أخذ تِد يغايظها.

«ما الذي أشعل هذه الحرب الأهلية؟»، سأل الجد بتأكيد لطيف على الصفة، ما حدا بالخصمين إلى التخفيف من حماسهما قليلًا.

«حسن، كنا نتابع قراءة الإلياذة عندما وصلنا إلى المقطع الذي يخبر فيه زيوس يونو[1] ألاّ تسأله عن خططه وإلا ضربها. فاستاءت جو [جوزي] لأن يونو صمتتْ خانعة. قلت لا بأس بهذا، وإني متفق مع العجوز بأن النساءَ لا يعرفن الكثير ويجب أن يطعْن الرجال»، شرح تد ومستمعوه مسرورون.

«لتفعل الربات ما شئن، لكن نساء الإغريق وطروادة جبانات إن اهتممن لأمر الرجال الذين لا يمكنهم خوض معاركهم بأنفسهم ويجب أن تساعدهم پالاس[2] وڤينوس ويونو، أثناء ذهابهم ليمنوا

---

(١) المقصود بها هيرا في الأساطير الإغريقية، وتعرف باسم يونو في الأساطير الرومانية وفي بعض ترجمات الإلياذة.

(٢) «لقب غير معروف أصله منح للإلهة أثينا، إلهة الحرب العذراء، والمعاني المقترحة له تشمل الملوّحة (بالسلاح) أو العذراء». للمزيد، انظر معجم الأساطير اليونانية والرمانية، ص٣٥٣.

بالهزيمة. وماذا عن وقوف جيشين وجلوس رجالهما أثناء تراشق بطلين بالحجارة؟! أنا لست مكْبرة لهومرك العجوز. سيكون بطلي ناپليون أو غرانت».

كانت سخرية جوزي طريفة كأنما يسخر طائر طنان من نعامة؛ فضحك الجميع عندما ازدرت الشاعر الخالد وانتقدت الآلهة.

«أما آلهة الحرب عند ناپليون فقضت وقتًا ممتعًا أليس كذلك؟ هذا أسلوب الفتيات في الجدال، يبدأن من نقطة ثم ينتقلن إلى أمر آخر»، سخرَ تد.

«مثل الشابة في حديث جونسن التي «لم تكن حاسمة بل متذبذبة»»[1]، أضاف العم لوري مستمتعًا بالمعركة غاية المتعة.

«كنت أتحدث عنهم بوصفهم جنودًا. ولكن إن جئت إلى جانب المرأة، ألم يكن غرانت زوجًا طيبًا والسيدة غرانت امرأةً سعيدة؟ لم يهددها بالضرب إن سألته سؤالًا طبيعيًا، وكان ناپليون قادرًا على القتال ولا يحتاج إلى رعاية منيرڤا، رغم أنه أخطأ بحق جوزفين. لقد كانوا جمعًا من الأغبياء، من پاريس المتأنق إلى أَخيل المتجهّم في سفنه، ولن أغيّر رأيي مقابل كل هكتور وأغاممنون في الإغريق»، قالت جوزي من دون استسلام.

«جليٌّ لنا أن بوسعكما القتال مثل طرواديين، وسنكون نحن الجيشين الطائعين المتفرجين أثناء مبارزتكما أنت وتِد»، قال العم لوري، مقلدًا وقفة محارب متكئ على رمحه.

---

(١) إشارة إلى شابة يتحدث عنها سَمويل جونسن في مذكراته.

«أخشى أن علينا التخلي عن ذلك لأن پالاس توشك أن تنزل وتأخذ هكتورنا»، قال السيد مارش مبتسمًا حينما جاءت جو لتذكّر ابنها باقتراب موعد العشاء.

«سنتبارز لاحقًا بعدم وجود ربة تقاطعنا»، قال تدي وهو يستدير خارجًا بنشاط غير معهود، متذكرًا الجائزة التي تنتظره.

«لقد هزمتك كعكة مفن وحقِّ الرب!»، قالت جوزي خلفه مسرورةً بالفرصة لاستخدام العبارة الكلاسيكية المحرمة على جنسها.

لكن تد سددَ سهمًا پارثينيًا عندما انسحب مطيعًا، مجيبًا بعبارة بالغة الفضيلة: «الطاعة أول واجبات الجندي».

لحقت به جوزي، متكئة على امتياز المرأة في أن يكون لها الكلمة الفصل، لكنها لم تقل الكلامَ القاسي الذي كان على شفتيها لأن شابًا شديد السمرة يلبس بزةً زرقاء جاء واثبًا العتبات محييًا بمرح: «مرحى! مرحى! أين الجميع؟».

«إميل! إميل!»، هتفت جوزي، وفي لحظة قفز عليه تد، وأنهى العدوّان السابقان نزاعهما بترحيب مرح للوافد.

نُسي أمرُ المفن، وسحب الصغيران قريبهما مثل زورقي سحب صاخبين يجران سفينة تجارية رائعة، وعادا إلى الردهة حيث قبّل إميل كل النساء وصافح كل الرجال عدا خاله، إذ عانقه مثلما جرت العادة الألمانية القديمة، مبهجًا الناظرين.

«لم أحسب أن بوسعي الخروج اليوم، ولكن سنحت لي الفرصة، فقصدت پلم القديم من فوري. لم أجد أحدًا هناك، لذا أبحرت بقاربي وشققت طريقي نحو پارناسوس، وها هنا وجدتكم جميعًا. بوركتْ قلوبكم، يا لفرحتي برؤيتكم جميعًا!»، قال البحار مبتسمًا لهم، وقد وقف مباعدًا بين ساقيه كأنه لم يزل يشعر بسطح السفينة المهتز تحت قدميه.

«عليك أن تقول «لترتعد أضلاعي»[1] بدلاً من «بوركت قلوبكم» يا إميل؛ فذلك ليس بقول الملاحين. أوه، يا لرائحة السفن والقطران الجميلة التي تفوح منك!»، قالت جوزي، وهي تتشمم فيه بفرح عظيم روائح البحر الجميلة التي جلبها معه. كان هذا قريبها الأثير عندها، وكانت مدللته، وقد عرفتْ أن الجيوب المنتفخة للسترة الزرقاء تحوي كنوزًا من أجلها.

«قفي يا بحارتي، ودعيني أسبر الأعماق قبل أن تغوصي»، ضحك إميل وقد فهم عناقها المحب فأبعدها بيد واحدة، وأخرجَ بالأخرى عددًا من الصناديق والرزم الصغيرة الغريبة كتب عليها أسماء مختلفة، وقدّمها بعبارات لائقة، وأثار مزيدًا من الضحك، فقد كان إميل مزوحًا.

«هذا قَلس[2] سيثبّت زورقنا الصغير لخمس دقائق»، قال ملقيًا قلادةً من المرجان الزهري الجميل على رأس جوزي، «وهذا شيء

(١) من معاني timbers أضلاع المركب، وهذه عبارة يستخدمها البحارة والقراصنة للتعبير عن الدهشة أوالعجب أو الاستياء أوالخوف.

(٢) القلس حبل ضخم تُشدّ به السفينة إلى البر.

أرسلته الحوريات إلى أونداين»[1]، أضاف وهو يناول بِس سليكة من أصداف اللؤلؤ في سلسلةٍ فضية. «حسبت أن ديزي تؤْثر الكمان، وسيراها نات جميلة»، واصل البحار ضاحكًا، وهو يفك مشبكًا مزركشًا أنيقًا له هيئة كمان.

«أعلم أنها ستحبّه وسآخذه لها»، أجاب نات لما ذهب سعيدًا بالمهمة، وواثقًا من عثوره على ديزي، رغم فشل إميل في ذلك.

ضحك إميل، وأخرج دبًا منحوتًا بدقةٍ يفتح رأسه فتظهر محبرة فاخرة. فقدم هذا إلى الخالة جو منحنيًا.

«أعلم حبكِ لهذا الحيوان الجميل، فجلبتُ هذه لقلمك».

«جيد جدًا يا قائد العمارة! جرّب ثانية»، قالت السيدة جو، وقد أفرحتْها الهدية كثيرًا، وجعلت الأستاذ يتنبأ بخروج «أعمال شكسپير» من أعماقها، وسيكون هذا إلهامًا عظيمًا من الدب المحبوب.

«ولما كانت الخالة مِغ تعتمر قبّعات، رغم شبابها، فقد جعلت لودميلا تنتقي لي شيئًا من المخرمات. أرجو أن تعجبك»، وأخرج من ورقٍ رقيق بعض الأشياء الشفافة، وضعت إحداها مثل شبكةٍ من رقائق الثلج على شعر السيدة مِغ الجميل.

---

(١) شخصية من التراث الأوروبي، وهي حورية ماء تتحول إلى امرأة إن وقعت في الحب وتموت إن لم يكن الرجل مخلصًا لها. هذه نسخة مما يعرف باسم النيريدات في الأساطير الإغريقية، وهن خمسون حورية يظهرن جماعة دومًا، للمزيد انظر معجم الأساطير اليونانية والرومانية، الجزء الثاني ص ٣٥٨-٣٥٩.

«لم أجد شيئًا أنيقًا يليق بالخالة إيمي، لأن عندها كل ما تريد، لذا أحضرت رسمة صغيرة ذكرتني بها دومًا حين كانت بِس طفلة»، وقدم لها مدلاةً عاجية بيضوية، رُسم عليها مادونا شقراء الشعر، وطفل متورد ملفوف بردائها الأزرق.

«يا للروعة!»، قال الجميع، وعلقتْها الخالة إيمي في الحال حول عنقها بشريط أزرق أخذته من شعر بِس، وفتنت بهديتها التي ذكّرتها بأسعد سنة في حياتها.

«والآن، أثني على نفسي لأني جلبت الشيء المناسب لنان، أنيق من غير بهرجة، مثل علامة تلائم الطبيبة للغاية»، قال إميل وهو يعرض مفتخرًا زوجًا من أقراط اللابة لهما هيئة جمجمتين صغيرتين.

«مخيفة!»، وأشاحت بِس -التي تكره الأشياء القبيحة- بنظرها إلى أصدافها الجميلة.

«لن تضع أقراطًا»، قالت جوزي.

«حسنٌ، ستسرّ بثقب أذنيك إذن. لا تسعد أبدًا بقدر سعادتها بفحص أصحابها وعيادتهم وهي تحمل مشرطًا»، قال إميل بهدوء، «لدي الكثير من المتاع في صندوقي لكم أيها الرفاق، لكني عرفت أني لن أنعم بالراحة إلا إن أفرغت حمولتي للفتيات. قصّوا عليّ كل الأخبار»، وجلس البحار على أفضل طاولات إيمي ذات السطح الرخامي، وأرجح ساقيه وتحدث بسرعة عشر عقدٍ في الساعة، حتى أخذتهم الخالة جو جميعًا إلى حفل شاي عائليّ كبير على شرف قائد العمارة.

(٣)

# مأزق جو الأخير

واجه آل مارش عددًا كبيرًا من المفاجآت في مسيرة مهنهم المختلفة، لكن أكبرها كانت عندما لم تتحوّل البطة القبيحة إلى طائرٍ تم، بل إلى إوزّة ذهبية وجد بيضها الذهبي الأدبي سوقًا غير متوقعة، فتحقق خلال عشر سنوات أكثر أحلام جو جموحًا وتقديرًا. لم تدرك قط كيف حدث ذلك ولماذا، ولكنها وجدت نفسَها -على حين غرةٍ- مشهورةً شهرة بسيطة، وفي جيبها ثروة صغيرة كافية لإزالة عقباتِ الحاضر وضمان مستقبل أولادها.

بدأ ذلك في عام صعب سار فيه كل شيء في پلمفيلد على نحوٍ خاطئ، وكان الوقت عصيبًا فقد تراجعت المدرسة. وأنهكتْ جو نفسها في العمل وقاست مرضًا طويلًا، وكان لوري وإيمي خارج البلاد، ومنعت آل باير عزةُ النفس من طلب العون من الآخرين حتى أقرب المقربين كهذين الزوجين الكريمين. غمر اليأسُ جو لما آلت إليه الأمور، فاعتكفتْ في حجرتها، ثم لجأت إلى الكتابة التي أُهملتها طويلًا مادامت الأمر الوحيد الذي يسعُها فعله ليساعدها في

سد الثغرات في الدخل. كان أحد الناشرين يطلب كتابًا للفتيات، فخربشت على عجل قصة قصيرة تصور بضعة مشاهد ومغامرات من حياتها وأخواتها -رغم أن الأولاد كانوا أكثر في مسيرتها- وأرسلتْها لترى حظها وفي نفسها أمل ضئيل بالنجاح.

لكن الأمور دومًا تمضي عكسيًا مع جو. فكتابها الأول الذي عملتْ عليه لسنوات، وأُطلق مفعمًا بالآمال الكبيرة والأحلام الواعدة للشباب، غرقَ في رحلته، رغم أن الحطام ظلّ يطفو زمنًا طويلًا بعد ذلك، لصالح الناشر على الأقل. أما القصة المكتوبة على عجل، وأرسلتها من دون أن تحسب أنها ستدر أكثر من بضعة دولارات، فأبحرت بريح طيبة وقبطان حكيم يدير الدفة نحو اهتمام العامة، فعادت مثقلة بحمولة مفاجئة من الذهب والمجد.

لم تَرَ امرأة أكثر عجبًا من جوزفين باير حين عادت سفينتها الصغيرة إلى الميناء بأعلام مرفرفة، ومدفع صامت في الماضي لكنه يطلق الطلقات جذلًا، والأفضل من هذا كله، الكثير من الوجوه الطيبة تفرح لها، والكثير من الأيادي الودودة تصافحها بتهنئات حارة. كان الإبحار بعد ذلك سهلًا، وما كان عليها إلا أن تُحمّل سفنها وتطلقها في رحلات واعدة، لتعود عليها بكثير من الراحة مقابل كل ما أحبته وعملت لأجله.

لم تقبل الشهرة تمامًا، إذ لا يلزم سوى نارٍ صغيرة لصنع دخان كثيف هذه الأيام، والشهرة الرديئة ليست مجدًا حقيقيًا. لم تمتعض من الثروة، بل قبلتها بامتنان، رغم أنها لم تكن بنصف حجم وصف

العالم السخي لها. واصل التيار ارتفاعه بعد أن تحوّل مساره، وأرسى العائلةَ بارتياح في مرسى هادئ، حيث يمكن لأفرادها الكبار أن يرتاحوا بمأمن من العواصف، وحيث يمكن لشبابها أن يطلقوا مراكبهم لرحلة الحياة.

وحلّت في تلك السنين كل صنوف السعادة والهدوء والسعة، لتنعم على المنتظرين الصابرين، والعاملين الآملين، والمؤمنين الواثقين بحكمة الربّ وعدالته، إذ يرسل اليأس والفقر والحزن ليختبر الحب في قلوب البشر ويجعل طعم النجاح أحلى حين يأتي. شهد العالمُ الرخاءَ، وهللت الأرواح الطيبة لحظوظ العائلة السعيدة، ولكن قلة عرفوا أكثر نجاح قدّرته جو تقديرًا كبيرًا، والسعادة التي لا يمكن لشيء أن يغيرها أو يمحوها.

لقد كانت قدرتها على جعل آخر سنوات أمها سعيدة هانئة، وأن ترى عبء الرعاية ينزاح عن كاهلها إلى الأبد، واليدين المنهكتين ترتاحان، والوجهَ الحبيب لا يرهقه قلق، والقلب الرقيق خليًا يهب نفسه للإحسان الحكيم الذي وجد فيه سروره. في صِبا جو، كانت خطتها الفضلى غرفة تجلس فيها مارمي بهدوء وترتاح بعد حياتها البطولية القاسية. وها قد أصبح الحلم واقعًا سعيدًا، إذ جلست مارمي في غرفتها البهيجة محاطة بوسائل الترف والراحة، والبنات المحبات لرعايتها عندما زادت الأسقام، وزوج مخلص تستند عليه، وحفدة يضيئون شفق الحياة بحبهم وطاعتهم. كان وقتًا نفيسًا عند الجميع، إذ سعدت بحظوظ بناتها كما تسعد الأمهات بحظوظ أبنائهن الطيبة. وعاشت لتجنيَ المحصول الذي زرعته، وترى دعواتها استُجيبت

وآمالها أزهرت، والهبات الجميلة عادت بالثمار، ونعمَ البيت الذي أسسته بالسلام والرخاء، وعندئذ، مثل ملاكٍ شجاع انقضى عمله، أدارت وجهها نحو السماء سعيدةً بالراحة.

كان هذا الجانب العذب والمقدس من التغيير، لكن له جانبًا مضحكًا وشائكًا، مثل كل الأشياء في عالمنا الغريب هذا. فبعد المفاجأة والشك والفرح التي انتابت جو، وهي ممتنة للطبيعة البشرية، سرعان ما سئمت الشهرة، وأخذت تستاء من فقدانها حرّيتها. فقد استحوذ على الجمهور المعجب فجأة اهتمام بكل شؤونها، في الماضي والحاضر والمستقبل. وطلب الغرباء أن ينظروا إليها ويسألوها، وينصحوها ويحذروها، ويهنئوها ويقودوها للجنون بالاهتمام حَسنِ النية والمتعِب في آنٍ معًا. وإن رفضت أن تفتح قلبها لهم عاتبوها، وإن رفضت منح المال لجمعياتها المفضلة، وأن تقضي حاجاتٍ سرية، أو أن تأسى على كل مرض وابتلاء عرفتهما البشرية، نعتوها بالقاسية القلب والأنانية والمتعجرفة. وإن رأت الرد على أكداس الرسائل المرسلة إليها مستحيلًا، كانت مهملة لواجبها نحو الجمهور المعجب، وإن آثرت خصوصية البيت على قاعدة التمثال التي طلب منها الوقوف عليها، كالوا النقد «لطبائع أهل الأدب».

لقد بذلت قصارى جهدها من أجل الأطفال، لأنهم الجمهور الذي تكتب له، وعملت جاهدةً لتلبي الأمر الذي يدور دومًا على شفاه الصغار النهمين؛ مزيدًا من القصص، حالًا! استاءت أسرتها من هذا الإخلاص على حسابهم، وتردت صحتها، لكنها لبعض الوقت قدمت نفسها بامتنانٍ على مذبح أدب الناشئة، شاعرةً بأنها

تدين بالكثير للأصدقاء الصغار الذين وجدت في رؤيتهم الحب بعد عشرين سنة من الكدح.

ولكن حل زمن نفد فيه صبرها، ولخشيتها من أن تصبح أسدًا، غدت دبًّا طبعًا واسمًا، وعادت إلى مُختلاها، وزمجرت زمجرة رهيبة كلما أصدرت أمرًا. قضت عائلتها وقتًا طيبًا، وساندتها قليلًا في بلائها، لكن جو رأته أسوأ مأزق في حياتها؛ إذ كانت الحرية دومًا أثمن ما تملك، وبدا أنها تضيع من يديها. إن سكنَى برجٍ صغير تفقد بريقها سريعًا، وقد نال منها العمر والتعب والانشغال فلم تعجبها. وشعرت أنها لبّت كل ما تراه طلبًا معقولًا حين ملأ البلاد توقيعُها للمعجبين، وصورها ومقاطع أدبية قصيرة؛ وعندما صوّرَ الفنانون كل مظاهر بيتها، وصورها المراسلون بالهيئة العابسة التي تتخذها في مثل هذه الأوقات العصيبة؛ وعندما أتلف عدد من تلاميذ المدارس الداخلية المتحمسة بيتها بحثًا عن غنائم، وأبلى عتباتها حشدٌ ثابت من الجوّالة الودودين بأقدامهم المحترمة، وعندما ولى الخدمُ الأدبارَ بعد تجربة أسبوع من قرع الجرس طوال اليوم، وعندما اضطر زوجها أن يحرسها أثناء تناول الطعام، والولدان أن يغطيا خروجها من الأبواب الخلفية في بعض المناسبات، عند دخول الضيوف بلا إخطار في لحظات تعسة.

إن وصف يومٍ واحد قد يشرح الحال، ويقدّم عذرًا للمرأة التعسة، ويلمح إلى عشاق التوقيع المنتشرين الآن في الأرض، لأنها قصة حقيقية.

«لا بد من وجود قانون يحمي الكتّاب التعسين»، قالت السيدة جو ذات صباح بعد وصول إميل بوقت قصير، عندما حمل لها البريد تشكيلة فائقة الحجم والتنوع من الرسائل. «أراه موضوعًا أهم من حقوق الكتّاب الدولية، لأن الوقت يعني المال، والهدوء يعني الصحة، وأنا أخسر كليهما بلا مقابل سوى احترام أقل للبشر ورغبة جامحة في الفرار إلى البراري، ما دمت لا أستطيع إغلاق أبوابي حتى في أمريكا الحرة».

«إن صيّادي الأسود مقرفون حين يبحثون عن فريستهم، وسيجديهم نفعًا إن استطاعوا تبادل المواضع، إذ سيرون ثقل ظلهم حين «يمنحون أنفسَهم شرف القدوم للتعبير عن إعجابهم بعملنا الآسر»»، اقتبس تد منحنيًا لوالدته، التي تعكف عابسة على اثني عشر توقيعًا.

«لقد عقدتُ العزم يومًا»، قالت السيدة جو بحزم عظيم، «أنني لن أرد على هذا النوع من الرسائل. لقد أرسلت ستًا على الأقل إلى هذا الصبي، وأظنّه يبيعها. وهذه الفتاة تكتب من ثانوية للبنات، وإن أرسلت لها فستكتب لي كل الفتيات الأخريات في الحال يطلبن المزيد. جميعهم يبدؤون بالقول إنهم يدركون أنهم يتطفّلون، وأنني مستاءة قطعًا من هذه الطلبات، لكنهم يتجرؤون على الطلب لأني أحب الأولاد، أو لأنهم يحبون الكتب، أو لأنه توقيع واحد فحسب. اعتاد إمرسن وويتير رمي هذه الأشياء في سلة المهملات، وسأقتدي بأسوتهما الحسنة، رغم إني لست إلا كاتبة للأطفال تقدم

قصصًا خفيفة فيها عِبَر للصغار، وإلا لن يتسنّى لي الوقت للأكل أو النوم إن حاولت إرضاء هؤلاء الأطفال المجانين الأحباء»، وأبعدت السيدة جو كل الرزمة وهي تتنفس الصعداء.

«سأفتح الأخر وأدعك تتناولين إفطارك في هدوء، يا أمي الحبيبة»، قال روب [بالألمانية] الذي كثيرًا ما أدى دورَ أمين سرها. «هذه واحدة من الجنوب»، وفتح الختْم المهيب وقرأ:

«سيدتي، إذ فرحت السماء بأن تبارك جهودك بثروة كبيرة، فإني لن أتردد في سؤالك أن تقدمي بعض المال لنشتري لكنيستنا طقم قربان مقدس جديد. أيًا كانت الطائفة التي تنتمين إليها، فلا شك أنك ستجيبين طلبًا كهذا بسخاء.

المخلصة باحترام

السيدة س. ص. زاڤير».

«أرسل رفضًا مهذبًا يا عزيزي. كل ما أستطيع منحه سيذهب لإكساء الفقراء عند بوابة بيتي وإطعامهم. وهذا تعبيري عن شكري على نجاحي. امض قدمًا»، أجابت أمه بنظرةِ امتنانٍ لبيتها السعيد.

«كاتب صغير في الثامنة عشرة يقترح أن تضعي اسمك على رواية كتبها، على أن يحذف اسمك بعد الطبعة الأولى ويكتب اسمه. هذا اقتراح ظريف لك. أحسب أنك لن توافقي على هذا، رغم إشفاقك على كثير من النسّاخين الشباب».

«لن يحدث هذا. أخبره بذلك بلطف، ولا تسمح له بإرسال المخطوط، فتحت يدي سبعة مخطوطات، ولا أكاد أجد وقتي لقراءة

مخطوطي»، قالت السيدة جو مستغرقة في التفكير وهي تخرج رسالة صغيرة من إناء الحساء وتفتحها برفق، إذ يشير العنوان السفليّ أن طفلًا كتبها.

«سأرد على هذه بنفسي. هذه فتاة صغيرة مريضة تطلب كتابًا، وستحصل عليه، لكني لا أستطيع كتابة أجزاء أخرى لبقية الكتب لإسعادها. لن أنتهي يومًا إن حاولت إرضاء أشباه أولِڤر توِست النهمين هؤلاء، الذين يطالبون بالمزيد. ما التالي يا روبن؟».

«هذه قصيرة وحلوة».

«عزيزتي السيدة باير، سأكتب لك رأيي في أعمالك. لقد قرأتها جميعها عددًا من المرات، وأقول إنها من الطراز الأول. استمري من فضلك.

المعجب

بِلي بابكوك».

«هذا ما أحبه. بلي رجل منطقي وناقد يستحق المعرفة، ما دام قرأ كتبي عددًا من المرات قبل أن يبدي رأيه. كما أنه لم يطلب ردًا لذا أرسل له شكري وتحياتي».

«هذه سيدة من إنجلترا لها سبع بنات، وتود أن تعرف آراءك بالتربية. كما تود معرفةَ أي مهنٍ يجب أن يتخذنها، فالكبرى تبلغ الثانية عشرة. لا عجب أنها قلقة»، ضحك روب.

«سأحاول الرد عليها. ولأنني ليس عندي بنات، فإن رأيي

بلا جدوى وستُفاجَأ على الأرجح عندما أخبرها أن تجعلهن يجرين ويلعبن ويبنين أجسامًا معافاة قوية قبل أن تتحدث عن المهَن. سيُظهرن قريبًا ما يُردن فعله، إن تُركن وشأنهن، ولن يجرين على نسقٍ واحد».

«هذا امرؤ يريد أن يعرف أي فتاة يتزوج، وإن كنت تعرفين أيًا من الفتيات من أمثال بطلات قصصك».

«أعطِه عنوان نان، ولنرَ ماذا سيلقى»، اقترح تِد، وقد قرر سرًا أن يفعل ذلك إن أمكن.

«هذه من سيدةٍ تريدك أن تتبني طفلتها وتقرضيها مالًا لتدرس الفن في الخارج لبضع سنوات. من الأفضل أن تتعهديها، وأن تجربي حظك في تربيةِ فتاة يا أمي».

«كلا، شكرًا لك، سأهتمّ بشؤوني. ما تلك المبقعة؟ تبدو مروعة إن حكمت عليها من الحبر»، سألت السيدة جو، التي تسلّت عن مهمتها اليومية بمحاولة تخمين ما بداخل رسائلها الكثيرة من الغلاف الخارجي. تبين أن هذه قصيدة من معجب مخبول، إن حكمنا على أسلوبه المشتت.

«إلى ج. م. ب»
آه، لو كنت رقيبَ الشمس،
لأديتُ دور شاعرٍ
ونفثتُ نسمة من شذى

إليكِ، ولن يدري بها أحد.

«إن قوامَكِ مثل الدردار الجليلِ
عندما يُذهّب فويبوس[1] شعاع الصباح
وجنتاك مثل مجرى المحيطِ
الذي ينبت وردةً في مايو.
كلماتكِ حكيمة وذكية
إني أورثها لكِ تركة موهوبة
وعندما تحلّق روحكِ
لعلها تنبت زهرةً في الجنة
لقد لهج لساني بالمديح
ولم يخرقِ الصمت الأعذب
في أكثر الشوارع ازدحامًا أو أوحش الوهاد
أصوركِ بوميض قلمي.
انظري إلى الزنابق كيف تكبر
إنها لا تكدح لكنها جميلة
الجواهر والزهور وختم سليمان
وجيرانيوم العالم هي ج. م. باير.

جيمس».

---

(١) أبوللو.

هتف الولدانِ لهذه الإفاضة -وهي حقيقية- بينما أمهما تقرأ عددًا من العروض الوافرة من مجلات واعدة كي تحرر لهم مجانًا، ورسالة طويلة من فتاة صغيرة لا عزاء لها لأن بطلها المفضل قد مات، و«أتعيد السيدة باير العزيزة كتابة الحكاية وتجعلها تنتهي نهاية سعيدة؟»، وأخرى من صبي غضوب رُفض طلبه بالحصول على توقيع، فتنبأ بالإفلاس المالي وخسارة الحب إن لم ترسل له ولكل رفاقه الآخرين الذين طلبوا توقيعها وصورها ومقاطع قصيرة. وأراد كاهن معرفة دينها، وشابة محتارة سألتْ أيًا من عاشقيها تتزوج. ستفي هذه الأمثلة بعرض بعض من الطلبات التي تشغل وقت امرأة مشغولة، وتجعل قرائي يعذرون السيدة جو إن لم تحرص على الرد عليهم جميعًا.

«لقد فرغت من هذا العمل. سأنفض الغبار قليلًا، ثم أمضي إلى عملي. إنني متأخرة، ولا يمكن للحلقات المسلسلة الانتظار، لذا اعتذري للجميع عن رؤيتي يا ميري. لن أرى الملكة ڤكتوريا إن جاءت اليوم»، وألقت السيدة باير منديلها كأنها تتحدى الوجود كله.

«أرجو أن يكون يومك مثمرًا يا حبيبتي»، أجاب زوجها المنشغل بالرد على رسائله الغزيرة. «سأتناول الغداء في الكلية مع الأستاذ پلوك الذي يعتزم زيارتنا اليوم. وبوسع الولدين تناول الغداء في پارناسوس، لذا سيكون وقتك هادئًا»، ومسد الرجل النبيل خطوط القلق من جبينها بقبلة الوداع، ومضى وكلا جيبيه مليء بالكتب،

ويحمل في يدٍ مظلة قديمة وفي الأخرى كيسًا من الحجارة لصف علم الأرض.

«لو كان لكل الكاتبات أزواج شديدو الاهتمام كالملائكة، لعشن أطول وكتبن أكثر. ولعل هذا لا يكون نعمة على العالم، إذ تكتب معظمنا الكثير جدًا اليوم»، قالت السيدة جو وهي تلوح بمنفضة الريش لزوجها، الذي رد ملوحًا بالمظلة وهو يقطع الدرب المشجّر.

انطلق روب نحو المدرسة في الوقت نفسه، وهو يشبه أباه كثيرًا بكتبه وحقيبته ومنكبَيه العريضين وهيئة الرزانة، فضحكت أمه وهي تستدير قائلةً بحب: «بورك أستاذاي، إذ لم يُخلق أحسن منهما على الأرض!».

ذهب إميل مسبقًا إلى سفينته في المدينة، لكن تِد تلكأ ليسرق العنوان الذي أراده، فنقب في السكرية، وتحدث إلى «ماما»، ومرح الاثنان مرحًا كبيرًا.

رتبت السيدة جو ردْهتها، وملأت مزهرياتها ووضعت اللمسات الأخيرة التي تجعلها باردة وأنيقة طوال اليوم. ولما أرادت أن تسدل الستائر، رأت رسامًا يرسم على المرج، فتأوهت وهي تعود على عجلٍ إلى النافذة الخلفية لتهز منفضتها.

دُقّ الجرسُ عندئذ وسُمع صوتُ عجلات في الطريق.

«سأذهب، وستدخلهم ميري»، رتّب تد شَعره وهو يخرج نحو البهو.

«لا أستطيع رؤية أحد. امنحني فرصة لأطير إلى الطابق العلوي»، همست السيدة جو، متأهبة للفرار. ولكن قبل أن تفعل، ظهر رجل في الباب حاملًا بطاقة في يده. قابله تد بوجه متحفظ، وتسللت أمه خلف الستائر لتنتهز فرصة للهرب.

«إنني أعمل على سلسلةٍ من المقالات لصحيفة ساتردي تاتلر، وجئت لرؤية السيدة باير قبل الجميع»، قال الزائر بالنبرة المتملّقة لجماعته، بينما تنظر عيناه السريعتان إلى كل ما وسعهما النظر إليه، فقد علمته التجربة أن يُحسن استغلال وقته لأن زياراته قصيرة في العادة.

«إن السيدة باير لا تلتقي المراسلين يا سيدي».

«ولكني لا أطلب إلا دقائق معدودة»، قال الرجل متقدمًا شيئًا فشيئًا.

«لا يمكنك رؤيتها لأنها خارجة»، أجاب تدي، حينما أظهرت له نظرةً إلى الخلف أن أمه التعسة قد اختفت، من النافذة -كما يحسب- كما تفعل أحيانًا عندما يشتد عليها الحصار.

«آسف للغاية. سآتي ثانية. أهذا مكتبها؟ يا لها من غرفةٍ ساحرة!»، تراجع المتطفل إلى الردهة، مصرًا على رؤية شيء ومعرفة الحقيقة وإن مات في سبيل ذلك.

«كلا»، قال تد بلطفٍ وحزم معيدًا إياه إلى البهو، وهو يأمل بعمق أن تكون أمه قد هربت من البيت.

«إن كان بوسعك إخباري بعمر السيدة باير ومسقط رأسها، وتاريخ زواجها، وعدد الأولاد، فسأكون ممتنًا لك»، واصل الزائر الواثق عندما وطئ مداسة الباب.

«إنها في الستين من العمر، ووُلدت في زِمبلا، وتزوجتْ قبل أربعين عامًا، ولها إحدى عشرة بنتًا. أي شيء آخر يا سيدي؟»، وكان وجه تِدي الجاد نقيضًا مضحكًا لإجابته السخيفة، فأقر المراسلُ بأنه هُزم، وخرج ضاحكًا عندما ارتقت العتبات سيدةٌ تتبعها ثلاثُ فتيات باسمات.

«لقد جئنا من أوشكوش، ولا يمكننا العودة من دون رؤية السيدة جو. إن بناتي محبّات لأعمالها، ويلححن على رؤيتها. أعلم أن الوقت باكر، ولكننا سنرى هولمز ولونغفلر، وغيرهم من المشاهير، لذا جئنا هنا أولًا. أخبرها بأن السيدة إراستس كنغزبري پارملي من أوشكوش. لن نمانع في أن ننتظر، بوسعنا التجول في المكان إن لم تكن جاهزةً لاستقبال الناس بعد».

قيل كل هذا بسرعة جعلت تِد يكتفي بالوقوف محدقًا بالفتيات موفورات الصحة، اللاتي ثبتن عيونهن الزرقاء الستة عليه بتضرّع كبير حتى يستحيل على طبعه الشهم ألا يرد عليهن ردًا لائقًا على الأقل.

«السيدة باير ليست موجودة اليوم، لقد خرجت لتوّها كما أظن، ولكن بوسعكن التجول في البيت والأرض إن شئتن»، غمغم متراجعًا عندما واصلت الأربع النظرَ حولهن جذلات.

«أوه، شكرًا لك! أنا واثقة أنه مكان حلو جميل! إنها تجلس هنا للكتابة، أليس كذلك؟ أخبرني إن كانت هذه صورتها؟! تبدو مثلما تخيلتها تمامًا!».

وقفت السيدات بعد قول هذا أمام نقشٍ للمبجلة السيدة نورتن، وفي يدها قلم وهيئتها شاردة من الهدوء، وتضع تاجًا مرصعًا وعقدًا من اللؤلؤ.

أشار تِدي وهو يجهد للاحتفاظ بهدوئه، إلى صورة شخصية رديئة جدًا للسيدة جو، علقت خلف الباب ومنحتها تسلية كبيرة، لقد كانت مريعةً للغاية، رغم التأثير الغريب للضوء على طرف الأنف وحمرة الوجنتَين بقدر الكرسي الذي تجلسُ عليه.

«التُقطت هذه لأمي، لكنها ليست بجيدة جدًا»، قال مستمتعًا بمحاولات الفتيات إخفاء امتعاضهن من الفرق الحزين بين الحقيقة والخيال. ولكن الصغرى، التي تبلغ الثانيةَ عشرة، لم تستطع إخفاء خيبتها، وأشاحت وهي تشعر بمثل ما يشعر به كثير منا عندما نكتشف أن أحباءنا ليسوا إلا رجالًا ونساء عاديين.

«ظننتها ستكون في السادسة عشرة أو نحوها وشعرها مضفور في جديلتين تتدليان على ظهرها. لست أود رؤيتها الآن»، قالت الطفلة الصريحة، وهي تسير نحو باب البهو، تاركةً أمها لتعتذر وأختيها لتقولا إن الصورة الرديئة «جميلة تمامًا، شبيهة بالأصل وشعرية جدًا، وبخاصةٍ الوجه».

«هيا يا فتيات، يجب أن نذهبَ إن أردنا أن نصل اليوم. بوسعكن

أن تتركن دفاتر التوقيع وتُرسل إلينا عندما تكتب السيدة باير كلماتها فيها. إننا ممتنات ألف مرة. أبلغ حبنا لأمك، وأخبرها بعظيم أسفِنا لأننا لم نرَها».

حالما قالت السيدة إراستس كنغزبري پارملي الكلمات وقع نظرها على امرأة متوسطة العمر تضع مئزرًا كبيرًا ذا نقوش مربعة، وعلى رأسها لُفّ منديل، منهمكة في نفض الغبار في غرفة بعيدة بدت مكتبًا.

«لنختلس نظرةً واحدة على ملاذها ما دامت في الخارج»، قالت السيدة المتحمسة، وقطعت البهو مع بناتها قبل أن يتسنّى لتدي تحذير أمه، التي قاطع هروبها الفنان الجالس أمام البيت، والمراسل الواقف خلفه -لأنه لم يغادر- والسيدات في البهو.

«لقد أمسكن بها!»، قال تدي في نفسه بخوفٍ هازل، «لا جدوى من تمثيل دورِ الخادمة لأنهن رأين الصورة الشخصية».

فعلت السيدة جو ما بوسعها، ولولم تفضح أمرها الصورة المشؤومة لأمكنها الفرار إذ كانت ممثلة جيدة. وقفت السيدة پارملي عند المكتب، ومن دون اكتراث بالغليون المرشومي الموضوع هناك، والخفين الرجاليين القريبين، وكومة الرسائل الموجهة إلى «أ. ف. باير» فقد شابكت يديها وقالت بإعجاب: «هذا المكان الذي كُتبتْ فيه تلك الحكايات الجميلة المليئة بالعبرِ التي أبهجت أرواحنا يا فتيات! أيمكنني... آه، أيمكنني أخذ قطعة من ورق، أو قلم قديم، أو طابع بريدي، ذكرى من هذه المرأة الموهوبة؟».

«أجل، خذي راحتك»، أجابت الخادمةُ، مغادرةً وهي تنظر إلى الصبيّ الذي امتلأت عيناه سرورًا لم يستطع كبحه.

رأت كبرى البنات ذلك، وأدركت الحقيقة، وأكدت شكوكها نظرة سريعة إلى المرأة ذات المئزر. فهمست وهي تلكز أمها: «أمي، إنها السيدة باير نفسها، أعلم ذلك».

«لا؟ حقًا؟ نعم! حسن، إني أقر، يا للروعة!»، ولحقت السيدة بارملي بالمرأة التعسة على عجالة وهتفت متحمسة: «لا تكترثي بنا! أعلم أنك مشغولة، ولكن دعيني أصافحك ثم سنذهب».

أقرت السيدة جو بهزيمتِها، واستدارت ومدت يدها مثل صينية شاي، مذعنة بأن تُصافَح بحرارة، مثلما قالت السيدة بضيافةٍ مهيبة نوعًا ما:

«إن جئت يومًا إلى أوشكوش، فلن تطأ قدماك الرصيف، لأنك ستُحملين على أذرع الجمهور، وستكون سعادتنا عظيمة برؤيتك».

وفي ذهنها عزمت السيدة جو ألا تزور تلك البلدة الصاخبة، وردت بدماثةٍ قدر استطاعتها، وبعد أن كتبت اسمها في دفاتر التوقيع، وقدمت لكل زائرة هدية تذكارية، وقبّلت كل واحدة منهن، غادرن لزيارة «لونغفلر وهولمز والآخرين»، الذين كانوا كلهم خارجين، كما نأمل بصدق.

«أيها اللئيم، لماذا لم تمنحني فرصة للفرار؟ أوه يا إلهي، يا للأكاذيب التي قلتها لذاك الرجل! أرجو أن تُغفر لنا خطايانا في

هذا المجال، ولكني لا أعرف ما سيحل بنا إن لم نحتَل. كثيرون ضد واحد ليس لعبًا عادلًا»، وعلّقت السيدة جو مئزرها في خزانة البهو، وهي تتحسر على بلاءات جماعتها.

«أناس آخرون قادمون من الدرب المشجّر! يجدر بك الفرار ما دام المنحدر خاليًا! سأصرف انتباههم!»، قال تدي وقد التفت للخلف عند نزوله العتبات، إذ كان متجهًا نحو المدرسة.

صعدت السيدة جو إلى الطابق العلوي، وبعد أن أقفلت بابها، رأت بهدوء فتيات الثانوية يحتشدن على المرج، وإذ لم يُسمح لهن بدخول البيت، مضينَ يمتّعن أنفسهن بقطفِ الزهور، وتصفيف شعرهنّ وتناول الغداء، يعبّرن بحريةٍ عن رأيهن بالمكان ومالكيه قبل أن يذهبْن.

أعقبت ذلك بضعُ ساعاتٍ هادئة، وإذ هي تستعد لعصريةٍ طويلة من العمل الجاد، عاد روب ليخبرها أن اتحاد الشبان المسيحيين سيزورون الكلية، واثنين أو ثلاثة ممن تعرفهم منهم يودون يعبّروا لها عن احترامهم أثناء مرورهم.

«ستمطر السماء، لذا أستطيع القول إنهم لن يأتوا، ولكن أبي ظن أنك تودين الاستعداد إن أتوا. تعلمين أنك تقابلين الأولاد دومًا، رغم أن قلبك يقسو على الفتيات المسكينات»، قال روب الذي سمع من أمه عن زيارات الصباح.

«لا تجيش عواطف الأولاد، لذا بوسعي احتمالهم. آخر مرة رأيت فيها جمعًا من الفتيات ارتمت إحداهن بين ذراعيّ وقالت «أيتها

الحبيبة، أحبيني!» وددتُ لو نفضتها»، أجابت السيدة جو وهي تمسح قلمها بحماس.

«تعلمين أن الأولاد لن يفعلوا هذا، لكنهم يطلبون توقيعك، لذا يجدر بك أن تجهّزي بضع نسخ»، قال روب واضعًا رزمة من ورق الملاحظات، إذ كان يافعًا ودودًا مشفقًا على معجبي أمه.

«لن يفوقوا الفتيات. أظنني كتبتُ ثلاثمئة توقيعٍ أثناء اليوم الذي قضيته في كلية س، وتركت كومة من البطاقات ودفاتر التوقيع التذكارية على طاولتي حين غادرت. إنه واحد من أشكال الجنون السخيفة المضنية التي ابتُلي بها العالم».

ورغم ذلك فقد كتبت السيدة جو اسمها اثنتي عشرة مرة، ولبست ثوبها الحريري الأسود، وأسلمت نفسها للزيارة المرتقبة، وهي تدعو أن تمطر السماء عندما عادت إلى عملها.

هطل المطر، وأحست بالأمان تمامًا، فأشعثت شعرها، وخلعت كُفّتيها، وهرعت لإنهاء فصلها، إذ كان فرضها ثلاثين صفحة في اليوم، وودت أن تفرغ منه قبل المساء. أحضرت جوزي بعض الزهور للمزهريات وكانت تضع اللمسات الأخيرة عندما رأت عددًا من المظلات تظهر عند التلة.

«إنهم قادمون يا خالتي! أرى عمّي يسرع عبر الحقل لاستقبالهم»، قالت عند أسفل الدرج.

«واصلي مراقبتهم وأبلغيني عندما يدخلون الدرب المشجّر.

لن أستغرق إلا دقيقة لأتهندم وأنزل». أجابت السيدة جو، وهي تكتب على عجالة، لأن الحلقات المسلسلة لا تنتظر أحدًا، ولا حتى الاتحاد المسيحي كله.

«إنهم أكثر من اثنين أو ثلاثة. أرى ستة على الأقل»، قالت الأخت آن من باب البهو. «كلا! أحسبهم اثني عشر، احذري يا خالتي، إنهم قادمون كلهم! ماذا سنفعل؟»، خارت قوى جوزي لمواجهة الحشد الأسود الذي يتقدم سريعًا.

«لترحمنا السماء، إنهم مئات! اركضي وضعي حوضًا في المدخل الخلفي لتقطر فيه مظلاتهم. أخبريهم أن يدخلوا البهو واتركيهم، وضعي قبعاتهم على الطاولة، لن يكفي المشجب لحملها جميعًا. لا جدوى من إحضار الحُصُر، يا لسجاداتي المسكينة!»، نزلت السيدة جو لتستعد للغزو، أما جوزي والخادمات فقد هرعن خائفاتٍ من مشاهدة الكثير من الأحذية الوحلة.

جاءوا، بصف طويل من المظلات، وأرجل مبللة ووجوه محمرّة تحتها، إذ قضى الرجال المحترمون وقتًا سعيدًا في أنحاء البلدة، غير آبهين بالمطر. استقبلهم الأستاذ باير عند البوابة، وكان يلقي خطابًا قصيرًا للترحيب بهم، عندما ظهرت السيدة جو بالباب ودَعتهم للدخول، وقد تأثرت لهيئاتهم المتسخة. هرع الشبان، تاركين مضيفهم يخطب حاسر الرأس تحت المطر، وارتقوا العتبات مرحين ودودين متلهفين، يخلعون قبعاتهم وهم يدخلون، تربكهم مظلاتهم وقد وصلهم الأمر بالدخول ورصّ الصفوف.

ساروا وساروا وساروا، وقطع البهوَ خمسةٌ وسبعون زوجًا من الأحذية، وقطرت خمس وسبعون مظلة بأنس في الحوض الكريم، واحتشد أصحابُها في الطابق السفلي، وصافحت المضيفة خمسة وسبعين يدًا قوية دون أن تنبس بحرف، رغم أن بعضها كان رطبًا، وبعضها دافئًا، وكلها تقريبًا تحمل غنائم من تجوال النهار. لوّح ولد طائش بسلحفاةٍ صغيرة وهو يقدم تحياته، وحمل آخر حملًا من الأغصان التي قطعها من أماكن شهيرة، وطلب الجميع تذكارًا من بلمفيلد. وظهرت على الطاولة كومةٌ من البطاقات على نحو غامض، كُتبت عليها طلبات من أجل الحصول على توقيع السيدة جو. ورغم قسمها في الصباح، فقد كتبت كل واحدة، حين اصطحب زوجُها الأولاد في جولة حول البيت.

هرعت جوزي عائدةً إلى الردهة، فاكتشف أمرها بعض اليافعين المتجولين، وأهانها أحدهم إهانة فظيعة، إذ سأل سؤالًا بريئًا إن كانت هي السيدة باير. لم يدم الاستقبال طويلًا، وكانت نهايته أفضل من بدايته، إذ توقف المطر، وطلع قوس قزح الجميل فوقهم عندما وقف الجمع الطيب على المرج يغنون أغنية الوداع. كان هذا طالع سعد، إذ ظهر قوس البشرى فوق الرؤوس الشابة، كأنما ابتسمت السماء لاجتماعهم، وأظهرت لهم أن فوق الأرض الموحلة والسماء الماطرة ستظلّ الشمس المباركة تسطع على الجميع.

هتفوا ثلاثة هتافات، ثم غادروا تاركين ذكريات سارة لزيارتهم تبهج العائلة، عندما أخذوا يكشطون الوحل عن السجاد بالرفوش وأفرغوا الحوض الذي امتلأ نصفه بالماء.

«يا لهم من شبان لطيفين مخلصين مجدّين، ولست آسفة على نصف الساعة، ولكن علي الانتهاء، لذا لا تجعلوا أحدًا يزعجني حتى يحين وقت الشاي»، قالت السيدة جو تاركة ميري لتغلق البيت، فقد ذهب بابا والولدان مع الضيوف، وأسرعت جوزي عائدةً إلى البيت لتحكي لأمها عن الوقت الممتع في بيت الخالة جو.

عاد الهدوء لساعة، ثم قُرع الجرس وصعدت ميري ضاحكة لتقول: «سيدة غريبة تود أن تعرف إن كان بوسعها الإمساك بجندب في الحديقة».

«ماذا؟»، قالت السيدة جو، رامية قلمها الذي نفث بقعة، إذ كان هذا أغرب طلب من بين كل الطلبات الغريبة التي تلقتها.

«جندب يا سيدتي. لقد قلت إنك مشغولة وسألتها عما تريد، فقالت «لقد أمسكت بجنادبَ من حدائق عدد من المشاهير، وأريد إمساك واحد من پلمفيلد لأضيفه إلى مجموعتي». أسمعتِ شيئًا كهذا من قبل؟»، وضحكت ميري ثانية على الأمر.

«أخبريها أن تأخذ كل ما تجده، وعلى الرحب والسعة. سأسر بالتخلص من الجنادب، إذ تقفز دومًا في وجهي وتتسلل إلى ثيابي»، ضحكت السيدة جو.

نزلت ميري، وعادت بعد قليل وهي تعجز عن الكلام من الضحك.

«إنها ممتنة للغاية يا سيدتي، وتود الحصول على ثوب قديم أو جوربين من جواربك لتضمها إلى بساط تصنعه. تقول إنها حصلت

على صدار لإمرسن، وبنطال للسيد هولمز، وثوب للسيدة ستو. لا بد أنها مجنونة!».

«أعطيها ذلك الوشاح الأحمر القديم، فأبدو مشرقة بين العظماء في ذلك البساط المدهش. أجل، إن ملاحقي المشاهير كلهم مخبولون، لكن هذه تبدو مهووسة مسالمة، لأنها لن تضيع وقتي وأضحكتني كثيرًا»، قالت السيدة جو وهي تعود إلى عملها بعد أن ألقت نظرة من النافذة، فرأت سيدة طويلة نحيلة تلبس ثوبًا أسود عتيق الطراز، تقفز بحماسٍ جيئة وذهابًا على المرج وهي تطارد الحشرة النشطة التي تريدها.

لا مزيد من المقاطعات إلى أن بدأ النهار ينقضي، ثم أقحمت ميري رأسها لتقول إن رجلًا محترمًا يود رؤية السيدة باير، ولن يقبل بالرفض.

«عليه ذلك، فلن أنزل. لقد كان هذا يومًا مريعًا، ولا أود أن أُزعج ثانية»، أجابت الكاتبة الحانقة، وقد توقفت أثناء كتابة النهاية العظيمة لفصلها.

«أخبرته بذلك يا سيدتي، لكنه دخل بجرأة ووقاحة. أحسبه مجنونًا آخر، وعلي القول إني خائفة منه كثيرًا، فهو شديد الضخامة والسمرة، رابط الجأش، رغم حسن هيئته»، أضافت ميري متكلفة الابتسام، إذ لا بد أن الغريب وجد في نظرتها قبولًا رغم جرأته.

«لقد فسد نهاري وسأقضي نصف الساعة هذه لأنتهي. أخبريه أن يغادر لأني لن أنزل»، قالت السيدة جو بغضب.

ذهبت ميري، وسمعت سيدتها، وهي تسترق السمع رغمًا عنها، همسات أولًا، ثم صراخ ميري، وتذكرت أساليب المراسلين، وأن خادمتها جميلة وجبانة، فألقت السيدة باير قلمها وهبّت لنجدتها. فنزلت بأفخم هيئةٍ استطاعتها وسألت بصوت يشوبه الخوف، حين وقفت لتعاين المتطفل الشبيه بقطاع الطرق، وقد كان ينوي صعود الدرج الذي دافعت عنه ميري ببسالة:

«من هذا الذي يصر على البقاء وقد رفضت رؤيته؟».

«لا أدري يا سيدتي. فهو لم يخبرْني باسمه، وقال إنك ستندمين إن لم تريه»، أجابت ميري وهي تتراجع محمرة الوجه تنظر بازدراء من مكانها.

«ألن تندمي؟»، سأل الغريب، وهو ينظر إلى الأعلى بعينين سوداوين يملؤهما الضحك، وببريق الأسنان البيضاء عبْر لحيته الطويلة، وقد مد كلتا يديه وهو يقترب بجرأة من السيدة الحانقة.

نظرت السيدة جو نظرة حادة، فقد كان الصوت مألوفًا، ثم زادت حيرة ميري عندما وضعت كلتا ذراعيها حول عنق قاطع الطريق، وهي تقول فرحة: «ولدي الغالي، من أين أتيت؟».

«من كاليفورنيا، بقصد رؤيتك أمي باير. والآن ألن تندمي إن رحلت؟»، أجاب دان بقبلة حارة.

«كيف لي أن آمر بإخراجك من البيت وأنا التي أتحرّق شوقًا لرؤيتك منذ عام؟»، ضحكت السيدة جو وهي تنزل لتتجاذب أطراف الحديث مع جوالها العائد، الذي استمتع بالمزحة كثيرًا.

# (٤)
# دان

مكتبة
t.me/soramnqraa

كثيرًا ما ظنت السيدة جو أن دمًا هنديًا يجري في عروق دان، ليس لحبّه للبراري وحياة الرحالة فحسب، بل لمظهره أيضًا، فقد ازداد سحرًا بعدما كبر. كان عمره خمسًا وعشرين سنة فارع الطول له أطرافٌ قوية، ووجهٌ أسمر متوقد، وهيئة اليقظ ذي الحواسّ الحية، خشن الطباع، مفعمٌ بالطاقة سريع بالكلام والضرب، تضطرم في عينيه النار القديمة، حذر دومًا كأنما اعتاد الحراسة، وله سيماء الحيوية والنشاط التي تفتن الذين يعرفون أخطار حياته المغامرة ومباهجها. وبدا في أحسن حالاته -عندما جلس للحديث مع الأم باير- واضعًا يدًا سمراء قوية في يدها، وفي صوته عالم من المحبة إذ قال:

«أأنسى أصدقائي القدامى؟! وكيف لي أن أنسى البيت الوحيد الذي عرفته يومًا؟ يا إلهي، لقد كنت أتعجل القدوم وإخبارك عن حظي السعيد حد أني لم أتوقف لأتهندم كما ترين، رغم علمي أنك سترينني أبدو مثل جاموس بريّ أكثر من ذي قبل»، قال بهزةٍ من

شعره الأسود الأشعث، وشد للحيته، وضحكةٍ جعلت الغرفة ترتج.

«يعجبني مظهرك. لقد كان عندي ولع بقطاع الطرق، وأنت تبدو واحدًا منهم. خافت ميري، وهي حديثة العهد هنا، من مظهرك وأسلوبك. لن تعرفك جوزي، لكن تد سيعرف داني رغم اللحية الكبيرة والشعر المتهدّل. سيصلون قريبًا ليرحّبوا بك، لذا أخبرني المزيد عنك قبل مجيئهم. يا إلهي، لقد انقضتْ قرابة السنتين يا عزيزي دان! أليس كذلك؟»، سألت السيدة جو وهي تصغي باهتمام أمومي إلى حكاياته عن الحياة في كاليفورنيا، والنجاح المفاجئ لمشروع صغير أقامه.

«رفيع الطراز! لست آبه بالمال كما تعلمين. وكل ما أريده هو القليل لنفقاتي، وأفضّل أن أجني المال في طريقي، وألا أزعج نفسي بحماية الكثير منه. إن الأمر يتعلق بمتعة حصولي على الشيء، وقدرتي على التخلص منه، وهذا ما أحبه. ولا جدوى من الادخار، فلن أعيش لأهرم فأحتاجه، فأمثالي لا يفعلون ذلك»، قال دان، وهو يبدو كأن ثروته الصغيرة تضايقه.

«ولكن إن تزوجت واستقررت في مكان ما، كما أرجو أن تفعل، فلا بد أن يكون عندك شيء تبدأ منه يا بُنيّ. لذا تحلّ بالحكمة واستثمر مالك، ولا تتخل عنه، لأن الأيام العصيبة تمر علينا جميعًا، ولن تطيق أن تكون عالة»، أجابت السيدة جو بهيئة الحصيفة، رغم أنها أحبت معرفة أن حمّى جمع المال لم تستحوذ على فتاها المحظوظ بعد.

هز دان رأسه، ونقل نظره في أرجاء الغرفة، كأنه قد وجدها ضيقة قليلًا، وحن للهواء الطلق ثانية.

«ومن ستتزوج بمراوغ مثلي؟ تحب النساء الرجل المستقيم، ولن أكون هكذا يومًا».

«يا ولدي العزيز، في صباي أحببت المغامرين من أمثالك. يجذبنا نحن النساء أيّ شيء جديد وجريء، وحر ورومانسي. لا تفتر همّتك، وستعثر على فتاتكَ يومًا وستسر بأن تذهب في رحلات أقصر وتعود إلى البيت محمّلًا بحمولة طيبة».

«وماذا ستقولين لو جلبت لك هندية حمراء ذات يوم؟»، سأل دان ووميض المكْرِ في عينيه اللتين نظرتا إلى تمثال نصفي من الرخام لغالاتيا تتلألأ بيضاء جميلة في الزاوية.

«سأرحّب بها بكل حب، إن كانت صالحة. أتفكّر بذلك؟»، واختلست السيدة جو النظر إليه باهتمام يثير الكاتبات في قصص الحب.

«ليس في الوقت الراهن، شكرًا لك. إنني شديد الانشغال «لأصاحب الفتيات» كما يقول تد. كيف حال الفتى؟»، سأل دان وهو يغيّر الحديث ببراعة، كأنه اكتفى من الكلام عن العاطفة.

فغيرته السيدة جو في الحال، وأسهبت في الكلام عن مواهب ولديها ومناقبهما إلى أن جاءا مندفعين وارتميا على دان مثل دبّين محبّين صغيرين، مُظهرين عاطفتهما المبهجة في مصارعة ودودة، هزِم فيها

كلاهما، إذ سرعان ما قهرهما الصياد. تبعهما الأستاذ، واستمرت الأحاديث وقد ابتهجت ميري قليلًا، وكرست الطاهية نفسها لإعداد عشاء شهي على غير العادة، إذ أدركت بغريزتها أن هذا الضيف محل ترحيب.

وبعد الشاي أخذ دان يذرع الغرف الطويلة جيئة وذهابًا وهو يتحدث، منتقلًا إلى البهو بين الفينة والأخرى لينال شيئًا من الهواء النقي، كأن رئتيه تحتاجان أكثر مما يحتاجه سكّان المدن. وفي واحدةٍ من تنقلاته رأى فتاةً بيضاء يؤطرها الممر المعتم، ووقف لينظر إليها. كما وقفت بِس أيضًا، من دون أن تتعرف على صديقها القديم، وغافلة تمامًا عن الصورة الجميلة التي صنعتها بوقوفها؛ طويلة رشيقة، مقابل العتمة الرقيقة لليل الصيف، وشعرها الذهبي يطوق رأسها مثل هالة، وأطراف الوشاح الأبيض ترتفع مثل جناحين بفعل هبوب النسيم البارد في البهو.

«أهذا دان؟»، سألت وهي تتقدم بابتسامة جميلة ويد ممدودة.

«يبدو ذلك، ولكني لم أعرفك أيتها الأميرة. حسبتك طيفًا»، أجاب دان وهو ينظر إليها برقةٍ وفضول وعجب.

«لقد كبرت كثيرًا، ولكنك تغيرت تمامًا خلال عامين»، ورفعت بِس نظرها ببهجة بناتية إلى الشخص الوسيم الماثل أمامها، إذ كان تناقضًا صارخًا مع الناس حسني الهندام من حولها.

وقبل أن يتسنّى لهما قول المزيد، دخلت جوزي، وسمحت لدان أن يحملها ويقبّلها مثل طفلة، وقد نسيت تمامًا اللياقة التي اكتسبتها

حديثًا في مراهقتها. ولم يعرف أنها تغيرت أيضًا إلى أن أنزلها، فقال في ذعر مضحك:

«يا إلهي! عجبًا، لقد كبرت أنت أيضًا! ماذا سأفعل بلا صغير ألاعبه؟ وهذا تد قد شبّ مثل ساق فاصولياء، وبِس سيدة صغيرة، وأنت أيضًا، يا حبة الخردل، تطيلين فساتينك وتحسنين السلوك».

ضحكت الفتاتان، واحمرّت جوزي خجلًا وهي تنظر إلى الشاب، وأدركت أنها قفزت قبل أن تفكّر. كانت القريبتان نقيضين رائعين، واحدة رقيقة كالزنبقة، والأخرى زهرة برية صغيرة. وأومأ دان إيماءة رضا وهو يعاينهما، إذ رأى في جولاته كثيرًا من الفتيات النحيلات، وسر برؤية إشراق صديقتيه القديمتين.

«اسمعا! لن نسمح باحتكار دان»، قالت السيدة جو. «أعيداه وراقباه، وإلا تسلل لجولةٍ قصيرة أخرى تستغرق عامًا أو اثنين قبل أن نراه».

عاد دان إلى الردهة، تقوده هاتان السجّانتان الجميلتان، ليتلقى توبيخًا من جوزي لأنه سبق كل الأولاد، وصار رجلًا قبلهم.

«إميل أكبر منك، لكنه ليس إلا صبيّ، يرقص رقصات الجِغ ويغني أغاني البحارة مثلما اعتاد. إنك تبدو في نحو الثلاثين، وضخمًا وأسمر مثل شرير في مسرحية. أوه، لقد خطرت لي فكرة رائعة! إنك المناسب تمامًا لتمثيل دور آرابشيَس في آخر أيام پومپي[1].

---

(١) رواية لإدورد بولر ليتن، وآرابشيَس هو ساحر مصري والكاهن الأعلى لإيزيس في الرواية.

نووي تمثيلها، فلدينا الأسد والمجالدون والبركان الثائر. سيصب توم وتد بوشلاتٍ من الرماد ويدحرجان براميل الحجر. ونحتاج رجلًا أسمر ليكون المصريّ، وستكون جذابًا بالأوشحة الحمراء والبيضاء. أليس كذلك يا خالتي جو؟».

دفع هذا الفيض من الكلمات دان إلى سدّ أذنيه بيديه، وقبل أن يتسنّى للسيدة باير أن ترد على ابنة أختها الطائشة وصل آل لورنس مع مِغ وعائلتها، وتبعهما توم ونان، وجلس الكل للاستماع إلى مغامرات دان، التي يحكيها بإيجاز وأسلوبٍ مؤثر، مثلما ظهر مما ارتسم على الوجوه المتحلقة حوله من ملامح مختلفة من الحماس والعجب، والفرح والإثارة. أراد كل الأولاد أن ينطلقوا في الحال إلى كاليفورنيا ليجمعوا المال، ولم تطق الفتيات صبرًا لرؤية الأشياء الغريبة الجميلة التي انتقاها لهن في رحلاته، وابتهج الكبار كثيرًا لحماس ولدهم الجامح ومستقبله الواعد.

«لا شك أنك تودّ العودة لأجل ضربة حظ أخرى، وأرجو أن تكون من نصيبك. لكن المضاربة لعبة خطرة، وقد تخسر ما ربحته»، قال السيد لوري، الذي أعجب بالحكاية المثيرة بقدر الأولاد الآخرين، وود مثلهم لو يعيش حياة خشنة مع دان.

«لقد اكتفيت منها، لفترة على الأقل، إنها تشبه القمار كثيرًا. كل ما يهمّني هو الإثارة، وهذا ليس في صالحي. أفكر في إنشاء مزرعة في الغرب، وهذا أمر هائل، وأشعر أن العمل الثابت سيكون ممتعًا بعض الشيء بعد هذا التجوال الطويل. سأعمل على البدء

وبوسعكم إرسال الخراف السوداء لتملؤوا مكاني بها. لقد جربت تربية الخراف في أستراليا، وأعلم قليلًا عن السوداء منها على أية حال».

أزالت ضحكة دان الهيئة المرتسمة على وجهه حين فرغ من كلامه، وظن الذين يعرفونه جيدًا أنه تعلم درسًا في سان فرانسيسكو، وعزم على ألا يعيد الكرة.

«يا لها من فكرة رائعة يا دان!»، قالت السيدة جو، وهي ترى أملًا كبيرًا في هذه الرغبة في استقراره في مكان ما ومساعدة الآخرين. «سنعرف مكانك، وسنأتي لرؤيتك، دون أن يفصل بيننا نصف العالم. سأرسل لك ابني تد ليزورك. إنه فتى قلق، وسيجديه ذلك نفعًا. وسيكون معك في أمان وهو ينفس طاقاته الحبيسة ويتعلم شيئًا نافعًا».

«سأعمل بالرفش والمعزق مثل فتى صالح، إن حصلت على فرصة هناك، لكن مناجم سيرانزا تبدو أكثر متعة»، قال تِد، متفحصًا عيّنات المعادن النفيسة التي جلبها دان للأستاذ.

«اذهب وأنشئ بلدةً جديدة، وحين نكون جاهزين للارتحال سنخرج ونستقر هناك. ستحتاج صحيفة، وأحب إدارة واحدةٍ بنفسي أفضل من الكدح كما أفعل الآن»، قال ديمي، متلهفًا لرؤية اسمه يلمع في سلك الصحافة.

«بوسعنا تأسيس كليةٍ هناك، فأهل الغرب العنيدون متلهّفون للتعلم، وسريعو الإدراك واختيار الأفضل»، أضاف السيد مارش

دائم الشباب، متخيلًا بعين الترقب كثيرًا من النسخ المطابقة لكليتهم الناجحة وهي تشطأ في الغرب الواسع.

«امضِ قدمًا يا دان. إنها خطة رائعة، وسنساندك. لن أمانع في الاستثمار في بعض السهوب ورعاة البقر»، قال السيد لوري، الحاضر دومًا لمساعدة الفتيان ليساعدوا أنفسهم، بكلماته المشجعة ومحفظته المفتوحة.

«كأنما الثروة الصغيرة صابورةٌ للفتى، واستثمارها في أرض يثبته، لفترة على الأقل. أود أن أرى ما بوسعي عمله، لكني فكرت في استشارتكم قبل أن أعزم، تساورني بعض الشكوك في أن هذا سيناسبني لسنواتٍ عديدة، لكني أستطيع هجرها إن مللت»، أجاب دان، وقد تأثر وسر باهتمام أصدقائه بخطته وحماسهم لها.

«أعلم أنك لن تحب هذا. إذ ستكون مزرعة واحدة صغيرة وغبية للغاية، وقد كان أمامك العالم بأكمله تتجول فيه»، قالت جوزي، التي آثرت رومانسية حياة الترحال التي منحتها قصصًا مشوقة وأشياء جميلة في كل عودة.

«ألديهم أي نوع من الفنون هناك؟»، سألت بِس، وهي تتأمل صورة جميلة باللونين الأبيض والأسود إذ وقف دان يتحدث هناك، مستديرًا قليلًا عن الضوء.

«الكثير من الطبيعة يا عزيزتي، وهذا أفضل. ستجدين حيوانات رائعة ومناظر لم تري مثلها في أوروبا لترسميها، بل حتى ثمار اليقطين العادية ضخمة هناك، وبوسعك أن تمثلي دور سندريلا في واحدة منها

يا جوزي حين تفتتحين مسرحك في دانسفيل»، قال السيد لوري، متلهفًا لئلا يقل الحماس للخطة الجديدة.

فُتنت جوزي المشغوفة بالمسرح في الحال، واستولى عليها اهتمام كبير بالمشروع، وقد وعدت بتمثيل كل الأدوار المأساوية في المسرح الذي لم يُبْنَ بعد، فتوسلت دان ألا يُضيّع وقتًا في بدء تجربته. كما اعترفت بِس بأنها ستفيد من موضوعات الطبيعة، وستنمّي مشاهدُ البرية ذائقتها، التي ستغدو مفرطة الرقة إن لم تر أمامها إلا الرقيق والجميل.

«سأكون طبيبة البلدة الجديدة»، قالت نان المتحمسة دائمًا للمشاريع الجديدة، «سأكون جاهزة عندما تنشئها، فالبلدات الصغيرة تكبر بسرعة هناك».

«لن يسمح دان بوجود امرأة عمرها دون الأربعين في بلدته. فهو لا يحبّهن، وبخاصةٍ الشابات والجميلات منهن»، قال توم الذي يشتعل غيرةً، لأنه قرأ في عينيْ دان إعجابه بنان.

«لن يضيرني ذلك، لأن الأطباء استثناء من كل قاعدة. لن تكون في دانسـڤيل أمراض كثيرة، إذ سيعيش الجميع حياة نشاط وصحة، ولا يمكن لغير الشباب المفعم بالطاقة الذهاب هناك. لكن الحوادث ستقع كثيرًا، بفعل القطعان البرية، والركوب السريع، ومناوشات الهنود، ونزق الحياة في الغرب. وهذا سيناسبني كثيرًا، إذ أتحرّق شوقا للعظام المكسورة؛ والجراحة مثيرة للغاية، ولا أحصل إلا على القليل هنا»، أجابت نان وهي تتلهّف لوضع لافتة عيادتها والبدء.

«سآخذك أيتها الطبيبة، وسأسعد بوجود مثالٍ جيد على ما يمكننا فعله في الشرق. واصلي العمل وسأرسل في طلبك ما إن يكون عندي سقف لإيوائك. سأسلخ فروات من رؤوس بعض الهنود الحمر، وسأسحق اثني عشر راعيًا للبقر أو أكثر كرمى لك»، ضحك دان مبتهجًا بالنشاط والبنية القوية التي ميّزت نان عن بقية الفتيات.

«شكرًا لك، سآتي. أتسمح لي بتحسس ذراعك؟ يا لها من عضلات رائعة! انظروا يا أولاد؛ هذا ما أسمّيه عضلة»، وألقت نان محاضرة قصيرة مستخدمة ذراع دان القوية في شرحها.

ذهب توم إلى المُختلَى وحدّق بالنجوم، وهو يلوّح بذراعه اليمنى في إشارة عنيفة لضربِ أحدهم.

«اجعل توم قندلفت، إذ سيستمتع بدفن قتلى نان. إنه يجهد للتحلّي بالهيئة الكئيبة اللائقة بالعمل، فلا تنسه يا دان»، قال تد موجهًا الانتباه إلى الكائن النائح في الزاوية.

لكن ليس من طبع توم أن يحزن طويلًا، وخرج من كسوفه القصير باقتراحٍ مفرح: «اسمعوا، سنبني المدينة لنحمل إلى دانسڤيل كل ما يصلنا من حالات الحمّى الصفراء والجدري والكوليرا، فتفرح نان ولن تكون أخطاؤها كبيرة عند المهاجرين والمحكوم عليهم».

«أُشير عليكم بالاستقرار قرب جاكڤيل أو ما شابهها من المدن، حتى تستمتعوا بصحبة الناس المتحضّرين. إن فيها نادي أفلاطون، وتعطشًا كبيرًا للفلسفة. كل شيء من الشرق محلّ ترحيب، وستزدهر

المشاريع الجديدة على أرض طيبة»، قال السيد مارش، وهو يقدم اقتراحًا هادئًا، حين جلس بين الكبار مستمتعًا بالمشهد الحي.

كانت فكرة دراسة دان لأفلاطون فكرة مضحكة، ولكن أحدًا لم يضحك إلا تد المشاكس، وتعجّل دان للكشف عن خطة أخرى تعتمل في ذهنه المتقد.

«لست واثقًا من نجاح المزرعة، وبي شوق كبير لأصدقائي القدامى هنود مونتانا، إنهم قبيلة مسالمة، وبحاجة ماسة للمساعدة، فقد مات مئات منهم جوعًا لأنهم لا يحصلون على نصيبهم. أما قبيلة سيو فثلاثون ألف مقاتل قوي، والحكومة ترهب جانبهم وتمنحهم كل ما يريدون. أُسمّي ذلك خزيًا لعينًا!»، صمت دان قليلًا، كأن الشتيمة تسللتْ من فمه، لكن عينيه لمعتا وواصل حديثه مسرعًا، «إنه كذلك حقًا، ولن أعتذر؛ ولو ملكت المال حين كنت بينهم لأعطيت كل سنْت للشياطين المساكين، الذين سُلبوا كل شيء وينتظرون صابرين، بعد أن أبعدوا عن أرضهم إلى بلادٍ لا ينمو فيها شيء. بوسع الوكلاء الصادقين أن يفعلوا الكثير، ويراودني شعور بأن عليّ الذهاب ومد يد العون، فأنا أجيد لغتهم وأحبهم. ولديّ بضعة آلاف، ولا أرى أن لي الحق في إنفاقها على نفسي للاستقرار والاستمتاع بها. أليس كذلك؟».

بدا دان جسورًا جادًا للغاية وهو يواجه أصدقاءه، الذين احمرّت وجوههم وتحمّسوا لحرارة كلماته، وشعروا كلهم بإحساس العطف الذي يجمع القلوب بآصرة الإشفاق على المظلومين.

«افعل ذلك! افعل ذلك!»، هتفت السيدة جو، وقد تحمست من فورها، إذ كان سوء الطالع أكثر إثارة في نظرها من الحظ الطيب.

«افعل ذلك! افعل ذلك!»، ردد تد، مصفقًا كأنه في عرض مسرحي، «وخذني معك لأساعدك. إنني أتلهّف للانخراط مع هؤلاء القوم والصيد».

«لنسمع المزيد ثم نحكم إن كان قرارًا حكيمًا»، قال السيد لوري، عازمًا في سرّه على نقل هنود مونتانا إلى سهوله التي لم يشترها بعد، وزيادة تبرعاته إلى الجمعية التي ترسل البعثات التبشيرية إلى المظلومين.

استغرق دان من فورهِ في قصّ ما رآه بين هنود داكوتا وغيرها من القبائل في الشمال الغربي، متحدثًا عما يقع عليهم من ظلم وصبرهم وشجاعتهم كأنهم إخوته.

«سمّوني دان فاير كلاود [دان غيمة النار]، لأن بندقيّتي كانت أفضل ما رأوا. وكان بلاك هوك [البازي الأسود] أفضل صديق يلتقيه المرء، فقد أنقذ حياتي أكثر من مرة، وعلمني ما سينفعني إن عدت. إنهم يمرون بوقت عصيب الآن، وأود أن أرد صنيعهم».

اهتمّ الجميع عندئذ، وأخذت دانسڤيل تفقد سحرها. لكن السيد باير الحكيم ألمح إلى أن وكيلًا نزيهًا واحدًا بين الكثيرين لن يسعه فعل الكثير، ورغم نبل المحاولة، فإنّ الأفضل تقليب الأمر جيدًا، والبحث عن أراضٍ قبل اتخاذ القرار.

«حسنٌ، سأفعل. سأذهب في رحلة إلى كنساس وأرى ماذا

ستثمر. التقيت شخصًا في فريسكو كان هناك، ومدحها؛ الحق أنه يجب فعل الكثير في كل مكان حتى أني لا أعلم من أين أبدأ، وودت لو أني لا أملك المال»، أجاب دان عاقدًا حاجبيه في حيرة تنتاب الصالحين عندما يتحرقون شوقًا لأداء نصيبهم من الواجب العظيم في خير العالم.

«سأحفظه لك حتى تعقد العزم. إنك فتى طائش وستعطيه كله لأول متسول يصادفك. سأشغلّه لك في فترة تفكيرك بالأمر ثم أعيده إليك عندما تكون جاهزًا لاستثماره، أأفعل؟»، سأل السيد لوري الذي تعلّم الحكمة من أيام فتوته في التبذير.

«شكرًا لك يا سيّدي، سيسعدني التخلص منه. ستبقيه حتى أتخذ قراري، وإن حدث لي شيء هذه المرة، فأبقه لتساعد مشاكسين آخرين مثلما ساعدتني. هذه وصيّتي، وقد شهدتم كلكم عليها. أشعر الآن بالارتياح». وقوّم دان كتفيه كأن عبئًا انزاح عن كاهله، بعد أن ناول السيد لوري الحزام الذي حمل فيه الثروة الصغيرة.

لم يتخيل أحد ما سيحدث قبل أن يعود دان لأخذ ماله، ولا أن ذلك الفعل كان وصيّته الأخيرةَ وعهده، وعندما بدأ السيد لوري يشرح كيف سيستثمره، سُمع صوت بهيج يغني:

«أوه، لقد كانت بغي فتاةً مرحة
اهتفوا يا أولاد اهتفوا
لم تبخلْ يومًا على رجلها بكأس
اهتفوا يا أولاد اهتفوا

وعندما أبحر في عرضِ البحر الهائج
كانت مخلصة لمحبوبِها
اهتفوا يا أولاد اهتفوا!».

هكذا أخطرهم إميل بقدومه، وفي لحظة دخل مسرعًا مع نات، الذي كان يعطي الدروس في البلدة طوال النهار. كانت جميلة رؤيتُه يبتسم لصديقه وهو يصافحه، وأجمل منها تذكّر دان بامتنانٍ كل ما يدين به لنات، ومحاولته رد المعروف بأسلوبه الفظ، والأجمل من هذا سماع المسافرَين يقارنان ملاحظاتهما ويسردان الحكايات لإدهاش سكان اليابسة والبيتوتيين.

بعد وصول الاثنين، ما عاد البيت يسع الشباب المرحين، فخرجوا إلى الشرفة المقنطرة وجلسوا على العتبات، مثل سرب من الطيور العاشقة لليل. عاد السيد مارش والأستاذ إلى المكتبة، ومضت مِغ وإيمي للاهتمام بتقديم وجبة صغيرة من الفاكهة والكيك، وجلست السيدة جو والسيد لوري عند النافذة الطويلة يصغيان إلى الحديث الدائر في الخارج.

«ها هم، زهرة جماعتنا!»، قالت مشيرةً إلى الجمع أمامها. «والبقية إما ماتوا أو انتشروا في الأرض، لكن هؤلاء الفتية السبعة والفتيات الأربع هم بهجتي وفخري. وإن حسبت معهم ألِس هيث، اكتملت دزينتي، ويداي منشغلتان تمامًا في هداية هؤلاء الشبان بقدر ما تعينني مهارة البشر».

«حين نتذكّر اختلافهم الكبير، عما كان عليه بعضهم، وتأثير

البيت على بعضهم، أرى أننا يجب أن نشعر بالرضا حتى الآن»، أجاب السيد لوري برصانة، وعيناه مستقرتان على رأسٍ لامع بين الرؤوس السوداء أو البنية، إذ سطع القمر عليها كلها على حد سواء.

«لست قلقة على الفتيات، فمِغ تعتني بهن، وهي حكيمة وصبورة ورقيقة للغاية فلا يسعهنّ إلا أن يبلين حسنًا، لكن أولادي يحتاجون اهتمامًا أكبر كل عام، ويبدو أنهم ينجرفون بعيدًا عني كلما سافروا»، تنهدت السيدة جو. «سيكبرون ولن أستطيع الإمساكَ بهم إلا بخيط واحد، قد ينقطع في أية لحظة، كما حدث مع ند وجاك. ما زال دولي وجورج يحبّان العودة، ويمكنني تقديم المشورة لهما، والعزيز فرانز مخلص للغاية فلا ينسى رابطنا. لكن ثلاثة منهم سيخرجون إلى العالم ثانية ولا يمكنني ألّا أقلق. قلب إميل الطيبُ سيبقيه مستقيمًا، كما آمل و:

جلس ملاك عذب في الأعلى
ليحرس حياة جاك المسكين[1].

سيسافر نات أولى رحلاته، وهو ضعيف رغم تأثيرك المشجع. وما زال دان جامحًا، وأخشى أنه سيروّض بعد درس قاس».

«إنه فتى صالح يا جو، وإني لأتحسر على مشروع المزرعة. وقليل من الصقل سيجعل منه رجلًا مهذبًا، ومن يدري ما سيصبح بيننا»، أجاب السيد لوري، متكئًا على كرسي السيدة باير، مثلما اعتاد أن يفعل قبل سنوات عندما يكون عندهما سر ماكر.

---

(١) من قصيدة لتشارلز دبدن.

«لن يكون ذلك آمنًا يا تدي. فالعمل وحياة الحرية اللذان يحبهما سيجعلان منه رجلًا صالحًا، وهذا أفضل من أي صقل، مع المخاطر التي تجلبها إليه الحياةُ الرغدة في المدينة. لا يمكننا تغيير طباعه، بل مساعدته على أن يمضي في الاتجاه الصحيح. ما زالت دوافعه القديمة كامنة، ولا بد من ضبطها، وإلا ارتكب الأخطاء. أدرك ذلك، لكن حبه لنا يحميه، ويجب أن نبقيه تحت رقابتنا إلى أن يكبر أو تكون له رابطة أقوى تساعده».

تحدثت السيدة جو بجدٍ، لأنها، وهي التي تعرف دان أكثر من أي أحد آخر، رأت أن مُهرها لم يروّض تمامًا بعد، فخافت وأملتْ في آنٍ معًا، مدركة أن الحياة ستقسو على أمثاله دومًا. كانت واثقة أنه قبل رحيله سيُفضي إليها بمكنونات صدره، فيتسنّى لها عندئذ أن تحذّره أو تشجعه، أيهما يحتاج. لذا قضت وقتها تتأمله أثناء ذلك، وفرحت برؤية كل ما يبشر بخير، وأدركت سريعًا الأذى الذي سيُلحقه به العالم. كانت تتلهف على نجاح فتاها «مشعل الفتن» إذ توقع الآخرون فشله، ولكنها تعلمت أن البشر لا يمكن صبُّهم في قالب كالصلصال، فهدأت نفسها بالأمل أن يصبح هذا الفتى المهمل رجلًا صالحًا، ولم ترد أكثر. وحتى هذا كان كثيرًا، إذ كان مفعمًا بالدوافع الجامحة والعواطف القوية الكامنة فيه والطبع الذي لا يخضع لقانون. لم يكبحْه شيء إلا حب واحد في حياته، ذكرى بلمفيلد، وخذلان هؤلاء الأصدقاء المخلصين، والكبر، الأقوى من أي مبدأ، هما ما دفعاه إلى الحرص على الاحتفاظ باحترام الرفاق الذين أعجبوا به دومًا وأحبّوه رغم كل عيوبه.

«لا تجزعي يا عزيزتي، فإميل أحد المحظوظين الذين يسقطون وقوفًا؛ وسأهتم بأمر نات، ودان على طريق الصواب الآن، دعيه يلقِ نظرةً على كنساس، وإن فقدتْ فكرةُ المزرعة سحرها، فيمكنه العودة إلى الهنود المساكين، ويبلي حسنًا هناك. إنه مناسب حقًا لتلك المهمة الغريبة وأرجو أن يعزم على فعلها، فقتالُ الظالمين، ومصادقة المظلومين ستشغل طاقاته الخطرة، وستلائمه الحياة أكثر من قطعان الخراف وحقول القمح».

«أرجو ذلك. ما هذا؟»، ومالت السيدة جو إلى الأمام لتصغي، إذ تناهى إلى سمعها كلام من تد وجوزي.

«مهر! مهر حقيقي، ويمكننا امتطاؤه. إنك لفتى من الطرازِ الأول يا دان!»، قال الصبي.

«ثوب هندي من أجلي؟! يمكنني الآن تأدية دور ناميوكا إذا أدّى أحد الأولاد دور ميتامورا»، أضافت جوزي مصفقة.

«رأس جاموس لأجل بِس! يا رب السموات، لماذا جلبت شيئًا مريعًا كهذا لها يا دان؟»، سألت نان.

«ظننت أنه سيجديها نفعًا أن ترسم شيئًا قويًا وطبيعيًا. لن تنجح إن واصلت صنع الآلهة العابثة والهُريرات اللطيفة»، أجاب دان الصفيق، متذكرًا أنه عندما كان هنا آخر مرة كانت بِس تتردد بلا اهتمام بين رأس أپوللو وقطّتها الفارسية ليكونا نموذجينِ للرسم.

«شكرًا لك، سأجرّب ذلك وإن فشلت وضَعنا رأس الجاموس

في البهو ليذكرنا بك»، قالت بِس ناقمة على إهانة أرباب حبّها الأعمى، لكنها مهذبة للغاية فلم تظهر ذلك إلا في صوتها الذي كان حلوًا وباردًا كالمثلجات.

«أحسب أنك لن تأتي لرؤية مستعمرتنا الجديدة عندما يأتي الآخرون، أذلك شديد الخشونة عليك؟»، سأل دان محاولًا تصنع الهيئة اللامبالية التي يبديها كل الأولاد عند خطاب أميرتهم.

«سأسافر إلى روما لأدرس لسنين. كل الجمال والفن في العالم هناك، والحياة ليست طويلة بما يكفي للتمتع بهما»، أجابت بِس.

«إن روما ضريح عفن قديم لدى مقارنتها «بحديقة الآلهة»[1] وجبال روكي البديعة. لست أكترث بالفن، فالطبيعة تلائم ما أحب، وأظنني قادرًا على أن أريك أشياء ستهزم أساتذتك العظماء المغرورين. يجدر بك القدوم، ويمكنك رسم جوزي حين تركب الخيل. وإن لم تري الجمال في قطيع من مئة حصان برّي أو نحوها، فسأستسلم»، قال دان وقد أصبح متحمسًا للجمال والقوة البرّيين اللذين يبتهج بهما لكن لا طاقة له لوصفهما.

«سآتي يومًا ما مع بابا، وأرى إن كانت الخيول أجمل من خيول سانت مارك وكاپِتل هِل. أرجوك بألا تهينَ آلهتي وسأحاول أن أحب خيولك»، قالت بِس، وقد بدأت ترى الغرب جديرًا بالمشاهدة، رغم عدم ظهور رافائيل أو أنجلو هناك بعد.

---

(١) متنزه عام في كولورادو سپرنغز ومن أفضل مناطق التسلق في العالم، وأدرج على قائمة المعالم الطبيعية الوطنية في الولايات المتحدة.

«هذا اتفاق! أرى أن على المرء رؤية بلده قبل سفره لبلاد أجنبية، كأنما العالم الجديد ليس جديرًا بالاكتشاف»، قال دان مستعدًا لإنهاء النزاع.

«إن له بعض الميزات لا كلها. فبوسع نساء إنجلترا الاقتراع، ونحن لا نستطيع. أشعر بالخجل لأن أمريكا ليست في الصدارة في كل الأشياء الجيدة»، قالت نان ذات الآراء التقدمية في كل الإصلاحات، مبديةً قلقها على حقوقها واضطرارها للقتال من أجل بعضها.

«أوه، لا تبدئي بذلك من فضلك، يتشاجر الناس دومًا حول هذه المسألة، ويتنابزون بالألقاب ولا يتفقون أبدًا، دعينا هادئين وسعداء هذه الليلة»، توسلت ديزي التي تكره النقاش بقدر ولع نان به.

«ستنتخبين بقدر ما تحبين في بلدتنا الجديدة يا نان، وتصبحين العمدة وعضو المجلس البلدي وتهتمّين بكل الأمور. ستكون بلدة حرة كالهواء وإلا لن أتمكن من العيش فيها»، قال دان مضيفًا بضحكة، «أرى أن السيدة غِدي غادي [المشاكسة] والسيدة شكسپير سمث لا تتفقان في الرأي كعهدي بهما».

«إن اتفق الجميع، فلن نتفق أبدًا. إن ديزي غالية لكنها تميل إلى أن تكون عتيقة الطراز، لذا أحرضها وفي الخريف القادم ستذهب للتصويت معي. سيرافقنا ديمي لفعل الأمر الوحيد المسموح لنا بفعله حتى الآن».

«أستأخذهما أيها الشمّاس؟»، سأل دان مستخدمًا اللقب القديم كأنه يحبه. «إن ذلك ناجح للغاية في ويومنغ».

«سأفخر بذلك. تذهب أمي والخالتان كل عام، وستأتي ديزي معي، فهي ما زالت نصفي الأفضل، ولست أنوي تركها متخلفة في أي شيء»، قال ديمي واضعًا ذراعًا حول أخته التي كان محبًا لها أكثر من ذي قبل.

نظر دان إليهما متأملًا، مفكرًا بحلاوة أن يحظى المرء برابطة كهذه، وبدا شبابه الوحيد أكثر حزنًا من ذي قبل لما تذكر صراعاته، وقطعت تنهيدة عاصفة من توم عواطفه، إذ قال كئيبًا:

«لقد أردت على الدوام أن أكون توءمًا. إنه لمؤنس ودافئ أن يكون عندك أحد يسعد باتكائك عليه وتهدئته إن كانت الفتيات الأخريات قاسيات».

ولما كانت عاطفة توم غير المتبادلة الطرفةَ الدائمة للعائلة، فقد أثار هذا الخيالُ الضحك، وزادته نان بمناولتها إياه علبة من حبوب جوز القيء، قائلة بنبرتها المحترفة:

«علمت أنك أكلت كثيرًا من القريدس مع الشاي. خذ أربعة أقراص، وسيزول عسر الهضم. يتنهد توم دومًا إن كان متخمًا».

«سآخذها، إن هذه هي الأشياء الحلوة الوحيدة التي أعطيتها لي يومًا»، والتهم توم جرعته كئيبًا.

««أما بوسعك أن تداوي ذهنًا عليلًا، أن تقتلعَ من الذاكرة حزنًا مجذورًا»»(١)، اقتبست جوزي وهي جاثمة على السياج.

---

(١) مكبث: وليم شكسبير ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، الفصل الخامس/ المشهد الثالث. ص١٤٣. المسرح العالمي، مايو ٢٠٠٨.

«تعال معي يا توم وسأصنع منك رجلًا. اترك أقراصك ومساحيقك، واقفز مرحًا حول العالم لفترة من الزمن، وستنسى سريعًا أن لك قلبًا، أو حتى معدة»، قال دان مقدمًا دواءه الشافي من كل العلل.

«أبحر معي يا توم. فنوبة قوية من دوار البحر ستعيد إليك صوابك، وستبعد الريح الشمالية الغربية الجافة شياطينَك الزرق، تعال معي بوصفك طبيبًا، فهذا عمل سهل وكثير من المرح».

«وإن عبست محبوبتك يا صاحبي
وسخرت من سترتك [البحرية] الزرقاء
فارفع شراعك مبحرًا صوب موانئ أخرى
واعثر على غيداء أصدق..».

أضاف إميل، الذي يعرف أغنية تزيل كل قلق وحزن، يقدمها لأصدقائه بلا مقابل.

«ربما أفكر بهذا عندما أنال شهادتي. إذ لست أنوي هدْر ثلاث سنين دون الحصول على شيء أتباهى به، حتى ذلك الحين...».

«لن أهجر السيدة مكاوبر»[1]، قاطعه تدي بنشقة مغرغرة.

فدحرجه توم في الحال من فوق العتبة إلى العشب الرطب في الأسفل، وحين انتهت هذه المشادة القصيرة، أشار رنين ملاعق

---

(١) شخصية في ديفد كوپرفيلد لتشارلز دكنز، تردد دومًا «لن أهجر السيد مكاوبر».

الشاي إلى أشياء منعشة من صنف ألذ. في الأيام الخوالي كانت الفتيات يخدمن الفتيان لتفادي الفوضى. أما الآن فقد هرع الشبان لخدمة السيدات، الشابات منهن والكبيرات، وأظهرت هذه الحقيقة الصغيرة بجلاء كيف رُتبت الطاولات بسرعة، ويا له من ترتيب مبهج! حتى جوزي جلست هادئة، وتركت إميل يجلب لها توت العنبية، وهي تستمتع بصباها، إلى أن سرق تد كعكتها، فنسيت عندئذٍ آدابها، وعاقبته بضربةٍ على براجمه. وسُمح لدان وحده، كونه ضيف الشرف، أن يخدم بِس التي ما زالت تتمتع بالمكانة الأعلى في هذا العالم الصغير، وانتقى توم بعناية أفضل كل شيء من أجل نان، لتحطمه بتعليقها:

«لا آكل أبدًا في هذا الوقت، وسترى كابوسًا إن أكلت».

فأذعن كابحًا قرصات الجوع، وقدّم الطبق لديزي، ومضغ ورق الورد لتكون عشاءه.

ولما التُهِم مقدار مذهل من الطعام اللذيذ، قال أحدهم: «لنغنِّ!»، وأعقبت ذلك ساعة موسيقية؛ فعزف نات على الكمان، وديمي على المزمار، وداعب دان أوتار البانجو القديم، وصدح إميل بأنشودة حزينة عن تحطم سفينة بِتسي المرحة، ثم انضم إليه الجميع لغناء الأغاني القديمة إلى أن «امتلأ الهواء بالموسيقى»، وقال المارة وهم يستمعون باسمين: «پلم العتيق جذل هذه الليلة!».

عندما غادر الجميع، مكث دان في الشرفة المقنطرة، متمتعًا بالنسيم الشذي الذي يهب من حقول التبن، حاملًا أنفاس الزهور

من پارناسوس، وإذ هو متكئ هناك بهيئة رومانسية في ضوء القمر، إذ جاءت السيدة جو لتغلق الباب.

«أتحلم أحلام اليقظة يا دان؟»، سألته، ظانة أن اللحظة الحساسة قد حانت. فتخيّل الصدمة حين استدار دان، وقال بصفاقة، بدلًا من بعض الأسرار المثيرة أو الكلمات المحبة:

«ليت بوسعي التدخين».

ضحكت السيدة جو لانهيار آمالها، وأجابته برفق:

«يمكنك ذلك، في غرفتك، ولكن لا تشعل النار في البيت».

لعل دان رأى شيئًا من الخيبة على وجهها، أو أن ذكرى ما أعقب ذلك الطيش الصبياني قد مس قلبه، إذ انحنى وقبّلها قائلًا في همس:

«تصبحين على خير يا أمي»، ورضيت السيدة جو نصف رضا.

## (٥)
# إجازة

سُرّ الجميع بالإجازة صباح اليوم التالي، وكلهم مكثوا جالسين إلى طاولة الإفطار حتى قالت السيدة جو فجأة:

«يا إلهي، ثمة كلب!»، وعند العتبة ظهر كلب ضخم من نوع كلب الأيائل واقفًا بلا حراك، وعيناه مثبتتان على دان.

«أهلًا يا صاحبي! ألم تستطع الانتظار حتى آتي إليك؟ أهربت خلسة؟ اعترف الآن، واحتمل عقابك مثل رجل»، قال دان ناهضًا للقاء الكلب، الذي طوى قائمتيه الخلفيتَين لينظر في وجه سيده وينبح كأنه ينطق بإنكار ناقم لأي عصيان.

«حسنٌ، دون لا يكذب أبدًا»، وعانق دان الكلب الطويل مضيفًا وهو ينظر من النافذة، حيث شاهد رجلاً وفرسًا يقتربان:

«لقد تركت متاعي في الفندق أمس، إذ لم أعرف كيف أجدكم. تعالوا وشاهدوا أوكتو، فرسي المُستنغ، إنها جميلة»، وخرج دان والعائلة تجري خلفه للترحيب بالقادمة.

وجدوها تتأهب لارتقاء الدرجات في خضم لهفتها للقاء سيدها، في ظل ارتباك الرجل الذي يُبعدها.

«دعها تصعد»، قال دان، «إنها تصعد مثل قطة وتقفز مثل غزال. حسنٌ يا فتاتي، أتريدين أن نعدو؟»، سأل عندما قرقعت الفرس الجميلة صاعدة إليه وصهلت سعيدة وهو يمسح على أنفها ويربت على كشحها اللامع.

«هذا ما أسميه حصانًا جديرًا بالاقتناء»، قال تد يغمره الإعجاب والسرور، إذ عُهد إليه بالعناية بالفرس أثناء إقامة دان.

«يا لهما من عينين ذكيتين! كأنها قادرة على الكلام»، قالت السيدة جو.

«إنها تتحدث كالبشر على طريقتها. لكنها لا تعلم إلا قليلًا، أليس كذلك يا فتاتي؟»، ووضع دان خده على خدها كأن الفرس الصغيرة السوداء حبيبته.

«ما معنى «أوكتو»؟»، سأل روب.

«البرق، وهي تستحق الاسم، كما سترى. أعطاها لي بلاك هوك مقابل بندقيتي، وقضينا أوقاتًا رائعة هناك، إذ أنقذت حياتي أكثر من مرة. أترون هذه الندبة؟».

وأشار دان إلى ندبة صغيرة، يخفي العرف الطويل جزءًا منها، وقص حكايتها وهو واقف واضعًا يده على عنق أوكتو.

«كنا أنا وبلاك هوك نطارد قطيع جواميس، لكننا لم نجده

بسرعة كما ظننا، لذا نفد طعامنا، وكنا بعيدين مئة ميل عن نهر رد دير [الغزال الأحمر]، حيث مخيمنا؛ حسبت أننا هلكنا، ولكن رفيقي الشجاع قال: «سأريك الآن كيف نظل على قيد الحياة إلى أن نعثر على القطعان». كنا نترجل عن الخيول لقضاء الليلة قرب بركة، ولم نر كائنًا حيًا في أي مكان، ولا حتى عصفور، وكان بوسعنا الرؤية على بعد أميال في السهوب. ماذا فعلنا بظنكم؟»، نظر دان إلى الوجوه من حوله.

«أكلتما الديدان كالأستراليين»، قال روب.

«طهوتما العشب أو أوراق الشجر»، أضافت السيدة جو.

«ربما ملأتما بطنيكما بالطين، كما قرأنا عن المتوحشين؟»، قال السيد باير.

«قتلتما واحدًا من الخيول»، قال تد المتعطش لإراقة الدماء.

«كلا، ولكننا فصدنا أحدها. انظروا، من هنا، ملأنا كوب صفيح، ووضعنا فيه بعض أوراق القصعين البري، مع الماء ووضعناها على نار أشعلناها من العيدان. كان شهيًا ونمنا نومًا عميقًا».

«أحسب أن أوكتو لم تنم»، وربتت جوزي على الفرس بوجه يملؤه العطف.

«لم تكترث للأمر البتة. قال البازي الأسود إن بوسعنا العيش على الخيول وامتطاءها عددًا من الأيام قبل أن تتأثر. لكننا وجدنا الجواميس الصبح التالي، وأطلقت النار على الجاموس الذي جلبت

رأسه في صندوقي، جاهزًا لتعليقه وإثارة الرعب في نفوس الأطفال الزمجين. أؤكد لكم أنه جاموس قوي».

«ما الغرض من هذا السير؟»، سأل تد الذي انهمك في معاينة السرج الهندي، واللجام الوحيد والشكيمة، والوهق، وحول العنق الحزام الجلدي الذي تكلم عنه.

«نمسك بهذا عندما نتمدد على كشح الحصان بعيدًا عن أعين العدو، ونطلق النار من تحت العنق ونحن نعدو ونعدو. سأريك».
وقفز دان إلى السرج، ونزل العتبات، وقطع المرج بسرعة كبيرة، على ظهر أوكتو أحيانًا، أو مختبئًا وهو معلق بالركاب والحزام أحيانًا، أو مترجلًا عن ظهرها يركض بجانبها وهي تطفر، شديدة الفرح باللعب أحيانًا أخرى، ودون يركض خلفها بجذل الكلاب وقد استعاد حريته مع صديقيه.

كان مشهدًا جميلًا، والجامحون الثلاثة يلعبون، مفعمين بالنشاط والجمال والحرية، حتى بدا المرج الناعم سهبًا لوهلة، وانتاب المتفرجون شعور بأن هذا المشهد حياة أخرى بدت فيها حياتهم جبانة تفهة.

«هذا أفضل من السيرك!»، قالت السيدة جو، متمنية لو عاد إليها الصبا، حتى تعدو على ظهر هذه الفرس الشبيهة بالبرق المقيد.
«أرى أن يديْ نان ستظلان مشغولتين بتجبير العظام، لأن تد سيكسر كل عظمة وهو يحاول منافسة دان».

«لا بأس في بضع سقطات، وهذا الاهتمام والفرح الجديد

سيجديانه نفعًا بشتّى الأحوال. لكني أخشى ألّا يقف دان خلف المحراث بعد امتطاء بيغاسوس»[1]، أجاب السيد باير عندما وثبت الفرس السوداء من فوق البوابة، وجاءت مسرعة عبر الدرب المشجّر لتتوقف عندما أُمرت، وهي تختلج حماسًا حين ترجل دان ورفع رأسه منتظرًا الإطراء.

فتلقى الكثير منه، وبدا أكثر سرورًا بما نالته فرسه مما ناله هو. طالب تد بدرس في التو واللحظة، وجلس من فوره مرتاحًا على السرج الغريب، فوجد أوكتو وديعة كالحمل، وهو يخبّ مبتعدًا ليتباهى بها في الكلية. جاءت بِس مسرعة نازلة التل وقد رأت السباق من بعيد، واجتمع الكل في الشرفة المقنطرة، حين «نزع» دان الغطاء عن الصندوق الكبير الذي «ألقاه» عند الباب البريدُ السريع، إن أردت استعارة كلماته.

يسافر دان عادة بنظام المسيرة الخفيفة، إذ يكره أن يكون عنده من الأمتعة أكثر مما يمكنه حمله في حقيبته البالية. أما وقد صار يملك المال فقد أثقل يديه بمجموعة من الغنائم التي كسبها بقوسه ورمحه، وجلبها إلى البيت ليهبها للأصدقاء.

«ستلتهمنا حشرات العثة»، قالت السيدة جو في نفسها، عندما ظهر الرأس الأشعث، يعقبه بساط من جلد ذئب لقدميها، وبساط

---

(١) حصان مجنح في الأساطير الإغريقية، خلق من جسد ميدوزا بعد قطع رأسها، وما إن ولد حتى طار إلى السماء.

مماثل من جلد الدب لمكتب الأستاذ، وثياب هندية محلّاة بذيول الثعالب من أجل الولدين.

بدت كل الهدايا جميلة وحارة [لتستخدَم] في نهار يوليو، لكنها قُبلت بسرور. «تهندم» جوزي وتد في الحال، وتعلما هتاف الحرب، ومضيا يثيران دهشة أصدقائهما بسلسلة من المناوشات حول البيت والأرض، حامليْن بلطات وأقواسًا وسهامًا، حتى أخذ منهما التعب كل مأخذ.

ابتهجت الفتيات بأجنحة الطيور الجميلة، وعشب الـپامـپا ذي الريش، وعقود من الصدف، ومشغولات الخرز الجميلة والريش. وأثارت اهتمام الأستاذ المعادنُ ورؤوس السهام، ورسومات غير متقنة. وحين فرغ الصندوق، قدّم دان إلى السيد لوري هديته من الأغاني الهندية العديدة الحزينة مكتوبة على لحاء البتولا.

«لا نحتاج إلا خيمة ليكتمل مظهرنا. أشعر أن عليّ أن أقدم لكم ذرةً محروقة ولحمًا مجففًا على العشاء، يا محاربيّ الهنود. فلن يرغب أحدكم بلحم الضأن والبازلاء الخضراء بعد هذا المهرجان الصاخب»، قالت السيدة جو، وهي تعاين الفوضى الجميلة في البهو الطويل، حيث نثر الناس البسط المزينة بالريش أو الجلد أو الخرز.

«ستكون أنوف الموظ، وألسنة الجواميس، وشرائح لحم الدببة، ونخاع العظام المشوية الطعام المناسب، لكني لا أمانع في التغيير، لذا هاتي حملك الثاغي وخضرواتك»، أجاب دان من داخل الصندوق،

حيث جلس جلسة زعيم هندي في قبيلته، وعند قدميه كلب صيد كبير.

بدأت الفتيات برفع الأشياء، لكنهن لم يحرزن تقدمًا كبيرًا، فلكل شيء يلمسْنه قصة، وكل القصص مشوقة ومضحكة ومخيفة، لذا وجدن صعوبة في إنجاز عملهن، إلى أن جاء السيد لوري وخرج مع دان.

كانت هذه بداية إجازة الصيف، وكان طريفًا رؤية الحماس البهيج القليل الذي أضفاه قدوم دان وإميل على حياة الجمع الهادئ، فقد جلبا نسيمًا عليلًا معهما بث الحياة في الجميع. بقي الكثير من طلاب الكلية أثناء الإجازة، وبذل پلمفيلد وپارناسوس قصارى جهدهما لإضفاء المرح على هذه الأيام، إذ قدم معظمهم من ولاياتٍ بعيدة، وكانوا فقراء، وليس عندهم إلا هذه الفرصة للتثقيف والتسلية. كان إميل صديقًا قوبل بحفاوة من الرجال والنساء، ومضى مرحًا بهيئة البحّار الحقيقي، لكن دان وقف متعجبًا من «الفتيات الخريجات الجميلات»، وظل صامتًا وهو بينهن، ناظرًا إليهن مثلما يُعاين العقاب سربًا من الحمام. كان أكثر انسجامًا مع الرجال، وصار بطلهم في الحال. إذ داعب غروره إعجابُهم بأفعاله الشجاعة، لأنه أدرك جيدًا القصور في تعليمه، وكثيرًا ما تساءل إن كان سيجد في الكتب شيئًا يرضيه للغاية بقدر الدروس التي تعلمها من كتاب الطبيعة المرسوم رسومًا رائعة. ورغم صمته، فقد عرفت الفتيات خصاله الحميدة، ونظرن إلى «الإسباني»، كما سمّينه، بإعجاب كبير، فقد كانت عيناه السوداوان أبلغ من لسانه،

وحاولت اللطيفات إظهار اهتمامهن الودود بعدد من الأساليب الآسرة.

فأدرك ذلك، وسعى جاهدًا ليكون جديرًا به، كابحًا لسانه السليط، مرققًا أسلوبه الفظ، ومراقبًا أثر كل ما يقوله ويفعله، متلهفًا لترك انطباع حسن. وآنس جو الألفة قلبَه الوحيد، ودفعته الحضارة إلى بذل جهده، والتغيير الذي طرأ في غيابه، عليه وعلى الآخرين في آنٍ معًا، جعل البيت القديم يبدو عالمًا جديدًا. كانت العودة -بعد الحياة في كاليفورنيا- حلوة ومريحة، تحيط به هذه الوجوه الصديقة، وتساعده على نسيان كثير مما يندم عليه، والعزم على استحقاق ثقة هؤلاء الرفاق الطيبين تمامًا، واحترام هؤلاء الفتيات البريئات.

كان النهار يُقضى في الركوب والصخب والتنزه، والليل في الموسيقى والرقص والمسرحيات، وقال الجميع إنهم لم يقضوا إجازةً سعيدة كهذه منذ سنوات. أوْفَت بِس بوعدها، وتركت الغبار يتراكم على صلصالها الحبيب، فخرجتْ تمرح مع رفاقها أو درست الموسيقى مع أبيها، الذي فرح بالورود النضرة على وجنتيها والضحكات التي أبعدت النظرة الحالمة التي ترتسم على وجهها عادة. وتشاجرت جوزي قليلًا مع تد، لأن دان ينظر إليها فيهدئها في الحال، وله التأثير نفسه على ابن خالتها المشاكس. لكن أثر أوكتو كان أكبر على الفتى النشط، فوجد سحرها قد حجب سحر الدراجة التي كانت بهجة قلبه من قبل. كان يمتطي هذه الفرس التي لا تتعب ليلًا ونهارًا، وأخذ يكسب بعض الوزن، وفرحت أمه التي خشيت أن ساق فاصوليائها تكبر أسرع مما تحتمل صحته.

ديمي، الذي وجد العمل مملًا، تسلّى في وقت فراغه بتصوير كل من استطاع إقناعه بالجلوس أو الوقوف من أجله، مخلفًا بعض الصور الرائعة إلى جانب الكثير من الفاشلة، فقد كان ذو ذوق رفيع في التنسيق، وصبر لا حد له. قد يسعنا القول إنه يرى العالم من خلال عدسة آلة التصوير، وبدا شديد السعادة وهو يخزر عينيه نحو رفاقه من تحت قطعة القماش القطني الأسود. وكان دان كنزه، فقد قبل [التصوير]، ووقف طائعًا في زيّه المكسيكي مع الحصان والكلب، فأراد الجميع نسخة من هذه الصور الرائعة.

كانت بِس أيضًا من الموضوعات الأثيرة، فقد حصل ديمي على جائزة في معرض التصوير للهواة لأجل واحدة من صور ابنة خالته وفيها شعرها يطوق وجهها، الذي انبثق من غيمة من القماش المخرم الأبيض يكسو الكتفين. ومرر الفنان الفخور هذه الصور على الجميع، ولإحدى نسخها قصة رقيقة لا بد من قصّها.

كان نات يقتنص كل لحظة يسعه قضاؤها مع ديزي قبل الفراق الطويل، ولانت السيدة مِغ قليلًا وهي واثقة أن الغياب سيداوي هذا الهوى البائس. تكلمت ديزي قليلًا، لكن الحزن يكسو وجهها الرقيق حين تكون وحدها، وتنهمر قطرات من الدمع على المناديل التي طرزتها بشعرها تطريزًا أنيقًا. إذ كانت واثقة أن نات لن ينساها، وبدت الحياة كئيبةً من دون هذا الشاب الحبيب الذي كان صديقها منذ أيام الفُطَيرات وتبادل الأسرار في شجرة الصفصاف. كانت ابنة من طراز عتيق، مطيعة وسهلة القياد، إلى جانب حبها وتبجيلها لأمها التي كانت رغباتها أوامر. وإن كان الحب محظورًا فلا بد أن تفي

الصداقة بالغرض، لذا احتفظت بأحزانها لنفسها، وابتسمت لنات مبتهجة، وجعلت أيامه الأخيرة في البيت سعيدةً جدًا بكل الراحة والمسرات التي وسعها تقديمها، من النصح الحكيم والكلمات الحلوة إلى حقيبة الأشغال الممتلئة من أجل حياة العزوبية وصندوق المتاع لأجل رحلته.

اغتنم توم ونان كل ما استطاعا توفيره من وقت دراستهما ليستمتعا بالمرح الكثير في پلمفيلد مع أصدقائهما القدامى، إذ ستكون رحلة إميل القادمة رحلة طويلة، وغياب نات سيدوم لأجل غير معلوم، ولم يعرف أحد متى سيظهر دان مرة أخرى. أحسّ الجميع أن الحياة أخذت تنحو منحى جادًا، وفي أثناء استمتاعهم بأيام الصيف الجميلة معًا أدركوا أنهم لم يعودوا أطفالًا، وفي أوقات الراحة من المرح، كثيرًا ما تحدثوا أحاديث جادةً عن خططهم وآمالهم، كأنهم يتلهفون لمعرفتها ولمساعدة بعضهم بعضًا قبل أن تأخذهم مسارات الحياة المختلفة.

لم يكن عندهم إلا بضعة أسابيع، ثم أصبحت سفينة برندا جاهزة، وكان على نات أن يبحر من نيويورك، فرافقه دان ليراه يغادر، وقد كانت خططه تتخمر في عقله وتحمّس للنهوض وتنفيذها. أقيم حفل وداع راقص في پارناسوس على شرف المسافرين، وجاء الجميع بأبهى حلة وأسعد بال. وجاء جورج ودولي بآخر صيحات هارڤرد وأناقتها، متألقين يسران الناظرين، يلبسان بدلتين ويعتمران «قبّعتين مسحوقتين» كما سمت جوزي الغرور والبهجة الواضحين

في طبعهما الصبياني. أرسل جاك ونِد اعتذارهما وأطيب أمنياتهما، ولم يبكِ أحدٌ غيابهما فهما ممن تسميهم السيدة جو بإخفاقاتها. وتورط توم المسكين -كعادته- بإغراق رأسه بمستحضرٍ قوي الرائحة في أمل عقيم لجعل تجعيداته العنيدة ملساء ناعمة، مثلما كان دارجًا. لسوء الحظ، لم تفعل خصلاته الثائرة شيئًا سوى أنها تلفلفتْ لفافات أصغر، والتصقت به رائحة الكثير من دكاكين الحلاقة رغم محاولاته الحثيثة للتخلص منها. لم تسمح له نان بالاقتراب منها، وروّحت بمروحتها بقوةٍ كلما رأته، وهذا ما جرح قلبه، وأحس أنه پري المطرود من الجنة[1]. وسخر منه رفاقه، ولم ينقذه من اليأس إلا طبعه المرح الذي لا يفتر.

كان إميل متألقًا في بزّته الجديدة، ورقص بحماسة لا يعرفها إلا البحارة. كان حماسه في كل مكان، وسرعان ما انقطعت أنفاس شريكاته في الرقص وهن يحاولن مجاراته، لكن كل الفتيات قلن إنه يتحرك برشاقة الملائكة، ورغم سرعته لم يقع أي تصادم، لذا كان سعيدًا، ولم يجد صعوبة في العثور على آنسة تبحر معه.

أُقنع دان، الذي لا يملك بزّة، ليلبس زيه المكسيكي، وأحس بالراحة في سرواله كثير الأزرار، وسترته الواسعة وحزامه الجميل، ملقيًا الشال على كتفه متباهيًا. وبدا أنيقًا، وبذل جهدًا عظيمًا بالحركة مع مهمازيه الطويلين وهو يعلّم جوزي خطوات غريبة، أو وهو يلاحق بنظرات الإعجاب آنساتٍ شقراوات لم يجرؤ على مخاطبتهن.

---

(١) في الأساطير الفارسية هو جني من الشياطين طرد من الجنة إلى أن أعلن توبته.

جلست الأمهات في الشرفة المقنطرة، يقدّمن الدبابيس والابتسامات والكلمات اللطيفة للجميع، وبخاصة للشبان المحرَجين حديثي العهد بهذه المناسبات، والفتيات الحييّات الخجلات من فساتين الموصلين الباهتة والقفازات المبيّضة. كان مرأى السيدة إيمي فاخرًا وهي تتنزّه مستندة إلى ذراع فتى ريفي، يلبس حذاء ثقيلًا وله جبين عريض. أو السيدة جو وهي ترقص كصبيةٍ مع فتى خجول يداه كذراعي المضخّة، ووجهه قرمزي من الإحراج والزهو لتشرّفه بوطء أصابع زوجة مدير الكلية. وكان لدى السيدة مِغ دومًا مكان على الأريكة لفتاتين أو ثلاث، وكرس السيد لوري نفسه للآنسات العاديات ذوات الثياب القبيحة بتهذيب لطيف فاز بقلوبهن وأسعدهن. دار الأستاذ الطيب مثل المرطبات، وابتسم وجهه السعيد للكل على حد سواء، وناقش السيد مارش الملهاة الإغريقية في المكتب مع بعض الرجال الجادّين الذين لا تميل عقولهم الجبارة إلى المرح والصخب.

كانت غرفة الموسيقى الطويلة والبهو والردهة والشرفة المقنطرة مزدحمة بالفتيات ذوات الفساتين البيضاء مع المرافقين الملازمين لهن كظلالهن، وامتلأ الهواء بالأصوات النابضة بالحياة، وانسجمت القلوب والأقدام في نبضاتها الرشيقة عندما عزفت فرقة البيت بمرح، وجهد القمر الودود ليضفي سحرًا على المشهد.

«ضعي لي دبوسًا يا مِغ، فقد شق فتى دنبر العزيز ثوبي "إربًا إربًا" كما يقول السيد پغوتي[1]. لكنه لم يستمتع، إذ ارتطم برفاقِهِ

(١) شخصية في رواية ديڤد كوپرفيلد لتشارلز دكنز.

الرجال، ولوّح بي مثل خرقة. وفي هذه الحالات أدرك أني لم أعد فتية كما كنت، ولا رشيقة الخطى. فلنقرّ يا أختي أننا سنصبح زكيبتيْ جريش في غضون عشر سنوات»، وانتحت السيدة جو جانبًا، شعثاء الشعر بعد مجهوداتها الخيّرة.

«أعلم أني سأغدو بدينة، لكنك لن يتسنى لك الوقت لإكساء عظامك بمزيد من اللحم يا عزيزتي، وستحتفظ إيمي دومًا بقوامها الرشيق. إنها تبدو في الثامنة عشرة الليلة بفستانها الأبيض وورودها». أجابت مِغ، وهي منشغلة بوضع الدبابيس على الحاشية الممزقة لإحدى أختيها، وعيناها تلاحقان بحب حركات الأخرى الرشيقة، إذ لم تزل مِغ تكن الحب لإيمي كعادتها القديمة.

كانت إحدى طُرف العائلة أن جو آخذة في السمنة، وجارتْهم فيها، رغم أنها لم تكتسب إلا بعض تقاطيع الأمهات الجذابة للغاية. كانتا تضحكان على الذقن المزدوج المنتظر عندما أخذ السيد لوري راحة من الواجب للحظات.

«أتصلحين الأعطال كالعادة يا جو؟ لا يمكن أن ترقصي رقصة صغيرة رقيقة دون أن تعودي بالشقوق. رافقيني في نزهة هادئة باردة قبل العشاء، لدي عدد من اللوحات الجميلة أريها لك، بينما تستمع مِغ إلى ضحكات الآنسة كار اللثغاء، التي أدخلت البهجة إلى قلبها حين جعلت ديمي يشاركها الرقص».

أخذ لوري -وهو يتكلم- جو إلى غرفة الموسيقى التي كادت تفرغ بعد الرقص الذي أخرج الشبان إلى الحديقة والبهو. وأشار إلى

جماعة في الخارج، وهو يقف أمام واحدة من النوافذ الأربع الطويلة المطلة على الشرفة المقنطرة الواسعة قائلًا: «اسم هذا المشهد «البحّار على الشاطئ»».

زوج من السيقان الطويلةِ الزرقاء، ينتهي بسترة أنيقة جدًا تدلّى من سطح الشرفة بين الدوالي، وأُلقيت الورود التي جمعتها يدان لا مرئيتان، وتعودان إلى الساقين المذكورتين آنفًا بلا شك، في أحضان عددٍ من الفتيات الجالسات على السياج مثل سرب من العصافير البيضاء، وصوت رجولي «وقع مثل الشهاب»[1]، وهو يغنّي أنشودة حزينة لجمهور معجب للغاية:

**حلم ميري**

«ارتقَى القمرُ التلة الشرقيّة
التي تعلو فوق رمال نهر دي
ومن أعلى قممها ألقَى
ضياء فضيًا على البرج والشجر
استلقتْ ميري لتنام
(وهي تفكر بساندي البعيد في البحار)؛
سُمع عندئذ صوت رقيق خفيض
يقول «لا تبكيني بعد اليوم يا ميري»
برفق من وسادتها رفعتْ

(١) سطر من قصيدة «إلى العُلى» لهنري وادزورث لونغفيلو.

رأسها، لترى مَن هناك
ورأت ساندي الشاب واقفًا يرتعش
شاحب الوجه غائر العينين
«آه يا ميري، جسمي بارد
يرقد تحت البحرِ الهائج
بعيدًا، بعيدًا عنك، أرقد ميتًا.
حبيبتي ميري، لا تبكيني بعد اليوم.
ثلاث ليالٍ عاصفة، وثلاثة أيام عاصفة
ألقى بنا البحر الغاضب
وحاولنا طويلًا إنقاذ قاربنا
لكن مساعينا مُنيتْ بالفشل
حينئذٍ، عندما جمد الخوفُ الدماء في عروقي
ظل قلبي ممتلئًا بحبك
انقضت العاصفة، وأنا مرتاح
لذا لا تبكيني بعد اليوم يا ميري.
آه أيتها الفتاة الحبيبة، أعدّي نفسك
سنلتقي قريبًا على ذاك الشاطئ
حيث يتحرر الحب من الشك والقلق
ولن نفترق أنا وأنت أبدًا».
نعقَ الغراب نعيقًا عاليًا، وخيم الظلام

وما عادت ترى حبيبها ساندي
لكن الطيف العابر قال بصوت رقيق
«لا تبكيني بعد اليوم يا ميري الحلوة»».

«إن المرح الدائم لهذا الفتى يعادلُ ثروة في نظره. لن يغرق أبدًا ما دامت روحه السعيدة ستبقيه هانئ البال في الحياة»، قالت السيدة جو، حين ألقيت الورود يصحبها تصفيق حار بعد انتهاء الأغنية.

«حقًا، وإنها لنعمة تُشكر، أليس كذلك؟ نعلم -نحن الكئيبين- أنها كنز. يسعدني أنك أحببتِ مشهدي الأول، فتعالي وشاهدي الثاني. أرجو أنه لم يفسد، فقد كان جميلًا قبل قليل، هذا «عطيل» يحكي مغامراته لدزدمونة».

أظهرت النافذة الثانية مجموعة بديعة تتألف من ثلاثة. السيد مارش جالسًا على كرسي ذي ذراعَين، وبِس تجلس على مخدة عند قدميه، يصغيان إلى دان المتكئ على عمود ويتحدث بحيوية غير عادية. كان الشيخ في الظل، لكن دزدمونة الصغيرة ترفع نظرها -ونور القمر يسطع عليها- إلى وجه عطيل الشاب، مستغرقة تمامًا في القصة التي يسردها سردًا ممتعًا. وجعل الوشاح الأنيق على كتف دان، ووجهه الأسمر وحركة ذراعه الصورة مدهشة للغاية، واستمتع المتفرجان بالنظر إليها في سرور صامت، حتى قالت السيدة جو في همسة سريعة:

«يسعدني أنه سيرحل، فهو شديد الوسامة ليكون بين الكثير من

الفتيات الرومانسيات، وأخشى أن أسلوبه الكئيب الراقي والفريد سيكون كثيرًا على فتياتنا البسيطات».

«لا خوف من ذلك، إذ إن دان فظ كعهدنا به، وأحسب أنه سيظل كذلك، رغم تحسنه بصور عديدة. كم تبدو ملكتي رائعة في النور الرقيق!».

«تبدو غولدِلكس الصغيرة الحبيبة رائعة أينما حلت»، وبنظرة خلفية ملؤها الزهو والحب، تقدمت السيدة جو، لكن هذا المشهد عاد إلى ذاكرتها بعد هذا بزمن طويل، إلى جانب نبوءتها.

كان الثالث مشهدًا مأساويًا عند النظرة الأولى، وكتم السيد لوري ضحكةً وهو يهمس «الفارس الجريح»، مشيرًا إلى توم ورأسه ملفوف بمنديل كبير، إذ جثا أمام نان، التي تُخرج شوكة أو شظية من راحة يده ببراعة كبيرة، إن حكمنا من وجه المريض الذي تعلوه السعادة.

«أأؤلمك؟»، سألته مديرة اليد إلى نور القمر لترى أفضل.

«البتة، واصلي الحفر فهذا يروق لي»، أجاب توم غافلًا عن ألم ركبتيه، والضرر الذي لحق بأفضل سراويله.

«لن أؤخرك».

«ساعات إن شئت. لم أكن سعيدًا يومًا بقدر سعادتي الآن».

لم تتأثر نان بقوله، ووضعت نظارةً كبيرة مدورة، قائلة بنبرة الأمر الواقع: «ها أنا أراها الآن. إنها شظفة، وها قد أخرجتُها».

«يدي تنزف، ألن تضمديها؟»، سأل توم متمنيًا أن يطول الموقف.

«هراء، العقها. انتبه غدًا عندما تذهب للتشريح، لا نريد مزيدًا من تسمم الدماء».

«هذه المرة الوحيدة التي كنت لطيفة فيها معي. ليتني فقدت ذراعي».

«ليتك فقدت رأسك، إذ تنبعث منه رائحة كرائحة زيت الراتينج والكيروسين أقوى من ذي قبل. اركض في الحديقة وهوّه».

تقدمَ المتفرجان، خشية أن تفضحهما ضحكاتهما، تاركين الفارس ليجري يائسًا، والليدي لتدفن أنفها في تاج زنبقة طويلة طلبًا للانتعاش.

«يا لتوم المسكين، إن قدره قاسٍ، وهو يهدر وقته! انصحيه ليقلع عن الغزل ويذهب للعمل يا جو».

«كثيرًا ما فعلت يا تدي، ولكن الصبي يحتاج صدمة كبيرة ليعود إلى صوابه. وإني لأنتظر بفارغ الصبر لأرى ما هي، يا ربي! ما كل هذا؟».

كان حريًا بها أن تسأل، إذ صعد تد على مقعدٍ صدئ محاولًا الوقوف على قدم واحدة، مادًا الساق الأخرى، وملوحًا بكلتا يديه في الهواء. كانت جوزي، وعدد من رفيقاتها من الصبايا يراقبن التواءاته باهتمام كبير وهن يتحدثنَ عن «الجناحين الصغيرين»، و«الساقين الذهبيتين المفتولتين» و«القلنسوة الجذابة».

«قد نسمي هذا «ميركوري يحاول الطيران»»، قال السيد لوري، وهما يختلسان النظر من الستائر المخرمة.

«بوركت ساقا الصبي الطويلتان! كيف يحسب أنه سيسيطر عليهما؟ إنهم يخططون لتقليد تماثيل أوَلزدارك، ولا بد أنهم سيعيثون فسادًا بأربابي ورباتي دون أن يرشدهم أحد»، أجابت السيدة جو وقد فرحت بهذا المشهد للغاية.

«ها قد فعلها!»، «إنه رائع!»، «انظر كم من الوقت يمكنك البقاء هكذا»، هتفت الفتيات، عندما استطاع تد إبقاء توازنه للحظة بوضع إصبع قدمه على العريشة. لسوء الحظ جعل هذا كل ثقله ينصب على القدم الأخرى، فانشقت مقعدة القش، وسقط ميركوري الطائر بارتطام وسط زعيق وضحك الفتيات. ولما اعتاد الأرض والوقوع الشامخ، فقد استعاد قواه ثانية وقفز جذلًا، وإحدى ساقيه عالقة بالمقعد فارتجل رقصة الجغ التقليدية.

«شكرًا لك على لوحاتك الأربع الجميلة. لقد أوحيت لي بفكرة، وأظننا سنمثل أحيانًا مشاهد من هذا القبيل بانتظام، ونسيّر صحبنا لرؤية عدد من المشاهد المتغيرة. [فكرة] جديدة وساحرة، وسأقترحها على مديرنا وأمنحك كل المجد»، قالت السيدة جو وهما يسيران نحو الغرفة التي صدر منها ارتطام الخزف والزجاج، ونظرات من المعاطف السوداء المضطربة.

لنحذُ حذو صديقينا القديمين ونسير بين الشبان، ونسترق السمع ونجمع الخيوط الكثيرة الصغيرة للمساعدة في نسج القصة.

كان جورج ودولي عند مائدة العشاء، وبعد أن اهتما بخدمة السيدات وقفا في الزاوية منهمكين في تناول كل الأطايب وهما يحاولان عبثًا أن يخفيا شهيتهما المفتوحتَينِ تحت هيئة من اللامبالاة الأنيقة.

«هذا المأدبة لذيذة، يتحلى لورنس بذوق رفيع. قهوة فاخرة، ولكن لا نبيذ، وهذا خطأ»، قال ستفي الذي لم يزل جديرًا بلقبه، وكان شابًا بدينًا ذا عينين ناعستين وبشرة مصفورة.

«يقول إنه لا يناسب الفتيان، بحق السماء! ليته يرانا ونحن نشرب نبيذنا. ألا «ندير كؤوس الشراب» كما يقول إميل؟»، قال دولي المتأنق وهو يبسط بعنايةٍ منديلًا على امتداد صدر القميص اللامع الذي تلألأ عليه زر ماسي مثل نجمة وحيدة. لقد تخلص من تأتأته، لكنه، مثل جورج، تحدث بنبرة متشامخة تباينت إلى جانب هيئتيهما السئمتين تباينًا مضحكًا مع وجهيهما الفتيّين والتعليقات الحمقاء. كان كلاهما شابًا طيب القلب، لكنهما مثقلانِ بالكبر لأنهما طالبان في السنة الجامعية الثانية، وبالحرية التي منحتها لهما حياة الكلية.

«إن الصغيرة جو تصبح فتاة جميلة لعينة، أليس كذلك؟»، قال جورج بتنهيدة رضا طويلة إذ نزلت لقمته الأولى من الثلج في حلقه بسلام.

«همم، حسنٌ، لا بأس بها، لكن الأميرة أقرب إلى ذوقي. أحب الفتيات شقراوات وراقيات وأنيقات، كما تعرف».

«أجل، جو نشطة للغاية، وقد ترقص مع جندب. لقد جربت

الرقص معها وهي متعبة للغاية لأمثالي. الآنسة بري فتاة لطيفة سهلة القياد، فرقصت معها الرقصة الألمانية».

«لن تكون يومًا راقصًا بارعًا، فأنت كسول للغاية. إنني آخذ على عاتقي قياد أي فتاة وأن أهزم في الرقص أي فتى أردت، فالرقص لعبتي»، ونقل دولي نظره من قدميه الأنيقتين إلى ماسته البراقة بهيئة جريئة كهيئة الديك الرومي الفتيّ في موكب.

«الآنسة غري تبحث عنك، فهي تريد مزيدًا من الطعام، وانظر إذا كان صحن الآنسة نلسن فارغًا. يا لك من فتى طيب إذ تسديني هذه الخدمة، فلا يمكنني أكل الثلج على عجالة»، ظل جورج في ركنه الهادئ، في حين شق دولي طريقه في الجمع ليؤدّي واجبه، وعاد يستشيط غضبًا ببقعة من تتبيلة السلطة على كمّ معطفه.

«اللعنة على هؤلاء الريفيين! إنهم يتخبّطون مثل خنافس الروث، ويعيثون في المكان فسادًا، يجدر بهم أن يظلوا مع كتبهم وألّا يحاولوا أن يكونوا رجال مجتمع. لا يمكنني تنظيفها، يا لها من بقعة لعينة. ادعكْها، ودعني أتناول لقمة فأنا أتضوّر جوعًا. لم أر قط فتياتٍ يأكلن هذا القدر، وهذا يعني أنهن ينبغي ألا يفرطن في الدراسة. لم تعجبني تلميذاتُ المعاهد المختلطة قط». دمدم دولي، وقد صار مزاجه نكدًا.

«حقًا يفعلن، وهذا ليس من طباع السيدة. يجب أن تكتفي بثلجة وقطعة من الكيك، وتأكلها بأناقة. لا أحب رؤية فتاة تأكل. إننا -الرجال الكادحين- نحتاج الطعام، ولكن بحق السماء أود

الحصول على قليل من ذلك المرنغ إن لم ينفد. تعال أيها النادل! اجلبْ لي ذلك الطبق، وأسرع الخطى»، أمر ستفي، واكزًا شابًا يلبس بدلة رثة، كان يمر حاملًا صينية كؤوس.

استُجيب لأمره في الحال، لكن شهية جورج فسدت في اللحظة نفسها عندما قال دولي، وهو يرفع نظره من معطفه التالف، بوجه مشمئز:

«لقد أوقعت نفسك في المتاعب يا صاحبي! هذا مورتن، تلميذ السيد باير غريب الأطوار، يعرف كل شيء، ليس كمثله طالب «درّيس»، وهو ينوي الحصول على كل مراتب الشرف، ولن تسمع نهاية القائمة قريبًا»، ضحك دولي بحرارة حتى طارت ملعقة من الثلج على رأس سيدة تجلس قربه، ووضعته في مأزقٍ أيضًا.

لنتركهما لمأزقيهما، ولنذهب للاستماع إلى الحديث الهامس بين فتاتين تجلسان مرتاحتين في فسحة تنتظران حتى يأكل مرافقاهما.

«أرى أن آل لورنس يقيمون حفلاتٍ جميلة، ألا تحبينها؟»، سألت الأصغر وهي تنقل نظرها حولها بلهفة فتاةٍ لم تعتد هذه المباهج.

«كثيرًا، عدا أنني لا أشعر يومًا أني ألبس الثياب المناسبة. بدت ثيابي أنيقةً في البيت، وحسبت أنني سأكون مفرطة الأناقة، لكني أبدو ريفية وذات طراز قديم هنا، وليس عندي الوقت ولا المال للتغيير، حتى لو عرفت كيف أفعل ذلك»، أجابت الأخرى ناظرةً بقلق إلى فستانها الزهري الحريري اللامع، المهذّب بدانتيلا رخيصة.

«يجب أن تطلبي من السيدة بروك أن تخبركِ كيف تنسقين

ثيابك، فقد كانت بالغة اللطف معي. كان عندي فستان من الحرير الأخضر، وبدا رخيصًا ومريعًا للغاية، إلى جانب الفساتين الجميلة هنا، واستمرت تعاستي بسببه، وسألتها عن تكلفة فستان كالذي تلبسه السيدة لورنس؛ فقد كان فستانًا بسيطًا وأنيقًا للغاية وظننته زهيد الثمن، لكنه كان من قماش المُلّ الهندي والدانتيلا المجلوبة من البندقية، لذا لم أستطع شراءه طبعًا. فقالت السيدة بروك «هاتي شيئًا من الموصلين تغطين به الحرير الأخضر، وضعي في شعرك عشبة الدينار أو الزهور البيضاء بدلًا من الوردية، وسيكون فستانك جميلًا». أليس هذا رائعًا وفاتنًا؟»، عاينت الآنسة بيرتن نفسها برضا بناتي، إذ أضفت لمسة من الذوق جمالًا على الأخضر القاسي، وناسبت أجراسُ الدينار شعرَها الأحمر أكثر من الورود.

«إنه جميل، وقد سحرني. سأجدد فستاني هكذا وسأسأل عن فستاني البنفسجي. لقد ساعدتني السيدة بروك في علاج صداعي، كما زال عسر هضم ميري كلاي منذ أن أقلعتْ عن شرب القهوة وأكل الخبز الساخن».

«أشارت عليّ السيدة لورنس بأن أمشي وأركض وأستخدم صالة الألعاب الرياضية لأعالج كتفي المدورتين، وأفتح صدري وها قد صار لي قوام أفضل مما كنت».

«أعلمت أن السيد لورنس يدفع كل فواتير أميليا مِرِل؟ مرضَ والدها وانفطر قلبها لاضطرارها لترك الكلية، لكن ذلك الرجل الرائع تقدم وأعاد الأمور إلى نصابها».

«أجل، وفتح الأستاذ باير بيته مساء لعدد من الطلاب لمساعدتهم على مواكبة الآخرين، واعتنت السيدة باير بنفسها بتشارلز ماكي عندما أصابته الحمّى العام الماضي. أراهم أفضل الناس وأطيبهم في العالم حقًا».

«وأنا كذلك، وسيكون وقتي هنا أسعد أوقات حياتي وأنفعها».

نسيت الفتاتان أمر فستانيهما وعشاءيهما للحظة، لتنظرا بعيون ملؤها الامتنان والحب إلى الأصدقاء الذين حاولوا الاعتناء بأجسامهم وأرواحهم وعقولهم أيضًا.

انشغل أفراد المجموعة المفعمة بالحيوية بتناول عشائهم على الدرج، إذ جلست في الأعلى الفتياتُ مثل الزبد، وكانت الطبقة السفلية من نصيب الشبان، حيث تستقر دومًا الجزيئات الأثقل، وزين قائم الدرابزين إميل الذي لا يسعه الجلوس إن كان بمقدوره التسلق أو الصعود إلى مكان عال. فيما تجمع توم ونات وديمي ودان على الدرجات يأكلون بحماس، وبعد أن اعتنوا بسيداتهم جيدًا، جلسوا ينعمون بلحظات من الراحة، استمتعوا فيها وأعينهم ثابتة على المنظر الجميل فوقهم.

«يحزنني للغاية ذهاب الأولاد، إذ سيغدو المكان مملًا للغاية من دونهم. لقد صرت أستمتع بصحبتهم وقد كفوا عن المغايظة وتحلّوا بالتهذيب»، قالت نان التي أحست أنها منعمة للغاية هذه الليلة، إذ أن مصيبة توم جنّبتها إزعاجه.

«وأنا كذلك، وكانت بِس تشتكي من الأمر نفسه اليوم، رغم

أنها عمومًا لا تحب الأولاد ما لم يكونوا مثالًا للأناقة. لقد كانت تنحت رأس دان، ولم تفرغ منه بعد. لم أرها يومًا مهتمة بأي عمل هكذا، وقد أحسنت في نحته. إنه رائعٌ وكبير ويذكّرني دائمًا بالمجالد المحتضر[1] أو أيّ من هؤلاء القدامى. ها هي بِس، يا للطفلة الحبيبة، كم تبدو حلوة الليلة!»، أجابت ديزي ملوحة بيدها عندما مرت بهن الأميرة تتأبط ذراع جدها.

«لم أتخيل قط أنه سيتغير تغيرًا حسنًا. ألا تذكرينَ أننا اعتدنا تسميته «بالولد الشرير» وكنا واثقين أنه سيصبح قرصانًا أو شيئًا رهيبًا لأنه يحملق بنا مغضبًا ويشتمنا أحيانًا؟ ها قد أصبح أوسم الأولاد، ومسليًا للغاية بقصصه وأفكاره. إنه يعجبني كثيرًا، فهو ضخم وقوي ومستقل، إذ سئمت من المدللين وديدان الكتب»، قالت نان بأسلوبها الحاسم.

«ليس أوسم من نات!»، قالت ديزي المخلصة، مقارنة بين وجهين في الأسفل، أحدهما جذل للغاية، والآخر مهموم دومًا حتى وهو يأكل الكيك. «أحب دان، ويسعدني أنه يبلي حسنًا، لكنه يضجرني وما زلت أخافه بعض الشيء؛ والهادئون يوافقون طباعي أكثر».

«إن الحياة قتال، وأنا أحب الجندي المقدام. يستسهل الأولاد الحياة، ولا يدركون جدّيتها ليجدّوا في عملهم؛ وانظري إلى ذلك

(١) تمثال من الرخام يعرض في متاحف كابلوتين وهو نسخة عن تمثال من البرونز يعود للفترة الهلنستية.

الأحمق توم، إذ يهدر وقته ويجعل من نفسه أضحوكة، لأنه لا يستطيع الحصول على ما يريد، مثل طفل يبكي لأنه يريد القمر، لا طاقة لي على هراء كهذا»، قالت نان معاتبة، وهي تنظر إلى توماس المبتهج، الذي كان يدس بخبث بعض المكرونة في حذاء إميل، محاولًا التسلي عن نبذه قدر مستطاعه.

«ستلين كثير من الفتيات لإخلاص كهذا، إذ أراه أمرًا جميلًا»، قالت ديزي من خلف مروحتها، إذ جلست فتيات أخر بالقرب منهما.

«إنك فتاةٌ عاطفية ولست حكمًا. سيكون نات رجلًا أفضل عند عودته من رحلته، فليت توم ذاهب معه. أعني لو كان لنا -نحن الفتيات- تأثيرٌ، فعلينا استغلاله لصالح هؤلاء الأولاد، لا أن ندللَهم، ونجعل من أنفسنا عبداتٍ ومنهم مستبدّين. ليثبتوا ما بوسعهم فعله وإنجازه قبل أن يطلبوا أي شيء منا، وليمنحونا فرصة لنفعل الشيء نفسه، وسنعرف عندئذ أين نقف، ولن نرتكب أخطاء نتحسّر عليها طوال حياتنا».

«مرحى مرحى!»، هتفت أَلِس هيث، التي كان لها آراء نان، واختارت لها مهنة مثل شابة شجاعة وعاقلة. «امنحونا فرصة وتحلّوا بالصبر لنبذل قصارى جهدنا. يُطلب منا الآن أن نكون ذكيات بقدر الرجال الذي تمتعوا بشتى أنواع المساعدة على مر العصور، وليس عندنا أي شيء، فدعونا ننل فرصًا متكافئة، ولنرَ النتيجة بعد أجيال قليلة. أحبّ العدالة، لكننا ننال قليلًا منها».

«أما زلتن تصرخن بهتاف معركة الحرية؟»، سأل ديمي، مسترقًا النظر من قضبان الدرابزين في تلك اللحظة، «ارفعن أعلامكنّ! وسأقف إلى جانبكن وأقدم لكن العون إن شئتن. ولا أرى أنكن بحاجة لعون كبير إن قدت أنت ونان العربة».

«إنك مساند عظيم يا ديمي، وسأستدعيك في كل الحالات الطارئة، لأنك فتى نزيه لا تنسى أنك تدين بالكثير لأمك وأختيك وخالتيك»، تابعت نان القول، «أحب الرجال الذي يخرجون على الملأ ليعترفوا بأنهم ليسوا آلهة، وكيف نراهم هكذا وهم يرتكبون الأخطاء الشنيعة طوال الوقت؟ انظر إلى المرضى منهم كما أفعل، فيتسنى لك معرفتهم عندئذ».

«لا تقسين علينا أثناء لحظات ضعفنا، بل ارفقن بنا، وأعدن إلينا عافيتنا لنشكركن ونؤمن بكن أكثر»، توسل ديمي من خلف القضبان.

«سنترفق بكم إن كنتم عادلين معنا. لن أقول كونوا كريمين، بل كونوا عادلين فحسب. لقد ذهبت إلى مناظرة في حق الاقتراع في المجلس التشريعي الشتاء الماضي، وكان ذلك أسخف هذر سوقي سمعته في حياتي، وهؤلاء الرجال هم نوابنا. أريد رجلًا ذكيًا يمثلني، لا أحمق، إن لم أستطع تمثيل نفسي».

«بدأت نان تخطب، سينالنا العقاب الآن»، قال توم رافعًا مظلة ليحمي رأسه التعس، إذ كان صوت نان الجاد مسموعًا، وصادف أن ركزتْ نظرتها المزدرية عليه وهي تتحدث.

«تابعي، تابعي! سآخذ الملاحظات، وسأقاطعك بكثير من الثناء العظيم»، أضاف ديمي مخرجًا برنامج الحفلة الراقصة وقلم الرصاص، متخذًا سيماء المراسل الصحفي.

قرصت ديزي أنفه من خلال القضبان، وأضحى الاجتماع صاخبًا للحظات، إذ نادى إميل «كفى كفى، هذا شجار في مهب الريح»، فصفقَ توم بحماس، ونظر دان كأن مشهد القتال -وإن كان بالكلام- يسرّه، وتقدم نات ليساند ديمي، إذ بدا مكانه جيدًا. وفي خضمّ المعمعة، والكل يضحكون ويتحدثون في آن واحد، جاءت بِس مسرعة من البهو الأعلى وأطلت مثل ملاك سلام على هذا الجمع الصاخب في الأسفل، وسألت بعينين متعجبتين وشفتين باسمتين:

«ما الأمر؟».

«اجتماع ساخط. نان وألِس ثائرتان، ونحن أمام المحكمة لندافع عن حياتنا. أتترأس سموّك المحكمة لتحكمي بيننا؟»، أجاب ديمي، حين ساد الهدوء إذ لا يشاغب أحد في حضور الأميرة.

«لا أتمتع بالحكمة لأفعل ذلك. سأجلس هنا وأستمع، تابعوا من فضلكم»، واتخذت بِس مجلسها فوقهم جميعًا بهدوء تمثال العدالة ونقائه، حاملة مروحة وباقة ورد عوضًا عن السيف والميزان.

«والآن يا سيدتيّ، هاتيا ما لديكما، سوى أننا نطلب ألا تستمرا حتى الصباح، فما زال عندنا الرقصة الألمانية لنرقصها ما إن يفرغ الجميع من الطعام، وينتظر پارناسوس من كل رجلٍ أن يؤدي

واجبه. للسيدة الرئيسة المشاكسة الأولوية في الكلام»، قال ديمي الذي أحبّ هذا النوع من المزاح أكثر من المغايظة الفاترة التي سمح بها في پلمفيلد، لا لشيء إلا لأنه لا يمكن التخلص منه تمامًا، كما أنه جزء من التعليم، متبادلًا كان أم غير ذلك.

«لديّ أمر واحد فقط لقوله، وهذا هو»، بدأت نان جادة، ولمع في عينيها مزيج من الهزل والجد، «أودّ أن أسأل كل فتى منكم رأيه حول هذا الموضوع. لقد رأى دان وإميل العالم ولا بد أنهما يعرفان رأيهما، وكان أمام توم ونات خمسة نماذج لسنوات، ويقف ديمي إلى جانبنا ونحن فخورات به، وكذلك روب، أما تد فمتقلب كدوّارة الرياح، ودولي وجورج رجعيّان طبعًا رغم ارتيادهما لكلية أنكس، والفتيات في كلية غيرتن يتقدمن على الرجال؛ أمستعد أنت للسؤال يا قائد العمارة؟».

«أجل، أجل يا رئيس الملاحين».

«أتؤمن بحق النساء في الاقتراع؟».

«بورك رأسك الذكي الجميل! أؤمن، وسأبحر ببحارة من الفتيات في أي وقت تأمرين بذلك. أهنّ أسوأ من كتيبة التجنيد في إخراج المرء من موانئه؟ ألا نحتاج قائدًا يأخذنا إلى بر الأمان؟ ولماذا لا يقاسمننا فوضانا في البر والبحر ما دمنا نثق أننا سنتحطّم دون وجودهن؟».

«أحسنت يا إميل! ستعدك نان مساعدًا أول بعد هذا الخطاب الرائع»، قال ديمي، عندما صفقتْ الفتيات ودمدم توم.

«والآن يا دان، إنك تحب الحرية لنفسك كثيرًا، فهل ترى أننا يجب أن ننالها؟».

«كل ما استطعتن الحصول عليه منها، وسأحارب أي رجل لئيم يقول إنكن لا تستحققنها».

أسعد هذا الجواب الموجز المؤثر الرئيسة المفعمة بالحيوية، وابتسمت للعضو من كاليفورنيا، إذ قالت بحماس:

«لن يجرؤَ نات على القول إنه على الجانب الآخر، وإن كان كذلك حقًا، لكني أرجو أنه اتخذَ قراره في أن يساندنا عندما نبدأ القتال، وألا يكون واحدًا من الذين ينتظرون حتى تنتهي المعركة بالفوز، ثم يقرع الطبول ويقاسمنا المجد».

انمحت الشكوك التي ساورت السيدة المشاكسة، وندمت على كلامها الحاد حين رفع نات نظره خجلًا، وفي وجهه وأسلوبه جرأة جديدة وقال في نبرة تركت أثرًا في نفوسهم جميعًا:

«سأكون أكثر الأحياء جحودًا إن لم أحبّ النساء وأحترمهن وأخدمهن بكل قلبي وقوتي، لأني أدين لهن بكل شيء أصبحته أو سأكونه».

صفقتْ ديزي، وألقت بِس بباقتها إلى حِجْر نات، ولوّحت الفتيات الأخريات بمراوحهن، مسرورات لأن الإحساس الحقيقي أضفى بلاغة على كلامه القصير.

«توماس. ب. بانغز، امثُل أمام المحكمة، وانطقْ بالحق، كل

الحق، ولا شيء إلا الحقّ إن استطعت». أمرته نان، بخبطة لتعيد النظام إلى الاجتماع.

أغلق توم المظلة، ووقف رافعًا يده قائلًا بوقار:

«أؤمن بحق الاقتراع بكل أشكاله، فأنا أهوى كلّ النساء، وسأموت من أجلهن في لحظة إن كان هذا سيفيد القضية».

«العيشُ والعمل من أجلها أصعب، ومن ثم فهو أصدق. إن الرجال مستعدون دومًا للموت من أجلنا، ولا يفعلون ذلك لجعل حياتنا جديرة بالعيش وهذه عاطفة رخيصةٌ ومنطق رديء. ستنجو يا توم، ولكن لا تهذر. والآن، سنفض الاجتماع بعد أن حصلنا على المراد، إذ حانتْ ساعة النشاط البدني البهيج. أنا سعيدة برؤية أن يلم القديم قد أخرج إلى العالم ستة رجال صادقين، وأرجو أن يواصلوا إيمانهم به وبالمبادئ التي علّمهم إياها أينما حلوا. والآن لا تجلسْن في مهب الهواء يا فتيات، واحذروا من شرب الماء المثلّج إن شعرتم بالحر يا أولاد».

وبهذه الخاتمة المميزة، تركتْ نان منصبها، وذهبت الفتيات للاستمتاع بواحد من الحقوق الممنوحة لهن.

## (٦)

# كلمات أخيرة

كان اليوم التالي يوم أحد، وحثّ السير إلى الكنيسة جمعٌ بهيج من الصغار والكبار، بعضهم يقود العربات وبعضهم راجل، والجميع مسرورون بالطقس الجميل والهدوء السعيد الذي يأتي لإنعاشنا بعدما ينقضي عمل الأسبوع وقلقه. كانت ديزي تعاني الصداع، ومكثت الخالة جو في المنزل لتبقى معها، وهي تعلم حق العلم أن أقسى الآلام في القلب الرقيق وهو يحارب مذعنًا الحب الذي يقوى كلما اقترب موعد الفراق.

«تعرف ديزي رغبتي، وأنا أثق بها. عليك أن تراقبي نات، وأن تُفهميه بوضوح أنه لا مكان للغزل، وإلا منعت تبادل الرسائل. أكره أن أبدو قاسية، ولكن ابنتي الغالية ما زالت صغيرةً على الارتباط على أية حال»، قالت السيدة مِغ، وهي تحفّ في الغرفة بأجمل فساتينها الرمادي الحريري أثناء انتظارها، فديمي المرافق الدائم لأمه الورِعة إلى الكنيسة، قربانُ سلامٍ لمعارضته رغبتها في أمور أخرى.

«سأفعل يا عزيزتي، إنني أتربّص بالأولاد الثلاثةِ اليوم مثل عنكبوتٍ عجوز، وسيكون لي حديثٌ جاد مع كل واحد منهم. يعلمون أنني أفهمهم، وسيفضون إليّ بمكنونات صدورهم عاجلًا أم آجلًا. تبدين صاحبية[1] بدينة جميلة شابة يا مِغ، ولن يصدق أحد أن ذاك الولد الضخم ابنك»، أضافت السيدة جو لدى دخول ديمي متألقًا بأناقة يوم الأحد، من حذائه الملمّع جيدًا إلى شعره البنيّ الناعم.

«إنك تتملقيني لترقّي قلبي تجاه ولدك، أعرف أساليبك يا جو، ولن ألين، كوني حازمةً واعفيني من المشاكل. أما جون، فما دام سعيدًا مع أمه العجوز، فلست أبالي بما يقوله الناس»، أجابت السيدة مِغ، وقد قبلت باسمةً باقة من بسلة الزهور والبليحاء العطرية جلبها لها ديمي.

ثم بعد أن زرّتْ بعناية قفازيها الرماديين بلون اليمامة، أخذت ذراع ابنها وذهبت مزهوةً إلى العربة، حيث تنتظرها إيمي وبِس، فنادتهن جو كما اعتادت مارمي أن تفعل:

«أتحملن مناديل جميلة يا فتيات؟»، فابتسمن جميعًا للكلمات المألوفة، ولوّحت لها ثلاث مناديل بيضاء والعربة تمضي بهن، تاركاتٍ العنكبوت تراقبُ ذبابتها الأولى.

---

(١) الصاحبيون أو جمعية الأصدقاء الدينية والتسمية الأكثر شيوعًا هي الكويكرز، مجموعة من المسيحيين البروتستانت نشأت في القرن السابع عشر في إنجلترا على يد جورج فوكس.

ولم يطل انتظارها. كانت ديزي مستلقيةً بوجنتينِ مبللتين على الأرجوحة الصغيرة التي اعتادت هي ونات أن يغنّيا فيها معًا؛ لذا سارت السيدة جو في أنحاء المرج، وهي تبدو مثل فطرٍ جوال بمظلتها الكبيرة المنتفخة.

ذهب دان في نزهة الأميال العشرة، وتعيّن على نات مرافقته، لكنه جاء متسللًا، إذ لم يستطع إبعاد نفسه عن دوڤكوت أو أن يضيع دقيقة من قرب محبوبته. رأته السيدة جو في الحال، ودعته إلى مقعد صدئ تحت شجرة الدردار القديمة، حيث يكون بوسعهما الإسرار لبعضهما دونما إزعاج، وأبقى الاثنان أنظارهما على نافذة بيضاء الستارة، تختبئ خلف الدالية.

«المكان جميل وبارد هنا. لست مستعدًا لتجوال دان اليوم فالجو حار، وهو يمشي مثل محرك بخاري، وقد ذهب إلى السبخة حيث اعتادت أفاعيه العيش، وطلبت أن يعذرني»، قال نات وهو يروّح على نفسه بقبعة القش، رغم أن النهار لم يكن قائظًا.

«يسرني أنك فعلت، اجلس واسترحْ معي، ولنتجاذب أطراف الحديث كما السابق. لقد انشغل كلانا في الآونة الأخيرة، وأشعر أنني لم أعرف نصف خططك، وأود ذلك»، أجابت السيدة جو، تخالجها ثقة أنها ستنتهي إلى پلمفيلد، وإن بدأت من لپزغ.

«إنك لطيفة للغاية، ولا شيء أحبه أكثر من ذلك. لست أرى أنني سأشتهر، وأحسب أني لن أفعل حتى أنجح. إنها بداية رائعة، ولست أدري كيف سيتسنى لي شكر السيد لوري على كل ما فعله،

أو شكرك»، أضاف نات وقد تهدج صوته، إذ كان فتى رقيق القلب، ولا ينسى الإحسان أبدًا.

«بوسعك أن تشكرنا كثيرًا بأن تصبح وتفعل ما نأمله ونتوقعه منك يا عزيزي. سيكون في الحياة الجديدة التي تقبل عليها كثير من الاختبارات والإغراءات، وليس لديك ما تلجأ إليه إلا ذكاؤك وحكمتك، وسيكون ذلك الوقت الذي تمتحن فيه مبادئك التي حاولنا غرسها فيك، وتعرف قوتها. سترتكب الأخطاء من غير شك، فكلنا نفعل؛ ولكن لا تتخلّ عن ضميرك وتنجرف انجرافًا أعمى، بل احذر وصلِّ يا عزيزي نات. وأثناء اكتساب يدك المهارة، دع عقلك يغدو أكثر حكمة، وأبقِ قلبك بريئًا ودافئًا كما هو الآن».

«سأبذل قصارى جهدي لأكون موضع فخرك أيتها الأم باير. أعلم أني سأتقدم في موسيقاي؛ إذ لا أستطيع تحاشي ذلك، لكني أخشى أني لن أكون حكيمًا للغاية. أما قلبي، فإني سأتركه خلفي في أيدٍ أمينة كما تعلمين».

ركز نات وهو يتكلم نظره على النافذة بنظرة حبّ وشوقٍ جعلت وجهه الهادئ رجوليًا حزينًا، يظهر بجلاء الأثر القوي لهذا الحب الصبياني عليه.

«أود الحديث عن ذلك، وأعلم أنك ستغفر لي ما سيبدو قسوة، لأني أساندك من كل قلبي»، قالت السيدة جو وقد سُرّت لأنها أفصحت عن رأيها.

«أجل، فلتتحدثي عن ديزي! لست أفكّر في شيء سوى تركها

وخسارتها. لا أمل عندي؛ وأحسب أن طلب ذلك كثير جدًا، غير أنني لا أستطيعُ إلا أن أحبّها أينما ذهبت!»، قال نات يعلو وجهه مزيجٌ من التحدي واليأس أفزع السيدة جو.

«أصغِ إليّ وسأحاول منحك الراحة والرأي السديد. كلنا نعلم أن ديزي مغرمة بك، ولكن أمها تعارض، وهي تحاول أن تطيع أمها لأنها فتاة صالحة. يظن الشباب أنهم لن يتغيروا أبدًا، لكنهم يتغيرون بأروع الصور، وقلة منهم يموتون بقلوبٍ مفطورة»، ابتسمت السيدة جو وهي تتذكّر صبيًا آخر حاولت مواساته يومًا، ثم واصلت كلامها بوقار، وأصغى نات كأنّ قدره معلق بشفتيها.

«سيحدث واحد من أمرين. إما أنك ستجد فتاة أخرى تحبها، وإما أنك -وهذا أجمل- ستكون شديد الانشغال والسعادة بموسيقاك فتكون راغبًا بالانتظار حتى يسوّي الوقت الأمر لكليكما. وربما ستنسى ديزي أمركَ بعد سفرك، وتفرح لأنكما لستما إلا صديقين. على أية حال، الأجدى ألا يعدَ أحدكما الآخر بشيء، فيكون كلاكما حرًا، وفي غضون عامٍ أو اثنين تلتقيان وتضحكان على قصة الحب القصيرة التي ماتت في المهد».

«أتظنين ذلك صدقًا؟»، سأل نات ناظرًا إليها متلهفًا إلى الحقيقة، لأن قلبه كان في عينيه الصادقتين الزرقاوين.

«كلا، لا أظن!»، أجابت السيدة جو.

«فماذا تفعلين إن كنتِ في موضعي؟»، أضاف بنبرةٍ آمرة لم تُسمع قبلًا في صوته الرقيق.

«يا إلهي! إن الفتى عازم، وأخشى أن أنسى حصافتي في تعاطفي معه»، قالت السيدة جو، إذ دهشت وفرحت بالجرأة المفاجئة التي أظهرها نات.

«سأقول لك ما سأفعل. أقول لنفسي: «سأثبت أن حبّي قوي وصادق، وأجعل والدة ديزي تفخر بإعطائها لي بألا أكون موسيقيًا جيدًا فحسب، بل رجلًا نبيلًا أيضًا، ولذا فإني أهلٌ للاحترام والثقة. سأحاول هذا، وإن فشلت، فقد نلتُ شرف المحاولة، وأجد عزائي في أني بذلت قصارى جهدي من أجلها»».

«هذا ما أنوي فعله، لكني أردت كلمة أمل تمنحني الشجاعة»، قال نات متحمسًا، كأنما الشرارة المشتعلة قد توهجت بنفحة الشجاعة. «لقد فعل فتية آخرون أكثر فقرًا وغباء مني أشياء عظيمة ونالوا الشرف، فلمَ لا أفعل، رغم أنني نكرة الآن؟ أعلم أن السيدة بروك تتذكر من أين أتيت، لكن أبي كان شريفًا رغم أن كل شيء كان خطأً، وليس عندي ما أخجل منه رغم فقري، لن أخجل يومًا من أهلي أو من نفسي، وسأجعل الآخرين يحترموني إن استطعت».

«جيد، هذا هو الرأي السديد يا نات، تمسك به واجعل من نفسكَ رجلًا. لن يكون أحد أسرع في رؤية عملك الشجاع والإعجاب به من أختي مِغ، فهي لا تكره فقركَ أو ماضيك، لكن الأمهات رقيقات تجاه بناتهن، ونحن بناتُ مارش، رغم فقرنا في الماضي، فأعترف أننا مغرورات قليلًا بأصلنا الطيب. نحن لا نكترث للمال، ولكن سلسلةً من الأسلاف الصالحين شيء نتمناه ونفخر به».

«حسن، آل بليك قوم صالحون، فقد سألت عنهم، وليس فيهم من دخل السجن أو أُعدم شنقًا أو جلب العار بأي شكل؛ لقد كنا أغنياء ومحترمين قبل سنوات، لكننا انقرضنا وصرنا فقراء، وكان أبي موسيقيًا جوالًا لا متسولًا، وسأصبح كذلك قبل أن أرتكب أشياء خسيسة يفعلها بعض الرجال لينالوا الرضا».

كان نات مفرط الحماس فأطلقت السيدة جو العنان لضحكتها لتهدئه، وتابع الاثنان حديثهما بهدوء أكثر.

«أخبرت أختي بهذا كله وفرحت به، وأنا واثقة أنها ستلين وكل شيء سيكون على ما يرام إن أنت أبليت حسنًا في السنوات القليلة المقبلة، ما لم يحدثْ ذلك التغيير الهائل، الذي تراه مستحيلًا. ابتهج الآن، ولا تهن ولا تحزن، بل قل وداعًا بسعادة وشجاعة، وأظهر موقفًا رجوليًا واترك ذكرى حلوةً بعدك. فكلنا نتمنى لك الخير وننتظر الكثير منك. كاتبْني كل أسبوع، وسأرسل لك ردًا جيدًا ببعض الأسرار، واحرص على ما تكتبه لديزي، فلا تكن متدفق العاطفة أو الحزن، لأن أختي مِغ ستقرأ الرسائل، وستكون أكثر إقناعًا إن كتبت لنا كلنا عن أيامك بعقلٍ وبهجة».

«سأفعل، سأفعل. إن الأمر يبدو أفضل وأكثر إشراقًا، ولن أخسر سلواي الوحيدة بارتكاب أي خطأ، وشكرًا جزيلًا لك أيتها الأم باير على وقوفك بجانبي. لقد أحسستُ أنني جاحدٌ ولئيم ومحطم للغاية عندما ظننتكم جميعًا تروني حقيرًا، ليس جديرًا بحب فتاةٍ رائعة مثل ديزي. لم يقل أحد شيئًا، لكنني عرفت شعوركم، وأن

السيد لوري يرسلني إلى الخارج لإبعادي عن طريقها؛ أوه يا إلهي، إن الحياة صعبةٌ أحيانًا، أليس كذلك؟». وضع نات رأسَه بين يديه كأنه يتألم من صخب الخوف والأمل، والعاطفة والخطط التي تعني أن أيام الصبا ولّت، وبدأت أيام الرجولة.

«صعبة جدًا، ولكن هذا الصراع مع العقبات هو ما ينفعنا. لقد سهلت عليك الأمور بصور شتّى، ولكن ليس بوسع أحدٍ أن يفعل كل شيء، إذ عليك أن تجذف زورقك بنفسك، وأن تتعلم تفادي منحدرات النهر وتمضي قدمًا إلى الميناء الذي تريد بلوغه. لست أدري ما ستكون إغراءاتك، إذ ليس لك عادات سيئة كما أنك تحب الموسيقى كثيرًا، فلا شيء سيغريك بالابتعاد عنها، لكني أرجو ألا تجهد نفسك في العمل».

«أشعر أن بوسعي العمل كحصان، وأتحرق شوقًا للبدء، لكني سأعتني بنفسي. لا أستطيع هدر الوقت بالمرض، وقد أعطيتني جرعاتٍ كافيةً تبقيني معافىً كما أحسب»، ضحك نات وهو يتذكر كتاب التعليمات الذي كتبته له السيدة جو ليعود إليه في كل حدث.

أضافت من فورها بعض التعليمات الشفهية حول صنوف الطعام الأجنبية، وبعد أن فرغت من أحد مواضيعها المحببة، أخذت تعدو مسرعة لدى رؤية إميل يمشي على سطح البيت القديم، وكانت هذه نزهته المفضلة، إذ يتخيل نفسه يمشي على سطح سفينة، وليس حوله إلا السماء الزرقاء والهواء المنعش.

«أود أن أتحدث مع قائد العمارة، وسنكون في هدوء وجمال في الأعلى. اذهبْ واعزف لديزي، إذ سيجعلها ذلك تنام ويريح كليكما. واجلس في الرواق ليتسنّى لي رؤيتكما كليكما كما وعدت». ربّتت السيدة جو تربيتة أم على كتف نات وتركته إلى مهمّته البهيجة وصعدت برشاقة إلى سطح البيت، ليس على التعريشة كما في الأيام الخالية، بل على الدرج في الداخل.

حينما خرجت إلى السطح وجدت إميل يحفر الأحرف الأولى من اسمه على منجور ويغني «يمموا نحو الشاطئ»، مثل بحّار رخيم الصوت.

«اصعدي إلى ظهر السفينة وكوني في بيتك يا عمّتي»، قال بتحيةٍ لعوب، «إنني أحفر پ. پ. ك[1] في المكان القديم، حتى تتذكريني كلما صعدت هنا بحثًا عن ملاذ».

«آه يا عزيزي، لا احتمال لنسيانك، ولا حاجة لحفر حروف إ. ب. هـ [إميل باير هوفمن] على كل الشجر والسياج لتذكّرني بفتاي البحّار». اتخذت السيدة جو مجلسًا أقرب إلى القوام الأزرق المنفرج الساقين على الدرابزين، دون أن تعرف تمامًا كيف تبدأ خطبتها القصيرة التي تود قولها.

«حسن، إنك لا تبكين أو تتجهمين كعادتك حين أبحر، وهذا مريح. أحب أن أترك الميناء صافي الجو وأن أحظى بوداعٍ مرح،

(١) قد يكون المقصود عالم حيوانات البحار الهولندي پولَس پيرونيوس كاتو.

وبخاصة هذه المرة، إذ سينقضي عام أو أكثر قبل أن نلقي بمرساتنا هنا ثانية». أجاب إميل دافعًا بقبعته إلى الوراء، وناظرًا حوله كأنه يحب يلم القديم وسيأسف ألا يستطيع رؤيته ثانية.

«لديكَ ما يكفي من الماء المالح دون حاجة أن أضيف إليه دمعي. سأكون أمًا إسبارطية، وأرسل أولادي إلى المعركة دون بكاء، وليس عندي إلا أمر واحد: «عد لابسًا درعكَ أو محمولًا عليها»». قالت السيدة جو جذلة، ثم أضافت بعد صمتٍ قصير: «تمنيتُ كثيرًا لو استطعتُ السفر أيضًا، وسأفعل يومًا ما، عندما تغدو قبطانًا ويكون لك سفينة؛ وأثق أن انتظاري لن يطول، بوجود العم هرمن لمساندتك».

«حين أملكها سأطلق عليها اسم جو الرائعة وأجعلك مساعدًا أول. وسنحظَى بمرح دائم بوجودك على سطح السفينة، وسأكون رجلًا فخورًا بأخذك حول العالم الذي أردت طويلًا رؤيته ولم تستطيعي»، أجاب إميل وقد شغف بهذا الخيال الرائع.

«سأسافر رحلتي البحرية الأولى معك، وأستمتع بها كثيرًا رغم دوار البحر وهبوب الرياح العاصفة. وددت دومًا أن أرى سفينة تغرق، غرقًا آمنًا جميلًا، ثم ينجو الجميع بعد أفعال بطولية، أما نحن فنتشبث بأشرعة المنصة الرئيسة وذَرى المصارف مثل السيدة پليوكودي»[1].

---

(١) بطل مسرحية هزلية من فصل واحد بعنوان پليكودي المسكين للكاتب المسرحي الإنجليزي جون ماديسن مورتن

«ما من سفن غارقة يا سيدتي، لكننا سنحاول تأمين وسائل الراحة للزبائن. يقول القبطان إنني كلبٌ محظوظ إذ أجلبُ الطقس الصافي، لذا سنبقي لك الطقس السيّء إن أردت»، ضحك إميل وهو يحفر للسفينة شراعًا كاملًا أضافه إلى تصميمه.

«شكرًا، وأرجو أن تفعل. ستمنحك هذه الرحلة الطويلة تجارب جديدة، وإذ أصبحت مساعدًا فإن لكَ واجبات ومسؤوليات جديدة. أمستعد أنت لها؟ إنك تأخذ كل الأمور بمرح، فأتساءل إن كنت تدرك أن عليك الآن أن تطيع وتأمر أيضًا، والسلطة أمر خطير، فاحذر ألا تتعسف فيها أو تجعلها تصيّرك طاغية».

«إنكِ محقةٌ يا سيدتي، لقد رأيت كثيرًا من هذا، ولكن أحسب أني تدبرت أمري جيدًا. ولن تكون لي سلطةٌ واسعة بوجود پيترز رئيسي، لكنني سأحرص ألّا يُهان الفتية عندما يرفع شراعه. لم يكن لي الحقُّ للاعتراض قبلًا، ولكني الآن لن أقبل ذلك».

«يبدو هذا مروعًا بصورة غامضة؛ ألي أن أسألك ما تعذيب البحّارة الذي تشير إليه بقولك «رفع الشراع؟»». سألت السيدة جو بنبرة اهتمامٍ عميق.

«يعني أن يشرب حتى الثمالة. يستطيع پيترز شرب الكروغ أكثر من أي رجل رأيته في حياتي. إنه منصف عادة، لكنه قاسٍ مثل أي شمالي، ويجعل الجميع متوترًا. وقد رأيته يضرب فتى بوتد التثبيت، ولم أستطعْ تقديم العون، وأرجو أن حظي أوفر الآن». عبس إميل كأنه قد وطئ السطح الربعي للسفينة وأحكم قبضته على كل ما رآه.

«لا تتورط في المتاعب، فرعاية العم هرمن لن تنقذك من تهمة العصيان كما تعلم. لقد أثبتَّ أنك بحّار جيد، فكن مساعدًا جيدًا وهذا أصعب في تصوري. يستلزم الحكم بإنصاف ولطف شخصيةً حسنة، ويتعينُ عليك هجر أساليبك الصبيانية وأن تتذكر مقامك. سيكون في هذا تدريب رائع لك يا إميل لتكبح جماحك قليلًا، فلا مزيد من العبث إلّا هنا، لذا انتبه إلى أفعالك وامنح الشرف لأزرارك». قالت السيدة جو وهي تربّت على أحد الأزرار النحاسية اللامعة التي زيّنت حلة إميل الجديدة التي يفخر بها.

«سأبذل قصارى جهدي. أعلم أن وقت اللهوِ قد انقضى، وعليّ أن أمضي في مسار أكثر استقامة، ولكن لا تخشي شيئًا، فالرجل على اليابسة امرؤ مختلف عمّا هو عليه والماء الأزرقُ تحت كوثله. لقد تحدثت مطولًا مع خالي الليلة الماضية وحصلت على أوامري، ولن أنساها ولن أنسى ما أدين له به. أما أنت، فسأسمّي سفينتي الأولى باسمك كما قلت، وأضع تمثالًا نصفيًا لك ليكون تمثالًا حيزوميًا، وسترين أني سأفعل». قبّل إميل عمّته قبلة حارة ليختم عهده، وأبهج مرأى ذلك نات الجالس للعزف في رواق دوڤكوت.

«إنكَ تجعلني فخورة أيها القبطان. ولكن يا عزيزي، أود قول شيء واحد ثم سأنتهي لأنك لا تحتاج نصحًا كثيرًا مني بعدما تحدثَ إليك زوجي الطيب. قرأت في مكان ما أن كل إنشٍ من الحبال استخدم في البحرية البريطانية فيه خيط أحمر حتى يُعرف أينما وجد، وهذا هو نص خطبتي الصغيرة إليك. إن الفضيلة، التي تعني

الشرف والصدق والشجاعة وكل ما يصنع الشخصية، هي الخيط الأحمر الذي يميز الرجل الصالح أينما كان، فحافظ على هذا في كلّ زمان ومكان، وإن غرقت السفينة بسوء الحظ يومًا، سيُعثر على ذلك الخيط ويُعرف. إن حياتك حياةٌ شاقة، وليس كل مساعديك ممن نتمناهم، ولكن بوسعك أن تكون رجلًا محترمًا بمعنى الكلمة، وأيًا كان ما يحدث لبدنك، أبقِ روحك طاهرةً، وقلبك مخلصًا لمن يحبك، وأدِّ واجبك حتى النهاية».

نهض إميل أثناء حديثها ووقف يُصغي خالعًا قبعته بوجهٍ جاد مشرق، كأنما يتلقّى الأوامر من ضابطٍ أعلى منه رُتبة، وحين انتهت أجاب بإيجازٍ وحماس:

«سأفعل، بمشيئة الرب!».

«هذا كل ما لدي. أخاف عليك قليلًا، لكن المرء لا يعرف متى تحين لحظة الضعف، وأحيانًا تعيننا كلمةٌ عارضة، مثلما يعود إليّ الآن كثير مما قالته لي أمي الحبيبة لتريحني ولأرشد بها أولادي». قالت السيدة جو وهي تنهض ما أرادت قوله ولا حاجة للمزيد.

«لقد حفظتها كلها وأعلم أين سأعثر عليها عند الحاجة. كم رأيت يلم القديم في نوبات حراستي، وسمعتك أنت وخالي تتحدثان بوضوح شديد، حتى لأقسم إني كنت هنا. إنها حياة شاقة يا عمتي، ولكنها حياة جميلة إن أَحبها المرء مثلما أفعل، وعنده مرسى ييمم شطره مثلي. لا تقلقي عليّ، سأعود العام القادم بصندوقٍ من الشاي يفرح قلبك ويوحي لك بأفكار تكفي اثنتي عشرة رواية. أتنزلين؟ حسنٌ،

امشي بحذر في مجاز السفينة! سأرافقكِ وأنتِ تخرجين صندوق الكيك. فهذه الفرصة الأخيرة لغداءٍ لذيذ طيّب على اليابسة».

نزلت السيدة جو ضاحكة، وأنهى إميل صفارة سفينته جذلًا، دون أن يتخيل أيٌّ منهما متى وأين ستعود ذكرى هذا الحديث القصير على سطح البيت إلى أحدهما.

كان العثور على دان أصعب، ولم تحن لحظة هادئة في تلك العائلة المشغولة حتى المساء، إذ جلست السيدة جو لتقرأ في المكتبة، وأطلّ عليها دان من النافذة أخيرًا، بينما كان الجميع يطوفون في الأنحاء.

«تعال ونلْ قسطًا من الراحة بعد نزهتك الطويلة، لا بد أنك متعب». قالت بإيماءةٍ ودودة إلى الأريكة الكبيرة التي اعتاد كثير من الأولاد أن يرقدوا عليها، مثلما اعتاد ذلك الحيوان الجامح.

«أخشى أني سأزعجك». لكنه بدا كأنه أراد أن يضع قدميه القلقتين في مكانٍ ما.

«مطلقًا، إنني جاهزة للحديث دومًا. لستُ بامرأة إن لم أكن كذلك». ضحكتْ السيدة جو، حين قفز دان إلى الداخل وجلس بهيئة رضا تسرُّ رؤيتها.

«لقد انتهى آخر يوم لي، لكني لا أبدو متلهفًا على السفر. يساورني القلق عادةً قبل التجوّل الذي يعقب إجازةً قصيرة، هذا غريب أليس كذلك؟». سأل دان وهو يستلّ بهدوء العشب وأوراق الشجرِ من شعره ولحيته، إذ كان مستلقيًا على العشب، يقلّبُ أفكارًا كثيرةً في ليل الصيف الهادئ.

«أبدًا، لقد بدأت تهوى الاستقرار، وهذه إشارةٌ جيدة تُسعدني رؤيتها». أجابت السيدة جو بسرعة. «إن لك ميولك، وتحتاج للتغيير، أرجو أن تمنحكَ الزراعة ذلك، رغم أن مساعدة الهنود أسعدتني أكثر. فالعمل من أجل الآخرين أفضل بكثير من عمل المرء لنفسه فحسب».

«فليكن». وافق دان بحماس، «كأني أودّ الاستقرار في مكانٍ ما، ويكون لي أهل أعتني بهم. أظنني تعبتُ من صحبة نفسي، وقد رأيت ذلك أفضل بكثير، فأنا جلف، وجاهل وخطر لي أني هدرتُ وقتي في التسكّع حول العالم، بدلًا من متابعة التعليم كما فعل بقية الفتية، صحيح؟».

نظر قلقًا إلى السيدة جو، وحاولتْ إخفاء دهشتها من هذا الدفق الجديد، إذ إنّ دان اعتاد أن ينفر من الكتب ويمجّد حريته.

«كلا، لا أظنّ ذلك في حالتك. أنا واثقة أن الحياةَ الحرة كانت الأفضل، والآن وقد صرتَ رجلًا بوسعك كبح ذلك الطبع المتمرد أكثر. ولكن في صباك ما كان لشيء أن يبعدك عن ارتكاب الأخطاء إلا النشاط الكبير والمغامرات الكثيرة. الزمن يروّض مُهري، كما ترى، وسأكون فخورة به، سواء أجعل من نفسه حصانًا لحمل العون للجائعين أو ذهب للحرث مثلما فعل پيغاسوس».

أحَب دان المقارنة، وابتسم وهو يسترخي على طرف الأريكة، وفي عينيه حكمةٌ جديدة.

«يسرني أنك ترين هذا. الحقيقة أنني سأحتاج إلى ترويض كثير لأُحسن السير بالزمام في أي مكان، وأحب ذلك وأجرّبه بين الحين

والآخر، لكني دومًا أركل الآثار وألوذ بالفرار. لم نخسر أرواحًا بعد، ولكني لن أعجب إن حدث هذا مرةً فأنهار انهيارًا تامًا».

«عجبًا يا دان، أخضتَ مغامراتٍ خطرة أثناء غيابك الأخير؟ لقد تصورتُ ذلك، لكني لم أسأل قبلًا، وأنا واثقة بأنكَ ستخبرني إن استطعت تقديم العونِ بصورة ما، أأستطيع؟». نظرت إليه السيدة جو قلقة، إذ اكفهرّ وجهه فجأة، ومال نحو الأمام كأنه يخفيه.

«لا شيء سيء جدًا، لكن سان فرانسيسكو ليست جنةً على الأرض كما تعلمين، وأن أكون قديسًا هناك أصعب من أن أكونه هنا». أجاب ببطء، ثم كأنما اتخذ قراره بأن «يُفضفض» كما يقول الصغار، فاعتدل وأضاف بهيئة يمتزج فيها التحدي والخجل: «لقد جربت القمار، ولم يناسبني».

«أهكذا جنيت مالك؟».

«ولا بنس منه! ذاك كله مال شريف، إن لم تكن المضاربة نوعًا أكبر من القمار. لقد جنيت الكثير، لكني خسرته أو منحته، وتخلصت من الأمر كله قبل أن ينهكني».

«حمدًا للسماء على ذلك! لا تجرّبه ثانية، فقد تُفتن به كثيرًا، كما فُتن به كثيرون. ابق في جبالك وسهوبك، وتجنّب المدن إن كانت هذه الأشياء تغريك يا دان. والأجدى بكَ أن تخسر حياتك على أن تخسر روحك، وشغف واحد يقود إلى آثام أكبر كما تعرف أكثر مني».

هزّ دان رأسه موافقًا، وقال بنبرة أهدأ لما رأى قلقها الكبير، رغم أن تجربة الماضي لم تزل تلقي بظلالها:

«لا تخافي، إنني بخير الآن، والكلب المحروق يخشى النار. لا أشرب المُسكرات، أو أفعل الأشياء التي تخشينها إذ لا أهتم بها، لكني أتحمّس ثم يكبر هذا الإغراء الشيطانيّ داخلي أكثر مما يسعني كبحه. لا أرى بأسًا في قتال جاموس أو موظ، ولكن إن هاجمت رجلًا، دون النظر إلى مدى خسته، فعلي الحذر. جل ما أخشاه أن أقتل رجلًا ذات يوم، وإني لأمقت الأوغاد!»، وخبط دان قبضته على الطاولة خبطة جعلت المصباح يهتز والكتب تقفز.

«كان هذا اختبارك دومًا يا دان، وإني لأتفهمك لأني كنت أحاول التحكم بغضبي طوال حياتي، ولم أتعلّم بعد». قالت السيدة جو متنهدة. «احذر شيطانك، حبًا بالسماء، ولا تسمح للحظة غضب أن تدمر كل حياتك. وكما قلت لنات، احذر وصلِّ يا بُني العزيز، فلا عونَ أو أمل آخر لضعف البشر سوى حبّ الربّ والصبر».

انهمرت الدموع من عيني السيدة جو وهي تتحدث، لأنها أحسّت بهذا كثيرًا، وعرفت أن كبح خطايانا عمل صعب للغاية. أبدى دان تأثره، وعدم ارتياحه أيضًا كما أحسّ دومًا عندما يذكر أيّ دين، رغم اعتناقه عقيدةً بسيطة، وحاول الالتزام بها بأسلوبه المتهوّر.

«أنا لا أصلي كثيرًا، إذ لا أرى الصلاة مجديةً لي. وبوسعي الحذر مثل هنديّ أحمر، لكن الاحتراس من دبّ أشهب متربصٍ أسهل من الاحتراس من غضبي اللعين، وهذا ما أخشاه عند الاستقرار. يمكنني مصارعة السباع البرية على أحسن صورة، لكن الناس

مكتبة
t.me/soramnqraa 

يثيرون غضبي، ولا يمكنني التنفيس عن غضبي في قتالٍ حر كما أفعل مع دبّ أو ذئب. أحسب أنه يجدر بي الذهاب إلى جبال روكي والبقاء هناك فترةً أطول، إلى أن أصبح أكثر ألفة لأكون بين الناس المحترمين إن حدث ذلك يومًا». وأسند دان رأسه الأجعد على يديه في قنوط.

«جرّبْ طريقتي في تقديم العون، ولا تستسلم. اقرأ أكثر وادرس قليلًا، وحاول أن تلتقي بأناسٍ من طبقة أفضل لا يثيرون غضبك، بل يهدئونك ويساندونك. أنا واثقةٌ أننا لم نصنع منك متوحشًا، إذ كنت وديعًا كالحمل، وأسعدتنا للغاية».

«سعيد بذلك، ولكني أحسست بأني صقر في قنّ دجاج كالسابق، وأردت الوثب وتقطيعها إربًا أكثر من مرة، ليس كثيرًا مثلما اعتدت». وبعد ضحكة قصيرة علتْ وجه السيدة جو المندهشة أضاف دان: «سأجرّب نصيحتك وسأصاحب أشخاصًا صالحين ما استطعت، ولكن لا يمكن للمرء أن ينتقي ويختار، وهو يهيم على وجهه مثلي».

«بلى، بوسعك هذه المرة، لأنك ذاهب في مهمة سلمية ويمكنك أن تبتعد عن الإغراء إن حاولت. خذ معكَ بعض الكتب واقرأ، ففي هذا عون كبير؛ والكتابُ رفيق طيبٌ دومًا إن وجدت النوع الملائم، فدعني أنتقِ لك بعضها». صنعت السيدة جو خطًا متعرجًا كخط النحل بإصبعها على الرفوف المثقلة بالكتب، التي كانت بهجة قلبها وسلوى حياتها.

«أعطيني كتب رحلات وقصصًا من فضلك، لا أريد أعمالًا ورعة، فلا أظنني أستسيغها، ولا أود التظاهر بذلك»، قال دان وهو يتبعها لينظر من فوق رأسها بشيءٍ من الامتعاض إلى الصفوف الطويلة من المجلدات المهترئة.

استدارتْ إليه السيدة جو، ووضعت يديها على كتفيه العريضتين ونظرت في عينيه قائلة بوقار:

«اسمعني يا دان، لا تسخرْ من الأشياء الجيدة ولا تدّعِ يومًا أنك أسوأ من حقيقتك، ولا تدع الخجلَ الزائف يجعلك تهمل الدين الذي لا يحيا من دونه إنسان. لست بحاجةٍ للحديث عنه إن لم ترغب، ولكن لا تغلق قلبك في وجهه بأي شكل جاء إليك. إن الطبيعة ربك الآن، وقد أحسنتْ إليك كثيرًا، فدعها تفعل المزيد وتقدك لمعرفة وحبّ معلمٍ وصديق ومعزٍّ أكثر حكمة وعطفًا مما يمكنها أن تكون. هذا أملك الوحيد، فلا تُلقِ به وتضِعْ وقتك، لأنك ستشعر بحاجتك إليه عاجلًا أم آجلًا، وسيأتي إليك وينقذك حين يفشل كل عون آخر».

وقف دان بلا حراك، وتركها تقرأ في عينيه الهادئتين رغبةً خرساء سكنت قلبه، رغم أنه لم يجد كلماتٍ يعبر بها عنها، وجعلت السيدة جو تتوقُ إلى نظرة القبس السماويّ الذي يضطرم أو يشتعل بوضوحٍ في كل نفس بشرية. لم يتكلم، وفرح لأنه أُعفي من جوابٍ يناقض إحساسه الحقيقي، وعجلت السيدة جو بالقول بابتسامتها الأمومية:

«رأيت في غرفتك الكتاب المقدّس الصغير الذي أعطيته لك منذ زمنٍ بعيد، وقد وجدت غلافه باليًا، لكن صفحاته جديدة كأنك لم تقرأه كثيرًا. أتعدُني بقراءة شيء منه مرة في الأسبوع كرمى لي يا عزيزي؟ يوم الأحد يوم هادئ في كلّ مكان، وهذا الكتاب يناسب كلّ زمان ومكان، فابدأ بقراءة القصص التي أحببتَها عندما قصصتها عليكم أولادًا؛ إذ كان ديفْد المحبّبَ إليك، أتذكر؟ اقرأ قصته مرةً أخرى، ستناسبك أكثر الآن، وستجد في قراءة خطاياه وتوبته فائدةً إلى أن تصل إلى حياةٍ وعمل يفوقان سيرته فضيلة. هل ستفعل ذلك حبًا بالأم باير التي أحبت دومًا «مُشعل الفتن» وترجو أن تنقذه؟».

«سأفعل»، أجاب دان وقد أشرقَ وجهه فجأةً مثل شعاعٍ من الشمس خلال الغيوم، زاخرًا بالوعود رغم قصر أجله وندرته.

استدارت السيدة جو نحو الكتبِ وأخذت تتحدث إليها، موقنة أن دان لن يسمع شيئًا بعدما سمع. أحس بالارتياح، إذ كان صعبًا عليه دومًا إبداء سريرته، وكان يفخر في إخفائها مثلما يُخفي الهندي الأحمر ألمه أو خوفه.

«مرحى، هذا سنترام[١] العزيز! أذكره وكنت أحبه ونوبات غضبه، وقرأت منها لتِد. ها هو يركب الخيل إلى جانب الموت والشيطان».

---

(١) قصة لفردرش دو لا موت فوكيه، كاتب ألماني رومانسي، بطل القصة ابن لفارس عنيف وراهبة مسالمة، يقضي حياته ممزقًا بينهما، فيميل إلى العنف ويحرق القرى مع أبيه أحيانًا، ويعتريه الندم فيستغرق في صلاة التوبة أحيانًا أخرى، وهكذا تستمر حكايته في نزاعه بين الخير والشر في شخصيته.

حين نظرَ دان إلى الصورة الصغيرة لشابٍ مع حصان وكلبٍ يصعدون شِعبًا صخريًا، يصحبهم الرفيقان اللذان يلازمان معظم الناس في هذا العالم، دفعت السيدة جو رغبة طريفة إلى القول بسرعة:

«هذا أنت يا دان في زيارتك هذه! الخطر والخطيئة قريبان منك في الحياة التي تحياها. إذ يعذبك النزق والانفعال، فقد تركك الأبُ السيء تقاتل وحدك، والروح الجامحة تأخذك لتهيم على وجهك في الدنيا بحثًا عن السلام وضبط النفس. والحصان والكلب، هما أوكتو ودون، صديقاك المخلصانِ لا يخشيان المرافقين الغريبين اللذين يسيران معك. لم تحصل على درعك بعد، وأنا أحاول أن أدلكَ أين تجدها. تذكر الأم التي أحبها سنترام وتلهف للعثور عليها، ووجدها عندما قاتل معركته بشجاعة، ألم يستحق مكافأته؟ يمكنك أن تتذكر أمك، لقد راودني شعور دومًا أنك ورثت خصالك الطيبة عنها؛ فعش القصةَ الجميلة القديمة في هذا الجزء وغيره من الأجزاء، وحاولْ أن تعيد إليها ابنًا تفخرُ به».

جرف الحماسُ السيدة جو لتشابه هذه القصة الساحرة وحياة دان وحاجاته، فتابعت الإشارة إلى الصور المختلفة التي تزينها، وحين رفعتْ رأسها فوجئت باهتمامه ودهشته، إذ كان -ككل الناس الذين يماثلونه طباعًا- شديد الحساسية. وقد جعلته حياتُه بين الصيادين والهنود مؤمنًا بالخرافات، فصدق الأحلام وأحب الحكايات الغريبة، وكل ما يسحر العين أو العقل يأسره أكثر من أبلغ الكلمات. عادت قصة سنترام الفقير المعنّى بوضوح وهو ينظر

ويسمع، مجسّدًا اختباراته السرية بصدقٍ أكثر مما أدركت السيدة جو، وكان لهذا في تلك اللحظة أثرٌ في نفسه لن ينساه، ولكن كل ما قاله:

«قليل من هذا، لست أؤمن بلقاء الناس في الجنة. أحسب أن الأم لن تتذكر الصبي الصغير الفقير من زمن بعيد، ولِمَ تذكره؟».

«لأن الأم الحقيقية لا تنسى أولادها، وأعلم أنها كانت كذلك، إذ لاذت بالفرار من زوج قاسٍ لإنقاذ ابنها الصغيرِ من التأثير السيء. لو عاشت، لكانت حياتكَ أسعدَ بوجود هذه الصديقة الرقيقة لتساعدك وتهدئ قلقك. ولا تنسَ أبدًا أنها جازفت بكل شيء من أجلك، ولا تجعل ذلك يذهب سدىً».

تحدثت السيدة جو بجد شديد، موقنةً أن هذه هي الذكرى الحلوة الوحيدة من طفولة دان، وسُرّت بأنها تذكرتها في هذه اللحظة، إذ فجأة انهمرتْ دمعة كبيرة على الصفحة التي يجثو فيها سنترام عند قدمي أمه، جريحًا ومنتصرًا على الخطيئة والموت. رفعت نظرها، فرحة بأنها مست شغاف قلب دان، كما تبين من قطرة الدمع، لكن مسحةً من الذراع أبعدت هذه العلامة، وأخفت لحيته رفيقتها حين أغلق الكتاب قائلًا بتهدّج مكبوح في صوته القوي:

«سأحتفظ به إن لم يردْه أحد. وسأقرأه، فقد يفيدني. أود لقاءها في أيّ مكان، لكنني لا أظن ذلك سيحدث».

«احتفظ به وعلى الرحب والسعة، وقد أعطته أمّي لي. حين تقرأه حاولْ أن تصدق أن والدتيكما [أنت وسنترام] لن تنسياكما».

أعطته السيدة جو الكتاب مصحوبًا بقبلة، واكتفى بالقول: «شكرًا لك، ليلة سعيدة». دسّه دان في جيبه، وسار نحو النهر ليتخلّص من المزاج الغريب من الرقة والثقة.

انطلق المسافرون في اليوم التالي. كان الجميع فرحًا، وبيّضت السماء غيمة من المناديل عندما ذهبوا في العربة القديمة يلوّحون بقبعاتهم للجميع، ويرسلون قبلًا بعيدة، وخصوصاً للأم باير التي قالت بنبرتها الحادسة وهي تمسح عينيها، عندما هدأ الضجيج المعتاد:

«يراودني شعورٌ أن شيئًا ما سيحدث لبعضهم، ولن يعودوا إليّ أبدًا، أو سيعودون مختلفين. حسن، كل ما يسعني قوله ليكن الرب مع أولادي!».

وقد كان.

(٧)

# الأسد والحمل

خيّم الهدوء على پلمفيلد بعد سفر الأولاد، وتفرّق أفراد العائلة في أماكن مختلفة لنزهاتٍ قصيرة، إذ جاء أغسطس وشعر الكل بحاجة للتغيير. اصطحب الأستاذُ السيدة جو إلى الجبال، وذهب آل لورنس إلى شاطئ البحر، وزارتهم عائلة مِغ وولدا باير بالتناوب، إذ يجب أن يبقى أحد في البيت لحفظ النظام.

كانت السيدة مِغ وديزي مشغولتين عندما وقعت الأحداث التي سنحكيها. فقد عاد روب وتِد للتو من متنزه روكي نوك، وكانت نان تقضي أسبوعًا مع صديقتها في إجازة وحيدة سمحت لنفسها بها. وغادر ديمي مع توم في نزهة، لذا كان روب رجل البيت، وسايلس العجوز مراقبًا عامًا. كأنّ نسيم البحر اخترق رأس تِد إذ بدا غريب الأطوار على غير العادة، وأفسد حياة خالته الرقيقة وروب المسكين بمقالبه. وأُنهِكت أوكتو من امتطائه لها، وأظهر دون تمرّدًا عندما أمره بالقفز وإظهار مهاراته. أما الفتيات في الكلية فتسلّين وشعرن بالخوف، في الآن نفسه،

من الأشباح التي سكنت المباني في الليل، والألحان الغريبة التي أقلقت ساعاتهن الهادئة، ونجاة هذا الصبي النزق بشقّ الأنفس من حوادث النار والبر والبحر. وحدث شيء ما في الآونة الأخيرة أحزن تِد للغاية وترك أثرًا مديدًا على كلا الولدين، إذ صيّر الخطر المفاجئ والخوف الملازم الأسدَ حملًا والحملَ أسدًا، بقدر ما أتاحت الشجاعة.

في مطلع سبتمبر -لم ينسَ الولدان التاريخ قط- بعد نزهةٍ بهيجة وحظ وفير في صيدهما السمك، كان الولدان يسترخيان في الحظيرة؛ إذ كان لدى ديزي ضيوف، وظل الولدان بعيدين.

«سأخبرك بحقيقة الأمر يا بوبي، إن ذاك الكلب مريض. فهو لا يلعب ولا يأكل أو يشرب، كما أنه يتصرف بغرابة. سيقتلنا دان إن حدث له شيء». قال تِد ناظرًا إلى دون المستلقي قرب وجارِه يرتاح للحظاتٍ بعد واحدة من الجولات القلقة التي أبقته يتردد بين باب غرفة دان والركن الظليل للفناء، حيث أسكنه سيده وأعطاه قبعةً قديمة يحرسها إلى حين عودته.

«لعله الطقس الحار، لكني أظنه أحيانًا يشتاق لدان، فالكلاب تشتاق كما تعلم، والكلب المسكين مزاجه تعس منذ سافر الأولاد. لعل شيئًا حدث لدان، فقد عوى دون الليلة الماضية ولم ينم، وقد سمعت عن أمورٍ كهذه». أجاب روب بحصافة.

«بوو! ليس بوسعه أن يعرف. إنه نزق، وسأنشّطه وآخذه في نزهة، فهذا يجعلني أتحسّن دومًا. مرحبًا يا فتى! استيقظ وابتهج»،

وفرقع تد بأصابعه في وجه الكلب، الذي اكتفى بالنظر إليه نظرة ملؤها اللامبالاة الحزينة.

«حريٌّ بك أن تتركه وشأنه. إن لم يتحسن غدًا، سنأخذه إلى الطبيب وتْكِنز ونرى ما يقول». واصل روب مراقبته لطيور السنونو وهو مستلقٍ على التبن ينقّح بعض العبارات اللاتينية التي صاغها.

وقعت في نفس تِد الرغبة في العناد، ولما قيل له ألا يغايظ دون واصل فعله ذلك، مدّعيًا أن ذاك في صالح الكلب. ولم يأبه دون بتربيتاته وأوامره وتوبيخه أو شتائمه، إلى أن عيل صبر تِد، ورأى قضيبًا مناسبًا في القرب ولم يقاومْ إغراء إخضاع الكلب الضخم بالقوة، بعد أن فشل في كسب طاعته باللطف، لكنه تحلّى بالحكمة فربط دون أولًا، إذ كانت الضربة من أي يدٍ عدا يديْ سيّده تصيّره وحشًا، وجرب تد ذلك أكثر من مرة مثلما يتذكّر الكلب. أثار هذا الإذلال دون فاعتدل ودمدم، سمع روب ذلك، ولما رأى تد يرفع القضيب ركض ليتدخّل قائلًا:

«لا تلمسه! إن دان يمنع ذلك! دع الحيوان المسكين في سلام، فلن أسمح لك».

ليس من عادة روب أن يعطي الأوامر، ولكن إن فعل تعيّن على السيد تد أن يذعن. كان مزاجه فائرًا، وجعلت نبرة روب الآمرة محالًا عليه أن يقاوم ضربة واحدة للكلب المتمرد قبل أن يستسلم. ضربة واحدة فقط، لكنها كانت باهظة الثمن، إذ حين وقع القضيب، وثب الكلب على تد مزمجرًا، واندفع روب بين الاثنين،

وأحسّ بالأسنان الحادة تخترق ساقه. غير أن كلمة واحدة جعلت دون يخلي سبيله ويسقط عند قدمه آسفًا، لأنه أحبّ روب وندم لأنه آذى صديقه بطريق الخطأ. فتركه روب بتربيتة صفح، وعرج إلى الحظيرة يتبعه تِد، الذي انقلب غضبه إلى خجل وحزن حين رأى القطرات الحمراء على جورب روب والجرح الصغير في ساقه.

«أنا شديد الأسف، لماذا اعترضت طريقي؟ اسمع، اغسله وسآتي لك بخرقة تضمّده بها». قال بسرعة مشبعًا إسفنجة بالماء ومخرجًا منديلًا مجعدًا للغاية.

من طباع روب أن يصغّر من شأن مصاعبه وكان مستعدًا للغفران إن تعرّض الآخرون للوم، لكنه جلس صامتًا، ينظر إلى الآثار البنفسجية وعلى وجهه الأبيض تعبير غريب أقلق تد، رغم أنه أضاف ضاحكًا: «يا إلهي، إنك لست بخائف من كلبٍ صغير كهذا، أليس كذلك يا بوبي؟».

«إنني خائف من داء الكَلب، ولكن إن كان دون مجنونًا فمن الأفضل أن أجنّ أنا»، أجاب روب باسمًا مرتعدًا.

شحب وجه تِد أكثر من وجه أخيه لدى سماعه هذه الكلمة، وحملق به بوجهٍ خائف، ملقيًا الإسفنجة والمنديل، هامسًا بنبرة يأس:

«أوه، لا تقل ذلك يا روب! ماذا سنفعل؟ ماذا سنفعل؟».

«ادعُ نان، وهي ستعرف، ولا تُفزع خالتي ولا تخبر أحدًا سوى نان، إنها في القنطرة الخلفية، أحضرْها إلى هنا بأسرع ما استطعت.

وسأغسله حتى تأتي، ربما ليس بشيء. لا تكن شديد الخوف يا تد، إني أظن فحسب، إذ إن دون غريب الأطوار».

حاول روب أن يتحدث بشجاعة، لكن ساقيْ تد الطويلتين بدتا رخوتين رخاوة غريبة حين انطلق مسرعًا، ولحسن حظه أنه لم يصادفْ أحدًا في طريقه، إذن لفضح وجهُه أمرَه. كانت نان تتأرجح مسترخية في الأرجوحة، مستمتعة بقراءة بحثٍ مثير عن الخُنّاق، حين أمسك بها فتى مهتاج، هامسًا وهو يجرّها جانبًا:

«تعالي إلى روب في الحظيرة! دون مجنون وقد عضّه، ولا ندري ما نفعل. إنه خطئي، يجب ألا يعرف أحد، أوه، أسرعي!».

نهضت نان في الحال مندهشة، ولكن رابطة الجأش، وانطلق الاثنان دون مزيدٍ من الكلام وهما يلتفان حول البيت حيث ديزي الغافلة تتجاذب أطراف الحديث مع صديقاتها في الردهة والخالة مِغ تنام قيلولة العصر بهدوء في الطابق العلوي.

كان روب مستعدًا، هادئًا ثابت الجنان كعادته حين وجداه في غرفة عدّة الخيول، حيث أوى إليها بتفكيره الحصيف ليبتعد عن الأنظار. قُصّت الحكاية، وبعد أن ألقت نان نظرةً على دون، الجالس في وجاره حزينًا شكِسًا، قالت بهدوء وعينها على قدر الماء المملوءة:

«ثمة أمر وحيد ينبغي فعله طلبًا للأمان، ويجب فعله في الحال يا روب. لا يسعنا الانتظار حتى نتأكد من مرض دون لنذهب إلى الطبيب، يمكنني فعله، وسأفعله، لكنه مؤلم للغاية وأكره أن أؤلمك يا عزيزي».

تهدّج صوت نان وهي تتكلم تهدجًا غير مهني، وأظلمت عيناها اللامعتان حين نظرت إلى الوجهين الفتيّين القلقين الملتفتين إليها بثقة طلبًا لعونها.

«أعلم، فعالجيه بالكيّ من فضلك. يمكنني احتمالُ ذلك، ولكن الأفضل أن يذهب تد»، قال روب زامًا شفتيه بحزْم، وأومأ إلى أخيه المحب.

«لن أتحرك قيد أنملة، وبوسعي احتمال ذلك مثله، فقد كان يجب أن أكون أنا!»، قال تِد في محاولة بائسة لئلّا يبكي، يملؤه الحزن والخوف والخجل، وبدا أنه لن يطيقه كالرجال.

«يجدر به البقاء والمساعدة، وسيلقّنه ذلك درسًا». أجابت نان بحزم، إذ كان قلبها ينفطر، مدركة كل ما ينتظر الصبيين المسكينين. «الزما الهدوء، وسأعود من فوري». أضافت وهي ذاهبة إلى البيت وذهنها الحاضر يخطط أفضل ما يمكن فعله.

كان يوم كيّ الثياب، ولم تزل نار ساخنة تشتعل في المطبخ الفارغ، إذ كانت الخادمات في الطابق العلوي يرتحن. دست نان مَسعرًا رفيعًا لتسخّنه، وإذ هي جالسة تنتظر، غطت وجهها بيديها، تطلب العون في هذه الشدة المفاجئة؛ تطلب القوةَ والشجاعة والحكمة، فما من أحد تستدعيه، وقد عرفت ما يجب فعله رغم صغر سنها، لو كانت لها الشجاعة لفعله. لو كان أي مريض آخر، لكان الأمر مثيرًا دون الحاجة للقلق، ولكنه الغالي روبن الطيب، مفخرة أبيه وسلوى أمه، ومحبوب الجميع وصديقهم، وفظيعٌ أن

يكون في خطرٍ. انهمرت دمعات ساخنةٌ على الطاولة المدعوكة جيدًا حين حاولت نان أن تهدئ من روعها بتذكّر أن هذا كله قد لا يسفر عن شيء؛ وهذا خوف طبيعي ولكن لا داعي له.

«يجب أن أهوّن الأمر وإلا انهار الولدان ثم يسود الهلع. لماذا نضايق الجميع ونثير فزعهم إن كان الأمر مثار شك؟ سآخذ روب إلى الطبيب موريسن في الحال، وأجعل طبيب الكلاب يرى دون، وبعد أن نفعل كل ما بوسعنا، إما أن نضحك على خوفنا -إن كان الأمر كذلك- أو أن نستعد لما هو آتٍ مهما يكن. سأذهب الآن إلى فتاي المسكين».

عادت نان إلى الحظيرة، مدججة بمسعرٍ شديد السخونة، وإبريق من الماء المثلج، وعدد من المناديل أخذتها من منشر الغسيل، مستعدةً لبذل قصارى جهدها في أهم «حالة طارئة» واجهتها. جلس الولدان كأن على رأسيهما الطير، أحدهما يأسًا، والآخر تسليمًا، واحتاجت نان إلى كل رباطة جأشها المفتخرة لتنجز عملها إنجازًا سريعًا وحسنًا.

«سيستغرق الأمر دقيقة واحدة يا روب، ثم سنكون في أمان. قف قربَه يا تد، فقد تخور قواه قليلًا».

أغمض روب عينيه، وقبض يديه، وجلس مثل بطل. وجثا تد قربه، أبيض كالورق، رخوًا كفتاة، إذ مزّقتْه سياط الندم، وانفطر قلبه حين تذكّر أن كلّ هذا الألم كان بسبب عناده. انتهى كل شيء في لحظة، بآهةٍ صغيرة واحدة فقط، ولكن حين نظرت نان إلى مساعدها

ليناولها الماء، كان تد المسكين بأشد الحاجة إليه، إذ فقد وعيه، ورقد على الأرض في كومةٍ محزنة من الأذرع والسيقان.

ضحك روب، وضمّدت نان، التي ارتاحت لهذا الصوت المفاجئ، الجرح بيدين لم ترتجفا، رغم أن قطرات العرق الكبيرة تفصدتْ على جبينها، وقدّمت الماء للمريض رقم واحد قبل أن تلتفت إلى المريض الثاني. كان تد شديد الخجل، محطم الفؤاد، حين أدرك أنه أخفق في اللحظة الحاسمة، وتوسّل إليهما ألا يقولا شيئًا عن ذلك لأنه لم يستطع تفاديه حقًا. ثم كأنما يودّ إتمام ذله الكامل، أخجل روح الرجل فيه دفق من الدموع الهستيرية، ولقنته درسًا كبيرًا.

«لا بأس، لا بأس، نحن بخير الآن، ولا حاجة أن يكون أحد أكثرنا حكمة»، قالت نان بحماس، وتد المسكين يشهق على كتف روب، يضحك ويبكي بأشد صخب، وأخوه يهدئه والطبيبة الشابة تروّح على الاثنين بقبّعة سايلس القشّية القديمة.

«أصغيا إليّ أيها الولدان وتذكّرا ما سأقول. لن نثيرَ خوف أحد، إذ أرى أن خوفنا بلا معنى. كان دون في الخارج يلعق الماء حين أتيت، ولست أصدق أنه أكثر جنونًا مني، ورغم ذلك، وكي نريح أذهاننا وتطمئن قلوبنا، ونبعد وجوهنا المذنبةَ عن الأنظار لبعض الوقت، أرى أنه يجدر بنا أن نذهب إلى البلدة إلى صديقي القديم الطبيب موريسن، ونجعله يُلقي نظرة على عملي، ويعطينا جرعة من الطمأنينة، فقد فزعْنا كلنا من هذا المأزق. اجلس بهدوء يا روب،

وأنت يا تد، أعدّ العربة ريثما أذهب لإحضار قبّعتي وأخبر خالتي لتلتمس لي العذر عند ديزي، فلست أعرف فتيات آل پنهان، وستسر بفراغ مكاننا عند شرب الشاي، وسنتناول شيئًا لذيذًا في بيتي، ونعود إلى هنا مرحين كالقبّرات».

تكلمت نان كأنما لتصرف الانفعالات الخفية التي لن يسمح لها غرور المهنة بإظهارها، ووافق الولدان على فكرتها في الحال، لأن الفعل دومًا أسهل من الانتظار. ذهب تد يترنح ليغسل وجهه عند المضخة، ويفرك وجنتيه ليبث فيهما اللون قبل أن يسرج الخيل. ورقد روب هادئًا على التبن، ناظرًا إلى طيور السنونو ثانية كأنه عاش لحظات مشهودة. ولما كان صبيًا، فقد خطرت له فجأة فكرة الموت، وقد تجعله أكثر رصانة، إذ إنه أمر جليل جدًا أن يستحوذ عليك احتمال التغيير الكبير وأنت في غمرة الحياة الصاخبة. ولم تكن عنده ذنوب يتوب عنها، بل هفوات قليلة وكثير من السنوات السعيدة الصالحة ليتذكّرها براحة لا متناهية. لذا لم تكن لدى روب مخاوفُ تروّعه، ولا حسرات تحزنه، والأهم من ذلك، أنه يتحلّى بورَع قوي بسيط يثبّته ويبهجه.

«أبي [بالألمانية]»، كان أول ما خطر له، إذ كان روب قريبًا جدًا من قلب الأستاذ، وفقدان ابنه الأكبر سيشكّل صدمةً مريرة. هذه الكلمات، وقد همست برعشة الشفتين المزموتين للغاية حين وُضع الحديد الحامي، استحضرت أبًا آخر قريبًا دومًا، رفيقًا ومعينًا دومًا، فطوى روب يديه وتلا أصدق صلاة صلّاها يومًا، هناك على التبن،

قرب الزقزقة الناعمة للطيور الجالسة في أعشاشها. لقد أفاده ذلك، فوضع كل خوفه وشكّه وقلقه في يد الرب، وأحس الفتى أنه مستعد لما سيأتي مهما يكن، ومنذ تلك اللحظة أبقى نصبَ عينيه وهو رابط الجأش الواجبَ الواضح الوحيد؛ بأن يكون شجاعًا هادئًا، ويلزم الصمت ويتمنى الأفضل.

سرقت نان قبّعتها وتركت ملحوظة على مدبسة ديزي، تقول فيها إنها اصطحبت الولدين في نزهة، وسيتركون لها المكان حتى انقضاء وقت الشاي. ثم أسرعت عائدة ووجدت مريضيها بحال أفضل. أُجلس روب في المقعد الخلفي وساقه ممدودة، وهو يبدو جذلًا خلي البال كأنما لم يحدث شيء.

هوّن الطبيب موريسن من الأمر، ولكنه قال لنان إنها فعلت الصواب، وحين نزل الفتيان اللذان ارتاحا كثيرًا، أضاف هامسًا «أبعدي الكلبَ لبعض الوقت، وراقبي الفتى، ولا تُشعريه بذلك، وأبلغيني إن وقع خطب ما، إذ لا نعرف أبدًا ما يحدث في حالات كهذه، ولا ضير في أن نتوخّى الحذر».

هزّت نان رأسها موافقة وقد ارتاحت لانزياح العبء عن كاهلها، وأخذت الولدين إلى الطبيب وتْكِنز الذي وعد أنه سيأتي لاحقًا لفحص دون. أفادتهم كثيرًا جلسة الشاي المرحة في بيت نان، الذي يظل مفتوحًا من أجلها طوال الصيف. وحين عادوا إلى البيت في برودة المساء لم يبق أثر للهلع إلا عيني تد الناعستين، وعرج خفيف في مشية روب. لما كان الضيوف لم يزالوا يتحدثون في

الشرفة المقنطرة الأمامية، فقد انسحبوا إلى الخلف، وهدّأ تد روحه الجزعة بأن دفع روب في الأرجوحة، ونان تحكي لهما القصص حتى وصل طبيب الكلاب.

قال إن دون متأثر بالطقس قليلًا، لكنه ليس مجنونًا أكثر من الهريرة الرمادية التي تخرخر قرب ساقيه أثناء الفحص.

«يشتاق إلى سيده، ويشعر بالحر، ولعله يُفرط في الطعام. سأبقيه لبضعة أسابيع ثم أعيده إلى البيت على خير ما يرام»، قال الطبيب وتْكِنز، حين أرخى دون رأسه الضخم بين يديه، وأبقى عينيه الذكيتين على وجهه، فلا شك أنه أحسّ أن هذا الرجل فهم مصاعبه، وعرف ماذا يفعل من أجله.

غادر دون، وتشاور المتواطئون الثلاثة في أمر إعفاء العائلة من القلق، ومُنح روب الراحة التي تحتاجها ساقه. لحسن الحظ كان من عادته إمضاء ساعاتٍ عديدة في مكتبه الصغير، فيسعه الاستلقاء على الأريكة حاملًا كتابًا ما شاء من الوقت، دون تعليق من أحد. ولما كان ذا طبع هادئ، لم يقلق نفسه أو نان بمخاوف لا جدوى منها، لكنه صدّق ما قيل له، وصرف عن ذهنه كل الاحتمالات السيئة، ومضى في طريقه مرحًا، وقد تمالك نفسه سريعًا بعد صدمة ما سماه «خوفنا».

لكن تِد المتحمس أصعب في ضبطه، واحتاجت نان إلى كل رباطة جأشها وحكمتها لتجنبه كشف السر، إذ كان الأفضلُ عدم قول شيء وتجنّب النقاش لأجل روب. افترس الندم تد، وكان بائسًا للغاية،

فأمه ليست هناك ليسرّ لها. كرّس نفسه لروب في النهار، يرعاه ويحدثه ناظرًا إليه بقلق، ومسببًا القلق الكبير أيضاً للفتى الطيب، رغم أنه لن يقول ذلك ما دا ; تِد يجد فيه الراحة. ولكن في الليل، حين يخيّم الهدوء على كلّ شيء، يهزم تِد خياله الجامح وقلبه الثقيل، فيبقيانه ساهرًا أو يجعلانه يسير في نومه. راقبته نان، وأعطته أكثر من مرة جرعة صغيرة تريحه، وقرأت له وأنّبته، وحين وقعت عليه يطوف البيت في جولاتٍ ليلية، هددت بحبسه إن لم يبقَ في فراشه.

تلاشى كل هذا بعد مدّة، لكن التغيير طرأ على الصبيّ غريب الأطوار، ولاحظه الجميع قبل أن تعود أمه لتسأل عما فعلوا لإخماد روح الأسد. كان جذلًا لكنه ليس شديد الاندفاع، وكثيرًا ما كبح عناده القديم بحدةٍ كلما حاصره، فينظر إلى روب ويستسلم، أو يطوف بعيدًا لينفّس عن غضبه وحده. لم يعد يسخر من أساليب أخيه عتيقة الطراز وميله إلى الكتب، بل عامله باحترامٍ جديد واضح للغاية، أثر في روب المتواضع وأسعده، وأفرح كل المراقبين، كأنما أحس أنه مدين له بتعويض لتصرفه الأحمق الذي كان سيكلفه حياته. ولما كان الحب أقوى من الإرادة، فقد نسي تِد غروره وسدد دينه مثل ولد نزيه.

«لست أفهم الأمر»، قالت السيدة جو بعد أسبوع من حياة المنزل، وقد أعجبت كثيرًا بالسلوك الحسن لابنها الأصغر. «إن تِد قديس، أخشى أننا سنفقده، أهذا تأثير مِغ الحلو، أو طبخ ديزي اللذيذ، أو الأقراص التي ضبطت نان تعطيها له خلسة؟ لا بد أن

سحرًا نزل به أثناء غيابي، وهذا المراوغ شديد الدماثة هادئ مطيع، لا أعرفه».

«إنه يكبر يا حبيبة القلب، ولأنه نبتة نفيسة أخذ يزهر باكرًا، كما أني ألمس تغيّرًا في روب الحبيب، فهو أكثر جرأة وجدية من ذي قبل، ولا يكاد يفارقني، كأنما حبه لأبيه العجوز يكبر كلما كبر. سيفاجئنا ولدانا كثيرًا على هذا النحو يا جو، وليس لنا إلّا أن نفرح بهما وندعهما يصبحان ما يشاء الرب».

ألقى الأستاذ -أثناء حديثه- نظره فخورًا إلى الأخوين، اللذين جاءا يرتقيان العتبات معًا، وذراع تِد على كتف روب وهو يصغي باهتمام إلى بعض شروح روب في علم الأرض على صخرةٍ يحملها. كان تد في العادة يسخر من ميولٍ كهذه، ويسر بوضع الجلاميد في درب الطالب، ووضع كِسر الآجر تحت وسادته، والحصى في حذائه، أو أن يرسل طرودًا من التراب في البريد السريع إلى «أ. ر. م. باير»[1]. لكنه في الآونة الأخيرة أظهر احترامًا لهوايات روب، وبدأ يقدّر الخصال الحسنة لهذا الأخ الهادئ الذي أحبّه دومًا لكنه استخفّ به نوعًا ما، إلى أن فازت شجاعته في وقت الشدة بإعجاب تد، وجعلت مستحيلًا نسيان خطأٍ ستكون عواقبه وخيمة. لم تزل الساق عرجاء، رغم تحسّنها، وكان تد يقدّم ذراعه دومًا للمساعدة، محملقًا بقلق في أخيه، محاولًا تخمين حاجاته، إذ لم يزل الندم حادًا في روح تِد، وصفح روب لم يزده إلا عمقًا. وأوجدت عثرةٌ حميدة على

(١) الأستاذ روب مارش باير.

الدرج روب العذر لعرجهِ، ولم ير أحد الجرح إلا نان وتد، لذا ظلّ السر بمأمنٍ.

«نحن نتحدّث عنكما يا ولديّ، فادخلا وأخبرانا أيّ جنّيةٍ طيبة ألقت سحرها في غيابنا، أم أن الغياب جعل بصرنا حديدًا، فنرى تغييراتٍ سارّة لدى عودتنا؟»، قالت السيدة جو مربّتةً على الأريكة من كلا جانبيها، أما الأستاذ فنسي كومة الرسائل ليمتع ناظريه بالمشهد البهيج لزوجته في تعريشة الأذرع، إذ جلس الولدان بجانبيها، مبتسمين بحب، لكنهما يشعران بقليل من الذنب، لأن «ماما» و«بابا» عرفا كلّ حدث في حياتهما الفتية حتى اليوم.

«أوه، ذلك لأننا أنا وبوبي قضينا كثيرًا من الوقت وحدنا، فأصبحنا كالتوأمين، أغايظه قليلًا، وهو يعقّلني كثيرًا. أنتِ وأبي تفعلان الشيء نفسه، كما تعرفين، إنها خطة ذكية، وقد أعجبتني». أحسّ تد أنه تخلص من الأمر ببراعة.

«لن تشكركَ أمي على مقارنة نفسك بها يا تِد. إنني سعيد لكوني مثل أبي على أية حال، وأنا أسعى لذلك»، أجاب روب، وهم يضحكون على إطراء تد.

«بل إني أشكره، لأن ذلك صحيح. وإن فعلتَ يا روبن لأخيك نصفَ ما يفعله أبوك لي، فستكون حياتكما ناجحة». قالت السيدة جو بحرارة، «يسعدني جدًا أن أراكما تتعاونان، فهذه الطريقة المثلى، ويجب ألا نتردد في فهم حاجات المقرّبين منا وفضائلهم وأخطائهم. ولا ينبغي للحبّ أن يعمينا عن الخطأ، ولا أن تجعلنا الألفة متسرعين

في انتقاد العيوب التي نراها، لذا امضيا يا بنيّ، وامنحانا مفاجآت أكثر من هذا النوع بقدر ما شئتما».

«لقد قالت الأم الحبيبة كل شيء. إن سعادتي بالغة لرؤية المودة الأخوية الدافئة، وهذا جيد للجميع، فلتدم طويلًا!»، وأومأ الأستاذ باير للولدين اللذين بدا عليهما الرضا، لكنهما حائران كيف يردّان على عبارات الثناء.

ظل روب صامتًا بحكمة، خشية أن يقول الكثير، لكن تد اندفع واجدًا استحالة في ألا يقول شيئًا:

«الحقيقة أنني عرفت أيّ فتى شجاعٍ هو روب، وأحاول تعويضه عن الأخ الذي كنته. عرفت أنه حكيم للغاية، لكني حسبته لينًا لأنه يحبّ الكتب أكثر من اللهو، ويعلي من شأن الضمير كثيرًا. لكني أخذت أدرك أن أشجعَ الرجال ليس بأعلاهم صوتًا وأكثرهم تبّجحًا، كلا يا سيدي! إن روب العزيز الهادئ بطل ورائع، وإني لفخور به، ولو علمتما الأمر لكنتما كذلك أيضًا».

ها هنا أوقفت نظرة من روب تِد بسرعة، فتوقّف واحمرّ وجهه ووضع يديه على فمه في خوف.

«حسنٌ، ألن نعرف بالأمر؟»، سألت السيدة جو بسرعة، لأن عينيها الحاذقتين رأتا علامات خطر وأحس قلب الأمّ فيها أن شيئًا قد حال بينها وبين ابنيها. «يا ولديّ»، واصلت قولها بجد، «يساورني شك أن التغيير الذي نتحدثُ عنه ليس بتأثير نموكما، كما قلنا. بل يخايل لي أن تِد كان يعبثُ وأنقذه روب من مأزق، وهذا

سبب المزاج الودود لولدي السيء، والوقور لولدي الصالح، الذي لا يخفي شيئًا عن أمه».

احمرّ وجه روب مثل تد، وبعد لحظة من التردد رفع رأسه وأجاب بإحساس من الارتياح:

«أجل يا أمي، الأمرُ هكذا، لكنه انتهى ولم يقعْ ضرر، وأرى أنه يجدر بنا تركه لمدة على الأقل. إنني أشعر بالذنب حقًا لإخفاء أيّ شيء عنك، لكنك الآن تعرفين الكثير لذا لن أقلق ولا يجدر بك ذلك أيضًا. إن تد نادمٌ، وأنا راضٍ، وقد أفاد كلينا».

نظرت السيدة جو إلى تد، الذي طرف بعينَيه كثيرًا لكنه جهد ليبدو رجلًا، ثم التفتتْ إلى روب الذي ابتسم لها مبتهجًا فاطمأنّت. لكن شيئًا في وجهه أفزعها، ورأت ما الذي جعله يبدو أكبر وأكثر حزنًا ومحبوبًا من ذي قبل؛ لقد كانت هيئة البال المُضنَى، إلى جانب البدن، والصبر بدافع التسليم العذب لاختبار تعذّر تجنّبه، وخمنت مثل ومضةٍ أن خطرًا ما كان قريبًا من ولدها، وأكدت مخاوفها النظرات التي تبادلها الصبيّان ونان.

«روب يا عزيزي، أأصابك مرض أو قلق أو أذى بسبب تد؟ أخبرْني في الحال، ولن أقبل بأية أسرار. يعاني الأولاد أحيانًا طوال حياتهم بسبب حوادث أو طيش غض النظر عنها، أجبرهما على الكلام يا فرتز!».

وضع السيد باير أوراقه جانبًا وجاء ليقف أمامهم، قائلًا بنبرة هدّأت السيدة جو، ومنحت الولدين الشجاعة:

«قولا لنا الحقيقة يا ولديّ. بوسعنا احتمالها، فلا تكتماها لتريحانا. يعلم تد أننا نصفحُ عن الكثير لأننا نحبه، لذا ليكن كلاكما صريحًا».

غاص تِد في الحال بين وسائد الأريكة ومكث هناك، ولم يظهر منه إلا أذنان قرمزيّتان. أما روب فقد قصَّ الحكاية بكلماتٍ قليلة، بصدق وبرفقٍ قدر مستطاعه، متعجلًا في إضافة تأكيد بأن دون لم يكن مجنونًا، والجرح يكاد يشفى، ولا خطر منه.

لكن وجهَ السيدة جو شحب جدًا فطوقها بذراعيه، واستدار أبوه وابتعد قائلًا: «يا للسماء!»، في نبرةٍ امتزج فيها الألم والارتياح والامتنان. فجذب تد وسادةً أخرى على رأسه ليكتم الصوت. استعاد الجميع رباطة الجأش في لحظة، لكن خبرًا كهذا كان صادمًا، وإن انتهت المحنة، فعانقت السيدة جو فتاها بقوةٍ إلى أن جاء أبوه وأبعده مصافحًا إياه مصافحة قوية بكلتا يديه قائلًا وقد تهدّج صوته:

«إنّ تعرّض حياة المرء للخطر اختبارٌ لجلَده، وقد أبليتَ حسنًا، لكني لا أستطيع الاستغناء عن ولدي، حمدًا للرب إذ عاد إلينا سالمًا!».

انبعث صوت مخنوق بين الغصة والآهة من تحت الوسائد، وأفصح تلوّي ساقي تِد الطويلتين عن بؤسه فرقّت له أمه، وظلت تنقب حتى عثرت على شعر أشقر أشعث، فجذبته ومسدته، قائلة بضحكة لم تستطع كتمانها، رغم أن وجنتيها مبللتان بالدمع:

«تعال وليغفرْ لك أيها الآثم المسكين! أعلم أنك عانيت بما يكفي، ولن أقول شيئًا؛ ولكن لو حدث مكروه لروب لجعلت حياتي

أكثر بؤسًا من حياتك. أوه يا تِدي، يا تِدي، حاول أن تعالج روحك الرعناء قبل فوات الأوان!».

«آه يا أمي، إني أحاول! لن أنسى ذلك ما حييت، وآمل أنه داواني، وإن لم يفعلْ فأخشى أني لا أستحق الحياة»، أجاب تد جاذبًا شعره كأنما هذه الوسيلة الوحيدة ليعبّر بها عن ندمه.

«بل تستحقّها يا عزيزي. شعرت بذلك في عمر الخامسة عشر حين كادت إيمي تغرق، وساعدتني أمي كما سأساعدك، فتعال إلي يا تِد حين يسيطر عليك الشر، وسنهزمه معًا. آه، ويحي ! لقد كان لي نزاعات كثيرة مع أبوليون[1] وهُزمت كثيرًا، ولكن ليس دائماً. تعال تحت درعي، وسنحارب حتى ننتصر».

لم يتحدث أحد للحظة إذ ضحكَ تد وأمه وبكيا في منديلٍ واحد، ووقف روب وذراع أبيه حوله سعيدًا بأن كلّ شيء قد قيل وغفر، ولكنه لن ينسى يومًا، إذ إن تجارب كهذه تفيد المرء وتَعْقد القلوب بالحب أقرب فأقرب.

نهض تد أخيرًا وتقدم نحو أبيه وقال بشجاعة وتواضع:

«يجب أن أنال عقابي، فافعل ذلك من فضلك، ولكن قل إنك صفحتَ عني أولًا، كما فعل روب».

---

(١) في سفر الرؤيا ٩: ١١٧ يسميه يوحنا الملاك المسيحي للموت، أو ملاك الموت. والكلمة عبرية وتعني مكان الدمار أو الهاوية.

«دومًا، يا بُنيّ العزيز، سبعين مرةً سبع مرات[1]، إن دعت الحاجة، وإلا فلن أكون جديرًا بالاسم الذي أعطيته لي. لقد وقع العقاب، ولن أمنحك عقابًا أكبر، فلا يذهبن ذلك سدىً، ولن يضيع بمساعدة أمك والأب الذي في السماء، والمكان هنا لكليكما دومًا!».

فتح الأستاذ الطيب ذراعيه وعانق ولديه مثل ألمانيّ حقيقي، دون أن يخجل من التعبير بالكلام أو بالفعل عن عاطفة الأبوة التي سيختصرها الأميركي بصفعةٍ على الكتف وكلمة «لا بأس» مقتضبة.

جلست السيدة جو وسُرّت بالمشهد إذ كانت عاطفية، ثم تجاذبوا أطراف الحديث بهدوء، قائلين بحرّيةٍ كل ما تضمره قلوبهم، وشاعرين براحة كبيرة بالثقة التي تأتي عندما يطرد الحبُ الخوف، واتفقوا على ألّا يقال شيء عن الأمر إلا لنان، التي يجب شكرها ومكافأتها على شجاعتها وإخلاصِها وثبات جنانها.

«أيقنت دومًا أن تلك البنت ستصبح امرأةً رائعة، وهذا يُثبت كلامي. فلا هلع ولا صراخ ولا إغماء ولا صخب، بل عقل هادئ ومهارة مفعمة بالطاقة، يا للطفلة العزيزة، ما الذي أستطيع فعله أو تقديمه لها لأعبّر عن امتناني؟»، قالت السيدة جو بحماسة.

---

(١) إشارة إلى ما ورد في إنجيل متى «حينئِذٍ تقدم إِليه بطرس وقال: «يا ربُّ، كم مرةً يخطئ إِليّ أَخي وأنا أغفر له؟ هل إِلى سبعِ مراتٍ؟» قال له يسوع: «لا أقول لك إِلى سبعِ مراتٍ، بل إِلى سبعين مرةً سبع مراتٍ»».

«دعي توم يبتعد عن طريقها ويتركها في سلام»، اقترح تِد الذي استعاد طبيعته، رغم أن قلقًا وهاجسًا غشيا طبعه الجذل.

«أجل، افعلي ذلك! إنه يلاحقها مثل بعوضة. لقد منعته من القدوم إلى هنا طوال إقامتها وأرسلته مع ديمي، أحب توم العزيز، لكنه سخيف تمامًا فيما يتعلّق بنان»، أضاف روب حين مضى ليساعد أباه بالرسائل المتراكمة.

«سأفعل ذلك!»، قالت السيدة جو عازمة، «يجب ألا يُفسد مسيرة الفتاة أي هوىً صبيانيّ أحمق، فقد تستسلم في لحظة تعب، ثم ينتهي الأمر كله. وقد فعلتْ هذا نساءٌ أكثر حكمة وندمن طوال حياتهن. يجب أن تحرزَ نان مكانتها أولًا، وتثبت أنها قادرة على ملئها، ثم يمكنها أن تتزوجَ إن شاءت، وتجد رجلًا يستحقها».

لكن عون السيدة جو لم يكن مطلوبًا لأن الحب والامتنان يصنعان المعجزات، وعندما يضاف إليهما الشباب والجمال والصدفة والتصوير، فالنجاح أكيد، كما حدث في حالة توماس الأكيدة والمثيرة للشك في آن واحد.

# (٨)

# جوزي تؤدي دور حورية البحر

مكتبة
t.me/soramnqraa

أثناء خوض ولدَي باير اليافعين تجربة خطيرة في البيت، كانت جوزي تستمتع بوقتها للغاية في روكي نوك، إذ عرف آل لورنس كيف يجعلون كسل الصيف مبهجًا ومفيدًا في آن معًا. كانت بِس شديدة الولع بابنة خالتها الصغيرة، ورأت السيدة إيمي ضرورة أن تكون ابنة أختها امرأة راقية، سواء أأصبحتْ ممثلةً أم لا، فعملت على إعدادها للمجتمع الذي يميّز المرأة حسنةَ النشأة أينما كانت. أما العم لوري فلم يكن يومًا بأسعد منه حالًا عند التجذيف بالزورق، وركوب الخيل واللعب أو الاسترخاء برفقة الفتاتين المرحتين. أزهرت جوزي مثل زهرة برية في هذه الحياة الخليّة، وغدت بِس متوردة نشطة ومرحة، وكانت كلتاهما محبّبتين إلى الجيران، الذين كانت داراتهم قرب الشاطئ أو واقعة على الجروف على امتداد الخليج الجميل.

عكّرت صفو جوزي ورقة ورد مجعدة، إذ ملأتها أمنية مخنوقة بتوق غدا هوسًا، وأبقاها قلقة يقِظة مثل محقق يعكف على قضية

«لحلّها». واستأجرت الآنسة كامِرون -الممثلة العظيمة- إحدى الدارات وآوت إليها لترتاح و«تبدع» دورًا جديدًا من أجل الموسم القادم. ولم تلتقِ أحدًا إلا صديقًا أو اثنين، وكان لها شاطئ خاص، ولم تُرَ إلا أثناء نزهتها اليومية، أو حين يراها المتفرجون الفضوليون عبر نظارات الأوبرا شكلًا أزرق يستمتع بالبحر. عرفها آل لورنس، لكنهم احترموا خصوصيتها، وبعد أن زاروها تركوها تنعم بالهدوء إلى أن أعربت عن رغبتها في الصحبة؛ إذ تذكّرت معروفًا وردته في وقتٍ لاحق كما سنرى.

لكن جوزي كانت مثل ذبابة عطشى تطنّ قرب خابية عسل مختومة، والقربُ من مثلها الأعلى مفرحًا ومثيرًا للجنون في آن واحد. فقد تاقت إلى أن ترى وتسمع وتعاين وتتحدث مع هذه المرأة العظيمة السعيدة، التي تشوّق الآلاف بفنها، وتفوز بقلوب الأصدقاء بفضيلتها وإحسانها وجمالها. هذا مثال الممثلة التي أرادت الفتاة أن تكونها، ولن يعترض أحد ما دامت تتمتع بالموهبة، لأن خشبة المسرح تحتاج نساء من أمثال هؤلاء لتهذيب المهنة والارتقاء بها، المهنة التي يجب أن يجتمع فيها الإمتاع والتعليم. لو عرفت الآنسة اللطيفة كامِرون أي حب شغوف وشوق يعتمل في صدر تلك الفتاة الصغيرة التي قفزت على الصخور بفتور أو سبحت قرب الشاطئ، أو ركضت أمام بوابتها ممتطية جواد شِتلاند، لأسعدتها بنظرةٍ أو كلمة. لكن السيدة متعبة من عمل الشتاء ومشغولة بدورها الجديد، فلم تنتبه إلى الجارة اليافعة أكثر من انتباهها للنوارس في الخليج أو زهور الربيع المتراقصة في الحقول.

كانت باقات الزهور على عتبة بابها، أو أغاني الغزل عند سور حديقتها، أو النظرات الثابتة من عيون المعجبين أمورًا مألوفة لم تأبه لها إلا قليلًا، وشارفتْ جوزي على اليأس حين باءت كل محاولاتها الصغيرة بالفشل.

«قد أتسلق شجرة الصنوبر تلك وأقفز على سطح شرفتها المقنطرة، أو أجعل شِلتي يرميني قرب بوابتها وأتظاهر بالإغماء. لا جدوى من محاولة إغراق نفسي أثناء سباحتها، إذ لن أغرق، وستكتفي بإرسال رجل يخرجني. ماذا بوسعي أن أفعل؟ سأراها وأخبرها بأمنياتي وأجعلها تقول إني أجيد التمثيل ذات يوم. ستصدقها ماما، ولو أوه؛ ولو أنها تسمح لي بالتتلمذ على يدها، لكان ذلك فرحًا عظيمًا!».

قالت جوزي هذه الأمور ذات عصرية أثناء استعدادها وبِس للسباحة، إذ حرمهما منها في الصباح حشد من الصيادين.

«عليك أن تتحيّني فرصتك يا عزيزتي، ولا تكوني لجوجة. لقد وعد بابا بمنحك فرصة قبل انتهاء الموسم، وهو يحسن تدبير الأمور دومًا. وسيكون هذا أفضل من أيّ من ألاعيبك الغريبة»، أجابت بِس وهي تجمع شعرها الجميل في شبكة بيضاء تلائم ثياب السباحة، أما جوزي فبدت مثل قريدس صغير ببدلتها القرمزية.

«أكره الانتظار، ولكن أحسب أن عليّ ذلك. ليتها تسبح هذه العصرية، رغم أنه جزْر. لقد أخبرت عمّي أنها ستذهب عندئذ لأن الناس في الصباح حملقوا بها وذهبوا إلى شاطئها؛ تعالي لنقفز قفزة

رائعة من الصخرة الكبيرة، فلا أحد هناك سوى المربيات والأطفال، لذا بوسعنا اللهو والسباحة ما طاب لنا ذلك».

ذهبتا لقضاء وقت ممتع، إذ كان الخليج الصغير خاليًا من السابحين، وأعجب الأطفال بحركاتهما الرياضية المائية، فكلتاهما سبّاحتان ماهرتان.

وأثناء جلوسهما تقطران على الصخرة الكبيرة، أمسكت جوزي فجأة ببس وكادت تسقطها إذ قالت بحماس:

«ها هي! انظري! إنها قادمة للسباحة. يا للروعة! أوه، لو أنها تغرق قليلًا وتسمح لي بإنقاذها! أو لو يعضّ إصبع رجلها سلطعون، أي شيء فأستطيع الذهاب والحديث إليها».

«لا يبدو ذلك، بل إنها هادئة وتستمع بوقتها. تظاهرِي أننا لا نراها، فهذا من اللياقة»، أجابت بس، مصطنعة الانشغال بيخت أبيض يمر بالقرب.

«لنسبح بلا اهتمام من تلك الناحية كأننا ذاهبتان للبحث عن أعشاب البحر على الصخور. ولن تهتم إن استلقينا على ظهرينا ولا يبرز منا إلا أنفانا. وإن لم نستطعْ تفادي رؤيتها، سنسبح عائدتين كأننا نتوق إلى الراحة، وسيثير هذا إعجابها، وقد تستدعينا لتشكر الشابتين المهذبتين اللتين تحترمان رغبتها»، اقترحت جوزي التي يختلق خيالها الجامح مواقف نابضة بالحياة دومًا.

كأن القدر تدخّل أخيرًا. فحين أوشكتا على الانزلاق من صخرتهما، شوهدت الآنسة كامِرون تنادي بصخبٍ وهي تقف في

الماء الذي وصل حتى خصرها، وتنظر للأسفل، ونادت خادمتها، التي بدت كمن يبحث عن شيء على امتداد الشاطئ، ولما لم تجد ما تبحث عنه لوحت بمنشفة نحو الفتاتين كأنها تدعوهما لمساعدتها.

«اركضي، أسرعي! إنها بحاجتنا، إنها بحاجتنا!» صاحت جوزي تتخبط في الماء مثل سلحفاة نشطة، وسبحت بأفضل أساليبها نحو جنة الفرح التي انتظرتها طويلًا. وتبعتها بِس ببطء أكثر، وتقدمت كلتاهما لاهثتين باسمتين نحو الآنسة كامِرون، التي لم ترفع نظرها قط، بل قالت بصوتها الرائع:

«لقد أسقطت إسوارة. أراها لكني لا أستطيع الإمساك بها. هلا جلب لي الصبي الصغير عصا طويلة؟ سأبقي عيني عليها، لئلا يجرفها الماء بعيدًا».

«يسعدني أن أغوص لجلبها، لكني لست صبيًا»، أجابت جوزي ضاحكة وهي تهز رأسها الأجعد الذي بدا من بعيد رأس ولد.

«أستميحك عذرًا. غوصي يا صغيرتي، فالرمل يغطيها بسرعة. أقدّر تلك الإسوارة كثيرًا، لكني لم أتذكّر خلعها قبلًا».

«سأجلبها!»، وغاصت جوزي لتخرج حاملة حفنة حصى، دون الإسوارة.

«لقد ضاعت، لا تهتمي... إنه خطئي»، قالت الآنسة كامرون خائبة الرجاء، لكنها فرحت بارتياع الفتاة التي نفضت الماء عن عينيها وقالت لاهثة بشجاعة:

«كلا، لم تضع. سأحصل عليها ولو بقيت هناك طوال الليل!»، وأخذت جوزي نفسًا طويلًا وغاصت ثانية، دون أن تترك شيئًا يُرى سوى زوج من الأقدام النشطة.

«أخشى أن تؤذي نفسها»، قالت الآنسة كامِرون ناظرة إلى بس، التي عرفتها لشبهها بأمها.

«أوه كلا، فجوزي سمكة صغيرة. إنها تحب ذلك»، وابتسمت بس سعيدة لتحقق أمنية ابنة خالتها على نحو رائع.

«أحسبك ابنة السيد لورنس، أليس كذلك؟ كيف حالك يا عزيزتي؟ أخبري بابا أنني قادمة لرؤيته قريبًا. فقد كنت متعبةً جدًا قبلًا، منهكة جدًا، لكني بحالٍ أفضل. آه! ها هي غواصة اللؤلؤ، هل واتانا الحظ؟»، سألت لما غاص الكعبان وبرز الرأس الذي يقطر.

ما استطاعت جوزي في البدء شيئًا إلا أن تغص وتجمجم، وقد كادت تختنق، لكن يديها لم تخذلاها ثانية، ولا خانتها شجاعتها، وبهزة حاسمة من شعرها المبلل، نظرت إلى السيدة الطويلة نظرة مشرقة، وبعد نفثات لتملأ رئتيها بالهواء قالت:

«شعاري «لا تستسلم أبدًا». سأجدها، حتى لو ذهبت إلى ليـڤرپول بحثًا عنها! والآن هيا!»، وغاصت حورية البحر بعيدًا عن النظر هذه المرة، متلمسة طريقها مثل ڤريدس حقيقي في أعماق البحر.

«فتاة صغيرة جسورة! أحب ذلك. من تكون؟»، سألت السيدة

جالسة على صخرة نصف بارزة لمراقبة غواصتها، ما دامت الإسوارة قد ضاعت.

أخبرتها بس، مضيفة بابتسامة مقنعة كابتسامة أبيها: «تتمنى جوزي أن تصبح ممثلة، وانتظرت شهرًا لرؤيتك، وهي سعيدة للغاية بهذا».

«بوركت الصغيرة! لمَ لم تأتِ لزيارتي؟ كنت سأدخلها، رغم أني أتحاشى الفتيات المفتونات بالمسرح كما أتحاشى المراسلين»، ضحكت الآنسة كامرون.

لم يتح وقت لقول المزيد، فقد ظهرت من البحر يد سمراء تمسك بالإسوارة، تبعها وجه أرجواني حين خرجت جوزي عمياء دائخة وتشبثت ببس، نصف غارقة لكنها منتصرة.

جذبتها الآنسة كامرون إلى الصخرة حيث جلست، وأبعدت الشعر عن عينيها وأنعشتها بعبارة صادقة «أحسنت! أحسنت!»، التي أشعرت الفتاة أن دورها الأول كان ناجحًا. تخيلت جوزي كثيرًا لقاءها بالممثلة العظيمة، ودخولها بوقار ولياقة وإخبارها عن آمالها العظيمة، والفستان الفاتن الذي ستلبسه، والأمور الذكية التي ستقولها، والانطباع العميق الذي ستخلفه عبقريتها المزهرة. لكنها لم تتخيل قط في أشد اللحظات جموحًا لقاءً كهذا. فاتكأت على الكتف الشهيرة، وهي قرمزية اللون مترنحة جياشة العاطفة وخرساء ناظرةً مثل فقمة جميلة وهي تطرف وتصفر حتى استطاعت أن تبتسم فرحة وتقول فخورة:

«لقد فعلتها! إني سعيدة جدًا!».

«التقطي أنفاسك، يا عزيزتي، ثم سأكون سعيدة أيضًا. لقد كان لطفًا جمًا منكِ أن تتجشمي العناء من أجلي، فكيف أشكرك؟»، سألت السيدة، ناظرةً إليها بعينين جميلتين تقولان أشياء كثيرة دون كلمات.

شابكت جوزي يديها في صفقة مبللة كادت تفسد أثر فعلها، وأجابت في نبرةٍ متضرعة ترقق قلبًا أقسى بكثير من قلب الآنسة كامرون:

«دعيني آتِ لرؤيتك مرة، مرة واحدة فحسب! أريدك أن تخبريني إن كنت أجيد التمثيل، فأنت تعرفين، سأستمع لما تقولين. وإن رأيتِ أني قادرة -بعد وقت، حين أدرس بجد- فسأكون أسعد فتاة في العالم، أيمكنني؟».

«تعالي غدًا في الحادية عشرة، وسنتحدث مطولًا. يجب أن تريني ما يمكنكِ فعله، وسأعطيكِ رأيي، لكنه لن يعجبك».

«سأفعل، لا بأس إن أخبرتني أني حمقاء، إذ أود تسوية الأمر، وكذا تريد ماما. سأقبل الأمر بشجاعة إن قلتِ لا، وإن قلتِ نعم فلن أستسلم حتى أقدم الأفضل كما فعلت».

«آه يا صغيرتي، إنها درب وعرة، وبين الورود التي ستفوزين بها الكثير من الأشواك. أراكِ تتحلّين بالشجاعة، وهذا يظهر دأبك. وربما ستنجحين، تعالي وسنرى».

لمست الآنسة كامرون الإسوارة وهي تتحدث، وابتسمت بلطف شديد أثار الرغبة في جوزي المتهورة لتقبيلِها، لكنها أحجمت بذكاء، رغم أن عينيها كانتا رطبتين بماء أرقّ من ماء البحر وهي تشكرها.

«إننا نؤخر الآنسة كامرون عن سباحتها، والمد ينحسر، هيا يا جوزي»، قالت بِس الحصيفة، وهي تخشى أنهما أطالتا الزيارة.

«أسرعي إلى الشاطئ وتدفّئي. شكرًا جزيلًا لك يا حورية البحر الصغيرة، أخبري بابا أن يحضر ابنته لرؤيتي في أي وقت، إلى اللقاء»، وبتلويحة من يدها، صرفت ملكة التراجيديا رعيّتها، لكنها مكثتْ على العرش المعشب تراقب الفتاتين وهما تجريان على الرمل بأقدام لامعة حتى اختفتا عن ناظريها. ثم، وهي تغوصُ وتطفو بهدوء في الماء، قالت لنفسها: «للطفلة وجه مسرحي جميل، وعينان جميلتان نشطتان قلقتان، وإرادة جسورة جريئة، ولربما ستكون مناسبة. أصل طيب، وموهبة في العائلة. سنرى».

لم يغمضْ جفن لجوزي قط، وكانت محمومة من الحماس البهيج اليوم التالي. وفرح العم لوري بما حدث كثيرًا، واعتنت الخالة إيمي بأجمل فستان أبيض من أجل المناسبة العظيمة، وأعارتها بس أروع قبّعاتها، وطافت جوزي في الغابة والسبخة بحثًا عن باقة من الورود البرية، والأزاليا البيضاء الحلوة، والخنشار والأعشابِ الجميلة، تقدمها من قلب ممتن جدًا.

في العاشرة تهيأت بوقار، ثم جلست تنظر إلى قفازيها الأنيقين،

وحذائها ذي الإبزيم حتى حان وقت الذهاب، وقد غدت شاحبةً وهادئة لدى تفكيرها أن مصيرها سيتحدد قريبًا، إذ، ككل الشباب كانت واثقة أن حياتها بأكملها ستعتمد على كائن بشري واحد، ناسية تمامًا كيف تربّينا العناية الإلهية بخيبة الأمل، وتفاجئنا بنجاح غير متوقع، وتحوّل لاءاتنا إلى نعم.

«سأذهب وحدي، فنكون أكثر حرية. أوه يا بِس، صلّي أنها ستقول لي الحق! الكثير يعتمد على ذلك! لا تضحك يا عمّي! إنها لحظة بالغة الجدّية عندي، وتعرفُ الآنسة كامِرون ذلك، وستخبرك به. قبّليني يا خالتي إيمي، لأن أمي ليست هنا، وإن قلتِ إني أبدو جميلة، فسأفرح بذلك. إلى اللقاء». غادرت جوزي بتلويحة من يدها تشبه كثيرًا تلويحة مثلها الأعلى قدر ما استطاعت، وهي تبدو رائعة الجمال شديدة القلق.

ولما كانت واثقة من السماح لها بالدخول هذه المرة، فقد قرعتْ بجرأةٍ البابَ الذي صرف كثيرين، وأُخذت إلى ردهةٍ ظليلة، ومتعت ناظريها بكثير من الصور الشخصية الجميلة للممثلين العظام أثناء انتظارها. لقد قرأت عن معظمهم، وعرفت مصاعبهم ونجاحاتهم جيدًا فنسيت أمرها. وحاولت أن تقلد السيدة سيدون في دور الليدي مكبث، ناظرةً إلى النقش وهي تحمل باقتها مثل الشمعة في مشهد السير أثناء النوم، وعقدت حاجبيها اليافعين بألم وهي تهمهم بكلام الملكة المعذّبة. كانت مشغولة جدًا فراقبتها الآنسة كامرون لبضع دقائق خلسة، ثم أفزعتها بدخولها والكلمات على شفتيها والنظرة على وجهها، ما جعل ذلك واحدًا من أعظم مشاهدها.

«لن أستطيع أداءها هكذا أبدًا، لكني سأستمر في المحاولة إن قلتِ إني أستطيع»، قالت جوزي ناسيةً آداب اللياقة في غمرة اللحظة المثيرة.

«أريني ماذا تستطيعين أن تؤدي»، أجابت الممثلة، وقد دخلتْ إلى صلب الموضوع بذكاء، مدركة أن الحديث العادي لن يرضي هذه الفتاة الصغيرة الجادة.

«دعيني أقدم لك هذه أولًا. ظننتك تحبين الزهور البرية أكثر من زهورِ الدفيئة، وأنا أحب قطفها، ما دمت لا أملك وسيلة أخرى أشكرك بها على لطفك الجمّ معي»، قالت جوزي مقدمة باقتها بصدق وبساطة وعذوبة.

«إني أحبّها أكثر حقًا، وأُبقي غرفتي مليئة ببعض الباقات التي تتركها جنّية طيبة قرب بوابتي. أقسم بشرفي إني عرفت الجنية، فهذه تشبهها كثيرًا»، أضافت بسرعة، وقد تنقلت عيناها بين الزهور في يدها والأخرى القريبة، المنسقة بالذوق نفسه.

احمرّ وجه جوزي وفضحتها ابتسامتها قبل أن تقول، بنظرة مفعمة بالإعجاب والتواضع الفتيين:

«لم أستطع تجنّب ذلك، فأنا من أشد المعجبين بك. أدرك أن هذا طيش، ولكني لما لم أستطع الدخول، أحببت الظن أن باقاتي تسعدك».

مسّ قلب المرأة شيءٌ في الطفلة وهديّتها الصغيرة، فجذبت جوزي إليها، قالت من دون أثر للتمثيل في وجهها:

«إنها تسعدني يا عزيزتي، وكذلك أنت. لقد سئمتُ من المديح، والحب عذب جدًا حين يكون بسيطًا وصادقًا هكذا».

تذكرتْ جوزي أنها سمعت، بين قصص عديدة، أن الآنسة كامرون فقدت حبيبها قبل سنوات، وعاشت منذئذٍ للفن وحده. فأحست الآن أن ذلك قد يكون حقيقيًا، فمنحت شفقتُها على الحياة الرائعة الوحيدة وجهَها بلاغة وامتنانًا أيضًا. ثم قالت صديقتها الجديدة، كأنما تتلهف لنسيان الماضي، بنبرة آمرةٍ بدت من طباعها:

«دعيني أرَ ما تجيدين تمثيله. لا شك أنه دور جولييت، فكل الفتيات يبدأنَ بهذا. يا للمسكينة، كيف قتلت!».

عزمت جوزي على البدء بحبيبة روميو الخالدة، وتتبعها ببيانكا وبولين، وعدد من النماذج الأثيرة لدى الفتيات المفتونات بالمسرح. ولأنها فتاةٌ حاذقة، أدركت فجأةً حصافة رأي العم لوري، وعزمت على اتباعه. لذا بدلًا من التبجح الذي انتظرته الآنسة كامرون، قدمت جوزي مشهد جنون أوفيليا المسكينة، وأحسنت أداءه، وقد تدرّبت عليه جيدًا على يد أستاذ الأداء في الكلية، ومثلتْه مرارًا. كانت صغيرةً جدًا، لكن الثوب الأبيض والشعر المنسدل والأزهار الحقيقية التي نثرتها على القبر المتخيل، أضافت إلى المشهد. وغنت الأغنية بعذوبة، وأدت انحناءتها الحزينة، ثم اختفت خلف الستارة التي تقسّم الغرف بنظرة للوراء أذهلت مستمعتها الناقدة وانبرت تصفّق. ابتهجت جوزي لسماع هذا الصوت، وهرعتْ عائدةً

مثل فتاة طائشة صغيرة من المهازل التي مثلتها كثيرًا، حاكية قصة ملؤها الضحك والمشاكسة أولًا، ثم ينتهي الأمر ببكاءِ الندم والدعاء الخالص طلبًا للمغفرة.

«جيد جدًا! جرّبي ثانية، فهذا أفضل مما ظننت»، قال صوت المعلمة.

ألقت جوزي خطاب پورشيا وتلته جيدًا، مشددةً على كل جملةٍ بليغة. ثم، عاجزةً عن الإحجام عما ظنته أعظم محاولاتها، اندفعت تمثل دور جولييت في مشهد الشرفة، وأنهته بمشهد السم والقبر. كانت واثقة أنها تفوّقت على نفسها وانتظرت التصفيق، لكن ضحكةً رنانة جعلتها تضطرب خيبة وإذلالًا، حين ذهبت للمثولِ أمام الآنسة كامرون قائلة بنبرة عجب مهذب:

«قيل لي إني أديته جيدًا، يؤسفني أنك لا ترين ذلك».

«يا عزيزتي، إنه سيء جدًا، كيف له ألا يكون كذلك؟ ماذا تعرف طفلة مثلك عن الحب والخوف والموت؟ لا تجربيه، دعي المأساة وشأنها حتى تصبحي قادرةً على أدائها».

«لكنك صفقت لدور أوفيليا».

«أجل، كان ذلك جميلًا. وبوسع أيّ فتاةٍ ذكية أداؤه جيدًا، لكن المعاني الحقيقية لشكسپير تتجاوز إدراككِ في هذه السنّ يا صغيرتي. كانت الملهاةُ أفضل قليلًا، فقد أظهرت موهبتك الحقيقية، لقد كانت مضحكةً ومثيرة للشفقة في آن واحد، وهذا هو الفن، فلا تفقدي

ذلك. ودور پورشيا كان خطبة جيدة، فواصلي مع هذا النوع، إذ سيمرّن صوتك، ويعلمك الفروق في التعبير. إن لك صوتًا جيدًا وجمالًا طبيعيًا، وكلاهما يساعد كثيرًا، ويصعب اكتسابهما».

«حسنٌ، يسرني أني أتمتع بشيء ما»، تنهدت جوزي وهي تجلس بخضوع على مقعد، كئيبة، لكنها لم تهزم بعد، وعزمت على أن تظفر برأيها.

«يا صغيرتي العزيزة، أخبرتك أن ما سأقوله لك لن يعجبك. لكني يجب أن أكون صادقة إن أردت مساعدتك حقًا. لقد اضطررت لفعل ذلك مع كثيراتٍ مثلك، ولم تغفر لي معظمهن، رغم أن رأيي كان صحيحًا، وقد أصبحن ما أشرت عليهنّ به؛ زوجاتٍ صالحات وأمهات سعيدات في بيوت هادئة. واستمر قليل منهن وأبلين حسنًا، ستسمعين عن إحداهن قريبًا كما أحسب، لأنها تتمتع بالموهبة والصبر الذي لا يقهر والعقل إلى جانب الجمال. إنك صغيرة جدًا لمعرفة إلى أي صنف تنتمين، فالعباقرة نادرون، ونادرًا ما يوحي عمر الخامسة عشرة بموهبة قادمة».

«أوه، لا أراني عبقرية!»، قالت جوزي وقد غدت هادئةً وقورة وهي تصغي إلى الصوت الرخيم وتنظر إلى الوجه المعبر الذي ملأها ثقة، إذ كان قويًا وصادقًا ولطيفًا. «أود أن أعرف فقط إن كنت موهوبة بما يكفي للاستمرار، وأن أتمكن بعد سنوات الدراسة أن أمثل جيدًا في أي من المسرحيات العظيمة التي لا يملّ الناس من مشاهدتها. لا أتوقع أن أكون مثل السيدة سيدون أو الآنسة

كامرون، رغم أني أتمنّى ذلك كثيرًا، ولكن يبدو أن في داخلي شيئًا لا يخرج إلا بهذه الصورة. وأكون سعيدة جدًا حين أمثل، ويبدو أنني أحيا، أن أكون في عالمي الخاص، وكل دورٍ جديد هو صديق جديد. أحب شكسپير ولا أسأم أبدًا من شخصياته الرائعة. لست أفهم كل شيء طبعًا، لكن الأمر يشبه البقاء وحيدًا في الليل مع الجبال والنجوم، مهيبًا وجليلًا، وأحاول تصور مظهره عند شروق الشمس، فيكون كل شيء بهيجًا واضحًا لعيني. لا أستطيع الرؤية، لكني أحس الجمال، وأحترق شوقًا للتعبير عنه».

كانت جوزي شاحبةً من الإثارة، وهي تتحدث ناسية نفسها تمامًا، وبرقت عيناها وارتعشت شفتاها، كأن روحها الصغيرة تحاول جهدها أن تعبّر بالكلمات عن العواطف التي غمرتْها حتى فاضت. فهمت الآنسة كامرون، وأحست أن هذا يفوق كونه نزوةً صبيانية، وحين ردّت كان في صوتها نبرة جديدة متعاطفة، وفي وجهها اهتمام جديد، رغم أنها أحجمت بحكمة عن الإفصاح بكل ما خطر لها، مدركة الآمال الرائعة التي يبينها الشباب بعد كلمة، وعالمة بمرارة الألم حين تنفجر الفقاعات البراقة.

«إن كان هذا إحساسكِ، فسأقدم لك نصحًا أفضل من الاستمرار في حب أستاذنا العظيم ودراسته»، قالت ببطء، لكن جوزي أدركت تغيّر النبرة، وأحست، في إثارة الفرح، أن صديقتها الجديدة تحدثها الآن بوصفها زميلة. «إنه تعليم في حد ذاته، والحياة ليست طويلة بما يكفي لتعلمك كل أسراره. ولكن عليك فعل

الكثير قبل أن تتمنّي ترديد كلماته. ألديكِ الصبر والشجاعة والقوة، وأن تبدئي من البداية، وأن تضعي الأساس ببطءٍ وبألم من أجل العمل في المستقبل؟ إن الشهرة لؤلؤة يغوص الكثيرون بحثًا عنها ولا يفوز بها إلا قلة. وإن فعلوا، فهي ليست كاملة، إذ يسعون إلى المزيد، ويخسرون أشياء في سعيهم لذلك».

كأنها قالت الكلمات الأخيرةَ لنفسها أكثر من مستمعتها، لكن جوزي أجابت بسرعةٍ بابتسامة وإيماءة معبرة:

«لقد وجدت الإسوارة رغم الماء المالح في عينيّ».

«لقد فعلت! ولن أنسى ذلك. وهذه بشارة خير سنقبلها».

ردت الآنسة كامرون الابتسامة بابتسامةٍ كضوء الشمس في عين الفتاة، ومدت يديها البيضاوين كأنها تأخذ هدية مرئية. ثم أضافت بنبرة مختلفة، مراقبة أثر كلماتها على الوجه المعبّر أمامها:

«ستشعرين بالخيبة إن نصحتكِ بأن تعودي إلى المدرسة وتنهي تعليمك، بدلًا من أن أقول لك أن تأتي لتدرسي معي أو تذهبي للتمثيل في مسرحٍ من الدرجة الثانية. تلك هي الخطوة الأولى، لأن المآثر كلها مطلوبة، والموهبة وحدها لا تصنع شخصية كاملة. نمّي عقلك وبدنك، وقلبك وروحك، وكوني فتاةً ذكية جميلة تتمتع باللياقة والصحة. ثم، حين تبلغين الثامنة عشرة أو العشرين، اذهبي لتتدرّبي وتجربي قدراتك. يجدر بكِ الانطلاق إلى المعركة وقد أعددت سلاحك، وتجنبي الدرس القاسي الذي تتعلمينه حين تندفعين بسرعةٍ شديدة. بين الحين والآخر ينجح العبقري نجاحًا

كاسحًا، لكن هذا لا يحدث كثيرًا؛ إذ علينا الصعود ببطء، وسنتعثر ونسقط كثيرًا. أيسعك الانتظار إلى جانب العمل؟».

«سأفعل!».

«سنرى. يسرني أن أعرف أني حين أترك المسرح ستخلفني زميلة مؤهلة مخلصة موهوبة لتحل محلي، وتواصل ما أحببته من صميم قلبي، وأعني الكمال في خشبة المسرح. قد تكونين أنت المنشودة، ولكن تذكّري أن الجمال والثياب الغالية وحدها لا تصنع الممثلة، ولا محاولات فتاةٍ صغيرة ذكية لأداء أدوار الشخصيات العظيمة هي فن حقيقي. هذا كله بهرجٌ وإبهار، وخيبة وانعدام لياقة. لماذا يعجب الجمهور بالأوبرا الهزلية، أو الهراء المسمّى مسرحياتٍ اجتماعية، إن كان عالم الحق والجمال، والشعر والرثاء ينتظر تأويله والاستمتاع به؟».

نسيت الآنسة كامرون إلى من كانت تتحدث، ومشت جيئةً وذهابًا، مفعمة بالأسى النبيل الذي يشعر به كل المثقفين حيال الحال المتردية للمسرح هذه الأيام.

«هذا ما يقوله العم لوري، وهو والخالة جو يحاولانِ كتابة مسرحياتٍ عن أشياء حقيقيةٍ وجميلة، مشاهد عائلية بسيطة تمس قلوب الناس، وتضحكهم وتبكيهم وتعزّيهم. يقول عمّي إن هذا ما يلائمني، وإني لا ينبغي لي التفكير بتمثيل المأساة، ولكن التبختر في أذيال القطيفة والتيجان أجمل من لبس الثياب اليومية، وأن أكون نفسي فحسب رغم سهولته».

«أجل، هذا هو الفن الرفيع يا صغيرتي، وهو ما نحتاجه لمدة من الزمن إلى أن نصبح جاهزين لمشاهدة الروائع. نمّي موهبتك، فهي موهبة مميزة، والقدرةُ على استدرار الدموع والضحكات، ومسّ القلوب عملٌ أعذب من تجميد الدم في العروق أو إشعال الخيال. أخبري عمك أنه محق، واطلبي من خالتك أن تكتب مسرحية من أجلك. سآتي لمشاهدتها حين تكونين جاهزة».

«أحقًا تفعلين؟ أوه! سنؤدي واحدةً في عيد الميلاد، ولي فيها دورٌ جميل. شيء بسيطٌ صغير لكني أستطيع أداءه، وسأفخر وأسعد بوجودك هناك».

نهضت جوزي وهي تتحدث، إذ أظهرت لها نظرة إلى الساعة أن زيارتها كانت طويلة. ورغم صعوبة إنهاء هذا اللقاء العظيم، فقد أحست أنه يجدر بها الذهاب، فتقدمت حاملة قبعتها نحو الآنسة كامِرون التي وقفت ناظرةً إليها بحب أحسته شفافًا كلوح زجاج، واحمرّ وجه جوزي حين رفعت نظرها قائلة برعشة امتنان صغيرة في صوتها:

«لا يسعني شكرك بما يكفي على هذه الساعة وكل ما أخبرتني به. سأتبع مشورتكِ، وستسر ماما لرؤيتي أعود إلى كتبي ثانية. بوسعي أن أدرس بحماس، لأن هذا سيساعدني على التقدم، ولن أطمح بالكثير، لكني سأعمل وأنتظر وأحاول إسعادك، فهذا السبيل الوحيد لأرد معروفك».

«وهذا يذكّرني أني لم أردّ معروفك. ضعي هذا من أجلي يا صديقتي

الصغيرة، إنه ملائمٌ لحورية البحر، وسيذكرني دومًا بغطستك الأولى. أرجو أن تخرجي من الغطسةِ القادمة بجوهرة أثمن، لا تترك ماء مرّاً على شفتيك!».

أخذت الآنسة كامرون، أثناء حديثها، من الدانتيلا المحيطة بعنقها مشبكًا جميلًا من الزبرجد، وثبتته مثل وسام على صدر جوزي الفخور، ثم رفعت إليها الوجه السعيد الصغير، وقبلته برقة شديدة، ورأته يبتعد باسمًا بعينين تريان مستقبلًا مليئًا بالسراء والضراء التي خبرتها جيدًا.

توقعت بِس أن ترى جوزي تأتي مسرعة، وكلها مرح وإثارة، أو غارقة بدموع الخيبة، لكنها فوجئت بهيئة الهدوء والرضا والعزم التي كسَت وجهها. فخر ورضا، عززهما شعور جديد بالمسؤولية وأضفى عليها وقارًا، وأحست أنها ستطيق أي قدر من الدراسة المملة والانتظار، إن كانت في المستقبل السعيد ستصبح فخرًا لمهنتها وزميلة لصديقة جديدة عشقتها قبلًا بحماس صبياني.

قصت حكايتها القصيرة على جمهور شديد الاهتمام، وراودها إحساس بأن نصيحة الآنسة كامِرون سديدة. ارتاحت السيدة إيمي لفكرة التأجيل، لأنها لم ترد لابنة أختها أن تكون ممثلة وأمِلت أن يتلاشى هذا الهوى.

كان العم لوري مفعمًا بالأفكار والتوقعات الساحرة وكتب واحدة من أكثر رسائله بهجة ليشكر جارتهم على لطفها. أما بس التي تحب كل أنواع الفنون، فقد أيدت آمال ابنة خالتها الطموحة،

وتساءلت لمَ تفضل تمثيل خيالاتها بدلًا من تجسيدها بنحْت الرخام. لم يكن ذاك لقاء أولًا وأخيرًا، إذ كانت الآنسة كامرون مهتمة حقًا، وكان لها أحاديث رائعة مع آل لورنس، والفتاة تجلس بالقرب تتشرب كل كلمة بسعادة يحسها كل الفنانين في عالمهم الجميل، وتعلمت أن ترى قدسية المواهب الجيدة، وقوتها، وأن يحسن استغلالها لأجل غايات سامية، فكلٌّ في موضعه يساعد في التعليم والإصلاح والإحياء.

كتبت جوزي رزمًا من الرسائل لأمها، وحين انتهت الزيارة سُرَّ قلبها بالتغيير الذي طرأ على ابنتها الصغيرة، التي انكبّت على الكتب التي مقتتها قبلًا بنشاط وصبر فاجأ الجميع وأسعدهم. لقد مُس الوترُ الصحيح، وغدت تمارين اللغةِ الفرنسية والعزف على البيانو مقبولة، ما دامت المؤهلات مفيدة. وبعد وقتٍ غدت الثياب واللياقة والعادات مهمة «إذ يجب تهذيب العقل والبدن، والقلب والروح» وأثناء تهيؤ جوزي الصغيرة لتكون «فتاةً تتحلّى بالذكاء واللياقة والصحة!» كانت تعدّ نفسها من دون أن تدرك لتؤدي الدور جيدًا على خشبة أي مسرح يختاره لها المدير الكبير.

# (٩)
# تغيّر الحال

مضت دراجتان راقيتان جدًا تتلألأان صاعدتين الدرب إلى پلمفيلد عصر ذات يومٍ من أيام سبتمبر، تحملان راكبين أسمرين مغبرّين عائدين فيما يبدو من نزهة موفقة. ورغم أن سيقانهما منهكة قليلًا، فقد أشرق وجهاهما وهما يعاينان العالم من مكانيهما العاليين بمسحةٍ من الرضا والهدوء يشعر بهما كل الدراجين بعد تعلّمهم الركوب، قبل تلك النهاية السعيدة لتعب العقل والبدن وهي الملمح الأساسي لهيئة الرجال.

«امضِ يا توم وأبلغهم، إنني مطلوب هنا، أراك لاحقًا»، قال ديمي وقد نزل أمام باب دوڤكوت.

«لا تشِ بشيء يا صاحبي الطيب، دعني أُفضِ بالأمر أولًا إلى الأم باير»، أجاب توم وهو يدرج قرب البوابة بزفرة ثقيلة.

ضحك ديمي، ومضى رفيقه ببطء في الطريق المشجّر، آملًا بصدق أن الشاطئ خالٍ، لأنه يحمل التيار الذي سيزلزل العائلة بأكملها دهشة وعجبًا، كما حسب.

سُرَّ لمعرفة أن السيدة جو وحدها في بستان من التجارب الطباعية، تركتها لتحيّي الجوال العائد بحرارة. ولكنها رأت من النظرة الأولى أن في الأمر خطبًا، إذ جعلتها الأحداث الأخيرة حادة النظر متشككة.

«ما الأمر يا توم؟»، سألته حين ارتمى على كرسيّ مريح وعلى وجهه الأحمر بحمرة الآجر مزيج غريب من الخوف والخجل والفرح والقلق.

«إنني لفي مأزقٍ عظيم يا سيدتي».

«طبعًا، أنا مستعدة دومًا للمآزق حين تأتي. ما الأمر؟ هل اصطدمت بسيدةٍ عجوز ستقاضيك لأجل ذلك؟»، سألت السيدة جو بمرح.

«أسوأ من ذلك»، أن توم.

«أرجو أنك لم تسممْ أحدًا وثقَ بك وطلب منك وصف الدواء».

«أسوأ من ذلك».

«لم تجعل ديمي يلتقط عدوى مريعةً وتركته وراءك، أفعلت؟».

«أسوأ حتى من هذا».

«إني أستسلم، أخبرني سريعًا، فأنا أكره انتظار الأخبار السيئة».

ولمّا جعل توم مستمعته تقلق قلقًا كافيًا، أطلق صاعقته في جملةٍ واحدة قصيرة، وتراجع ليرى أثرها.

«لقد خطبت!».

تناثرت تجارب السيدة جو الطباعية بصخبٍ حين صفقت، قائلة في ذعر:

«إن استسلمتْ نان فلن أغفر لها يومًا!».

«لم تستسلم، بل هي فتاةٌ أخرى».

كان وجه توم مضحكًا وهو ينطق الكلمات، واستحال تجنّب الضحك، إذ بدا خائفًا مسرورًا في وقت واحد، إلى جانب حيرته وقلقه الكبيرين.

«إنني سعيدة، سعيدة حقًا! لست أكترث من تكون، وأرجو أن تتزوج قريبًا. أخبرني بالأمر الآن»، أمرته السيدة جو، وقد ارتاحت أشدّ الارتياح وأضحت مستعدةً لأي شيء.

«ماذا سيكون رأي نان؟»، سأل توم وقد فوجئ بهذا الرأي في مأزقه.

«ستسرُّ لتخلصها من البعوضة التي أرّقتها طويلًا. لا تقلق بشأن نان، من تكون الفتاة الأخرى؟».

«ألم يكتب لك ديمي عنها؟».

«لم يكتب سوى شيء ما عن إزعاجك آنسةً اسمها وست في كويتنو، وحسبتُ ذلك مأزقًا وحده».

«كانت تلك بداية سلسلة من المآزق، هذا حظي! بعد إغراق الفتاة المسكينة بكلّ هذا، فلا بد لي من العناية بها، أليس كذلك؟ هذا

رأي الجميع، ولم أستطع الفرار، وهكذا انتهى أمري قبل أن أدرك. إن ذاك خطأ ديمي وحده، فقد مكث هناك وأقلقنا بصوره العتيقة، لأن المناظر جميلة وكل الفتيات أردن التقاط صورٍ لهن، أتودّين رؤية الصور يا سيدتي؟ هكذا أمضينا وقتنا إن لم نلعب كرة المضرب»، وأخرج توم من جيبه حفنة صور، عارضًا عددًا منها كان فيها رائعًا، إما حاملًا مظلة لشابةٍ جميلة جدًا على الصخور، أو راقدًا عند قدميها على العشب، أو جاثمًا على حاجز الشرفة المقنطرة مع آخرين يلبسون ثياب البحر ويقفون وقفاتٍ آسرة.

«هذه هي طبعًا؟»، سألت السيدة جو مشيرةً إلى الآنسة ذات الكشاكش الكثيرة والقبعة الأنيقة، والحذاء الساحر، وفي يدها مضرب.

«هذه دورا، أليست جميلة؟»، قال توم ناسيًا بليته للحظةٍ متحدثًا بحماس العاشق.

«شابة جميلة جدًا تسرّ الناظر. أرجو أنها ليست دورا دكنز[1]، فذلك الشعر الأجعد القصير يبدو كشعرها».

«أبدًا، إنها ذكيةٌ للغاية، وبوسعها إدارة البيت، والخياطة وفعل الكثير من الأشياء. أؤكد لك يا سيدتي، كل الفتيات يحببْنها، وهي حلوة الروح مرحة، وتغنّي كعصفور، وتجيد الرقص، وتحب الكتب، وتراك رائعة، ولم أكف عن الحديث عنك إذعانًا لرغبتها».

---

(١) بطلة ديڤد كوپرفيلد.

«هذه الجملة الأخيرة لتتملّقني وتفوز بمساعدتي لإخراجك من المأزق. أخبرني قبلًا كيف تورطت فيه»، وجلست السيدة جو وأصغت باهتمام، دون أن تسأم أبدًا من حكايا الأولاد.

فرك توم رأسه فركًا منبهًا لتصفية ذهنه، واستغرق في قصّ حكايته بحماس.

«حسنٌ، لقد التقينا بها من قبل، لكني لم أعلم بوجودها هناك. أراد ديمي رؤية صديق، فمضينا ووجدنا المكان جميلًا باردًا مريحًا يوم الأحد، فالتقينا بعض الناس اللطيفين وذهبنا للتجذيف، وكانت معي دورا، واصطدمنا بصخرة. كانت تجيد السباحة، ولم يقع أذى، سوى الخوف وتلف الفستان، لكنها تقبّلت الأمر جيدًا، وصرنا صديقَين في الحال. ولم يسعنا سوى ذلك، ونحن نتخبّط في القارب اللعين والآخرون يسخرون منّا. كان لا بد لنا من البقاء يومًا آخر طبعًا للاطمئنان على حال دورا؛ وتلك رغبة ديمي، وكانت أَلِس هيث هناك إلى جانب فتاتين من الكلية. فمكثنا، وواصل ديمي التقاط الصور، ورقصنا وأقمنا بطولة لكرة المضرب، وكانت تسلية جيدةً إلى جانب ركوب الدراجة. الحق أن كرة المضرب لعبة خطرة يا سيدتي، فالكثير من التودد يحدث في تلك الملاعب، ونحن الشباب نجد ذلك الصنف من «الإرسال» جميلًا للغاية، ألا تعلمين؟».

«لم نلعب كرة المضرب كثيرًا على أيامي، لكني أفهمك تمامًا»، قالت السيدة جو، مستمتعةً بالأمر بقدر استمتاع توم.

«قسمًا بشرفي إني ما كان عندي أدنى فكرة حول خطورتها»، واصل كلامه ببطء، كأن هذا الجزء من الحكاية يصعب قصّه، «ولكن الجميع توددوا ففعلت، واستهوى ذلك دورا وانتظرتْه، وسررتُ قطعًا لأن فتاة استلطفتني وتراني سأنجح، رغم أن هذا ليس ما تراه نان، وكان نيلي الثناء بعد سنواتٍ من الازدراء مبهجًا. أجل لقد كان ممتعًا بمعنى الكلمة أن أفوز بفتاةٍ حلوة تبتسم لي طوال اليوم، وتسعد لرؤيتي، وتحزن لذهابي، وتعجب بكل ما أفعل، وتشعرني أني رجل أبذل قصارى جهدي. هذه المعاملة التي يحبّها المرء، ويجب أن يتلقاها إن أحسن التصرّف، لا العبوس والصدود مرارًا وتكرارًا، وتعمّد إظهاره بمظهره الأحمق وإن أحسن صنعًا، وكان مخلصًا يحب فتاةً منذ كان صبيًا. كلا، بحق السماء ليس ذلك بعدل، ولن أقبله!».

غدا توم متحمسًا بليغًا وهو يفكّر في أخطائه، ونهض ليذرع الغرفة، هازًا رأسه محاولًا أن يشعر بالحزن كعادته، لكنه فوجئ أن قلبه لم يؤلمه.

«وأنا لن أقبله. انس حبك القديم، لأنه لم يكن حبًا؛ وأقبِل على الجديد إن كان حقيقيًا. ولكن كيف انتهى بك الأمر بطلب يدها يا توم، كما يفترض أنك فعلت لتخطب؟»، سألتْ السيدة جو فارغة الصبر للوصول إلى عقدة الحكاية.

«أوه، كان ذاك حادثًا، لم أقصد الأمر البتة. بل فعلها الحمار، ولم أستطع التخلص من الورطة دون إيذاء مشاعر دورا، كما ترين»، قال توم وقد رأى أن اللحظة الحاسمة قد حانت.

«إذن كان في الأمر حماران، أليس كذلك؟»، قالت السيدة جو متنبّئة بطرفة ما.

«لا تضحكي! أعلم أن الأمر يبدو طريفًا، ولكنه بغيض»، أجاب توم مهمومًا، رغم أن لمعة في العين وشتْ بأن مصاعب حبه لم تعْمِه عن الجانب الهزليّ من المغامرة.

«أُعجبتْ الفتيات بدراجتينا الجديدتين، وأحببنا الاختيال بهما من غير ريب، فأخذناهن في نزهات، واستمتعنا كثيرًا. حسنٌ، ذات يوم، كانت دورا تجلس خلفي، وكنا نمضي قدرًا جيدًا من الطريق، حين اعترض الطريقَ حمارٌ عجوز سخيف، خلته سيتحرك لكنه لم يفعلْ. لذا ركلته؛ فردلي الركلة، فسقطنا جميعًا في كومةٍ، ومعنا الحمار. يا للفوضى! لم أفكر إلا بدورا، فأصابتها نوبة عصبية، وفي النهاية ضحكتْ حتى بكت، ونهق ذلك اللعين، حتى فقدتُ أعصابي. أيُّ امرئ في مكاني سيفعل، وبجانبه فتاة تشهق في الطريق، وهو يمسح دموعها ويستميحها عذرًا، دون أن يعرف إن كُسر شيء من عظامها أم لا. دعوتها حبيبتي، وواصلت توددي كالأحمق، حتى هدأت وقالت بهيئة حلوة: «أسامحك يا توم، أنهضني ولنكمل طريقنا».

أليس هذا جميلًا منها، بعد أن أزعجتُها للمرة الثانية؟ لقد مسّ ذاك شغاف قلبي، وقلت إني أودّ العيش للأبد مع ملاك كهذه تقودني، و... حسنٌ لست أذكر ما قلت؛ ولكني ذهلت عندما طوقت عنقي بذراعها وهمست قائلة: «عزيزي توم، معك لست أخاف أي أسد في الطريق». كان يجدرُ بها القول أيّ حمار، لكنها كانت جادةً

وراعت مشاعري، وهذا لطفٌ جم من الفتاة الجميلة، ولكن هأنذا وبين يديّ حبيبتان، وواقع في مأزقين».

السيدة جو، وقد رأت محالًا عليها تمالك أعصابها أكثر، ضحكت حتى سال الدمع على وجنتيها على هذه الحكاية المميزة، وبعد نظرة عتاب من توم، لم تفعل شيئًا إلا أن زادتْ ضحكها، فانفجر ضاحكًا ضحكًا مرحًا هزّ الغرفة.

«تومي بانغز! تومي بانغز! ومَن سواك يتورط في مأزق كهذا؟»، قالت السيدة جو، حين استعادت أنفاسها.

«أليست كلّها لخبطة؟، ألن يسخر الجميع مني لذلك؟ علي التوقف عن القدوم إلى پلم القديم لبعض الوقت»، أجاب توم، وهو يمسح وجهه محاولًا إدراك الخطر العظيم لوضعه.

«كلا، حقًا، سأقف إلى جانبك لأنني أراها أفضل طرفة في الموسم. ولكن أخبرْني كيف انتهى الأمر، أهو جاد حقًا، أم أنه لهو صيفي؟ لأني لا أحب اللهو، والفتيات والأولاد يلعبون بأدوات حادة حتى يجرحوا أصابعهم».

«حسنٌ، ترى دورا نفسها مخطوبة، وكتبت إلى أهلها من فورها. ولم يسعْني قول كلمة وقد تقبلت كل شيء برصانة وجديةٍ وبدتْ سعيدة جدًا. إنها في السابعة عشرة من عمرها، ولم تعجبْ بأحد من قبل، وواثقة أن كل شيء سيكون على ما يرام، فأبوها يعرف أبي، وكلانا ثري. كنت شديد الدهشة فقلت: «عجبًا، أتحبينني ونحن لا نعرف شيئًا عن بعضنا إلا القليل؟». لكنها ردّت من صميم

قلبها الرقيق الصغير: «بلى، أحبك كثيرًا يا توم. إنك مرحٌ ولطيف وصادق جدًا، فلم أستطع إلا أن أحبك». فماذا يسعني بعد هذا أن أفعل سوى أن أمضي قدمًا وأسعدها أثناء إقامتي، وأثق أن الحظَّ سيحل العقدة لاحقًا؟».

«هذا هو الأسلوب التومي الحقيقي في تبسيط الأمور. أرجو أنك أخبرت أباك في الحال».

«أوه، أجل، كتبت إليه وأفضيت له بما حدث بثلاثة أسطر إذ قلت:

«أبي العزيز،

لقد خطبت دورا وسْت، وأرجو أنها مناسبةٌ للعائلة، فهي تناسبني كثيرًا.

المخلص لك للأبد، توم».

كان موافقًا، إذ لم تعجبْه نان يومًا كما تعلمين، لكن دورا ستوافقه تمامًا»، وبدا توم راضيًا كل الرضا بذكائه وهواه.

«وماذا قال ديمي عن هذا الحب السريع والطريف؟ ألم يرتع؟»، قالت السيدة جو، محاولة ألا تضحك ثانية وقد تذكّرت المشهد غير الرومانسي للحمارِ والدراجة والفتى والفتاة وكلهم واقعون على التراب.

«أبدًا. كان شديد الاهتمام وعظيم اللطف، وتحدث إليّ كأب، وقال إن استقرار المرء أمرٌ حسنٌ، ولكن عليّ أن أكون صادقًا معها

ومع نفسي وألا أعبث للحظة. إن ديمي حكيم محتشم مثل سليمان، وبخاصة وهو في القارب نفسه»، أجاب توم مبديًا الحكمة.

«لست تعني...»، قالت السيدة جو لاهثة في خوفٍ مفاجئ لمجرد التفكير بمزيد من مسائل الحب.

«بلى أعنيه، عفوك يا سيدتي. إنها خيانةٌ بمعنى الكلمة حقًا، وأنا أدين لديمي بواحدة لاقتيادي إلى الإغراء أعمى العينين. فقد قال إنه ذاهب إلى كونتو لرؤية فِرِد والاس، لكنه لم يلتقِ الرجل، وأنّى له ذلك ووالاس مسافر في يخته طوال إقامتنا هناك؟ كانت أَلِس السبب الحقيقي، وتُركت أنا لمواجهة قدري، بينما يتسكعان حاملين الكاميرا القديمة. في هذه المشكلة ثلاثة حمير، وأنا لست الأسوأ فيها، رغم أني سأتلقى السخرية، وسيبدو ديمي بريئًا ووقورًا، ولن يوجه أحد كلمة له».

«لقد تفشّى جنون منتصف الصيف، ولا أحد يدري من سيُصاب تاليًا. حسنٌ، دع ديمي لأمه، ولنرَ ما أنت فاعل يا توم».

«لست أدري حقًا، غريب أن يكون المرء مغرمًا بفتاتين في وقت واحد، بم تنصحيني؟».

«سأقول رأيًا منطقيًا بالوضع، على أية حال. إن دورا تحبك وأنت تحبّها كما تظن. نان لا تهتم لأمرك، وأنت تهتم لأمرِها لأنها صديقة وحسب، رغم أنك حاولت فعل المزيد. أما رأيي يا توم، فهو أنك تحب دورا، أو في طريقك لذلك، لأنني طوال هذه السنوات لم أرك يومًا تنظر إلى نان أو تتحدث عنها كما تفعل مع

دورا. لقد جعلكَ الصد تتشبث بها معاندًا إلى أن أعثرتك الصدفة على فتاة أكثر فتنة. والآن، أرى أنك يجدر بك اعتبار حبك القديم صداقة، والجديد حبًا، وبمرور الوقت، تزوجها إن كانت عاطفتك حقيقية».

إن ساور الشك السيدةَ جو حول الأمر، فقد أثبت وجه توم صحة رأيها، إذ لمعت عيناه وابتسمت شفتاه، وجمّلت وجهَه سيماءُ جديدة من السعادة رغم الغبار وحروق الشمس، وقد وقف صامتًا للحظة، محاولًا إدراك المعجزة الجميلة التي يفعلها الحب الحقيقي حين يدخل قلب الشاب.

«الحق أني قصدت إثارةَ غيرة نان، لأنها تعرف دورا، وكنت واثقًا أنها ستسمع بما فعلناه. لقد سئمت من الهجر فارتأيت الابتعاد وألا أكون مزعجًا ومحل سخرية بعد اليوم»، قال بهدوء، كأنما أشعره بالارتياح أن يفضي بشكوكه وأحزانه وآماله وأفراحه إلى صديقته القديمة. «لقد عجبت كل العجب إذ وجدت الأمر سهلًا للغاية ومبهجًا للغاية. لم أقصد الأذى لكنني انسقت كليًا، وأوعزت لديمي أن يذكر الأمر في رسائله لديزي، فتعرف نان. ثم نسيت أمر نان كليًا، ولم أرَ أو أسمع أو أشعر أو أهتم بأحدٍ إلا دورا، إلى أن رمى بها الحمار -بورك قلبه العزيز!- بين ذراعيّ وعرفت أنها تحبني. قسمًا بروحي، لست أعرف لماذا تحبني! فأنا لست كفؤًا».

«كل رجل صادقٍ يحس بهذا عندما تضع فتاة بريئة يدها في

يده. فكن جديرًا بها، لأنها ليست ملاكًا، بل امرأة لها أخطاؤها التي يتعيّن عليك احتمالها ومسامحتها، وعليكما أن تتعاونا»، قالت السيدة جو، محاولة إدراك أن هذا الشاب الرزين كان فتاها المشاكس تومي.

«ما يزعجني أنني لم أقصد ذلك في البدء، وكنت سأجعل من الفتاة العزيزة أداةً لتعذيب نان. لم يكن ذلك من الصواب، ولا أستحق السعادة، لو انتهت كل مآزقي نهاية سعيدة كهذه، لكنت في نعيم!»، وابتسم توم ثانية للفكرة المفرحة.

«يا فتاي العزيز، إنه ليس بمأزق بل تجربة حلوة هبطت عليك فجأة»، أجابت السيدة جو، متحدثةً بوقار شديد، لأنها رأت جده. «استمتع به جيدًا وكن حقيقًا به لأن قبول ثقة فتاة وحبها أمر خطير، واجعلها تنظر إليك بحب وصدق في المقابل. لا تدع دورا الصغيرة تنظر بلا جدوى، بل كن رجلًا في كل الأمور لأجل خاطرها، واجعل من هذه المحبة نعمة لكليكما».

«سأحاول، أجل، أنا أحبها لكني لا أصدق ذلك بعد، ليتك عرفتها. يا للفتاة الصغيرة الحبيبة، اشتقت لرؤياها! لقد بكتْ عند فراقنا الليلة الماضية وكرهت الذهاب»، ورفع توم يده إلى خدّه كأنه لم يزلْ يحسّ الختم الوردي الصغير الذي وضعته دورا على وعده بألّا ينساها. وفهم توم بانغز، لأول مرةٍ في حياته السعيدة المحظوظة، الفارقَ بين العاطفة والعاطفية، وذكّره هذا بنان، لأنه لم يخبرْ قَطّ هذه الرعشة الرقيقة عند تفكيره بها، وبدت الصداقة القديمة علاقة

مملة إلى جانب هذا المزيج المبهج من الرومانسية والدهشة والحبّ والمرح.

«أعترف أني أشعر حملًا قد انزاح عن كاهلي، ولكن ما قول نان إن عرفتْ بالأمر بحق الشيطان؟!»، قال ضاحكًا.

«ماذا تعرف؟»، سأل صوت صافٍ جعل كليهما يجفل ويستدير، إذ كانت نان تعاينهما بهدوءٍ من الباب.

أجابت السيدة جو بسرعة، متحرقة لإبعاد توم عن الإثارة ورؤية تقبّل نان للأخبار:

«خطبة توم بانغز ودورا وست».

«حقًا؟»، وبدت نان شديدةَ الدهشة فخشيت السيدة جو أن تكون مولعةً برفيق لعبِها القديم أكثر مما تدرك، لكن كلماتها التالية هدّأت مخاوفها، وجعلت كلّ شيء مريحًا مبهجًا في الحال.

«علمت أن وصفتي ستفعل الأعاجيب إن التزم بها ما يكفي من الوقت. عزيزي توم، إنني سعيدة، بوركت! بوركت!»، وصافحتْ كلتا يديه بمودة خالصة.

«لقد كانت صدفة يا نان، لم أقصد ذلك. وأنا أقع دومًا في المشاكل، ولم أتمكّن من الخروج من هذا المأزق بطريقة أخرى. ستخبرك الأم باير بالأمر كله، عليّ الذهاب والتهندم، سأذهب لشرب الشاي مع ديمي، أراك لاحقًا».

انطلق توم فجأة، متعثرًا محمرًّا وعلى وجهه شيء من الخوف

والسرور، وترك السيدة الكبيرة لتنوّر الصغرى، وتضحك مرة أخرى على هذا النوع الجديد من الغزل، الذي قد يطلق عليه الغزل غير المقصود. كانت نان شديدة الاهتمام، لأنها عرفت دورا وتراها فتاةً صغيرة لطيفة، وتنبّأت بأنها ستكون لتوم زوجة رائعة بمرور الوقت، ما دامت معجبة به و«تقدره» كثيرًا.

«سأفتقده بطبيعة الحال، لكن ذلك سيريحني ويكون أفضل له، فالتراخي سيء للفتى. سيعمل الآن في التجارة مع أبيه ويُبلي حسنًا، ويكون الكل سعداء. سأقدّم لدورا صندوق أدوية عائلية أنيقًا هدية الزفاف، وأعلّمها كيف تستخدمه، فلا يمكن الوثوقُ بتوم، وهو لا يعرف من الطب أكثر مما يعرف سايلس».

منح الجزء الأخير من هذا الكلام السيدة جو راحة البال، إذ نظرت نان حولها كأنها أضاعت شيئًا ثمينًا عندما بدأت، لكن صندوق الدواء أسعدها، وتصوُّر توم في مهنة آمنة كان عزاء كبيرًا من غير ريب.

«لقد تغيرت الحال أخيرًا يا نان، وصار عبدك حرًا. دعيه يذهب، وامنحي كامل عقلك للعمل، لأنك مناسبة للمهنة، وستكونين فخرًا لها بعد حين»، قالت باستحسان.

«أرجو ذلك. وهذا يذكّرني بأمر؛ إن الحصبة متفشية في القرية، والأحرى أن تُخبري الفتيات ألا يترددن على بيوتٍ فيها أطفال. سيكون انتقال العدوى إليهن سيئًا وقد بدأ الفصل الدراسيّ للتو. سأذهب الآن لرؤية ديزي، وأتساءل عمّا ستقوله لتوم، أليس مضحكًا

للغاية؟»، وغادرت نان ضاحكة على الطُّرفة بسرور حقيقي، وكان جليًا أن حسرات العاطفة لم تقلقْها «تحلم أحلام العذارى، دون أن يُصيبها الحب»[1].

«سأراقب ديمي لكني لن أبوح بشيء. تحب مِغ إدارة شؤون أولادها بأسلوبها، وهو أسلوب جيد جدًا، لكن البجعة الحبيبة ستفزع قليلًا إن عرفت أن ابنها قد أصيب بالوباء الذي تفشّى بيننا هذا الصيف».

لم تقصد السيدة جو داء الحصبة، بل المرض الأخطر المسمّى حبًا، الميال لإفساد المجتمعات، ربيعًا وخريفًا، حين تثمر مسرّاتُ الشتاء وعطالةُ الصيف باقةً كبيرة من حفلات الخطوبة، وتطلق الشباب إلى الائتلاف كالعصافير. بدأ الأمر مع فرانز، ونات حالة مزمنة وتوم حالة مفاجئة، والأعراض تظهر على ديمي، والأسوأُ من ذلك كله أن ابنَها تِد قال لها بهدوء في اليوم السابق: «أحسب أني سأكون أسعد حالًا يا أمي لو كان لي حبيبة كالفتيان الآخرين». لو طلب ابنها الغالي أن يلهو بالمتفجرات، لما فزعتْ أكثر، أو رفضت الطلب الغريب بحزمٍ أكبر.

«حسن، لقد قال باري مورغان إني يجب أن تكون لي حبيبة وعرض أن يختار لي فتاة لطيفة من مجموعتنا. سألت جوزي أولًا، لكنها استهجنت الفكرة، لذا أحسب أني سأدع باري يبحث لي.

---

(١) حلم منتصف ليلة صيف، شكسبير، ترجمة: محمد عناني الهيئة المصرية العام للكتاب ١٩٩٢، ص٧٥.

تقولين إنه يهدئ الشاب، وأود أن أكون هادئًا»، شرح تِد بنبرة جادة، لو تحدّث بها في وقت آخر لاهتزّت أمه ضحكًا.

«يا لها من حاجة! ما الذي نحن مقبلون عليه في هذا العصر السريع الذي يطلب فيه الفتيات والأولاد طلبًا كهذا ويريدون اللعب بأكثر الأشياء قداسة في الحياة؟»، تعجبت السيدة جو، ووصفت الأمر خير وصف في كلمات قليلة، وأبعدت ابنها ليلعب كرة القاعدة المفيدة ولتكون أوكتو حبيبته المأمونة الجانب.

ها هي قنبلة توم التي ستنفجر وسطهم، حاملة دمارًا شاملًا، ربما. ورغم أن طائر سنونو واحدًا لا يعني مَقدمَ الصيف، فإن خطبة واحدة خليقة بأن تنتج أُخر، وكان معظم أولادها في عمرٍ قابل للاشتعال عندما تضطرم شرارة اللهب، الذي يخمد وينطفئ سريعًا، أو يحترق دافئًا واضحًا مدى الحياة. لا شيء يمكن فعله حيال هذا سوى مساعدتهم لتكون اختياراتهم صائبة، وأن يكونوا أزواجًا صالحين. ولكن من كلّ الدروس التي جهدت السيدة جو أن تعلّمها لأولادها، كان هذا الدرس العظيم أصعبها، فالحب كفيل بتحويل الحكماء والقدّيسين إلى مخبولين. لذا لا يمكن توقّع نجاة الشباب من الأوهام والخيبات والأخطاء، إلى جانب مباهج هذا الجنون الحلو.

«أحسبه يتعذّر تجنّبه، ما دمنا نعيش في أمريكا، لذا لن أتجشم العناء. ولكني أرجو أن تُنتج بعض الأفكار الجديدة في التعليم فتيات ودودات سعيدات ماهرات ذكيات من أجل فتيتي. لحسن

حظي أني لست مسؤولة عن الاثني عشر كلهم، ولو كنت كذلك لفقدت عقلي، لأني أرى المصاعب والمشاكل القادمة أسوأ من قوارب توم ودراجاته وحميره و«فتياته»»، فكّرت السيدة جو وهي تعود إلى تجاربها الطباعية المهملة.

سُرّ توم كل السرور بالأثر الهائل الذي خلّفته خطبته على المجتمع الصغير في پلمفيلد. «لقد كانت صاعقة»، كما قال ديمي، ولم تترك الدهشة لمعظم رفاق توم إلا قليلًا من الأنفاس ليسخروا. ذلك أن تحوّله -وهو المخلص- من معشوقته إلى فتاة غريبة، صدمة للرومانسيين وتحذير لسريعي التأثّر. كانت رؤية هيئة توم طريفة؛ إذ أصبح الجزء الأسخف من الأمر طيّ النسيان بلطف القلة الذين عرفوه منهم. واندفع توم مثل بطل حقيقي أنقذ العذراء من القبر المائي، وظفر بامتنانها وحبّها بأفعاله الجسورة. حفظت دورا السرّ، واستمتعت بالطرفة حين أتت لرؤية الأم باير وتقديم احترامها للعائلة كلها. أحبّها الجميع في الحال، لأنها كانت شابة صغيرة مرحة وساحرة، فاتنة وصريحة وسعيدة جدًا، وكان جميلًا رؤية فخرها البريء بتوم، الذي غدا فتى جديدًا، بل رجلًا، فبهذا التغيير الذي طرأ على حياته حدث تحوّل كبير. لقد كان مرحًا مفعمًا بالحيوية دومًا، لكنه جهِد ليصبح كل ما تظنه دورا، وأضحى جانبه الأفضل أكثر رفعة في ثيابه اليومية. مدهشة خصال توم الطيبة الكثيرة، وكانت محاولاته للحفاظ على احترام رجولته العائدة إلى فخره لكونه خاطبًا مضحكة للغاية. وكذا كان التغيير التام من تذلله وإخلاصه السابقين لنان إلى مظهر فخور مع خطيبته الصغيرة، إذ جعلته دورا

مثالًا، وكرهت التفكير في أن يكون لتوم عيب أو خطأ. ناسبت الحالة الجديدة كليهما، وأزهر مَن كان محطمًا ذات يوم في الجو الدافئ المليء بالتقدير والحب والثقة. كان مولعًا بالفتاة الحبيبة، لكنه عزم على ألا يكون عبدًا، وتمتّع بحريته أشد الاستمتاع، غافلًا تمامًا أن أكبر طغاة العالم [الحب] قد استحوذ عليه مدى الحياة.

سُرَّ أبوه عندما هجر دراسة الطب، وتأهب للتجارة مع الرجل المحترم العجوز، الذي كان تاجرًا ناجحًا، مستعدًا الآن لتمهيد الطريق والابتسام لزواجه من ابنة السيد وست الثري. كانت الشوكة الوحيدة في حوض زهور توم اهتمام نان الفاتر بأموره، والراحة العظمى لخيانته. لم يُردْها أن تعاني، لكنه سيسعد برؤية قدر معقول من الندم لخسارة حبيب مثله ستسعده. وستكون كآبة قليلة، أو كلمة تأنيب، أو نظرة حسدٍ وهو يمر متأبطًا ذراع دورا العاشقة، التعويض المناسب لسنوات من التودد المخلص والحب الصادق. لكن نان نظرتْ إليه نظرة أمّ فأثارت غضبه كثيرًا، وربتتْ على شعرِ دورا الأجعد بهيئةٍ بالغة الحكمة شبيهةٍ بنظرة العانس الذاوية جوليا ملز في رواية ديڤد كوپرفيلد.

استغرق تعديل العواطفِ القديمة والجديدة بعض الوقت منه، لكن السيدة جو ساعدته، وقدّم له السيد لوري بعض النصح السديد حول الألعاب البهلوانيّة المدهشة التي بمقدور القلب البشري أداؤها، وسيكون كلّ شيء على ما يرام إن تمسّك جيدًا بعصا التوازن بين الحقيقة والمنطق. تمالك تومي نفسه في نهاية المطاف، ولما حلّ

الخريف، لم يره پلمفيلد إلا لمامًا، إذ كان نجمه الهادي في المدينة، وأبقته التجارة منشغلًا بالعمل. وكان جليًا أنه الآن في موضعه الصحيح، وسرعان ما شق طريقه، وفرح أبوه، إذ طغَى حضوره المرح مثل نسيم منعش على المكتب الذي ساده الهدوء في الماضي، ووجد ذكاؤه الحاد في إدارة الرجال والأمور شغلًا أكثر أُنسًا من دراسة الأمراض، أو لعب المقالب غير المهذبة مع الهياكل العظمية.

سنتركه هنا لبعض الوقت وننتقل إلى المغامرات الأخطر لرفاقه، رغم أن هذه الخطبة المرحة كانت المرسى الذي أبقى توم التاجر سعيدًا، وصيّره رجلًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

## (١٠)

# ديمي يتخذ قراره

«أيمكنني التحدث معك حديثًا جادًا يا أمي؟»، سأل ديمي ذات مساء، وهما يجلسان معًا يستمتعان بدفء النار الأولى في ذلك الفصل، أما ديزي فكانت تكتب الرسائل في الأعلى، وجوزي تدرس في المكتبة الصغيرة القريبة.

«بلا شك يا عزيزي، أرجو أنها ليست أخبارًا سيئة»، ورفعت السيدة مِغ رأسها عن حياكتها بمزيج من السرور والقلق على وجهها الأمومي، فقد أحبت الحديث مع ابنها، وعرفت أن عنده دومًا ما يستحق القول.

«ستكون أخبارًا سعيدة لك، كما أظن»، أجاب ديمي مبتسمًا حين ألقى بصحيفته ومضى ليجلس قرب أمه على الأريكة الصغيرة التي تتسع لاثنين فقط.

«أسمعْنيها في الحال إذن».

«أعلم أنك لا تحبين الصحافة، وستفرحين إن عرفت أنني سأتركها».

«يا للسعادة! إنه عمل غير مضمون، ولا أمل بالنجاح فيه قبل مرور وقت طويل. أريدك أن تستقر في وظيفة ما حيث يمكنك الاستمرار، وستجمع المال بمرور الوقت. ليتك أحببت مهنة، وما دمت لم تفعل، فإن أي عمل نظيف قوي سيَفي بالغرض».

«ما قولك في مكتب سكة الحديد؟».

«لا أحبّه، إذ أعرف أنه مكان مزعج صاخب، ويتردد عليه مختلف الرجال الفاسدون. أرجو أنه ليس هذا يا عزيزي».

«يمكنني قبوله، ولكن أيسعدك أكثر عملي في الحسابات لتجارة الجلود بالجملة؟».

«كلا، سينحني ظهركَ من الكتابة على مكتب عال. وكما يقولون «إن عملتَ محاسبًا فستظل محاسبًا»».

«أيناسبك أن أكون وكيلًا متنقلًا؟».

«أبدًا. مع وقوع كل هذه الحوادث المخيفة، وتعرضك للمخاطر والطعام السيء الذي تتناوله أثناء سفرك من مكان لآخر، فلا بد أن تموت أو تتردى صحتك».

«بوسعي أن أكون أمين سر خاصًا لأديب، لكن الراتب صغير، وقد ينتهي العمل في أي لحظة».

«سيكون هذا أفضل، وأكثر ما أحب. لست أعارض أي عمل شريف مهما كان، لكني لا أريد لابني أن يقضي أجمل سنواته ينبش قليلًا من المال في مكتب مظلم، أو أن يطوف البلاد في سعي شاق

بغية أن يحصد النجاح. أود أن أراك في عمل تزدهر فيه ميولك ومواهبك، وتصبح نافعة، حيث يسعك الاستمرار في الارتقاء. وبمرور الوقت يمكنك المشاركة بمالك الصغير وتصبح شريكًا، فلا تضيع سنوات تدريبك سدى، بل تؤهلك لتتخذ مكانك بين الرجال المحترمين الذي يجعلون حياتهم وأعمالهم نافعةً وجديرة بالاحترام. لقد تحدثتُ عن الأمر مع أبيك العزيز في طفولتك، ولو عاش لأراك دومًا ما أعنيه، ولساعدك لتكون مثلما كان».

مسحت السيدة مِغ دمعة هادئة وهي تتحدث، فذكرى زوجها رقيقة جدًا، وتربية أبنائه مهمة مقدسة وهبتها قلبها وحياتها، وقد أبلت بلاء حسنًا حتى اللحظة؛ كما حاول ابنها الصالح وابنتاها المُحبّتان أن يثبتوا. طوّق ديمي عنقها بذراعه، إذ قال بصوت شبيه بصوت أبيه فكان أعذب موسيقى تسمعها أذنها:

«أمي العزيزة، أحسب أني حصلت على ما تريدينه لي تمامًا، ولن يكون خطئي إن لم أصبح الرجل الذي تتمنين رؤيته. دعيني أخبركِ بالأمر كله، فلم أبح بشيء حتى صار الأمر أكيدًا، لأن ذلك سيقلقك، لكني والخالة جو ظللنا نراقبه لبعض الوقت، وها قد حدث. تعرفين ناشرها، السيد تِبر، إنه واحد من أنجح الرجال في المهنة، كما أنه كريم ولطيف ومحترم، مثلما يظهر من معاملته لخالتي. حسنٌ، لقد صبوتُ إلى ذلك المكان، لأني أحب الكتب، ولأني لا أكتبها فإني أودّ نشرها. يحتاج هذا بعض الميول الأدبية والقدرة على الحكم، وسيُعرّفني على أناس محترمين، كما أنه تثقيفٌ بحد ذاته. كلما دخلت تلك الغرفة الكبيرة الجميلة

لرؤية السيد تِبر من أجل الخالة جو، وددتُ البقاء، إذ الكتب واللوحات تحفّها من كل جانب، والمشاهير من رجال ونساء يغْدون ويروحون، ويجلس السيد تبر إلى مكتبه مثل ملك يستقبل رعيته، إذ يتواضع أمامه أعظم المؤلفين، وينتظرون موافقته أو رفضه بقلق. ليس لي شأن بهذا كله بطبيعة الحال، وقد لا يكون لي، لكنني أحبّ رؤيته، والجو هناك مختلف للغاية عن جوّ المكاتب المظلمة وصخب الكثير من الأعمال الأخرى، حيث لا يتحدثون إلّا عن المال. أما ذاك فيبدو عالمًا آخر، وأشعر أني في بيتي. أجل، أفضّل أن أنفض ممسحة الباب وأشعل المدافئ هناك على أن أكون موظفًا كبيرًا في مستودع الجلد والإهاب براتب كبير»، توقفَ ديمي هنا ليلتقط نفسه، والسيدة مِغ التي أشرق وجهها أكثر فأكثر، قالت متحمسة:

«هذا ما أحبّه تمامًا! هل حصلت عليه؟ أوه يا بُنيّ العزيز، سيطيب حظك إن اتجهت إلى المكان الناجح المضمون، ومعك هؤلاء الرجال الصالحون يساعدونك!».

«أحسبُني فعلت، ولكننا [أنا والخالة جو] لسنا متأكدين تمامًا بعد. قد لا أكونُ مناسبًا؛ فأنا قيد التجربة ويجب أن أبدأ وأشق طريقي بإخلاص. كان السيد تبر لطيفًا جدًا، وسيُرقّيني بسرعة منصفة للشبان الآخرين، وإن أثبت أني جدير بالترقية. سأبدأ مطلع الشهر القادم في غرفة الكتب، أتنقل لجمع الطلبات وتصنيفها، وأفعل أشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل. أحب هذا، ومستعد لفعل أي شيء يتعلق بالكتب، وإن كان نفْض الغبار عنها

فحسب»، ضحك ديمي، مسرورًا للغاية بآماله، فبعد أن جرب عددًا من الأشياء، عثر على العمل الذي يحبه، والفرصة المغرية له.

«لقد ورثت حب الكتب عن جدّك، إذ لا يستطيع العيش دونها. يسعدني هذا، فميول من هذا النوع تظهر طباعًا سامية، كما أنها راحة للمرء وعون له طوال حياته. إنني شديدة السعادة والامتنان يا جون، لأنك تود الاستقرار أخيرًا، وقد حصلت على مكان مريح تمامًا. يبدأ كثير من الأولاد في وقت أسبق، لكني لا أؤمن بإرسالهم لمواجهة العالم وهم يافعون، إذ يحتاج البدن والروح رعاية الأسرة ورقابتها. ها قد أصبحت رجلًا الآن، ولا بد أن تبدأ حياتك لنفسك، فابذل قصارى جهدك، وكن صادقًا نافعًا سعيدًا كما كان أبوك، ولا أبالي بجمعك المال».

«سأحاول يا أماه. لن أحصل على فرصة أفضل، فتِبر وشركاه تعامل الناس باحترام، وتدفع بسخاء للعمل المخلص. وتُؤخذ الأمور على محمل الجد هناك، وهذا يناسبني. فأنا أكره الوعود التي لا توفَّى، والأساليب المستبدة والبطيئة أينما كانت. قال السيد تِبر: «سيعلمك هذا العمل يا بروك، ولكني سأعطيكَ عملًا آخر في وقت لاحق». أخبرته خالتي أنني جمعت ملاحظات لكتاب، وأهوى الأدب، ورغم أني لن أكتب شيئًا «بروعة أعمال شكسبير»، كما تقول، فقد أحسّن مهارتي قليلًا في وقت لاحق. وإن لم أفعل، فإني أرى اختيار الكتب وتقديمها للعالم مهنة نبيلة راقية، ويسرني أن أكون مساعدًا صغيرًا في العمل».

«يسعدني أن يكونَ هذا رأيك، فحب المرء للعمل الذي يؤدّيه

يضيف كثيرًا إلى سعادته. اعتدتُ أن أكره التدريس، لكن إدارة منزل والديّ كانت جميلة دومًا، رغم أنها أصعب بصور شتى. أليست الخالة جو مسرورة بهذا؟»، سألت السيدة مِغ، وقد تصورت مسبقًا لافتة رائعة مكتوبًا عليها «تبر وبروك وشركاهما»، فوق باب دار النشرِ الشهيرة.

«مسرورة للغاية ووجدت صعوبة في أن أجعلها تكتم السر. لديّ خطط كثيرة، وخيبت آمالك كثيرًا، لذا أردت أن أكون واثقًا كل الثقة هذه المرة. لقد رشوت روب وتِد ليبقياها في المنزل هذه الليلة حتى أخبرك بالأمر، فقد كانت تتحرق شوقًا للقدوم وإخبارك بنفسها. إن القصور التي بنتْها تلك المرأة الحبيبة من أجلي تملأ أسبانيا، ومنحتنا الفرح أثناء انتظارنا معرفة مصيرنا. لا يتعجل السيد تِبر الأمور، ولكنه حين يعقد العزم، يكون كل شيء على ما يرام، وأشعر أني بدأت بداية جيدة».

«بوركت يا عزيزي. وإني لأرجو ذلك! إنه يوم سعدي، إذ كنت شديدة القلق أني كنت متساهلةً متسامحة للغاية، رغم كل حرصي، وأن ابني بكل مواهبه الجميلة، يضيع وقته في أشياء لا تضر لكنها لا تنفع. ها قد ارتاح قلبي بشأنك، وليت ديزي تنال السعادة وتتخلى جوزي عن حلمها، فأكون راضية تمامًا».

ترك ديمي أمه تفرح لبضع دقائق، ليبتسم لحلمه الصغير، وليس مستعدًا بعد للحديث عنه، ثم قال بالنبرة الأبوية التي يتحدث بها عفويًا عند حديثه عن أختيه:

«سأهتم بأمر الفتاتين، لكني أخذت أدرك أن جدي محق في قوله إننا يجب أن نصبح ما يصنعه الرب والطبيعة منا. ولا يسعنا تغيير ذلك كثيرًا، بل علينا أن نساعد في تنمية الطباع الحسنة فينا وضبط السيئة منها. لقد تلمست الطريق إلى مكاني الصحيح أخيرًا، كما آمل. دعي ديزي تسعد بطريقتها، ما دامت صائبة تليق بامرأة. إن عاد نات ناجحًا، فسأقول: «بوركتما يا صغيريّ»، وأمنحهما عشًا لهما، ثم سنساعد جو الصغيرة لتعرف إن كان المناسب لها هو «العالم خشبة مسرح»، أو «البيت، ما أحلى البيت»».

«أحسب أننا سنفعل يا جون، ولكني لا أستطيع إلا أن أعدّ الخطط وآمل أن تنجح. أرى أن ديزي متعلقة بِنات، وإن كان جديرًا بها فسأتركهما يعيشان سعادتهما كما يريدان، كما فعل أبواي معي. لكني أرى أن جوزي ستكون ابتلاء. أنا أهوى المسرح، كما فعلت دومًا، فلست أدري كيف أسمح لابنتي الصغيرة أن تكون ممثلة، رغم أنها تملك موهبة عظيمة من غير ريب».

«وخطأ من هذا؟»، سأل ديمي باسمًا، وقد تذكّر نجاحات أمه الباكرة واهتمامها الذي لا يتغير بالتجارب الدرامية للشباب من حولها.

«أعلم أنه خطئي، وكيف لا يكون وقد مثّلت فتيات في الغابة معك ومع ديزي قبل أن تحسن الكلام، وعلّمت جوزي أن تلقي قصيدة الأم الأوزة في مهدها. آه مني! ميول الأم يرثها أبناؤها، ويجب أن تكفّر عنها بالسماح لهم بشق طريقهم»، ضحكت السيدة

مِغ حتى وهي تهزّ رأسها أمام الحقيقة التي يتعذّر إنكارها بأن آل مارش عائلة مسرحية.

«ولم لا تحمل اسمنا ممثلة عظيمة، كما تحمله مؤلفة، وقس، وناشر واعد؟ نحن لا نختار مواهبنا، ولكن لسنا بحاجة لتبديدها لأنها ليست ما نريد. أقول، دعي جو [الصغيرة] تشقّ طريقها وتفعل ما بوسعها. وسأعتني بها، ولا تنكري أنك ستحبين خياطة كشاكشها، ورؤيتها تتألق في أضواء المسرح، حيث تمنيت أن تكوني دومًا. تعالي يا أمي، الأفضل أن نواجه الموسيقى ونمشي بمرح، ما دام أبناؤك العنيدون لا يفعلون إلا ما برؤوسهم».

«لا أوافق ولكن عليّ ذلك، و«أترك العواقب للرب» كما اعتادت مارمي أن تقول عندما يتعيّن عليها اتخاذ قرار، ولم ترَ سوى خطوةٍ من الدرب. سأفرح بذلك كثيرًا، إن أحسست أن الحياة لن تؤذي ابنتي، وتتركها ساخطةً حين يفوت أوان التغيير، فلا شيء أصعب في هجره من إثارة تلك المهنة. أعرف قليلًا عنها، ولو لم يأتِ أبوك النبيل، لأصبحت ممثلة رغمًا عن العمة مارش وكل أسلافنا المبجلين».

«دعي جوزي تضيف شرفًا جديدًا لاسمنا، وتوظف موهبة العائلة في مكانها الصحيح. وسأكون لها التنّين، ولك المداوي، ولن يمس أذى جولييتنا الصغيرة، مهما غنّى أشباه روميو تحت شرفتها. حقًا يا سيدتي، كيف تعترض السيدة التي ستلهب قلوب جمهورنا بدور البطلة في مسرحية خالتي عيدَ الميلاد القادم. إنه أكثر الأمور

شجى يا أمي، ويؤسفني أنك لم تصبحي ممثلة، رغم أننا ما كنا لنولد لو فعلت».

نهض ديمي، موليًا ظهره للمدفأة، بوقفة راقية يحبّها الرجال حين تسير أمورهم على ما يرام، أو حين يعطون أوامر في أي موضوع.

احمرّ وجه السيدة مِغ لإطراء ابنها الصادق، ولم تنكرْ أن صوت التصفيق حلوٌ الآن بقدر حلاوته حين مثلت لعنة الساحرة، وعهد عذراء السباخ قبل سنوات طوال.

«يصعب عليَّ حقًا فعل ذلك، لكني لم أستطع المقاومة حين كتب جو ولوري الدور من أجلي، وأنتم أبنائي تمثلون فيها. ما إن أمسك بثوب الأمّ العجوز حتى أنسى نفسي وتعروني الرعشة نفسها التي تنتابني حين كنا نؤدي المسرحيات في العلية. لو قبلت ديزي دور الابنة لكانت كاملة للغاية، فبوجودك أنت وجوزي لن أحتاج إلى التمثيل، بل سيكون الأمر حقيقيًا جدًا».

«وبخاصة مشهد المستشفى، حين تعثرين على الابن الجريح. يا إلهي يا أمي، تعلمين حين أدّينا هذا في التمرين الأخير ابتلّ وجهي بدموعٍ حقيقية لأنك بكيت فوقي. سيحطم قلوب الجميع، ولكن لا تنسي أن تمسحيها، وإلا بدأت العطاس»، قال ديمي ضاحكًا لدى تذكره نوبة بكاء أمه.

«سأفعل، ولكن قلبي انفطر لرؤيتكَ شاحبًا ضعيفًا. أرجو ألّا نخوض حربًا أخرى في حياتي، لأني سأضطرّ للسماح لك بالذهاب، ولا أريد عيش التجربة التي عشناها أثناء ذهاب أبي».

«ألا ترين آن ألِس تؤدّي الدور أفضل من ديزي؟ ليس في ديزي أي موهبة للتمثيل، أما ألِس فتبث الحياة في أكثر الكلمات مللًا حين تتكلم. أرى أن الماركيزة رائعة في مسرحيتنا»، قال ديمي ذارعًا الغرفة كأن دفء النار بث اللون في وجهه فجأة.

«حقًا. إنها فتاةٌ حلوة المعشر، وأنا فخورةٌ بها ولها مُحبة، أين هي الليلة؟».

«أحسبها تجهد في دراسة الإغريقية، فهذا ما تفعله في المساء عادةً، لسوء الحظ»، أضاف ديمي بصوت خفيض وهو ينظر عامدًا إلى رفوف الكتب، رغم أنه لم يستطع قراءة أي عنوان.

«هذه فتاةٌ يحبها قلبي، جميلة وحسنة النشأة، ومتعلمة وبيتوتية، ورفيقة حقيقية إلى جانب أنها ستكون زوجة مناسبة لرجل ذكي صالح. وأرجو أن تجد واحدًا».

«وكذلك أنا»، همْهم ديمي.

عادت السيدة مِغ إلى عملها، وكانت تُعاين عروةً شبه منتهية باهتمام شديد فلم ترَ عينها وجه ابنها، فألقى ابتسامة مشرقة على صفوف الشعراء، كأنهم وهم في سجنهم الزجاجي بوسعهم موافقته والفرح معه للفجر المزهر الأول للحبّ العظيم الذي يعرفونه جيدًا. لكن ديمي كان شابًا عاقلًا، ولم يتقدم خطوة دون التفكير بها جيدًا. ما زال لم يتبين حقيقة مشاعره، لذا آثر الانتظار حتى تشق الشرنقةَ هذه العاطفة، وخفقانْ الجناحين المطويّين الذي آخذ يحسه، ويكون مستعدًا للتحليق في ضوء الشمس ليبحث عن

رفيقة جميلة ويطلبها. لم يقل شيئًا، لكن العينين البنّيتين كانتا بليغتين، وكان في كل المسرحيات الصغيرة التي مثّلها هو وألس هيث حبكة جانبية عفوية. كانت مشغولة بدراستها، إذ تنوي التخرج بمرتبة الشرف، وكان هو يسعى للأمر نفسه في تلك الكلية الأكبر المفتوحة أمام الجميع، حيث لكلّ رجل جائزةٌ يفوز بها أو يخسرها. لم يكن لدى ديمي ما يقدمه سوى نفسه، ولما كان شابًا متواضعًا، رأى أنها هديةٌ متواضعة حتى يثبت قدرته على كسب عيشه، وحقه في إسعاد امرأة كما يُسعد نفسه.

لم يعرف أحد أنه أُصيب بتلك الحمى سوى جوزي الثاقبة النظر، وساورها خوف شديد على أخيها الذي يصبح خوفًا بغيضًا جدًا إن هي غالت فيه، فهدّأتْ مخاوفها بحكمةٍ وهي تراقبه مثل قطة صغيرة، مستعدة للوثب لدى أول علامات الضعف. اعتاد ديمي العزف بتفكر على آلة الفْلوت بعد أن يدخل غرفته لقضاء الليلة، جاعلًا من هذا الصديق الموسيقيّ مكْمن سرّه، وينفخ فيه كل آماله ومخاوفه الرقيقة التي ملأت قلبه. لم تبالِ السيدة مِغ، المنهمكة في الأمور المنزلية، وديزي التي لا تهتمُّ لأي موسيقَى إلا كمان نات بألحان الغرفة تلك، لكن جوزي همست لنفسها دومًا بضحكة مشاغبة «دِك سوِڤلر يفكر بحبيبته صوفي وكلز»[1]، وكرّست وقتها لتثأر من أخطاء يوقعها فيها ديمي الذي يأخذ صف ديزي دومًا كلما حاولت كبح جماح أختها الصغرى الطائشة.

---

(١) شخصيات من متجر التحف الغريبة لتشارلز دكنز.

وسنحت لها الفرصة هذا المساء، وانتهزتها جيدًا. كانت السيدة مِغ تُنهي خياطة العروة، وديمي لم يزل يذرع الغرفة قلقًا، حين سمعا كتابًا يخبط في المكتب، أعقبه تثاؤب مسموع وظهور التلميذة كأن النوم والرغبة في المشاكسة يتصارعان ليغلب أحدهما الآخر.

«سمعتُ اسمي، أقلتما عني أشياء سيئة؟»، سألت جالسةً على ذراع كرسي وثير.

أخبرتها أمها بالأنباء السارة، التي فرحت لها جوزي كثيرًا، وتلقّى ديمي تهانيها بهيئة رؤوفة أشعرتها أن هذه السعادة الكبيرة ليست في صالحه، فدفعتها إلى زرع شوكة في سرير وروده في الحال.

«لقد خطر لي شيءٌ حول المسرحية، وأود إخبارك أني سأضيف أغنية إلى دوري لأضفي عليها قليلًا من الحيوية. ما رأيك بهذا؟»، وجلست إلى البيانو وأخذت تغنّي هذه الكلمات على لحن «كاثلين ماڤورنين»:

«يا أجمل العذارى، أوه، كيف أصف
الحب الذي غيّر العالم كلَه في عيني؟
والشوق الذي يعتلج في صدري
حين أحلم بحياةٍ كلها لك؟».

لم تتابع أكثر، لأن ديمي الذي احمرّ وجهه غضبًا، اندفع نحوها، ثم شوهدت فتاة صغيرةٌ شديدة المرح تدور حول الطاولات والكراسي مع الشريك المستقبلي لتبر وشركاه. «من سمح لك أن

تعبثي بأوراقي يا حمارة؟»، صاح الشاعر الحانق محاولًا الإمساك عبثًا بالفتاة المشاغبة التي قفزت هنا وهناك، ملوحة بقصاصة ورق تُغايظه.

«لم أفعل، بل وجدتها في القاموس الكبير. تستحق ذلك ما دمت تترك أوراقك في كل مكان. ألا تعجبك أغنيتي؟ إنها جميلة».

«سأعلمك واحدةً لن تعجبك إن لم تعطني أوراقي».

«تعالَ وخذها إن استطعت»، واختفت جوزي في المكتب لتنهي شجارها بسلام، إذ أخذت السيدة مِغ تقول:

«يا ولديّ، يا ولديّ! لا تتشاجرا».

التهمت النار الورقة حين وصل ديمي فهدأ في الحال، وقد رأى سبب النزاع يختفي.

«يسعدني أنها احترقت، فلست أهتم لها. ليست سوى قصيدة حاولت تلحينها لإحدى الفتيات، لكني سأطلب منك أن تتركي أوراقي وشأنها، وإلا تراجعت عن النصيحة التي قدمتها لأمي الليلة في السماح لك بالتمثيل ما طاب لك ذلك».

علا الوجوم وجهَ جوزي بعد ذلك الوعيد المروع، وبأكثر النبرات تملقًا توسلت لمعرفة ما قاله. فأخبرها ليجعلها تعضّ أصابع الندم، فضمنت له تلك الحيلة الذكية حليفًا على الفور.

«يا لك من فتى حبيب! لن أغيظك أبدًا رغم أنك تحلم وتتغزل ليلًا ونهارًا. إن وقفت إلى جانبي، فسأقفُ معك ولن أبوح بشيء.

اسمعني! لديّ رسالة لك من ألس، ألن يكون ذلك قربانًا للسلام فيهدئ غضبك؟».

لمعت عينا ديمي حين أخرجت جوزي قبعة ورقية مدببة، ولكنه لما كان يعرف ما فيها، فقد منعها من قول شيء، وتركها مندهشةً تمامًا إذ قال بلا اكتراث:

«هذه ليست بشيء، إنها رسالة لتخبرني إن كانت ذاهبةً للحفلة الموسيقية معنا ليلة غد. بوسعك قراءتها إن شئت».

انقطع فضول جوزي حين قال لها أن تقرأها، كعادة بنات جنسها في العناد، وناولتْها له مذعنة، لكنها راقبت ديمي وهو يقرأ هادئًا سطري الرسالة ثم يلقي بها إلى النار.

«عجبًا، بحق السماء، حسبتك تثمن كل جُذاذة تلمسُها يد «أجمل العذارى». ألا تحبّها؟».

«كثيرًا، كلنا نحبها، لكنّ «أحلامَ اليقظة والغزل»، كما أحسنت وصفها، ليست من طباعي. يا فتاتي الصغيرة، إن مسرحياتك تجعلك رومانسية، ولأننا أنا وألس نمثل دور العاشقين أحيانًا ظننت بعقلك السخيف أننا عاشقان حقًا. لا تضيّعي وقتك في البحث عن الأوهام. أسامحك، ولكن لا تفعلي هذا ثانية، إنها عادة سيئة، وملِكات المآسي لا يعبثْن».

أحرجت الجملة الأخيرة جوزي، فطلبت عفوه بصدق وذهبت لتخلد للنوم. لحق بها ديمي، شاعرًا أنه لم يهدّئ نفسه فحسب، بل

أخته الفضولية الصغيرة أيضًا. ولكن لو رأى وجهها وهي تسمع الألحان العذبة الحزينة من الفْلوت لما كان شديد الثقة، إذ بدت مراوغة مثل عقعق وهي تقول في نشقةٍ ساخرة: «پو، لا يمكنك خداعي، أعلم أن دِك يغنّي لصوفي وكلز».

# (١١)
# عيد شكر إميل

كانت برندا تمخر العباب وكل أشرعتها مرفوعة لتغتنم الريح العالية، وكان كل من على ظهرها فرحًا لدنوّ نهاية الرحلة الطويلة.

«أربعة أسابيع أخرى، يا سيدة هاردي، وسنقدم لك كوبًا من الشاي لم تذوقي مثله من قبل»، قال المعاون الثاني هوفمن، وهو واقف بين سيدتين تجلسان في ركن ظليلٍ على ظهر السفينة.

«سيسعدني شربه، وسيسعدني أكثر أن أضع قدميّ على أرض صلبة»، أجابت السيدة الأكبر عمرًا، باسمةً، إذ كان صديقنا إميل محبوبًا، كما ينبغي له، منذ أن كرس نفسه لزوجة القبطان وابنته، اللتين كانتا المسافرتين الوحيدتين على السفينة.

«وكذلك أنا، وإن اضطررت للبس حذاء مثل سَقَط الصينيين. لقد أبليت حذائي وأنا أذرع سطح السفينة جيئةً وذهابًا، وسأكون حافية القدمين إن لم نصل قريبًا»، ضحكت ميري، الابنة، مُظهرةً حذاءً باليًا صغيرًا وهي تنظر إلى رفيق هذا المشي، متذكرةً بامتنان أنه أضفى عليها البهجة.

«لا أحسب في الصين حذاء صغيرًا كهذا»، أجاب إميل، بشهامة البحّار الحاضرة، عازمًا في سرّه على البحث عن أجمل حذاءٍ يعثر عليه حالما يصلون اليابسة.

«لست أدري كيف ستتريّضين يا عزيزتي، لولا أن جعلك السيد هوفمان تمشين كلّ يوم. إن هذه الحياة المتراخية ليست في صالح الشباب، رغم أنها تناسب عجوزًا مثلي تمامًا في طقس هادئ. أتكون هذه عاصفة برأيك؟»، أضافت السيدة هاردي، بنظرةٍ قلقة إلى الغرب حيث كانت الشمس تغيب بحمرة.

«ليست إلا ريحًا ملء قلنسوةٍ يا سيدتي، ما يكفي لدفعنا»، أجاب إميل، بنظرةٍ واسعة نحو الأعلى والأسفل.

«غنِّ من فضلك يا سيد هوفمن، سماعُ الموسيقى جميل في هذا الوقت. سنفتقد هذا كثيرًا حين نصل اليابسة»، قالت ميري، بنبرةٍ مقنعة كانت ستفوز بأغنية من سمك القرش لو أن شيئًا كهذا ممكن الحدوث.

أكبر إميل إحدى مهاراته أثناء هذه الأشهر، وبها أضفى المرح على الأيام الطويلة، وجعل ساعة المغيب أسعد أوقاته، إن مكنته الريح والطقس. فعزف سعيدًا على مزماره، واتكأ على أعلى الكوثلِ قرب الفتاة، وراقب الخصل البنّية تطير مع الريح وهو يغني أغنيتها المحببة:

«أعطوني نسيمًا منعشًا يا أولادي،
وشراعًا أبيض منتفخًا،

وسفينة تمخر عُباب الموج،
وتصمد في وجه أيّ عاصفة.
أيّ حياةٍ مثل حياة البحّار،
حرٌ جدًا، جسورٌ جدًا، شجاعٌ جدًا؟
بيته مدى المحيط الواسع،
وقبره سريرٌ من المرجان».

حين خفتتْ آخر أنغام الصوت الصافي القوي، قالت السيدة هاردي فجأة: «ما ذلك؟».

رأت عين إميل الحادة في الحال نفثات صغيرة من الدخان تعلو باب العنبر حيث لا يجدر بالدخان أن يكون. وكأنما توقف قلبه للحظةٍ حين ومضت الكلمة المريعة «حريق!» في ذهنه، لكنه كان ثابت الجنان تمامًا، وابتعد قائلًا بهدوء:

«التدخين ليس مسموحًا هنا، سأذهب وأوقف ذلك». ولكن ما إن ابتعد عن الأنظار حتى تغيّر وجهه، وقفز إلى باب العنبر، مفكّرًا وعلى شفتيه ابتسامة غريبة: «إن كنا نحترق، فلا عجب أن يكون سرير المرجان قبري!».

غاب لخمس دقائق، وحين صعد، يكاد يختنق من الدخان، كان شاحبًا بقدر ما تظهر سمرة الرجل، لكنه هادئ رابط الجأش حين ذهب لإبلاغ القبطان.

«نار في العنبر يا سيدي».

«لا تثر ذعر السيدتين»، كان أول أوامر القبطان هاردي، ثم حثّا السير لرؤية قوة العدو اللئيم، ولإخمادها إن استطاعا.

كانت حمولة برندا سريعة الاحتراق، وسرعان ما تبيّن أنها هالكة رغم سيول الماء التي صبت في العنبر. أخذ الدخان يتصاعد بين الألواح في كل مكان، وأضرمت الريحُ العالية النارَ الخامدة لتصبح لهبًا أخذ يندلع هنا وهناك، كاشفًا الحقيقة المرة بجلاء لا يخفى على الأعين. تقبّلت السيدة هاردي وميري الصدمة بشجاعة حين قيل لهما أن تستعدا للقفز من السفينة في أية لحظة، وقد أُعدّت القوارب على عجل، وعمل الرجال بجد لسد كل كوّة خشية أن تفرّ منها النار. غدت برندا المسكينة موقدًا عائمًا، وصدر الأمر للجميع «أنزلوا القوارب!» المرأتان أولًا، طبعًا، ولحسن الحظ لم يكن على ظهر السفينة مسافرون آخرون لأنها سفينة تجارية، لذا لم يَسُد الهلع. ودُفعت القواربُ واحدًا تلو الآخر، ومكث القارب الذي كانت فيه المرأتان بالقرب، لأن القبطان الشجاع كان آخر من غادر سفينته.

ظل إميل بجانبه حتى أمره بالرحيل، فأطاع كارهًا، لكنه أحسن صنعًا إذ ذهب، فحالما ركب القارب، متأرجحًا بعيدًا في الأسفل، تغطيه غيوم الدخان، سقطت صاريةٌ سقوطًا مدويًا، أوقعتها النيران التي تستعر في أحشاء السفينة، ملقيةً بالقبطان هاردي من على سطح السفينة. وصل إليه القارب حين عام خارجًا من الحطام، وقفز إميل إلى البحر لإنقاذه، لأنه كان جريحًا فاقدًا الوعي. أجبر هذا الحادث الشابّ على تولّي زمام الأمور، فأمر الرجال في الحال لينجوا بحياتهم، لأن انفجارًا قد يقع في أية لحظة.

ابتعدت القوارب الأخرى عن الخطر وتلكّأت كلها لرؤية المشهد المروّع المذهل للسفينة المحترقة وحيدة في البحر الواسع، مخضّبة الليل بالأحمر ومُضْفيةً وهجًا رهيبًا على الماء، حيث طفت القواربُ القصفة المكتظة بوجوه شاحبة، استدارت كلها لإلقاء نظرةٍ أخيرة على برندا المنحوسة، وهي ترقد ببطء في قبرها المائي. لم يشهد أحد النهاية، على أية حال، إذ سرعان ما جرفت العاصفة المتفرجين بعيدًا وفرّقتهم، ولن يلتقي بعضهم ثانية حتى يُسلم البحر الأموات الذين فيه[1].

كان القارب الذي علينا أن نتبع حظوظه وحيدًا عندما طلع الفجر، مبينًا لهؤلاء الناجين كل أهوال موضعهم. وُضع الطعام والماء، ومؤونةٌ كهذه تمنح الإحساس بالراحة والأمان قدر ما يسمح الوقت؛ ولكن كان جليًا أن مؤونتهم لن تدوم طويلًا، بوجود رجلٍ إصابتُه بالغة، وامرأتين وسبعةٍ من البحّارة، وكانت الحاجة إلى العون عظيمة. كان أملهم الوحيدُ أن تصادفهم سفينة، رغم العاصفة التي ثارت طوال الليل، ودفعتهم بعيدًا عن مسارهم. تشبثَ الجميع بهذا الأمل، وقطعوا الساعات المروعة، يراقبون الأفق ويواسون بعضهم بعضًا بنبوءات النجاة القريبة.

كان المساعد الثاني هوفمن مقدامًا مُعينًا، رغم أن مسؤوليته المفاجئة ألقت بثقلها على كاهله، لأن حالةَ القبطان بدتْ حرجة.

---

(١) إشارة إلى ما ورد في سفر الرؤيا: «وسلم البحرُ الأمواتَ الّذين فيه، وسلَم الموتُ والهاوِية الأمواتَ الذين فيهما. ودينوا كل واحد بحسب أعماله». (١٣:٢٠)

ففطر قلبه حزن الزوجة الحزينة، وجعلته الثقة العمياء للفتاة في قدرته على إنقاذهم يؤمن بوجوب ألا يشوب تلك الثقة أي أثر للشك أو الخوف. أدى الرجال مهامّهم بشجاعة، لكن إميل عرف أن مهمته ستكون مروعة، إن حوّلهم الجوع واليأس إلى وحوش، لذا تشبّث بشجاعته بكلتا يديه. واحتفظ برباطة جأشه، وتحدّث مبتهجًا عن فرصهم الطيبة، فانصرف إليه الجميع تلقائيًا طلبًا للإرشاد والدعم.

مرّ النهار والليلة الأوليان بارتياح نسبي، ولكن الأمور بدت قاتمة بحلول اليوم الثالث وأخذ الأمل يذوي. كان الرجل الجريح يهذي، وقد أخذ القلق والإثارة من الزوجة كل مأخذ، ووهنت قوى الفتاة لقلة الطعام، وقد تخلّت عن نصف بسكويتها من أجل أمها، وتركتْ نصيبها من الماء لأبيها لترطّبَ به شفتيه المحمومتين. توقّف البحّارة عن التجذيف وجلسوا ينتظرون متجهّمين، يلومون قائدهم جهرًا لأنه لم يسمعْ نصيحتهم، وآخرون يطلبون مزيدًا من الطعام، وغدا الجميع خطرًا إذ أخرج الحرمان والوجع الغرائزَ الحيوانية الكامنة فيهم. فعل إميل ما استطاع، لكنّ الرجل الفاني عاجز هناك، ولم يستطع فعل شيء إلا أن يشيح وجهًا متعبًا عن السماء عديمة الرحمة، التي لم تُنزل المطر لإرواء عطشهم، إلى البحر اللامتناهي حيث لم يلُحْ شراع يفرح أعينهم المنتظرة. فحاول طوال النهار بثّ المرح والارتياح فيهم، والجوع يقرصه، والعطشُ يقتله والخوف المتعاظم يُلقي بثقله على قلبه. وحكى قصصًا للرجال، مناشدًا إياهم أن يحتملوا كرمى للمرأتين، ووعدهم بمكافآتٍ إن

جذفوا ما دامت عندهم القوة للعودة إلى دربهم الذي ضلوّا عنه قدْر ما استطاع ليزيد فرصهم في النجاة. ونصب ظلة من شراعٍ فوق الرجل الجريح واعتنى به كابن له، وهدّأ زوجته وحاول أن يُنسي الفتاة الشاحبة بغناء كل أغنية يعرفها أو بقصّ مغامراته في البر والبحر، حتى ابتسمتْ وهدأ روعها، إذ سار كلّ شيء على ما يرام.

جاء اليوم الرابع وأوشكَ مخزون الطعام والماء على النفاد، فاقترح إميل إبقاءه من أجل الرجل الجريح والمرأتين، لكن اثنين من الرجال اعترضا مطالبين بحصّتهما. تخلّى إميل عن نصيبه ليكون قدوةً، واقتدى به عددٌ من الرجال الصالحين، ببطولة حقة تظهرُ فجأة في الطباع الجلفة الشريفة. أثار هذا خجلَ الآخرين، وساد الهدوءُ ليومٍ منحوس آخر في ذلك العالم الصغير من الألم والإثارة. ولكن في الليل، حين أنهك التعب إميل، ترك الحراسة لأكثر البحّارة ثقة، لينتزع ساعة نوم، فهجم هذانِ الرجلان على المخزون وسرقا آخر ما بقي من الخبز والماء، وزجاجة البراندي الوحيدة، الذي ادّخر بحرص للاحتفاظ بقوّتهم وجعل الماء المالح سائغًا للشرب. ولما كادا يجُنّان من العطش، فقد شربا بنهمٍ وبحلول الصباح كان أحدهما في سباتٍ لم يستيقظ منه قط، وجن الآخر من الشراب القوي، وعندما حاول إميل ضبطه قفز من القارب ومات. ساد الذعر لهذا المنظر المروع، فغدا الرجال مطيعين منذئذ، وطاف القارب بحمولته الحزينة من الأرواح والأبدان المتألمة.

حلّ عليهم بلاءٌ آخر أصابهم بيأس أكبر من ذي قبل. إذ لاح

قاربٌ، واستحوذت عليهم نوبةٌ من الفرح لبعض الوقت، لتصبح أمرَّ الخيبات بعدما مرّ بعيدًا للغاية فلم ير الإشارات التي لوّحوا بها ولم يسمع الصرخات المحمومة طلبًا للنجدة التي ترددتْ أصداؤها في البحر. غاص قلب إميل عندئذ، إذ كان القبطان يحتضر، ولم تستطع المرأتان الاحتمال أكثر؛ فلبث حتى هبط الليل، ثم في الظلام، الذي لا يقطعه إلا أنين الرجل المريض والصلاةُ الهامسة للزوجة المسكينة، ووشوشةُ الأمواج التي لا تنقطع، خبأ إميل وجهه، وقضى ساعةً في الصمت المتوجع جعلته يكبر أكثر مما فعلتْ سنوات الحياة السعيدة. لم يوجعْه ألم البدن، رغم تعذيب العوزِ والوهن له، بل كان عجزهُ المروع في هزيمة القدر القاسي الذي يحيق بهم. لم يهتم للرجال إلا قليلًا، إذ كانت هذه المحن جزءًا من حياة اختاروها، بل اهتم لأمر المعلم الذي أحبّه والمرأة الطيبة شديدة اللطف معه، والفتاة الرقيقة التي جعل وجودُها الأخاذ الرحلةَ الطويلة بهيجةً عند الجميع. فلو استطاع إنقاذَ هؤلاء الأعزاء الأبرياء من موتٍ قاسٍ، لكان مستعدًا لبذل حياته من أجلهم.

وإذ جلس واضعًا رأسه بين يديه، محنيًا رأسه لأول كربٍ عظيم في حياته، والسماء الخالية من النجوم في الأعلى، والبحر الهائج في الأسفل، وكلّ مَن حوله يتألمون، دون أن يستطيعَ فعل شيء، كسر الصمتَ صوتٌ رقيق، فأصغى إليه كمَن يحلم. كانت ميري تغنّي لأمها، التي ارتمت بين ذراعيها باكية، وقد أضناها هذا العذاب الطويل. كان صوتًا واهنًا مكسورًا للغاية، إذ كانت شفتا الفتاةِ المسكينة مشققتين من العطش، لكن القلب المحب استدار تلقائيًا

إلى المعين العظيم في ساعة اليأس، وسمع بكاءها الواهن. كانت ترنيمةً قديمة عذبة تُغنّى كثيرًا في پلمفيلد، وحيث أصغى إميل عاد إليه الماضي السعيد واضحًا فنسي الحاضر المرير، وأحسّ أنه عاد إلى بيته. كان حديثه على سطح المنزل مع العمّة جو كأنما دار البارحة، وبوخزةٍ من توبيخ النفس قال في نفسه:

«الخيطُ القرمزي! يجب أن أتذكّره وأقومَ بواجبي حتى النهاية. أدر الدفةَ إلى الأمام يا فتى، وإن لم تصلْ إلى ميناء، فاهبط وكل أشرعتك منصوبة».

حين ترنمّ الصوت الواهن يُهوّدُ على المرأة المتعبة لتنام نومًا متقطعًا، نسي إميل لوهلةٍ قصيرة مسؤوليته وحلم بـپلمفيلد. فرآهم كلهم وسمع أصواتهم الأنيسة، وأحسّ بقبضات الأيادي المرحبة، وقال لنفسه: «حسنٌ، لن ينالهم عار مني إن كُتب لي ألا أراهم ثانية».

أجفلته صيحةٌ مفاجئة من غفوته القصيرة، وأخبرته قطرةٌ على جبينه أن المطر المبارك قد هطل أخيرًا، حاملًا الخلاص معه، لأن العطش أقسى في تحمّله من الجوع أو الحر أو البرد. رفع الجميع شفاههم اليابسة، يرحّبون بالمطر في صيحات الفرح، ومدّوا أيديهم ونشروا ثيابهم ليمسكوا القطرات الكبيرة التي انهمرت لتخفف حمّى الرجل المريض، وتُنهي وجع العطش، وتعيد الحياة لكل جسم متعب في القارب. هطل المطرُ طوال الليل، وفرح الناجون بالوابل المنقذ، ودبت فيهم الروح، مثلما يُحيي ندى السماء نبتةً ميتة. تفرقت الغيومُ عند الفجر، ونهض إميل وقد استعاد قواه وابتهج للغاية بعد

ساعات الامتنان الصامت لتلبية دعائهم طلبًا للعون. ولم ينتهِ الأمر هكذا، فقد نقل ناظريه في الأفق الصافي، مقابل السماء الوردية التي سطعت على أشرعة بيضاء لسفينة، قريبة جدًا حد أنهم رأوا الراية المثلثية أعلى صاريتها والأشكال السوداء التي تتحرك على سطح السفينة.

انبعثت صيحةٌ واحدة من تلك الحناجر المتلهفة، وردد صداها البحر، إذ لوّح كل رجل بقبعة أو منديل ومدت المرأتان أيديهما تضرّعًا إلى ملاك النجاة الكبير الأبيض القادم نحوهم كأنما الريح المنعشة دفعت كل الأشرعة لتساعدها على التقدم.

ما عاد للخيبة مكان، فقد أكدت لهم الإشارات ردًا عليها بالقدوم للمساعدة، وفي جذل تلك اللحظة عانقت المرأتان السعيدتان إميل، ومنحتاه مكافأته دموعًا وبركاتٍ فاض بها قلباهما الممتنان، إذ وقف مُمسكًا بميري بين ذراعيه، لأن الفتاة الشجاعة التي ظلت رابطة الجأش انهارتْ عندئذ وتشبثت به مغشيًا عليها، أما أمها فانشغلت بالمريض الذي أحس بحركة الفرح، وأصدر أمرًا كأنه لم يزل على ظهر سفينته الغارقة.

انقضى الأمر سريعًا، ثم كانوا كلهم بمأمنٍ على ظهر أورانيا، يُيَممون شطر الوطن. رأى إميل أصدقاءه بين أيدٍ حانية، ورجاله بين رفاقهم، وقصّ حكاية غرق السفينة قبل أن يفكّر في نفسه. رائحةُ الحساء الشهية، الذي أُخذ إلى المرأتينِ في المقصورة، ذكّرته بأنه يتضوّر جوعًا، وعثرةٌ مفاجئة فضحت وهنَه. فحمل على الفور،

وقد كاد اللطف يقتله، وبعد أن أُطعم وأُلبس الثياب واعتُني به تُرِكَ لينال قسطًا من الراحة. حالما غادرَ الطبيب الغرفة الهادئة سأل بصوتٍ واهن: «أي يوم هذا؟ إن عقلي مضطربٌ جدًا، وأضعت الحساب».

«عيد الشكر، يا رجل! وسنقدم لك عشاء إنجلترا التقليدي، إن كنت قادرًا على الأكل»، أجاب الطبيب بود.

لكن إميل كان منهكًا للغاية فلم يقدر على فعل شيء، سوى الاستلقاء والشكر، بإخلاصٍ وامتنان أكبر من ذي قبل، على نعمة الحياة المباركَة التي غدتْ أحلى لأدائه واجبه بإخلاص.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# (١٢)
# دان وعيد الميلاد

أين كان دان؟ في السجن. وا أسفاه على السيدة جو! ولو عرفت بالأمر لأوجعها قلبها كثيرًا. فبينما أضاء پلم القديم ببهجة عيد الميلاد، جلس فتاها وحيدًا في زنزانته، محاولًا قراءة الكتاب الصغير الذي أعطته له، بعينين تعلوهما بين الفينة والأخرى غشاوةُ الدموع الساخنة التي لم يُسِلها قط وجعٌ في البدن، وهو يتحرق شوقًا بقلبٍ يملؤه الحنين لكل ما خسره.

أجل، دان في السجن، لكنه لم يطلب النجدة إذ واجه الكرب الفظيع الذي أصابه بيأسٍ صامت لهنديّ في خطر، ولم يأتِ به هنا إلا خطؤه السري، وكان هذا الدرس القاسي الذي روّض روحَه المتمردة وعلّمه ضبطَ النفس.

سنحكي قصة هذه السقطة؛ لأنها وقعت، كما يحدث غالبًا، حين أحسّ على غير عادتهِ بأن عنده آمالًا عظيمة، وقرارات صائبة، وأحلامًا بحياة أفضل. فقد التقى في رحلته بشابٍ لطيف، أثار اهتمامه تلقائيًا، إذ كان بلير في طريقه للانضمام إلى إخوته الكبار في

مرْبَى للماشية في كنساس. كان لعب الورق دائرًا في غرفة التدخين، وأصاب ضجرُ الرحلة الطويلة الفتى الذي لم يبلغ العشرين، فأزجى وقته مع شركاء متحمّسين، أثملتهم حرية الغرب. لم ينضم إليهم دان، موفيًا بوعده، لكنه راقب اللعب باهتمام عظيم، وأدرك سريعًا أن اثنين من الرجال غشاشان يتوقان إلى سلب الفتى الذي أخرج بلا حذر محفظة مليئة بالنقود. يرقّ قلب دان دومًا لمن يقلّون عنه قوة وعمرًا ممن يلتقيهم، وفي ذاك الفتى شيءٌ ذكره بتِدي، لذا ظل يراقب بلير وحذّره من أصدقائه الجدد.

وكان ذلك بلا جدوى طبعًا. لأنهم حين توقّفوا ذات ليلة في إحدى المدن، افتقد دان الفتى في الفندق الذي أخذه إليه لحمايته، وعرف من أتى من أجله فذهب للبحث عنه ونعته بالغبي الذي لم يقدّر جهود دان، لكنه لم يستطع ترك الصبي الذي وثق به للأخطارِ المحدقة به.

فوجده يقامر في مكان وضيع مع الرجلين، العازمين على سرقة ماله. ولما رأى دان نظرة الارتياح على وجه بلير القلق لدى دخوله، عرف دون كلام أن الأمور ليست على ما يرام، وأنه فهم ورطته بعد فوات الأوان.

«لا أستطيع الذهاب. لقد خسرتُ وهذا ليس مالي، ويجب أن أستعيده، وإلّا لن أجرؤ على مواجهة إخوتي»، همس الفتى المسكين، عندما توسل إليه دان ليغادر دون مزيد من الخسارة. أسقطه الخوف والخجل في اليأس، فواصل اللعب، واثقًا أن بوسعه استعادة المال

الذي ائتُمن عليه. شعر المحتالان بالخوف لدى رؤيتهما وجه دان الصارم وعينه الثاقبة وهيئته القوية، فلعبا لعبة نزيهة، وسمحا للفتى أن يربح قليلًا، لكنهما ليسا مستعدّين للتخلي عن فريستهما. وحين شاهدا دان يقف حارسًا خلف الصبي، تبادلا نظرةً تنذر بسوء وتعني: «علينا أن نزيح هذا الفتى عن طريقنا».

رأى دان ذلك، وأخذ حِذره إذ كان هو وبلير غريبين، وحوادث الشر تقع بسهولة في أماكن كهذه، ولن يعلم بها أحد. ولكنه لم يتخلّ عن الصبي، واستمر في مراقبة كل ورقة حتى اكتشف الاحتيال الواضح، وقال ذلك بلا وجل. فتبادلوا كلمات غاضبة، وتغلب استياء دان على حصافته، وحين رفض المحتال إعادة ما سرق متلفظًا بكلماتٍ مهينة ومشهرًا مسدسًا، استشاط دان غيظًا وصرع الرجل بضربة ألقت برأسه المهشم على الموقد، فتدحرج على الأرض مغشيًا عليه نازفًا. أعقب ذلك مشهد عنيف، ولكن في خضم ذلك همس دان للفتى: «اذهب، وأمسك عليك لسانك، ولا تقلق لأمري».

رحل بلير عن المدينة من فوره خائفًا ذاهلًا، تاركًا دان ليقضي الليلة في الحبس، وليمثل أمام المحكمة بعد بضعة أيام بتهمة القتل، فقد مات الرجل. لم يكن لدان أصدقاء، وحكى القصة بإيجازٍ مرة واحدة، ثم لزم الصمت، مصرًا على ألا يعرف مَن في الديار بهذه القصة الحزينة. بل إنه أخفى اسمه، وقال إن اسمه ديـڤد كِنت، كما فعل مراتٍ عديدة من قبل في المآزق. انتهى الأمر سريعًا، ولكن لما كان في القضية ظروف مخفِفة، فقد حكم عليه بالسجن سنة واحدة مع الأشغال الشاقة.

أذهلت دان السرعة التي تغيرت بها حياته تغيرًا فظيعًا، ولم يدرك ذلك تمامًا حتى جلجل باب الحديد خلفه وجلس وحده في زنزانةٍ ضيقة باردة صامتة كالقبر. كان واثقًا أن السيد لوري سيهب لنجدتهِ ومساعدته بكلمة منه، لكنه لم يطقْ إخباره بهذا العار ورؤية الحزن والخجل الذي سيصيب أصدقاؤه الذين انتظروا منه الكثير.

«كلا»، قال محكمًا قبضته، «سأجعلهم يحسبوني ميتًا أولًا، وسأموت إن بقيت هنا وقتًا أطول»، ونهض وذرع الأرض الحجرية مثل أسدٍ حبيس، مضطربًا من الغضب والحزن، ومن العصيان والندم، مبلبل الذهن والقلب، حتى كاد يجنّ وضرب الجدران التي تحبسه عن الحرية وقد كانت حياته. دام عذابه الفظيع أيامًا، ثم تعب واستغرق في كآبة سوداء تبعث رؤيتها على الحزن أكثر من اضطرابه.

كان قيّم السجن رجلًا فظًا يحب صنوف القسوة التي لا حاجة لها، لكن القس كان رؤوفًا، أدى واجبه الصعب بإخلاص ورفق. فقد حاول مع المسكين دان، دون أن يحدث أثرًا، وتعيّن عليه الانتظار حتى يُهدئ العملُ الأعصابَ الفائرة ويروض الحبسُ الروحَ العنيدة التي تتألم ولا تشتكي.

وُضع دان في مشغل الفرش، ووجد في العمل خلاصه الوحيد، فعمل بجهدٍ عظيم فاز بثناء معلمه وحسد رفاقه الذين يفوقهم مهارة. جلس في مكانه يومًا بعد يوم، يراقبه متفرج مسلح، ويمنع عليه أي كلام زائد، أو حديث مع الرجال الجالسين قربه، ولا يخرج إلا من

الزنزانة إلى المشغل، دون تريّض سوى المسير المحزِن منها وإليها، وكل رجل يضع يده على كتف الآخر مناغمين خطاهم مع وقع الأقدام الكئيب المختلف جدًا عن وقع الأقدام المجلجل للجنود. أدّى دان أعماله اليومية، وتناول خبزه المر صامتًا كئيبًا مكفهرّ الوجه، وأطاع الأوامر وفي عينيه بريق التمرد الذي جعل القيّم يقول: «هذا رجلٌ خطر. راقبوه، إذ سيهرب يومًا ما».

كان في السجن مَن هم أشد منه خطرًا، لأنهم أقدم في عالم الجريمة ومستعدون لأية محاولة يائسة للفرار لتغييرِ رتابة الأحكام الطويلة. أكبرَ هؤلاء الرجالُ طبعَ دان، وتمكنوا، عبر الطرق الغامضة التي يبتدعها المدانون، من إخباره قبل انقضاء شهر أن الخطط تعد للهروب في أول فرصة. كان عيد الشكر أحد فرصهم القليلة لتبادل الكلام وهم يستمتعون بقضاء ساعة من الحرية في فناء السجن. وعندما يهدأ كل شيء، سيحاولون الهرب إن استطاعوا، وستنتهي محاولتهم بسفك الدماء والهزيمة لمعظمهم، والحرية لقليلين. خطّط دان لفراره مسبقًا وتحيّن فرصته، وقد غدا أكثر شراسة وتجهمًا وتمردًا، كأن فقدانه الحريةَ قد أتعب الروح والبدن. إذ كان لهذا التغيير المفاجئ من حياته الحرة المفعمة بالحياة إلى حياةٍ بائسة كئيبة محدودة كهذه تأثير فظيع على أي أحدٍ في عمر دان وطباعه.

وتفكر في حياته المحطمة، وتخلّى عن كلّ الآمال والخطط السعيدة، وساوره إحساس أنه لن يرى پلمفيلد القديم الحبيب ثانية، أو يلمس تلك الأيدي الودودة، ويداه ملطختان بالدم. لم يكترثْ لأمر

التعس الذي قتله، لأن حياة كهذا يجدر إنهاؤها -في ظنه- لكن عار السجن لن يمّحي من ذاكرته، رغم نمو الشعر المجزوز، وسهولة تغيير البزة الرمادية، وترك القضبان والمزاليج خلفه.

«انتهى أمري، فقد أفسدتُ حياتي، وعليّ قبول ذلك. يجب أن أهجر الشجار وأحصل من السعادة قدرَ ما استطعت أينما كنت، وعلى أية حال. سيحسبوني ميتًا ولذا سيظلّون يحبوني، لكنهم لن يعرفوا أبدًا ما فعلت. يا للأم باير المسكينة! لقد حاولت مساعدتي، بلا جدوى، إذ لا يمكن إنقاذ مشعل الفتن».

أسند دان رأسه إلى يديه وهو جالس على سريره الواطئ، وأخذ يبكي على كل ما فقده ببؤس بلا دمع، حتى يريحه النوم الرحيم بأحلام يرى فيها الأيام السعيدة عندما لعب الأولاد معًا، أو تلك الأيام الأسعد حين ابتسم الجميع له، كأن پلمفيلد اكتست بسحر جديد وغريب.

كان في مشغل دان رجل مصيره أقسى من مصير دان، إذ تنتهي محكوميته في الربيع، غير أن لا أمل له في العيش حتى ذلك الوقت. أشفق أقسى الرجال قلوبًا على المسكين ميسن وهو جالس يسعل حياته في ذلك المكان البارد ويعد الأيام المُضنية التي ستمر قبل أن يتسنّى له رؤية زوجته وطفله الصغير. ثمة أمل ضئيل بإطلاق سراحه، ولكن لا أصدقاء له يحرّكون الأمر، وكان جليًا أن حكم القاضي الأعظم سينهي قريبًا ألم المريض للأبد.

أشفق عليه دان أكثر مما أبدى، وكانت هذه العاطفة الرقيقة في

ذلك الوقت العصيب مثل الزهرة الصغيرة تنبت بين الصخور في فناء السجن وتبعد اليأس عن السجين في القصة القديمة الجميلة. مد دان يد العون لميسن في عمله كلما أنهكه المرض وعجز عن إنهاء عمله، وكانت النظرةُ الشاكرة شعاعَ شمس تبهج زنزانته حين يكون وحيدًا. غبط ميسن جاره على صحّته الموفورة، وبكى لرؤيتها تضيع هناك. كان رجلًا مسالمًا وحاول -بقدر ما استطاع بالهمس ونظرات التحذير- أن يمنع دان من الانضمام «إلى العصبة الفاسدة»، كما يُدعى المتمردون. ولكن دان حين أشاح بوجهه عن النور، وجد درب النزول سهلًا، وفرح وتجهم في آن معًا لمنظر الهروب الكبير الذي يستطيع خلاله أن يثأر لنفسه من القيّم المستبد، ويسدد ضربة من أجل حريته، شاعرًا أن ساعة من العصيان ستكون منفذًا محبذًا للعواطف الحبيسة التي أقلقت راحته. لقد روّض كثيرًا من الحيوانات البرية، لكن روحه الجامحة استعصت عليه، حتى وجد الشكيمة التي جعلته سيد نفسه.

لاحظ دان في يوم الأحد الذي سبق عيد الشكر، وهو جالس في الكنيسة الصغيرة، عددًا من الضيوف يجلسون على المقاعد المحجوزة لهم، ونظر قلقًا ليرى إن كان بينها وجه مألوف، إذ كان خوفه قاتلًا من أن يظهر له أحد من البيت فجأة. كلا، كانوا غرباء جميعهم، وسرعان ما نسي أمرهم في الاستماع إلى كلمات القس المبهجة، والغناء الحزين لكثير من القلوب التعسة. يتحدث الناس إلى المحكومين كثيرًا، لذا لم يعجب أحد حين نهضت إحدى السيدات، بعد دعوتها للحديث إليهم، قائلة إنها ستخبرهم قصة

قصيرة، ما جعل المستمعين الأصغر سنًا يشنّفون آذانهم، وأبدى الكبار اهتمامًا أيضًا، إذ رحّبوا بأي تغيير في حياتهم الرتيبة.

كانت المتحدثة امرأةً في منتصف العمر تلبس الأسود، ذات وجه عطوف وعينين مفعمتين بالرأفة، وصوت دافئ على القلب، لأن فيه نبرة أمّ ذكّرت دان بالسيدة جو، فاستمع باهتمامٍ إلى كل كلمة، شاعرًا أن كل واحدة منها تعنيه. إذ بمحض الصدفة، جاءت في لحظة احتياجه إلى ذكرى مهدئة تكسر جليد اليأس الذي أفسد كل الخصال الحسنة في طبيعته.

كانت قصة قصيرة بسيطة جدًا، لكنها استرعت اهتمام الرجال في الحال. إذ كانت عن جنديين في مستشفى أثناء الحرب الأخيرة، وكلاهما مصابٌ إصابة بليغة في ذراعه الأيمن، وكلاهما متلهف لإنقاذ هاتين المعيلتين والعودة إلى البيت دون أن تبترا. كان أحدهما صبورًا دمثًا وأطاع الأوامر مسرورًا، حتى حين عرف بضرورة بترِ الذراع. فأذعن وزال كثير من الألم، وشكر بقاءه على قيد الحياة، وإن أصبح عاجزًا عن القتال. أما الآخر فثارت ثائرته، ولم يستمع لأي نصح، وأجّل الأمر طويلًا حتى مات موتًا بطيئًا، وهو يتحسّر حسرات مريرة على حماقته بعدما فات الأوان. «وما دام لكل قصة عبرةٌ صغيرة، فدعوني أخبركم بعبرتي»، أضافت السيدة باسمة، وهي تنظر إلى صف الشبان الجالسين أمامها، متسائلةً بحزن عما أتى بهم إلى هذا المكان.

«هذه مستشفى للجنود الجرحى في معركة الحياة، ها هنا أنفس

مريضة وإرادة ضعيفة، وعاطفة مضطربة، وضمير أعمى، أي كل العلل التي تأتي من كسر القانون، جالبة معها الألم والعقوبة اللذين لا مناص منهما. ثمة أملٌ وعون للجميع، لأن رحمة الرب لا تنتهي وخير الإنسان عظيم، ولكن يجب أن يأتي الاستسلام والتوبة قبل أن يتاح العلاج. أدّوا العقوبة بشجاعة، لأنها عادلة، واستنبطوا من الألم والعار قوةً جديدة لحياة أسمى. ستبقَى الندبة، ولكن خليقٌ بالرجل أن يخسر ذراعيه على أن يخسر روحه. وهذه سنوات شاقة، قد تكون الأروع في حياتكم إن علّمتكم ضبط أنفسكم، بدلًا من تبديدها سدىً. أيها الأصدقاء، حاولوا أن تتجاوزوا الماضي المرير، وأن تغسلوا ذنوبكم، وابدؤوا من جديد. إن لم يكن ذلك كرمى لأنفسكم، فافعلوه كرمى لأحبّائكم من الأمهات والزوجات والأطفال الذين ينتظرونكم ويترقبونكم صابرين. تذكّروهم، ولا تجعلوهم يحبّون وينتظرون سُدى، وإن كان أيٌّ منكم وحيدًا لا أهل له يهتمون لأمره، فلا تنسوا أن الأب الذي يفتح ذراعيه دومًا لعناقكم، يسامح ويغفر لأبنائه الضالين، حتى في آخر اللحظات».

هنالك انتهت الموعظة الصغيرة، لكن الواعظة أحست أن كلماتها الصادقة لم تذهب هباء، إذ طأطأ فتى رأسه، واكتسى عدد من الوجوه هيئة رقيقة توحي بأنها لامست ذكرى عذبة. اضطر دان إلى زمّ شفتيه لئلا ترتعشا، وأخفض نظره ليخفي الندى المفاجئ الذي غشيَهما أثناء انتظاره، آملًا أن يتحدث إلى أصدقائه. ارتاح لدى عودته وحيدًا في زنزانته، وجلس يفكّر تفكيرًا عميقًا، عوضًا عن محاولته النسيان عبر النوم. كأن تلك الكلمات هي ما احتاجه لتبين

له موضعه وكيف ستحدد الأيام القليلة القادمة مصيره. أينضم إلى «العصبة الفاسدة»، وربما أضاف جريمة أخرى إلى التي ارتكبها قبلًا، فيطيلُ حكمه الذي لا يطيق الصبر عليه، ويدير ظهره عامدًا لكل الخير، ويفسد المستقبل الذي يود استرداده؟ أم عليه، مثلما فعل الرجل الحكيم في القصة، أن يستسلم ويحتمل العقاب العادل، الذي سيكون تذكيرًا بمعركةٍ لم يخسرها تمامًا، ما دام خلص روحه وإن فقد البراءة؟ سيجرؤ عندئذ على الذهاب إلى البيت، والاعتراف بذنبه وأن يجد قوةً جديدة في الرأفة والمواساة لدى الذين لم يتخلّوا عنه قط.

تصارع في روح دان تلك الليلة الخير والشر كما فعل الملاك والشيطان من أجل سنترام، وكان صعبًا القول أيهما سينتصر؛ الطبع الشموس أم القلب المحب. وجعل الندم والاستياء، والخجل والحزن، والكبر والعاطفة من تلك الزنزانة الضيقة ساحةَ معركة، وأحس الفتى المسكين أن عنده أعداءً يقاتلهم أعتى من الذين واجههم في تطوافه. لكن شيئًا صغيرًا رجّح كفة الميزان، كما يحدث في قلوبنا الغامضة، وساعدت لمسة عطف دان في أن يقرر الدربَ الذي سيبارك حياته أو يحطمها.

في الساعة المظلمة قبل الفجر، إذ استلقى أرِقًا في فراشه، تسلل شعاع من الضوء خلال القضبان، وفتح المزلاج برفقٍ ودخل رجل. كان ذاك القسّ الطيب، وقد قادته الغريزة نفسها التي تقودُ الأم إلى وسادة ابنها المريض. إذ تعلّم من خبرته الطويلة في تمريض النفوس المتعبة رؤيةَ علامات الأمل في الوجوه القاسية من حوله، ومعرفة متى تحين اللحظة المناسبة لقول كلمةٍ مواسية وبثّ دفء الصلاة

المخلصة الذي يبعث الراحة والشفاء للقلوب المتعبة والقلقة. كان يتردد على دان في ساعاتٍ غير متوقعة، لكنه يجده دومًا جهمًا أو باردًا أو شموسًا، فينصرف عنه صابرًا متحيّنًا فرصته. وها قد حانت، إذ علت وجهَ السجين نظرةُ ارتياح حين تسلل الضوء، وكان الصوت البشري مريحًا راحة غريبة بعد الاستماع إلى همس الهواجس والقلق والمخاوف التي سكنت الزنزانة ساعات، مخيفة دان بقواها ومظهرةً له حاجته إلى العون ليقاتل قتالًا محمودًا، إذ لم يكن عنده درع.

«لقد مات ميسن المسكين يا كِنت، وترك رسالة لك، فأحسستُ أني ملزمٌ بالقدوم وتسليمها الآن، لأني أحسبك تأثرت بما سمعناه اليوم، وتحتاج العون الذي حاول ميسن تقديمه لك»، قال القس، جالسًا على الكرسي الوحيد، مثبتًا عينيه الطيبتين على الشخص المتجهم في الفراش.

«شكرًا لك يا سيدي، أودّ سماعها»، كان كل ما قاله دان، لكنه نسي نفسه مشفقًا على الرجل المسكين الذي مات في السجن، دون أن يرى زوجته أو طفله للمرة الأخيرة.

«لقد رحل فجأة، لكنه تذكّرك وتوسل إليّ أن أقول لك هذه الكلمات: «أخبره ألا يفعلها، بل ليتجلّد، ويبذل قصارى جهده، وإن حان وقت خروجه فليذهب مباشرة إلى ميري، وسترحّب به لأجل خاطري. ليس له صحبٌ في هذه الأنحاء وسيشعر بالوحدة، ولكن المرأة أمان وراحة دومًا حين يسوء حظ الرجل. انقل له حبّي ووداعي لأنه أحسنَ إليّ، وسيباركه الرب لأجل ذلك». ثم مات

بهدوء، وسيعود إلى دياره غدًا بعفو الرب، ما دام عفو البشر تأخّر كثيرًا».

لم ينطقْ دان بحرف، بل وضع ذراعه على وجهه واستلقَى ساكنًا. لما رأى القسّ أن الرسالة القصيرة الرؤومة قد نجحتْ في مهمتها أكثر مما أمل، واصل كلامه دون أن يدرك أن صوته الأبوي هدّأ السجين المسكين الذي تاق «للعودة إلى الديار»، لكنه أحس أنه نال جزاءه.

«أرجو أنك لن تخيّب هذا الصديق المتواضع الذي كنت آخر من فكّر به. أعلم أن شغبًا سيقع قريبًا، وأخشى أن ترغب بمد يد العون إلى الجانب الخطأ. فلا تفعلْ ذلك، لأن الخطة لن تنجح أبدًا، وسيكون مؤسفًا أن تفسد سجلّك النظيف حتى الآن. احتفظ بشجاعتك يا بُنيّ، واخرج عند انقضاء السنة رجلًا أفضل، ليس أسوأ، من هذه التجربة القاسية. تذكّر امرأةً شاكرة تنتظر أن ترحّب بك وتشكرك إن لم يكن لك أهل، وإن كان لك فابذل ما بوسعك تقديرًا لهم، ولنطلبْ من الربّ أن يساعدنا لأنه الوحيدُ القادر على ذلك».

صلّى الرجل -دون أن ينتظر جوابًا- صلاةً صادقة، وأصغى دان كما لم يفعل من قبل، لأن ساعة الوحدة ورسالة الميت، والظهور المفاجئ لنفسه الخيرة جعل الأمر يبدو كأن ملاكًا جاء ليخلصه ويريحه.

طرأ تغيير على دان عقب تلك الليلة، رغم أن أحدًا لم يعرف بالأمر إلا القسّ، وبدا للآخرين أنه الشخص المنعزل الصامت

المتجهّم نفسه كالسابق، وأدار ظهره للأشرار والأخيار على حد سواء، وجد سلواه الوحيدة في الكتاب الذي جلبه له صديقه. ببطء، مثلما تنحت القطرةُ الصامدة الصخرَ، فاز الرجل الطيب الصبور بثقة دان، وبتوجيهه أخذ يتسلق خارجًا من وادي الذل نحو الجبال، إذ يرى المرء، من خلال الغيوم، المدينة السماوية حيث يدير كل الحجّاج المخلصون عاجلًا أم آجلًا أعينهم الحزينة وأقدامهم المتعثرة. وقد قاسى زلات كثيرة وصراعات كثيرة مع اليأس العظيم وأپوليون القوي، وقضى ساعات ثقيلة كثيرة عندما بدت الحياة لا تستحق العيش، ونجاة ميسن هي الأمل الوحيد. ولكن خلال هذا كله، الإمساك بيد صديق، وصوت الأخ والرغبة التي لا تلين بالتكفير عن الماضي بمستقبل أفضل، والظفر بالحق في رؤية البيت ثانية، جعلت دان المسكينَ ملتزمًا بعمله العظيم حين أوشكت السنة على الانقضاء، والسنة الجديدة تنتظر أن تقلبَ صفحةً جديدة في الكتاب الذي تعلم أقسى دروسه.

اشتاق كثيرًا لپلمفيلد أثناء عيد الميلاد فاحتال لإرسال كلمة تهنئة لإسعاد القلوب القلقة، وتهدئة قلبه. فكتب إلى ميري ميسن التي تقيم في ولايةٍ أخرى، وطلب إليها أن ترسل الرسالة المرفقة. وفيها لم يقل إلا إنه بخير ومشغول، وتخلّى عن فكرة المزرعة، ولديه خطط أخرى سيحكي عنها لاحقًا، ولن يعود إلى البيت قبل الخريف، ولن يكتب كثيرًا، لكنّ كل شيء على ما يرام، وأرسل حبه وتهاني العيد للجميع.

ثم عاد إلى حياة العزلة ثانية، وحاول أن يقضي حكمه بشجاعة.

# (١٣)
# نات في رأس السنة

«لا أنتظر رسالة من إميل، ونات يكتب لي بانتظام، ولكن أين دان؟ لم يرسل إلا بطاقتين بريديتين أو ثلاثًا منذ ذهابه. سيشتري فتى مفعم بالحماس مثله كل مزرعة في كنساس في هذا الوقت»، قالت السيدة جو ذات صباح لدى وصول البريد بلا أي بطاقة أو ظرف يحمل خطّ دان المخربش.

«تعرفين أنه لا يكتب كثيرًا، لكنه يعمل ثم يعود إلى البيت. يبدو أن الأشهر والسنوات صغيرة في عينه، ولا بد أنه يطوف في البراري، غافلًا عن الوقت»، أجاب السيد باير، الغارق في إحدى رسائل نات من لايبزغ.

«لكنه وعدني بأن يُعلمني بسير الأمور، ودان يبر بوعده ما استطاع. أخشى أن مكروهًا أصابه»، وهدأت السيدة جو نفسها بالتربيت على رأس دون، إذ اقترب لدى سماع اسم سيده لينظر إليها بعينين بشريتين تفيضان ذكاء حزينًا.

«لا تقلقي يا أمي العزيزة، لا خطب ألمّ بالفتى. سيكون على ما

يرام، وسيأتي ماشيًا يومًا وفي جيبه منجم ذهب، وفي جيبه الآخر سهب، وهو مرح مفعم بالحيوية»، قال تِد، وهو يتحرق شوقًا لتسليم أوكتو إلى صاحبها الحقيقي.

«ربما ذهب إلى مونتانا وتخلّى عن فكرة المزرعة. أظنه يحب الهنود أكثر»، وتقدم روب ليساعد أمّه بكومة الرسائل وتخميناته المتفائلة.

«أرجو ذلك، فهذا يناسبه أكثر، لكني واثقة أنه كان سيخبرنا بتغييره خطته، ولأرسل في طلب المال ليعتاش منه. كلا، أشعر في عظامي المتنبئة أن مكروهًا أصابه»، قالت السيدة جو وقورة كالقَدَر وهي تعتمر قبعة الإفطار.

«لكنا عرفنا، فالأخبار السيئة تصل أسرع. لا تقلقي بلا داعٍ يا جو، واسمعي كيف يبلي نات حسنًا. لست أرى الفتى يهتم لشيء إلا الموسيقى، وقد أعدّه صديقي الطيب بومغارتن جيدًا، وسينفعه ضبط النفس. إنه فتى صالح، لكنه حديث العهد بالعالم، ولِپزغ مليئة بالفخاخ التي يقع فيها الغافلون. فليكن الرب في عونه!».

قرأ الأستاذ وصف نات المتقد لبعض الحفلات الأدبية والموسيقية التي ارتادها، وروعة الأوبرا، ولطف أصدقائه الجدد، وفرحة التتلمذ على يد أستاذ مثل برغمان، فانتعشت آماله من جديد، وكبر امتنانه للذين فتحوا هذا العالم المسحور أمامه.

«هذا مطمئن ومبشر. خامرني شعور أن في نات قوةً لا يخالطها شك قبل أن يسافر؛ فقد كان قويًا يحمل كثيرًا من الأفكار الرائعة»، قالت السيدة جو بنبرةٍ راضية.

«سنرى. سيتعلم درسه من غير ريب، ويتحسن، فقد حدث ذلك لنا في أيام شبابنا، وأرجو ألا يكون الدرس قاسيًا جدًا على الفتى الطيّب»، أجاب الأستاذ، بابتسامة حكيمة متذكّرًا حياته تلميذًا في ألمانيا.

كان محقًا، وقد أخذ نات يتعلم درسه في الحياة بسرعة ستدهش أصدقاءه في الديار. فقد كانت القوة التي فرحت بها السيدة جو تكبر بصورٍ مفاجئة، وانغمس نات الهادئ في مزيد من اللهو البريء في المدينة الصاخبة بكل توق الفتى الغرّ الذي يرشف رشفته الأولى من البهجة. كان إحساس الحرية الكاملة والاستقلال لذيذًا، إذ انهالت عليه بعض المزايا، وتحرق شوقًا للوقوف على قدميه وشق طريقه. لم يعرف أحد هنا عن ماضيه، وبصوان ثياب أنيق، ومبلغ جيد من المال مودع في مصرفه، وأفضل المعلمين في لايبزغ، ظهر ظهوره الأول باعتباره موسيقيًا شابًا محترمًا، قدمه الأستاذ باير الذي يحترمه الكثيرون والثري السيد لورنس، الذي كان له عدد من الأصدقاء الذين يسرهم فتح بيوتهم لنات تقديرًا لراعيه. وبفضل هذه المقدمات، وألمانيته الطليقة وأخلاقه الحسنة، وموهبته التي لا تُنكَر، فقد نال الغريب ترحيبًا حارًا، وأطلق من فوره في دائرةٍ يجهد كثير من الشباب الطموحين لدخولها بلا جدوى.

أصاب هذا كله نات بالدوار، وحين جلس في دار الأوبرا الراقية، يتحدث مع السيدات في حفل قهوة للنخبة، أو يراقص ابنة دمثة لأستاذٍ بارز في الغرفة، محاولًا أن يتخيلها ديزي، سأل نفسه كثيرًا إن كان هذا الفتى المرح هو ذاته الموسيقي الجوال الفقير المتشرد

الذي وقف يومًا ينتظر تحت المطر أمام بوابة پلمفيلد. كانت نواياه صادقة، ودوافعه حسنة وآماله كبيرة، لكن الجانب الضعيف من طبعه صار له اليد الطولى هنا، فقد أضلَّه الغرور عن سواء السبيل، وأسكرته المباهج، ونسي لبعض الوقت كل شيء إلا مسرات الحياة الجديدة الساحرة. فقد سمح للناس -دون أن يقصد خداعهم- أن يحسبوه شابًا من أسرةٍ وأصول عريقة، وتباهى قليلًا بثروة السيد لوري ورخائه، وبشهرة الأستاذ باير، والكلية الواعدة التي تلقى فيها تعليمه، وتحدث عن السيدة جو إلى الآنسات العاطفيات اللاتي قرأنَ كتبها، وسحر فتاته الحبيبة وفضائلها التي ترعاها أمهاتٌ عطوفات. وسرعان ما أخذ هذا التبجح الصبياني والغرور البريء يتداول في أحاديثِ النميمة، وعلت مكانته، فأصابته الدهشة والسرور إلى جانب شيء من الخجل.

لكن ذلك حمل الفاكهة المرة في نهاية المطاف، إذ بعد أن رأى أنه من عليةِ القوم، صار محالًا عنده أن يعيش في المسكن الوضيع الذي اختاره، أو أن يعيش الحياة الرتيبة الهادئة التي أعدت من أجله. فالتقى تلاميذ آخرين، وضباطًا شبابًا وفتية مرحين من شتى الصنوف، وأسعده ترحيبهم به، رغم أنها بهجةٌ باهظة الثمن، وكثيرًا ما خلّفت شوكة الندم لتخز ضميره الحي. فقد أغري لاستئجار مسكنٍ أفضل في شارع أرقى، تاركًا السيدة العطوفة فراو تتزل تبكي خسارته، وجارته الفنانة، فراولن ڤوغلستن، تهز لفافاتها الرمادية وتنتظر عودته رجلاً أكثر حزنًا وحكمة.

بدا المبلغ المودع تحت تصرف نات للإنفاق ولمباهجَ بسيطةٍ تتطلبها

حياته المزدحمة ثروة في عينه، رغم أنه كان أصغر مما اقترحه السيد لوري الكريم في البدء. فقد رأى الأستاذ باير الحكيم ضرورةَ التعقل، إذ لم يعتد نات الاهتمام بالمال، وأدرك الرجلُ الحكيم الإغراءات التي تتيحها محفظةٌ مليئة بالمال في هذا العمر الميّال للهو. فاستمتع نات بشقته الجميلة الصغيرة للغاية، وبغفلة منه سمح لبعض الرفاهية التي لم يعتدْها بالتسلل. كان يحب الموسيقى ولم يفوّت درسًا قط، لكنه كثيرًا ما أضاع الساعات التي يتعينُ عليه قضاؤها في التمرين، يتنقل بين المسرح والحفلات الراقصة والحانات أو النوادي، دون أن يفعل شيئًا مشينًا سوى تبديد وقته الثمين، ومالٍ ليس بماله، إذ لم يكن له عيوب، وعاش حياته محترمًا حتى الآن. لكن بدأ تغير حاله نحو الأسوأ يظهر شيئًا فشيئًا، وأدركه. كانت الخطى الأولى على الدرب المزهر نحو الأسفل، لا الأعلى، وأخذ الإحساس المستمر بالخيانة يطاردُ نات، فأحس -في بضع ساعات قليلة اختلى فيها بنفسه- أن لا شيء يجري على ما يرام، رغم دوامة السعادة التي عاش فيها.

«شهرًا آخر ثم أهدأ»، قال أكثر من مرة، معتذرًا لتأخره في أن ذلك كله جديد عليه، وأن أصدقاءه في الديار يتمنون له السعادة، وأن المجتمعَ يمنحه الكياسة التي يحتاجها. وكلما مر شهر غدا الهرب أصعب، فانغمس تمامًا، وكان سهلًا انجرافه مع التيار فأجّل يوم النحس ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. أعقبت ملاهي الشتاء مباهجَ الصيف الأكثر ترفًا، ووجدها نات مكلفةً أكثر إذ انتظرت السيدات المضيافات شيئًا في المقابل من الغريب، والعربات وباقات الورد وتذاكر المسرح وكل النفقات الصغيرة التي لا يسع الشابّ

الفرار منها في لحظات كهذه، أثقلت على المحفظة التي بدت لا قرار لها في بادئ الأمر. أصبح نات، متخذًا من السيد لوري قدوة، شهمًا للغاية، مثلما يحبّ الجميع، فبرغم كل الصفات واللياقة التي اكتسبها مؤخرًا تلألأ الصدق والبساطة الأصيلان في طبعه، فظفر بثقةِ كل من عرفه ومحبته.

ومن بين هؤلاء سيدةٌ ودودةٌ عجوز لها ابنة موسيقية، ذات أصل عريق لكنها فقيرة، وتتحرقُ شوقًا لتزويج البنت المذكورة من رجلٍ موسر. سحرت قصصُ نات الصغيرة عن ثروته وأصدقائه السيدةَ اللطيفة بقدر ما سحرتْ موسيقاه وكياسته مينا الحسّاسة. وبدت ردهتهما الهادئةُ بسيطةً ومريحة لنات، حين يسأم من الأماكن الأصخب. كان الاهتمام الأمومي للسيدةِ المسنة عذبًا ومهدئًا له، أما العينان الزرقاوان الرقيقتان للفتاة الجميلة فقد كانتا مليئتين دومًا بالترحيب لقدومه، والحزن لرحيله، والإعجاب لعزفه لها، فرأى البعد عن هذا المكان الآسر مستحيلًا. لم يقصد الأذى، ولم يخش خطرًا، وقد أسرّ إلى فراو ماما أنه خاطب، فاستمر بزيارتهما غافلًا عن الآمال الكبيرة التي تضمرها السيدة العجوز، أو المأزق في تقبّل حب فتاةٍ ألمانية رومنسية، حتى فات أوان تجنيبها الألم وتجنيب نفسه الندم العظيم.

لا شك أن الإشارة لبعض هذه التجارب الجديدة والمقبولة ذُكر في الرسائل الهائلة التي لم يكن يومًا شديد الفرح أو الانشغال أو التعب عن كتابتها كل أسبوع، وإذ سرّت ديزي لسعادته ونجاحه،

وضحك الأولاد من فكرة «تحوّل المسقسق القديم إلى رجلٍ مجتمع»، تجهّم الكبار وقالوا بين بعضهم:

«إنه يتعجّل الأمور، لا بد من تحذيره، وإلا وقع في المتاعب».

لكن السيد لوري قال: «أوه، دعوه ينغمس في اللهو، فقد كان محرومًا وتابعًا لوقت طويل. لن يستمر طويلًا بما لديه من مال، ولستُ أخشى من تراكم الديون عليه، فهو هيّاب جدًا ونزيه جدًا ولن يكون طائشًا. أنها أول مرة يذوقُ فيها طعم الحرية، فدعوه يستمتع بها، وسيحسن الصنع بمرور الوقت، أعرف ذلك، بل أنا واثقٌ أني محق».

كان التحذير لطيفًا جدًا، وانتظر الناس الطيبون قلقين سماع المزيد عن الدراسة الجادة، والقليل عن الأوقات الرائعة. تساءلت ديزي أحيانًا، والألم يعتصر قلبها المخلص، إن كانت إحدى الفتيات الساحرات المذكورات مينا أو هيلدغارد أو لوتشن لم تخطف قلبها فتاها نات، لكنها لم تسأله قط، بل كتبت له دومًا هادئةً مبتهجة، وبحثت بلا جدوى عن إشارة لتغيره في الرسائل التي بليت لكثرة القراءة.

مرّ الشهر تلو الشهر، إلى أن جاءت الأعيادُ حاملة الهدايا والأماني الطيبة والمآدب الرائعة. وحسب نات أنه سيقضي وقتًا ممتعًا، وفعلَ في بادئ الأمر، إذ إن عيد الميلاد في ألمانيا منظرٌ يستحق المشاهدة، لكنه دفع غاليًا ثمن انغماسه في اللهو في ذلك الأسبوع الذي لا ينسى، وحان وقت تصفية الحساب نهار رأس السنة، كأنما

أعدّت جنيّة لئيمة المفاجآت التي وقعت، وهي مفاجآت غير سارة، والتغيير الذي أحدثته سحري للغاية، إذ حوّلت هذا العالم السعيد إلى مشهدٍ للحزن واليأس فجأة مثل مشاهد التحوّل في التمثيل الإيمائي.

وقعت المفاجأة الأولى في الصباح، عندما ذهب، محملًا بباقات الورد والحلوى الغالية، ليشكر مينا وأمها على حمّالة البنطال المطرزة بزهور لاتنسيني والجوارب الحريرية التي حاكتها أصابع العجوز الرشيقة، التي وجدها على طاولته ذلك اليوم. استقبلته السيدة الأمّ بكياسة، وحين سأل عن الابنة سألته العجوز الطيبة عن نواياه صراحة، مضيفة أن نميمة بلغت مسامعها تلزمه بأن يكون واضحًا أو ألا يأتي ثانية، لئلا يقلقَ راحة مينا.

لم يُر شابٌ أصابه الهلعُ كما أصاب نات لدى سماعه هذا الطلب المفاجئ. فقد أدرك متأخرًا أن كياسته الأمريكية أوهمت الفتاة الساذجة، وقد تستغله الأم الماكرة استغلالًا سيئًا، إن شاءت فعْل ذلك. ولن ينقذه شيءٌ سوى الحقيقة، وهو يتمتع بالصدق والشرف ليقولها مخلصًا. أعقب ذلك مشهدٌ حزين، إذ كان لزامًا على نات أن يتجرد من بهائه المصطنع، ويعترف بأنه ليس إلا تلميذًا فقيرًا، وطلب الصفح بصدق لحريته الطائشة التي تمتعَ خلالها بضيافتهما الحسنة. وإن خامره الشكُّ في دوافع فراو شومبرغ وأمانيها، فقد تجلت له بسرعة عبر الوضوحِ الذي أظهرت به خيبتها، والشدة التي وبّخته بها والازدراء الذي رمتْه به عندما انهارت قصورها الرائعة التي بنتْها في الهواء.

رق قلبها قليلًا لندم نات الصادق، وسمحت له أن يودّع مينا التي استرقت السمع من ثقب المفتاح، وظهرت غارقةً بدموعها لترتمي في أحضان نات قائلة: «آه، أيها العزيز، لن أنساك ما حييت، رغم انفطار قلبي!».

كان هذا أقسى من اللوم، إذ بكت السيدة البدينة أيضًا، ولم يتسنّ له الفرار إلا بعد كثيرٍ من البكاء والهذر الألماني، شاعرًا أنه ڤرتر آخر، وقد عزّت لوتِه[1] المهجورةُ نفسَها بالحلوى، وأمها بالهدايا الثمينة.

ووقعت المفاجأةُ الثانية حين تناول العشاء مع الأستاذ بومغارتن، إذ فقد شهيته للطعام بعدما حدث صباحًا، وفترت همّته ثانية عندما أبلغه زميله مبتهجًا أنه مسافر إلى أمريكا، وسيكون من دواعي سروره أن يزور «السيد المحترم الأستاذ باير»، ليخبره عن مرح تلميذه في لپزغ. ملأ الخوف قلب نات وهو يتخيّل أثر هذه الحكايا البراقة على پلمفيلد، لا لأنه خدعهم عامدًا، بل لأنه أغفل ذكْر كثير من الأمور في رسائله، وحين أضاف كارلسن بغمزة ودودة أنه سيلمّح إلى خطبته الوشيكة من مينا الجميلة «وصديقة قلبه»، وجد نات نفسه يتمنى بصدق أن يغرقَ صديق القلب المزعج في قاع البحر قبل وصوله إلى پلمفيلد ليحطم كل آماله بهذه الحكايا عن الشتاء الذي قضاه في اللهو. ولما تمالك نفسه، احترس من كارلسن بما قال في نفسه إنها حيلة مفستوفيليسية[2]،

(١) الحبيبة في الرواية الشهير آلام ڤرتر لغوته.

(٢) نسبة إلى الشيطان في حكاية فاوست.

وأعطاه إرشادات مبهمة وستكون معجزة إن التقى الأستاذ باير يومًا. لكن نات لم يستمتع بالغداء، فغادر بأسرع ما استطاع، ليهيم على وجهه في الشوارع، دون رغبة في الذهاب إلى المسرح أو العشاء الذي سيتناوله مع جمع من الصحب المرحين في وقتٍ لاحق. وواسى نفسه بمنح المال لعددٍ من المتسولين، وأفرح طفلين بكعك الزنجبيل اللامع، وشرب كأسًا من البيرة وحده بصحة ديزي وتمنّى لنفسه سنةً أفضل من سابقتها.

عاد إلى البيت أخيرًا، فوجد مفاجأة ثالثة بانتظاره تمثلت في وابل من الفواتير انهمر عليه مثل عاصفة ثلجية، مغرقة إياه في سيل من الندم واليأس والاشمئزاز من نفسه. كانت الفواتير كثيرة وكبيرة أصابته بالذعر والعجب، فهو كما توقع السيد باير بحكمة، لا يعرف عن قيمة المال إلا قليلًا. وسيحتاج إلى كل دولار في المصرف ليسددها في الحال، وسيكون مفلسًا لستة أشهر قادمة، ما لم يكتب إلى الديار طالبًا المزيد. وآثر أن يموت جوعًا على أن يفعل ذلك، وكان أول ما تبادر إلى ذهنه أن يجد الغوث على طاولة القمار حيث أغراه أصدقاؤه الجدد باللعب. لكنه وعد السيد باير أن يقاوم ما بدا له حينئذ إغراءً مستحيلًا، ولن يضيف الآن خطأً إلى قائمة أخطائه الطويلة. لن يقترض المال ولن يتسوّل، فماذا يفعل؟ يجب سداد هذه الفواتير المروّعة، وأن تستمر الدروس وإلا مُنيتْ رحلتُه بالفشل الذريع. لا بد له أن يعيش أثناء ذلك، ولكن كيف؟ وبعد أن استحوذ عليه الندمُ على حماقته في الأشهر الماضية، أدرك متأخرًا انجرافه، فذرع الغرفة جيئةً وذهابًا لساعات، متخبطًا في حمأة القنوط، دون يدٍ تنتشله منه.

وهذا ما ظنّه إلى أن وصلتْ الرسائل، وبين الفواتير الجديدة وجد مظروفًا مهترئًا عليه طابع بريدي أمريكي في الزاوية.

آه، يا لسعادته بها! كم قرأ متلهفًا الصفحات الطويلةَ الملأى بالأمنيات المحبة من الجميع في الديار! إذ أرسل كل شخص سطرًا، وغشى الدمع عينيه أكثر فأكثر كلما قرأ اسمًا مألوفًا، ولما قرأ في النهاية «باركك الرب يا بني! الأم باير»، انهار ووضع رأسه بين يديه، وأغرق الورقة بأمطار الدمع التي هدّأتْ روعه وغسلت أخطاءه الصبيانية التي أثقلت ضميره.مكتبة سر من قرأ

«يا لأحبتي، كم يحبّوني ويثقون بي! وسيخيب رجاؤهم بي كثيرًا إن علموا أيّ أحمق كنت! سأعزف على الكمان في الشارع قبل أن أطلب مساعدتهم!»، قال نات، مجففًا الدمع الذي خجل منه، رغم ارتياحه بعد البكاء.

أخذ يدرك الآن بوضوحٍ ما سيفعل، إذ مُدت إليه يد العون عبر البحار، وانتشله الحب الواعظ العزيز، من حمأة اليأس وأظهر له البوابة الضيقة التي تكمن النجاةُ خلفها. بعدما أعاد نات قراءةَ الرسالة، وقبّل بحب زاوية رسمت فيها زهرة الربيع، أحس بقوةٍ تكفي لمواجهة الأسوأ والتغلب عليه. لا بد من سداد الفواتير، وبيع كل ما يمكن بيعه، وترك هذه الغرفة الباهظة، وحالما يعود إلى فراو تتزل البخيلة، سيجد عملًا يجني به عيشه، كما يفعل كثير من الطلاب. لا بد أن يهجر أصدقاءه الجدد، ويدير ظهره لحياة اللهو، ويكف عن كونه فراشةً، ويتخذ مكانه بين الكادحين. كان هذا هو الأمر الشريف

الوحيد الذي يجدر به فعله، لكن يشقّ على الفتى المسكين أن يتخلّى عن ترهاته الصغيرة، ويهجر المباهج المحببة إلى الشباب، ويعترف بحماقته وينزل من عليائه ليجني الشفقة والسخرية والنسيان.

احتاج نات إلى كلّ كبريائه وشجاعته لفعْل ذلك، إذ كان ذا طبع حساس، والتقدير مهم والفشل مرير في نظره، ولم يبعده شيء إلا البغض الفطري للؤم والخداع عن طلب المساعدة أو محاولة إخفاء حاجته بوسيلةٍ خسيسة. حين جلس وحده تلك الليلة، عادت إليه كلماتُ السيد باير بوضوحٍ غريب، ورأى نفسه صبيًا مرةً أخرى في بلمفيلد، معاقبًا معلّمه ليكون في ذلك درسًا له هو، حين أجبره الجبن على الكذب.

«لن أسبّب له الألم ثانية، فأنا لست بالخائن وإن كنت أحمق. سأذهب وأبلغ الأستاذ بومغارتن بالأمر كله وأسأله النصح. إن الوقوف أمام مدفعٍ ملقم أحب إليّ من هذا، ولكن يجب عليّ ذلك، ثم سأبيع المتاع، وأسدد ديوني ثم أعود إلى حيث أنتمي. أن أكون متسوّلًا شريفًا أفضل من أن أكون غرابًا بين الطواويس»، وابتسم نات في خضمّ كرْبِهِ، إذ نظر حوله إلى أناقة الغرفة، متذكّرًا ما جاء من أجله.

أبرّ نات بقسمه بشجاعة، وارتاح كثيرًا لمعرفة أن تجربته كانت قصة قديمة عند الأستاذ الذي أثنى على خطته، ظانًا أن الانضباط سيجديه نفعًا. وكان شديد اللطف إذ عرض المساعدة ووعد أن يحفظ سر حماقته عن صديقه باير إلى أن يستعيد نات نفسه.

قضى فتانا المبذّر الأسبوع الأول من السنة الجديدة في تنفيذ خطته بسرعة النادم، ووجده يوم ميلاده وحيدًا في الغرفة الصغيرة في أعلى بيت فراو تتزل، دون شيء من بهائه السابق، إلا مقتنيات عدة لا تُباع من الفتيات الكواعب اللاتي أسفن لغيابه بشدة. سخر منه أصدقاؤه وأشفقوا عليه وهجروه، إلا واحدًا أو اثنين عرضوا عليه النقود ووعدوا بالوقوف معه. كان وحيدًا مهموم القلب، وجلس يفكر قرب مدفأته الصغيرة إذ تذكّر رأس السنة الماضية في پلمفيلد، حين كان يرقص مع ديزي في هذه الساعة.

أفزعته دقةٌ على الباب، وانتظر بعد قوله «ادخل» فاترةٍ أن يرى من ارتقَى كل هذه العلو لأجل خاطره. كانت السيدة الطيّبة تحمل صينية، عليها زجاجة نبيذ وكيكة لذيذة مزينة بسكاكر البرقوق من كل لون، وشموع. ولحقت بها الآنسة ڤولغستين تحمل شجرة ورد مزهرة، وقد تموّجت في الأعلى خصلها الرمادية، وأشرق وجهها الودود فرحًا حين قالت:

«عزيزنا السيد بليك، أتينا نحمل لك التهاني وهدية صغيرة أو اثنتينِ على شرف هذا اليوم الذي لا يُنسى. فلك أطيب الأمنيات! وعسى أن تحمل لك السنة الجديدة النجاحَ الكبير كما يتمنّى أصدقاؤك المخلصون».

«بلى بلى، هذا صحيح سيّدي العزيز»، أضافت فراو تتزل. «كُلْ من هذه الكيكة المصنوعة بفرح، واشربْ نبيذًا جيدًا نخب الأحبّاء البعيدين».

فرح نات، رغم تأثره بلطف هاتين المرأتينِ الطيبتين، وشكرهما واستبقاهما للاستمتاع بالوليمة المتواضعة معه. ففعلتا بسرور، إذ كانتا امرأتين عطوفتين مشفقتين على الشاب العزيز، الذي عرفتا كربه، فقدّمتا له العون الكبير إلى جانب الكلام اللطيف وسبل الراحة.

ذكرتْ فراو تتزل بشيءٍ من التردد صديقًا لها، اضطرّه المرض إلى ترك مكانه في الفرقة الموسيقية لمسرحٍ من الدرجة الثانية، ويودُّ بكل سرور أن يعرضه على نات، إن قَبل عملًا متواضعًا كهذا. وسألته ڤولغستين العجوز، وهي تحمرّ خجلًا وتلعبُ بالورد كفتاة صغيرة، إن استطاع أن يعطي دروسًا في الإنجليزية في أوقات فراغه في مدرسة الفتيات التي تعلّمُ الرسم فيها، مضيفةً إلى أنهم سيدفعون له أجرًا صغيرًا لكنه ثابت.

قَبِل نات العرضين ممتنًا، وقد وجد في قبوله المساعدة من سيدتين أمرًا أقل إذلالًا من بني جنسه. وسيساعده هذا العمل في نفقاته القليلة وضمن استمراره في التتلمذ على يد معلمه بعد وعده في المواظبة على التمرن. فرحت الجارتان اللطيفتان لنجاح خطّتهما، فتركتاه بكلماتٍ مبهجة ومصافحة دافئة ووجهين يشعان بالرضا الأنثوي على القبلة الدافئة التي طبعَها نات على كل وجنة شاحبة، مقابلًا لكل لطفهما وعونهما.

يا لغرابة ما بدا العالم أكثر إشراقًا بعد ذلك، إذ كان الأملُ مُسكرًا أكثر من النبيذ، وأزهرت القرارات السديدة يانعة مثل شجيرة الورد التي ملأت الغرفة بشذاها، إذ أيقظ نات أصداءَ الألحان القديمة،

واجدًا دومًا سلواه في الموسيقى، التي أقسم على أن يكون أكثر إخلاصًا لها.

# (١٤)
# مسرحيات في پلمفيلد

لما كان مُحالًا على المؤرخ المتواضع لعائلة مارش أن يكتب قصة دون مشاهد مسرحيةٍ بقدر استحالة أن تكتب آنستنا العزيزة يونج[١] قصةً دون وجود اثني عشر أو أربعة عشر طفلًا في حكاياتها الممتعة، فسنقبل بذلك ونُبهجُ أنفسنا بعد الحوادث الأخيرة المؤسفة، بالمضي إلى مسرحيات عيد الميلاد في پلمفيلد، لأنها تحدد مصير عددٍ من شخصياتنا، ولا يسعنا إغفالها.

أضاف السيد لوري لدى بناء الكلية مسرحًا صغيرًا آسرًا لم يكن لعرض المسرحيات فحسب، بل لإلقاء الخُطب والمحاضرات وإقامة الحفلات الموسيقية. وكانت الستائر مزينة برسمة لأپولو والموسات متحلقات حوله، وتكريمًا لواهب القاعة منح الرسامُ الإلهَ [أپولو] شبهًا حقيقيًا بصديقنا، اعتبره الجميع طرفةً رائعة. قُدِّم على هذه الخشبة الجميلة الصغيرة نجوم مبدعون، وفرقة مسرحية، وجوقة موسيقية، ومصوّر مشاهد وعروض مسرحية مدهشة.

---

(١) شارلوت ميري يونج روائية إنجليزية.

حاولت السيدة جو لبعض الوقت كتابةَ مسرحية، كانت نسخة محسنة من المسرحية الفرنسية الرائجة حينئذ، وهي مزيج غريب من التبرّج الجميل، والعواطف الزائفة والدعابات الركيكة، دون جوهر يشفع لها. كان سهلًا التخطيط لمسرحياتٍ تمتلئ بشريف القول والأحداث المشوّقة، ولكن تصعبُ كتابتها، لذا أراحت نفسها ببضع مشاهدَ من الحياة البسيطة التي امتزج فيها الهزل والجد. ورجت بعد إسناد الأدوار إلى ممثليها أن تثبت المغامرةُ الصغيرة بأن البساطة والصدق لم يفقدا سحرهما تمامًا. ساعدها السيد لوري، وأطلقا على نفسيهما اسمي بومَنت وفلتشر، فرحين بعملهما المشترك كثيرًا، إذ كانت معرفة بومَنت بفنّ الدراما ذات نفعٍ كبير في كبح قلم فلتشر شديد الحماس، وأثنيا على نفسيهما لأنهما كتبا مسرحيةً جميلة مؤثرةً على سبيل التجربة.

كان كل شيء جاهزًا، وأفعم نهارُ رأس السنة بآخر تجارب الأداء، وهلعِ الممثلين الوجلين، والتزاحم لإخراج أشياء منسية وتزيين المسرح. وقد أضفت عليه الجمال البهشية والأشجار دائمة الخضرة المجلوبة من الغابة، والنبتات المزهرة من دفيئة پارناسوس، وأعلام كل الدول تلك الليلة على شرف الضيوف القادمين، وأبرزهم الآنسة كامِرون التي صدقت وعدها. ضبطت الفرقة الموسيقية آلاتها بعنايةٍ شديدة، ورتب مبدّلو المناظر خشبتهم بأناقةٍ وفيرة، واتخذ الملقّن مجلسه بشجاعةٍ في الركنِ الخانق المخصص له، ولبس الممثلون بأيدٍ مرتعشة أسقطت المشابك، وسحنات متعرقة لم تثبت عليها مساحيق التجميل. كان بومَنت وفلتشر في كل مكان، شاعرين أن

سمعتهما الأدبية على المحك، إذ دُعي عددٌ من النقاد الأصدقاء، وكان الصحفيون كالبعوض ولا يمكن إبعادهم عن أيّ مشهد في الدنيا، سواء أكان فراش موت رجلٍ عظيم أم متحفٌ للتوافه.

«أجاءت؟»، كان السؤالُ الذي لهجتْ به كل الألسنة خلف الستار. وعندما غامر توم، الذي يؤدي دور رجلٍ عجوز، بساقيه اللائقتين لسيره بين أضواء المسرح ليسترق النظر، قال إنه رأى رأس الآنسة كامِرون الجميل في مكان الصدارة، فسرت رعشة الإثارة في الجميع، وقالت جوزي لاهثةً من الإثارة إنها ستصاب برهبة المسرح لأول مرة في حياتها.

«سأضربكِ إن فعلتِ»، قالت السيدة جو، التي كانت مشعثة الشَّعر للغاية من أعمالها الكثيرة، حتى ليخايل للمرء أنها ذهبت إلى محمية ماج للحياة البرية دون الحاجة لمزيدٍ من الأسمال أو خصلة شعرٍ مجنونة.

«سيتسنّى لكِ الوقت لتتمالكي نفسكِ أثناء تقديمِنا مشهدنا. فنحن ممثلان قديمان هادئان كالساعات»، أجاب ديمي، بإيماءةٍ إلى ألس، المستعدة في ثوبها الجميل وكل ما تحتاجه في يدها.

لكن كلا الساعتين [ديمي وألس] كانا أسرعَ من المعتاد، كما بدا من احمرار وجهيهما وبريق عيونهما، وارتعاشهما تحت معطف القطيفة والدانتيلا. كانا سيفتتحان العرض بمشهدٍ قصير مرح أدّياه من قبل وأجادا في أدائه. كانت ألس فتاة طويلة لها شعر وعينان داكنتان، ووجه منحه الجمالَ الذكاءُ والصحة والقلب السعيد. كانت تبدو

في أبهى حلة، إذ غطى ريش الماركيزة وزراكشها ومساحيقها قوامَها الجميل، وبدا ديمي، ببزة البلاط والسيف والقبعة المثلثة والشعر المستعار الأبيض، بارونًا شهمًا كما يشتهي المرء أن يرى. كانت جوزي الخادمة، وأجادت تقمّص الدور، إذ كانت جميلة سليطة اللسان فضولية كأي مغناجٍ فرنسية. كان هؤلاء الثلاثة كل الشخصيات، واعتمد نجاح المشهد على المهارة والمرح اللذين قدمت بهما سرعة تغير مزاج العاشقين النزّاعين للشجار، والحوارات الذكية، والإيماءات الملائمة للفترة الملكية التي صوّرها المشهد.

ما كان لأحد إلا القليل أن يتعرّف جون الوقور وألس الرزينة وهما يؤدّيان دور الرجل المحترم المختال والسيدة المغناج، اللذين أثارا ضحك الجمهور على جموحهما، وهم يعجبون بالأزياء الأنيقة، ويثنون على هدوء الممثلين الشابّين وكياستهما. كانت جوزي شخصيةً بارزة في الحبكة، إذ تسترق السمع من ثقب المفتاح، وتتلصص على الرسائل، وتخرج وتدخل في اللحظات غير المناسبة، رافعة أنفها، داسة يديها في جيبي مئزرها، والفضول يستحوذ على قوامها النحيل من أعلى قوس في قبعتها الأنيقة حتى الكعبين الأحمرين لخُفّيها. مضى كل شيء بسلاسة، وأقرّت الماركيزة المزاجية، بعد تعذيب البارون المخلصِ حتى رضي قلبها، بهزيمتها في حرب الدعابة، وأعطته اليد التي فاز بها فوزًا عادلًا، عندما أفزعهما صوت ارتطام، ومال منظر جانبي ثقيل إلى الأمام، جاهزًا للسقوط على ألس. رآه ديمي وقفز أمامها كي يمسكها ويرفعه، واقفًا مثل شمشون العصر الحديث وجدار البيت متكئ على ظهره.

زال الخطرُ في لحظة، وأوشك على قول آخر جزءٍ من دوره، عندما مال إليه محرّك المشاهد المتحمس، الذي ارتقى سلمًا ليصلح الضرر، وهمس له «كل شيء على ما يرام»، وحرر ديمي من حركة العقاب الباسط جناحيه. ولما فعل ذلك، انزلقت مطرقة من جيبه وسقطت على الوجه المرفوع نحوه في الأسفل، مسددةً ضربة قوية ومخرجة دور البارون من رأسه فعلًا.

حرمت عبارة «أسدلوا الستار بسرعة» الجمهور من مشهدٍ جميل قصير لم يكتب على الورق، إذ أسرعت الماركيزة لتوقف النزيف وهي تصرخ خوفًا: «أوه! جون، لقد أصبت! اتّكئ علي»، وهذا ما فرح جون بفعله لحظة، إذ أصابه الدوار قليلًا لكنه ابتهج باللمسة الرقيقة من اليدين المشغولتين به والقلق على الوجه القريب منه، إذ أوحى له ذلك بشيء وجد وابلًا من المطارق وسقوط كل الكلية على رأسه ثمنًا زهيدًا له.

هرعت نان إليه في لحظةٍ حاملة الحقيبة التي لا تفارق جيبها أبدًا، وضمدت الجرح ضمادًا لائقًا لدى وصول السيدة جو، التي تسأل بحزن:

«أيؤلمكَ كثيرًا فلا تستطيع الصعود ثانية؟ إن كان هذا، فقد فشلتْ مسرحيتي!».

«بل إني أكثر ملاءمة له الآن يا خالتي، فهذا جرح حقيقي بدلًا من المرسوم. سأكون جاهزًا، فلا تقلقي علي». وذهب ديمي حاملًا شَعره المستعار، بنظرة بليغة من الشكر للماركيزة، التي لوثت

قفازيها لأجله، لكنها لا تبالي بذلك رغم أنهما يصلان حتى مرفقيها، وكانا غاليين جدًا.

«كيف أنتِ يا فلتشر؟»، سأل السيد لوري وهما واقفان معًا أثناء اللحظة المثيرة قبل قرع الجرس الأخير.

«هادئة بقدر هدوئك يا بومَنت»، أجابت السيدة جو، مشيرةً بتوتر إلى السيدة مِغ لتعدّل قبعتها.

«تمالكي نفسكِ يا شريكتي! سأقف إلى جانبكِ مهما حدث!».

«أشعرُ أن هذا لا بد أن يستمر، ورغم أنه ليس إلا لهو، فإن فيه قدرًا كبيرًا من الحقيقة والعمل الصادق. ألا تبدو مِغ شبيهةً بعجوز ريفية حبيبة؟».

كانت كذلك قطعًا، وهي تجلس في مطبخ بيت المزرعة قرب نار دافئة، تهزّ مهدًا وتحوك جوارب، كأنها لم تفعلْ في حياتها إلا هذا. شَعرٌ رمادي، وتجاعيدُ رُسمتْ بمهارة على الجبين، وصيّرها ثوبٌ بسيط، وقبعةٌ ووشاح صغير ومئزرٌ ذو نقوش مربعة سيدةً هادئة لها سماتُ الأم التي لقيت ترحيبًا لدى رفع الستائر ورؤيتها تهز المهد وتحوك وتترنّم بأغنيةٍ قديمة. في مناجاة قصيرة لنفسها عن سام، ابنها الذي أراد أن يتطوع في الجيش، ودوللي ابنتها الصغيرة الساخطة، التي تتعطش إلى رفاه المدينة ومباهجها، وإلِزي المسكينة التي تزوجت زواجًا تعسًا، وعادت إلى البيت لتموت، تاركة طفلها لأمها، خشية أن يأخذه أبوه السيء، افتتحت القصة القصيرة افتتاحًا بسيطًا، وأثّر في الجمهور الغليان الحقيقي للإبريق على ذراع

المستوقد، وتكّاتُ ساعة ضخمة، ومنظر حذاء أزرقَ صوفي يرفرف رفرفة متقطعة في الهواء إلى الفقاعة الرقيقة لصوت طفل. فاز هذا الحذاءُ الصغير البشع بالتصفيق الأول، وهمس السيد لوري، الذي نسي اللياقة في غمرة سروره، إلى مساعدته:

«قلتُ إن الطفل سيخطف قلوبهم!».

«إن لم يصرخ الصغيرُ الحبيب في الوقت الخطأ، فنحن بأمان. لكن هذا خطر، كن مستعدًا لإمساكه إن ذهب كلّ هز مِغ سدَى»، أجابت السيدة جو، مضيفةً وهي تتشبث بذراع السيد لوري حين ظهر وجهٌ منهك في النافذة:

«هذا ديمي! أرجو ألا يعرف أحد أنه الابن. لن أغفر لك لأنك لم تؤدّ دور الشرير بنفسك».

«لا أستطيع إدارةَ العمل والتمثيل في آنٍ معًا. لقد استعدّ جيدًا، وهو يحبّ القليل من الميلودراما».

«يجب أن يأتي هذا المشهد لاحقًا، لكني أردتُ أن أظهر أن الأم هي البطلة بأسرع ما استطعت. فقد سئمت من الفتيات المريضات من الحبّ والزوجات الهاربات. سنثبت أن في المرأة العجوز رومانسيةً أيضًا؛ ها هو قادم!».

وبتثاقل رجلٍ رثّ الهيئة مشعثٍ غير حليق ينضح الشر من عينيه، يحاول اتخاذ هيئةِ المستبد وهو يخيف المرأةَ العجوز الهادئة بمطالبته بالطفل. أعقب ذلك مشهدٌ قوي، وفاجأت السيدة مِغ الذين يعرفون

عنها وقارَها البسيط الذي قابلت به الرجلَ الذي خشيته في البدء. ثم لمّا ألح في طلبه، توسلت بصوتٍ ويدين مرتعشتين ليُبقي الطفلَ الصغير كما وعدت الأم المحتضرة أن تحميه. وحين استدار ليأخذَه عنوة، ملأ المكانْ الخوف إذ وثبت المرأة العجوز لتختطفه من المهد، وتشبّثت به بقوة، وتحدت الأب باسم الرب أن يحاول انتزاعه من ذلك المكان الأمين. لقد أدّته ببراعة حقيقية، والتصفيق الذي استُقبل به مشهد العجوزِ المستاءة والطفل المتورد المتعلق بعنقها، والرجل المهزوم الذي لم يجرؤ على تحقيق غرضه بوجود مدافعةٍ كهذه عن البراءة العاجزة، أوحت للمؤلفين القلقين بنجاح مشهدهما الأول.

كان المشهد الثاني أهدأ، وأظهر جوزي فتاةً ريفية موفورة الصحة تعد طاولة العشاء بمزاجٍ سيء. ووضعت الصحون، ووزعت الأكواب وقطعت رغيف الخبز الأسمر الكبير بفظاظة، وهي تحكي مآسيها البناتية وآمالها، وكان مشهدًا بديعًا. ظلت السيدةُ جو تراقب الآنسة كامِرون، ورأت إيماءة الرضا منها عددًا من المرات لنبرةٍ أو حركة غير مصطنعة، أو إيماءة أو تغير الملامح السريع على الوجه الشاب، الذي كان متقلبًا مثل نهار أبريل. أثار شجارها مع شوكة التحمير كثيرًا من الضحك، وكذا امتعاضها من السكّر البني، والمقدار الضئيل الذي أكلته لتضفي حلاوةً على عملها المضجر، وحين جلستْ مثل سندريلا قرب الموقد، تراقب باكيةً اللهب يتراقص في الغرفة البسيطة، سُمع صوتٌ بنّاتي يقول بحرقة:

«يا للصغيرة المسكينة! لا بد أن تحظى بشيء من المرح!».

دخلت العجوز، وكان بين الأم والابنة مشهد رائع، تملقت فيه الابنة وتوعدت، وقبّلت وبكت، حتى فازت بالإذن المتردد لتزور قريبة ثرية في المدينة، وتحولت دوللي بمثل السحر من غيمةٍ بارقة صغيرة إلى مرحة وطيبة، حالما تحققت أمنيتُها العنيدة. لم تكد العجوزُ تفرغ من هذا الأمر حتى دخل الابن، يلبس بزة الجيش الزرقاء، ويخبرها أنه تطوّع وعليه الذهاب. كانت هذه ضربةً قاسية، لكن الأمّ الوطنية احتملتها بصبر، ولم تتهاوَ حتى ذهب الشابان الطائشان يبثّان أخبارهما الحسنة، فأصبح المطبخ الريفيّ مثيرًا للشفقة إذ جلست الأمّ العجوز وحدها باكية على أولادها، وأخفت شعرها الرمادي بين يديها وهي تجثو قرب المهد لتبكي وتصلي، وليس عندها إلا الطفل يواسي قلبها المخلص المحب.

سُمع نشيجٌ خلال الجزء الأخير من هذا المشهد، وعندما أُسدل الستار، انشغل الجمهور بتجفيف دموعهم فنسوا للحظة أن يصفقوا. كانت اللحظة الهادئة ثناءً أكبر من الضجيج، إذ مسحت السيدة جو دمعًا حقيقيًا عن وجه أختِها، وقالت بهدوء بقدر ما سمحت به كتلة من الأحمر لا تدري بها على أنفها:

«لقد أنقذت مسرحيتي يا مِغ! أوه، ألست بممثلة حقيقية، وأنا كاتبة حقيقية؟».

«لاتسترسلي الآن يا عزيزتي، بل ساعديني لنُلبس جوزي، إنها ترتعدُ إثارة، ولستُ قادرة على ضبطها، وهذا أفضل مشهد لها كما تعلمين».

وهذا ما كان، إذ كتبته خالتها خصيصًا لها، وكانت جو الصغيرة سعيدةً بالثوب الفاتن، ذي الذيل الطويل الملائم لأكثر أحلامها جموحًا. كانت ردهة القريبة الثرية في حلةٍ بهيجة، والنسيبة الريفية تطوف فيها، وتنظر خلفها إلى الكشاكش التي تجرها بجذل ساذج فلم يجرؤ أحد أن يضحك على الزرياب الجميل في الريش المستعار. تبادلت الأسرار مع نفسها أمام المرآة، وعرف منها أنها أدركت أن ليس كل ما يلمع ذهبًا، ووجدت إغراءات أكبر مما سيجلبه الحب البنّاتي للمباهج، والثراء والتودد، فقد لاحقها عاشق غني، لكنّ قلبها الصادق قاوم الإغراءات التي قدمها، وتمنت في حيرتها البريئة لو كانت الأمّ معها تواسيها وتنصحها.

كان حفل راقص مرح، شاركت فيه دورا ونان وبِس وعدد من الأولاد، الخلفية المناسبة لقوام المرأة العجوز الذليلة بقبعة الأرامل، والوشاح البالي والمظلة الكبيرة والسلة. كانت دهشتها الساذجة وهي تُعاين التحف وتتحسسُ الستائر وتمسّد على قفازيها القديمين في اللحظة التي وقفتها دون أن ترى، مشهدًا رائعًا، لكن إجفال جوزي الحقيقي عند رؤيتها، وصرختها: «يا إلهي، هذه أمي!»، كان مشهدًا طبيعيًا صادقًا، ولم تتردد المشتاقة التي تتعثر في ذيل ثوبها إذ ركضت إلى أحضان أقرب الناس إليها.

أدى العاشق دوره، وأحاطت موجات الفرح بالأسئلة الدقيقة للمرأة العجوز والإجابات الفظّة أثناء اللقاء التي كشفت للفتاة ضحالة حبه، وأنها أوشكت على إفساد حياتِها إفسادًا عظيمًا مثلما فعلت المسكينة إلزي. فأعطته ردّها صريحًا، ولما اختلتا بنفسيهما،

نقلت نظرتها من ذاتها المتزينة إلى الفستان البالي، واليدين اللتين أشقاهما العمل، والوجه الحنون، فبكت بكاء الندم وقبّلتها قائلة: «خذيني إلى البيت يا أماه، واحميني، لقد نلتُ كفايتي من هذا!».

«تعلّمي من هذا يا ماريا، ولا تنسي هذا»، قالت سيدة لابنتها لما أُسدل الستار، فأجابت الفتاة: «حسنٌ، أنا واثقة أني لا أرى داعيًا للبكاء، لكنه مبكٍ»، وهي تنشر منديلها المخرّم ليجف.

أدّى توم ونان أداءً قويًا في المشهد التالي، إذ يدور في جناح مستشفى عسكري، والطبيب والممرضة ينتقلان من سرير إلى آخر، يجسان النبض ويصفان الدواء، ويستمعان إلى الشكاوى بحيوية ووقار أضحكا الجمهور. ووقعت المأساة، التي لا تبعد عن الملهاة في أماكن وأوقاتٍ كهذه، وهما يضمّدان ذراعًا، إذ تحدث الطبيبُ إلى الممرضة عن امرأةٍ عجوز تبحث في أرجاء المستشفى عن ابنها، بعد أيام وليالٍ في ساحة القتال، وفي سيارات الإسعاف، وفي أماكن قد تتسبب بموت معظم النساء.

«ستأتي إلى هنا حالًا، وإني لأخشى قدومها لأني أخاف أن يكون الفتى الذي مات لتوّه هو ابنها. أؤثر الوقوف أمام المدفع على الوقوف أمام هؤلاء النسوة الشجاعات، بآمالهنّ وجسارتهن وحزنهن العظيم»، قال الطبيب.

«آه، هؤلاء الأمهاتُ المسكينات يفطرْن قلبي!»، أضافت الممرضة ماسحةً عينيها بمئزرها الكبير، فدخلت عندئذ السيدة مِغ.

كانت تلبس الثوب نفسه، والسلة والمظلة، واللهجة الريفية والخلق البسيط، لكنها غدت مثيرةً للحزن بفعل التجربة المريرة التي غيّرت المرأة العجوز الهادئة إلى هذا القوام المهزول والعينين القلقتين والقدمين المغبرتين واليدين المرتعشتين، ومنح مزيج من الألم والعزم واليأس القوام الأنيس وقارًا وقوة مسّت كل القلوب. وقصت في بضع كلمات محطمة حكاية بحثها سدى، ثم بدأ السؤال الحزين ثانية. وحبس الناس أنفاسهم حين انتقلت من سريرٍ إلى آخر، تقودها الممرضة، وعلى وجهها تظهر أمارات الأمل والخوف والخيبة المريرة كلما مرت بأحدها. على سريرٍ ضيق سُجّي شخص طويل مغطى بملاءة، فوقفت لتضع يدًا على قلبها وأخرى على عينيها، كأنما تستجمع شجاعتها لتنظر إلى الميّت الذي لا اسم له، ثم سحبت الملاءة، وأطلقت زفرة ارتياح مرتعشةً طويلة، ثم قالت برفق:

«ليس ابني، حمدًا للرب! لكنه ابن أم أخرى»، وانحنت وقبّلت الجبين البارد برقة.

نشج واحدٌ من الجمهور، وأبعدت الآنسة كامِرون دمعتين عن عينيها، متعطشةً لئلا تفوتها نظرة أو إيماءة، إذ جهدت المرأة المسكينة، وقد هدها التعب من القلق الكبير، لتقطع الصف الطويل، لكن بحثها انتهى نهاية سعيدة، إذ اعتدل شابٌّ ذو عينين قلقتين في سريره، كأن صوتها أيقظه من نومه المحموم، ثم مدّ ذراعيه إليها، وصاح بصوتٍ تردد في أنحاء المكان:

«أماه، أماه! علمت أنك آتية!».

فذهبت إليه، بصيحة حبّ وفرحٍ أثارت كل من سمعها، وضمّته بين ذراعيها بدمعٍ وصلوات ومباركةٍ لا تمنح مثلها إلا أم محبة مخلصة.

كان المشهدُ الأخير نقيضًا فرحًا لهذا، إذ أضاء المطبخَ الريفي فرحُ عيد الميلاد، وجلس البطلُ الجريح، واللصوق الأسود والعكّازان ظاهرة للعيان، قرب النارعلى الكرسي القديم الذي كان صريره مهدئًا في أذنه، وكانت الجميلة دوللي تتحرك حوله، ترتب طاولة الزينة جذلةً، وتضع تحفة على رفّ الموقد، وتزيّن مهدًا قديمًا بالهدال والبهشية. أما الأم فجلست قرب ابنها، وفي حجرها ذاك الطفلُ الجميل. استعاد الممثلُ الطفل حيويته بعد القيلولة والطعام، وأسبغ المجد على نفسه برقصاته النشوَى، وتعليقاته المفككة إلى الجمهور، ومحاولاته الفاشلة في الوصول إلى أضواء المسرح، وهو يغمز مستحسنًا لتلك الدمى الجميلة. كان جيدًا رؤيةُ السيدة مِغ تربّت على ظهره، وتبعد الساقين البدينتين عن الأنظار، وتشبع رغباته العابثة بقطعةٍ من السكر، حتى عانقها الطفل بحبّ وامتنان منح عاصفة من التصفيق لذاته الصغيرة.

أثار الأسرةَ السعيدة صوتُ غناءٍ في الخارج، وبعد ترنيمة في الليلة المثلجة المقمرة، جاء جمعٌ من الجيران حاملين هدايا عيد الميلاد وتهانيه. وبثت الإيماءاتُ الكثيرةُ الحياةَ في هذا المشهد، إذ دارت حبيبة سام حوله بلطف لم تظهره الماركيزة للبارون، وتناولت دوللي القليل من الطعام تحت الهدال مع عاشقها الأحمق، وقد بدا

شديدَ الشبه بهام بِغوتي[1] في حذائه المصنوعِ من جلد البقر، ومعطفِه الخشن، ولحيتِه الداكنة والشعر المستعار. وما كان لأحد أن يعرفَ تِد إلا من ساقيه الطويلتين، اللتين لن يخفيهما أيُّ قدر من الجلد. انتهى المشهد بوليمةٍ حميمة جلبها الضيوف، وإذ هم جلوسٌ حول المائدة المغطاة بالدونت والجبن، وبفطيرة القرع وغيرها من الأطايب نهض سام مستندًا على عكّازيه ليقترح النخب الأول، ورفع كأس شراب التفّاح وقال محييًا وبغصةٍ في صوته: «لأمي، باركها الرب!»، وشربه الجميع واقفين، ودوللي تطوق بذراعها عنق المرأة العجوز، وهي تخفي دموع الفرح في صدر ابنتها، والطفل الذي لا يكبح جماحَه يخبط بجذلٍ على الطاولة بملعقته، ويطلق صيحات ابتهاج مسموعة حين أسدل الستار.

رفع الستار ثانيةً في لحظةٍ لإلقاء نظرة أخيرة على المجموعة المتحلقة حول الشخصية الرئيسة التي أمطرت بوابلٍ من باقات الزهور، وفرح الطفل روسيوس فرحًا عظيمًا إلى أن أصاب أنفه برعم ممتلئ، فانبرى يزعق زعيقًا خُشي كثيرًا، لكنه لحسن الحظ زاد بهجة اللحظة.

«حسنٌ، سيكون هذا كافيًا في البدء»، قال بومَنت، متنفسًا الصعداء عندما نزل الستار للمرة الأخيرة، وانتشر الممثلون ليغيّروا ثيابهم من أجل المشهد الختامي.

---

(١) شخصية في رواية ديفد كوپرفيلد.

«إنها تجربة ناجحة. بوسعنا الإقدام على بدء مسرحياتنا الأمريكية الرائعة»، أجابت السيدة جو المفعمة بالرضا والأفكار الكبيرة للمسرحية الشهيرة، التي لا بد من القول إنها لم تكتبْها ذلك العام، بسبب الكثير من الأحداث الدرامية في عائلتها.

خُتمت المشاهد بتماثيل أولزدارك، ولما كان شيئًا جديدًا، فقد تبين أنه أمتع الجمهور المدلل كثيرًا. ظهر الأرباب والربات في پارناسوس في خلوةٍ تامة، والفضل يعود إلى براعة السيدة إيمي في كسوتها ووقوفها، فقد كان الشعر المستعار الأبيض والثياب القطنية ملائمة وأنيقة أناقة رفيعة، رغم أن عددًا من الإضافات الحديثة قد أضعفت الأثر قليلًا، لكنها أضفت معنىً على تعليقات مخرج العمل الذكية. كان السيد لوري هو الأستاذ أولزدارك لابسًا قبعة وثوب نوم، وبعد مقدمةٍ طنانة تقدم ليعرض تماثيله ويشرحها. كان التمثال الأول منيرڤا الجليلة، لكن نظرةً ثانية إليها أثارت الضحك، إذ زينت درعها عبارةُ «حقوق النساء»، ولفيفةٌ تحمل الشعار «التصويت مبكرًا والتصويت كثيرًا»[1] تتدلَّى من منقار بومةٍ جاثمة على رمحها، وزين خوذتها هاونٌ ومدقة صغيران. جذب الانتباه الفمُ الصارم، والعين الثاقبة، والسحنة المثيرة للرهبة، والمرأة العنيدة من العصور القديمة، وبعض التعليقات المريرة حول انحلال أخواتِها في العصر الحديث اللاتي أخفقن في أداء واجبهن. كان التالي ميركوري، وكان جميلًا بوقفته المرحة، رغم أن

(١) هي عبارة تهكمية بصفة عامة تُستخدم فيما يتعلق بالانتخابات وعملية التصويت، وتستخدم إشارة إلى النشاط الانتخابي الفاسد.

الساقين المجنحتين ارتعشتا كأنما يصعب على الربّ النشط البقاء في مكانه. ووُصف طبعه القلق بإسهاب، وألمح إلى أهوائه الماكرة، وإلى الشخصية بالغة السوء التي مُنحت للفتى المبعوث الخالد، وهذا ما أسعد رفاقه وجعل الأنف الرخاميّ للضحية يتغضّن تغضنًا ملحوظًا باستخفاف عندما قوبلت حركة صعبة حقًا بتصفيق ساخر. كانت التالية هيبي الصغيرة الفاتنة، وهي تصبّ الشراب من إبريق فضي في فنجان شاي أزرق من الخزف. كانت هي أيضًا تحمل عظة؛ إذ شرح الأستاذ أن رحيق القدماء كان شرابًا يُفرح لكنه لا يُسكر، وتحسّر على الإقبال المفرط للنساء الأمريكيات للخمرة الرفيعة التي تبيّنَ أنها مؤذية جدًا، بسبب التطوّر العقلي العظيم الذي أنتجته ثقافتهن. وجعلت إشارة إلى خدم العصر الحديث، على خلاف هذه الساقية البارعة، خدَّي التمثال تتقدان تحت الطباشير، ومنحها تصفيقًا حارًا حين تعرّف الجمهور على دوللي الفتاة المغناج الذكية.

ثم كان التالي جوف بكلّ جلاله، إذ شغل هو وزوجته ركيزة التمثال الواقعة في قلب نصف دائرة الخالدين. وكان جوپتر بديعًا، بشعره المصفف جيدًا فوق السحنة الجميلة، واللحية الإلهية والبرق الفضيّ في يد، والطويق في الأخرى. ووقف عند قدمه عقاب كبير محنّطٌ جلب من المتحف، وأظهر التعبير الهادئ لهيئته الوقورة أنه في مزاجٍ حسن، كما ينبغي له، إذ أُغدق عليه الثناء على حكمه الرشيد، وهدوء مملكته، والذرية من الربات الكيّسات اللاتي خرجن من رأسه الجبار كل عام. حيّته الهتافات والكلمات الأخرى المبهجة،

وجعلت العاصف ينحني شاكرًا، «فجوف يومئ»[1] كما يعرف الجميع، والثناء يفوز بقلوب الآلهة والبشر.

ولم تنجُ بسهولة السيدة جونو، مع طواويسها، وسنارات الحياكة والقلم وملعقة الطبخ، لأن الأستاذ انقضّ عليها بكل ما أوتي من استفزاز مكيلًا لها الاتهامات والنقد والإهانات. وأشار إلى إخفاقها في البيت، وطبعها الفضولي، ولسانها السليط ونزقها وغيرتها خاتمًا قوله بإشادةٍ ببراعتها في العناية بالجروح وتسوية الشجارات بين الأبطال العدوانيين، إلى جانب حبّها للشباب في أولمپوس والعالم. فأثار هذا عاصفةً من الضحك، تخللتها همساتُ الأولاد المتعضين الذين لا يقبلون أيّ إساءة، وإن كانت مزاحًا، للأم باير، التي استمتعتْ به للغاية، كما أظهر بريقُ عينيها وكشف زمّ لا يكبح من شفتيها.

اتخذ باخوس الجذِل المنفرج الساقين على برميله موضع ڤولكان، وبدا مرتاحًا للغاية حاملًا كأس بيرة في يد، وزجاجة شامپانيا في الأخرى، وعلى رأسه الأجعد إكليل من الكرمة. كان موضوع خطبةٍ قصيرة، موجهةٍ مباشرةً إلى صف من الشباب الأنيقين الذي حفّوا جدران المسرح. فشوهد جورج كول يتسلل خلف عمود، ولكز دولي جاره في لحظة، وضج الصفّ بالضحك حين حملق بهم الأستاذ عبر نظارته الكبيرة، وسلط الضوء على لهوهم الباخوسي وأثار السخرية منه.

---

(١) تعني أن أشد الأشخاص استقامة ونزاهة قد يقع فريسة الخطأ والزلل.

وبعد أن رأى الرجل المثقف أثر ما فعله، استدار إلى ديانا الجميلة، التي وقفت بيضاء ساكنة مثل المهْر الجصّي الواقف قربها، تلبس خفًا وتحمل قوسًا وهلالًا كانت رائعة الجمال، بل أفضل تمثال بين تماثيل العرض. لقد عاملها الناقد الأبويّ برفق شديد، وقد ألمح مبتهجًا إلى عنوستها المؤكدة، وعشقها للرياضات وقواها في العِرافة، وقدّم شرحًا قصيرًا رفيعًا عن الفن الحقيقي وتقدّم نحو التمثال الأخير.

كان هذا أپولو مسربلًا في كساء طويل، وصُففتْ خصلُ شعره ببراعة لتُخفي اللصوق الأبيض فوق العين، وساقاه الرشيقتان متوازنتان جيدًا، وأصابعه الماهرة تُخرج الموسيقى البديعة من الشبكة المفضضة التي كانت قيثارته. ووُصفت محاسنه الإلهية، إلى جانب حماقاته وعيوبه، من بينها ضعفه أمام التصوير وعزف الفْلوت، ومحاولاته في إدارة صحيفة، وعشقه لمجتمع الموسات، التي أثارت آخرُ إهانة له الضحك واحمرار الوجنات بين الطالبات الخريجات، والسخرية بين الشبان المنكوبين، لأن التعسين يواسي بعضهم بعضًا، وأخذوا يحتشدون بعد هذا.

ثم، في خاتمةٍ سخيفة، انحنى الأستاذ شاكرًا، وبعد عدد من الاستدعاءات أُسدل الستار، ولكن ليس بسرعةٍ كافية لحجب ميركوري يلوح بحماسٍ بساقيه الحرتين، وهيبي تترك الإبريق، وباخوس يتدحرج دحرجة جميلة في برميله، والسيدة جونو تخبط أولزدارك الوقح على رأسِهِ بمسطرة جوف.

اصطفّ الجمهور لتناول الطعام في البهو، فغدت خشبة المسرح

مشهدًا من الفوضى الشديدة، إذ تبادل التهاني الأربابُ والربات، والفلاحون والبارونات، والخادماتُ والنجارون لنجاح عملهم. ولبس الممثلون والممثلات ملابسَ مختلفة، وانضموا سريعًا إلى ضيوفهم، ليعبّوا جرعاتٍ وافرةً من المديح مع قهوتهم، ويبرّدوا وجناتِهم المحمرةَ بتناول المثلجات. كانت السيدة مِغ امرأةً فخورة وسعيدة عندما جاءتها الآنسة كامِرون وهي تجلس قرب جوزي، وديمي يخدم الاثنتين، وقالت بحرارةٍ يستحيل الشكّ في صدق كلماتها:

«سيدة بروك، لن أتساءلَ بعد اليوم من أين أتى ولداك بالموهبة. أقدّم ثَنائي للبارون وعليك أن تسمحي لي أن آخذ الصغيرة «دوللي» الصيف القادم لتكون تلميذتي حين نكونُ على الشاطئ».

يسهل على المرء أن يتخيل كيف استقبل هذا العرض، إلى جانب الإطراء الودود الذي أسبغته الناقدةُ اللطيفة ذاتها على عمل بومَنت وفلتشر، اللذين سارعا إلى القول إن هذه المسرحية القصيرة كانت محاولةً لجعل الطبيعة والفن يسيران جنبًا إلى جنب، بقليل مساعدة من الكتابة الرصينة أو المشاهد الفخمة. كان الجميع في أسعد حال، وبخاصة «دوللي الصغيرة» التي رقصت مثل السراب مع ميركوري الرشيق وأپولو وهو يتنزّه متأبطًا ذراع الماركيزة، كأنها تركت دلالها في الغرفة الخضراء مع حمرة الشفاه.

عندما انتهى كل شيء، قالت السيدة جونو لجوف الذي تشبثت بذراعه وهما يسيران عائدين إلى البيت في الدروب المثلجة: «عزيزي

فرتز، إن عيد الميلاد وقتٌ مناسب لقرارات جديدة، وقد اتخذت قرارًا جديدًا ألا أكون هلوعةً أو شكسة مع زوجي الحبيب ثانية. أعلم أني كذلك، رغم أنكَ لن تعترف بهذا. لكن مزاح لوري فيه شيء من الحقيقة وشعرتُ أنه نكأ جرحًا. لذا سأكون زوجةً مثالية، وإلا لن أكون حقيقة بأحب الرجال وأفضلهم على وجه البسيطة»، ولما كانت السيدة جونو في مزاجٍ مسرحي، عانقت زوجها جوف تحت ضوء القمر، أمام بهجة العديد من المتلكئين خلفهما.

لذا يمكننا القول إن المسرحيات الثلاث كانت ناجحة، وإن ليلة الميلاد المجيد تلك كانت خالدة في ذاكرة عائلة مارش، لأن ديمي حصل على إجابة سؤالٍ لم يسأله، وتحققت أغلى أمنيات جوزي، وجعلت السيدة جو حياة الأستاذ باير المشغولة حوض وردٍ بحفاظها على وعدها، والفضل في ذلك للأستاذ أولزدارك. وبعد أيامٍ قليلة نالت مكافأتها على هذه الخصلة في رسالة دان، فقد هدأت مخاوفها وأسعدتها كثيرًا، رغم أنها لم تستطع إخباره بذلك، لأنه لم يرسل لها أي عنوان.

# (١٥)
# انتظار

«عندي أخبار سيئة لكِ يا زوجتي»، قال الأستاذ باير، قادمًا مبكرًا ذات صباح من يناير.

«قلها في الحال من فضلك، فلا أطيق الانتظارَ يا فرتز»، قالت السيدة جو، تاركةً عملها ووقفت كأنها لتتلقّى الخبر بشجاعة.

«لكن لا بد لنا أن ننتظرَ ونأمل، يا حبيبة القلب، فتعالي ولنصطبرْ سويًا. لقد تحطمتْ سفينة إميل، وما من خبرٍ عنه حتى اللحظة».

أحسن السيد باير إذ أخذ زوجتَه بين ذراعيه القويتين، لأنها كادت تسقط، فتمالكتْ نفسها في الحال، وجلست قرب زوجها الطيب، وسمعت كل الحكاية. وصلت الأخبارُ إلى مالكي السفينة في هامبورغ مع بعض الناجين، وأبرق بها فرانز إلى خاله حال سماعه بها، وما دام أحدُ القوارب قد نجا، فثمة أملٌ بنجاة البقية، رغم أن العاصفة ألقت باثنينِ إلى أعماق البحر. جلبت باخرةٌ سريعة هذه الأخبار المروّعة، وقد تصل أخبارٌ أسعدُ في أية لحظة، لكن فرانز اللطيف لم يضف ما قاله البحارة حول تحطّم قارب القبطان بلا

ريب جراء سقوط الصارية، إذ حجبَ الدخانُ نجاتهم، وسرعان ما فرقت العاصفة الجميع. ووصل الخبرُ الحزين إلى پلمفيلد بمرور الوقت، وارتفع العويلُ الشديد لأن قائد العمارة السعيد لن يعود إلى البيت مغنيًا.

رفضت السيدة جو أن تصدق ذلك، وأصرت بعناد على أن إميل سيتغلبُ على أية عاصفة ويظل آمنًا جذلًا. وأحسنتْ إذ تشبثتْ بهذا الرأي المفعم بالأمل، فقد أصاب السيدَ باير المسكين الغمُّ الشديد لفقدان فتاه، لأن ابنيْ أخته كانا ابنين له لوقتٍ طويل حتى لم يعد يعرف لهما حبًا يختلف عن حب ابنيه. كانت هذه الفرصة المناسبة لتفي السيدة جونو بوعدها، وقد فعلت إذ تحدثتْ عن إميل بابتهاج، وإن بدا الأمل واهيًا وقلبها حزينًا. لو كان لشيءٍ أن يواسي آل باير في فقدان أحد أولادهما، لكان المحبةُ والحزن الذي أظهره الجميع. وأبقى فرانز خطَّ البرق مشغولًا برسائله الكثيرة، وأرسل نات رسائل محبة من لپزغ، وأزعجَ توم وكلاء الشحن وهو يتسقّط الأخبار. وحتى جاك المشغول كتب إليهما بحنانٍ غير معهود، وتردد عليهما جورج ودولي، حامليْن أروع الزهور وأشهى السكاكر لإسعاد السيدة باير وتخفيف حزن جوزي. أما نِد طيب القلب فقد جاء من شيكاغو ليصافحهما ويقول والدمع في عينيه: «كنت أتحرّق شوقًا لسماع خبرٍ عن الفتى العزيز، وما استطعت الانتظار».

«هذا يواسيني بلا شك، ويظهرُ لي أنني منحت أولادي الحبّ الأخوي الذي سيجعلهم يساندون بعضهم بعضًا طوال حياتهم، وإن لم أعلّمهم شيئًا آخر»، قالت السيدة جو عندما ذهب.

رد روب على كومات رسائل التعاطف، التي كشفت لهم أصدقاءهم الكثر، ولو كان الثناءُ الوفير على الرجل المفقود حقيقيًا، لجعل من إميل بطلًا وقدّيسًا. اصطبر الكبار صبرًا جميلًا، إذ تعلموا التسليم في مدرسة الحياة القاسية، لكن الشباب تمرّدوا؛ وتصارعت آمال بعضهم، وقنط آخرون في الحال، وكانت جوزي الصغيرة، القريبة والرفيقة الأثيرة لدى إميل، مفطورةَ القلب فلا شيء يعزيها. داوتها نان بلا جدوى، وذهبت كلماتُ ديزي المفعمة بالأمل أدراج الرياح، وفشلت حيل بِس للترفيه عنها. فكان كل ما تريده أن تبكي في أحضان الأمّ وتتحدثَ عن المفقود، الذي طاردها حتى في منامها، ولما أخذ القلق يساورُ السيدة مِغ أرسلت الآنسة كامِرون إلى جوزي رسالة لطيفة تطلب منها أن تتعلمَ بشجاعة درسَها الأول في المأساة الحقيقية، وأن تكونَ مثل البطلات المضحّيات بالذات اللاتي تحب تمثيلهن. خفف هذا عن الفتاة قليلًا، وبذلت جهدًا ساعدها فيه تِدي وأوكتو كثيرًا، إذ تأثر الفتى عميق التأثر لهذا الانهيار المفاجئ لليراعة التي افتقد الكلّ حيويتها وضياءها، وأغراها بالخروج كل يوم في نزهاتٍ طويلةٍ خلف الفرس السوداء، التي هزت أجراسها الفضية صانعةً موسيقى مرحة لم تستطع جوزي تفادي الاستماع إليها، ودارت بها على الطرق المثلجة بسرعةٍ جعلت الدم يرقص في عروقها، وأعادتها إلى البيت قوية هادئة بفضل ضوء الشمس والهواء النقي والصحبة المُحبة، وهذه ثلاثة أعوان لا يمكن للمتوجّعين الشباب مقاومتها.

ولما كان إميل يساعد في تمريض القبطان هاردي، آمنًا ومعافى

على سطح السفينة، بدا كل هذا الحزن بلا داع. لكنه ليس كذلك فلقد قرّب قلوبًا كثيرة عبر الحزن المشترك، وعلم شيئًا من الصبر، والعطف وبعض الندم على أخطاء أثقلتَ على الضمير حين فقد من ارتُكبت في حقه، وكلها دروس جليلة تستحضر عندما يدعو الداعي. خيّم السكون على پلمفيلد لأسابيع، وعكست الوجوه الواجمة على التل حزنَ من في الوادي. وعلا من پارناسوس صوتُ موسيقى مهيبة تواسي كل من يسمعها، وحوصرَ الكوخ البنّي بهدايا للحزينة الصغيرة، ونُكّس علمُ إميل على السطح حيث جلس آخر مرةٍ مع السيدة جو.

انقضت الأسابيعُ ثقيلةً إلى أن جاء الخبر، فجأة مثل صاعقة في سماءٍ صافية «الجميع بأمان، والرسائل في طريقها». ثم رفرف العلم، وقرعت أجراس الكلية، وانطلقت القذائف من مدفع تِدي الذي لم يستخدم لوقتٍ طويل، ورددت جوقة من الأصوات السعيدة «حمدًا للرب»، وطاف الناس ضاحكين باكين يعانقون بعضهم بعضًا في فرح صاخب. وصلت أخيرًا الرسائلُ التي طال انتظارها، وقصت بإيجاز حكاية الحطام كاملة، من طرف إميل، وبإسهابٍ من طرف السيدة هاردي، وبامتنان من طرف القبطان، أما ميري فقد أضافت بضع كلماتٍ رقيقةٍ مست قلوبهم وكانت الأحلى. لم تُقرأ رسالة وتتناقلها الأيدي، وتثر الإعجاب والبكاء كما فعلت تلك الرسائل، إذ حملتها السيدة جو في جيبها إن لم يحملْها السيد باير في جيبه، وكلاهما ألقى نظرةً عليها وهما يتلوان صلواتهما ليلًا. وعاد الأستاذ يترنمُ مثل نحلةٍ كبيرة وهو ذاهب إلى صفوفه، واختفت

الخطوط عن جبين الام باير، وهي تكتب هذه القصة الحقيقية للأصدقاء القلقين وتؤجل قصصها الرومانسية. انهمرت رسائل التهاني، وظهرت الوجوه المشرقة في كل مكان. وأدهش روب والديه إذ كتب قصيدةً جيدة للغاية لفتى في عمره، ولحّنها ديمي حتى تغنّى لدى عودة البحّار. ووقف تد على رأسه حرفيًا، ودار في الجوار ممتطيًا أوكتو، مثل پول ريڤير[1] آخر، عدا أن أخباره كانت سارّة. ولكن أفضل الأمور أن جوزي الصغيرةَ رفعت رأسَها مثلما فعلت أزهارُ الثلج، وأخذت تستعيدُ عافيتها، فتنمو طويلة هادئة، وظلّ حزن الماضي يلوّن حيويتها السابقة ويظهرُ أنها تعلمت درسًا في أن تحاول تمثيل دورها جيدًا على الخشبة الحقيقية، حيث يتعين على الجميع أن يؤدوا نصيبهم في المسرحية العظيمة للحياة.

بدأ الآن شكلٌ آخر من الانتظار، فقد كان المسافرون في طريقهم إلى هامبورغ، وسيمكثون هناك لبعض الوقت قبل العودة إلى الديار، حيث كان العمّ هيرمن مالك برندا، ولا بد للقبطان أن يبلغه بما حدث. ويجب أن يبقى إميل ليحضر زفاف فرانز، الذي تأجّل في فترة الحزن التي انتهت نهاية سعيدة. لقيت هذه الخطط ترحيبًا مضاعفًا وسعيدًا بعد الأوقات العصيبة التي سبقتها، ولم يبدُ أي ربيع على هذا القدر من الجمال، إذ كما وصفه تدي:

---

(١) صائغ فضة ونقاش أميركي وأحد رواد الصناعة في البلاد، وكان أحد الوطنيين في الثورة الأميركية. اشتهر برحلته الليلية لينبه ميليشيا المستوطنين من قدوم القوات البريطانية قبل معركتي ليكسينغتن وكونكورد، التي اقتبسها هنري وادزورث لونغفيلو في قصيدته الشهيرة التي تحمل اسم البطل.

«وها قد صارَ شتاء كربنا
مجيدًا على يد أبناء باير!».

إذ عد «الابنان الحقيقيانِ» لباير فرانز وإميل الأخوين الأكبرين.

انهمكت مدبّرات المنزل في الفرك ونفض الغبار وهن يرتبن منازلهن ليس من أجل الصفوف فحسب، بل لاستقبال العروس والعريس اللذين سيأتيان لقضاء شهر العسل. وأُعدت خطط رائعة، وحضرت الهدايا، وساد الفرحُ لترقب رؤية فرانز مرة أخرى، رغم أن إميل، الذي سيرافقه، سيكون البطل الأعظم. لم يعلم الشابان بما تخبئه لهما الأيام من مفاجآت، إذ أفصحا عن خطتهما ببراءةٍ وتمنّيا أن يكون كل الأولاد حاضرين للترحيب بأكبرهم وبكازابيانكا خاصتهم[1].

وأثناء انتظارهم وعملهم فرحين، دعونا نر كيف يُبلي ولدانا الغائبان الآخران وهما ينتظران ويعملان ويتمنيان أيامًا أحلى أيضًا. كان نات يشق بثباتٍ الدرب الذي اختاره اختيارًا حصيفًا، رغم أنه لم يكن مفروشًا بالورد، بل بالشوك، والسير فيه شاق بعد مذاق الراحة والمسرة الذي استطعمه وهو يقضم الفاكهة المحرمة. لكن حصاده من الشوفان البريّ كان خفيفًا، وقد جنى ثمار ما بذر بعزمه، عاثرًا على شيء من القمح الجيّد بين الزؤان. كان يقضي نهاره في التدريس،

---

(١) قصيدة كتبتها الشاعرة فيلسيا دروثيا همنز تقول فيها: وقف الفتَى على ظهر السفينة المحترقة/ لما هرب الجميع عداه/ واللهب الذي اشتعل في أنقاض المعركة/ توهّج حوله فوق الأموات.

وليله في العزف في المسرح الصغير القذر، ودرس باجتهادٍ كبير أسعد منه معلمه، وأخذ في اعتباره أن يكون واحدًا ممن سينالون التزكيات إن سنحت فرصة. نسيه الأصدقاء العابثون، لكن القدامى وقفوا بجانبه، وواسوه كلما استولى عليه الحنين والقلق. واصطلحت الأحوال بحلول الربيع، إذ غدت المصاريفُ أقل والعمل أمتع، والحياة أكثر احتمالًا مما كانت عليه لدى هبوب عواصف الشتاء على ظهره المكتسي بثياب رقيقة، ولسع الصقيع لأصابع قدميه اللتين سارتا صابرتين في حذاء قديم. ما عادت الديون تثقل كاهله، وكادت سنة الغياب تنقضي، وإن اختار البقاء فإن السيد برغمن عنده خططٌ تمكّنه من الاستقلال لبعض الوقت. لذا سار تحت أشجار الزيزفون بقلب خليّ، وسار في أنحاء المدينة في أماسي مايو مع فرقة من الطلاب الجائلين، يعزفون الموسيقى أمام البيوت التي اعتاد دخولها ضيفًا. لم يعرفه أحد في الظلام، رغم استماع الأصدقاء القدامى لعزف الفرقة كثيرًا، ورمت له مينا المال، الذي أخذه بوصفه جزءًا من توبته، إذ أسقمه موضوع أخطائه.

نال مكافأته أسرعَ مما ظن، وكانت أكبر مما يستحق، في رأيه، رغم أن قلبه قفز فرحًا عندما أبلغه أستاذه ذات يوم أن الاختيار وقع عليه، مع عددٍ من أكثر التلاميذ براعة، للانضمام إلى الفرقة الموسيقية التي ستشارك في الاحتفال الكبير في لندن شهر يوليو القادم. لم يكن في هذا شرف لعازف الكمان فحسب، بل سعادة للرجل، إذ قرّبته من الديار، وستمنحه فرصة لمزيد من الرواج والفائدة في مهنته المختارة.

«كن نافعًا لأستاذك في لندن بلغتك الإنجليزية، وإن سار كل شيء على ما يرام معه، سيسرّه أخذك إلى أمريكا، حيث سيذهب أوائل الخريف من أجل حفلات الشتاء الموسيقية. لقد أبليت حسنًا في الأشهر الأخيرة، وأنا أعلق آمالًا عليك».

لما كان برغمن العظيمُ نادرًا ما يثني على أحد تلامذته، فقد ملأت هذه الكلمات قلب نات فخرًا وفرحًا، وعمل باجتهادٍ أكبر من ذي قبل ليحقق نبوءة أستاذه. لقد رأى في رحلة إنجلترا سعادةً كافية، لكنه يرحب بالمزيد. عندما زاره إميل وفرانز مطلع يونيو زيارةً خاطفة، جالبين الأخبار الحلوة، والأماني الطيبة والهدايا اللطيفة للصديق الوحيد، الذي ارتمى في أحضانهما باكيًا مثل فتاةٍ صغيرة لرؤية رفيقَيه القديمين. يا لسعادته برؤيتهما له منهمكًا في عمله اللائق، لا منغمسًا في العيش مثل رجلٍ متعطل على مال مقترض! يا لفخره وهو يعددُ خططه، ويطمئنهما أنه بلا ديون، ويتلقى مديحهما على تطوره في الموسيقى، واحترامهما لاقتصاده وثباته في رغد العيش! يا لراحته حين اعترف بأخطائه بصدق، فاكتفيا بالضحك وقالا إنهما مرا بتجارب مماثلة، ولقنتهما درسًا. أزمع الذهاب لحضور الزفاف في آخر يونيو، ثم الانضمام إلى رفاقه في لندن. وإذ كان «إشبينًا»، لم يستطع رفض البزّة التي أصر فرانز على طلبها من أجله، وجعله صك وصله من الديار في ذلك الوقت يشعرُ أنه مليونير سعيد، إذ رافق هذا رسائلُ لطيفة مفعمة بالسرور لنجاحه، وأحس أنه يستحقها وانتظر إجازته السعيدة بنفاد صبر صبيّ.

كان دان أثناء ذلك يعد الأسابيع حتى أغسطس، إذ سيطلق

سراحه. ولكن لن تنتظره أجراسُ الزفاف ولا الموسيقى الاحتفالية، ولن يرحّب به أصدقاء لدى مغادرته السجن، ولن يكون أمامه أمل سعيد، ولن تكون عودته إلى الديار سعيدة. لكن نجاحه كان أكبر من نجاح نات، رغم أن أحدًا لم يره إلا الربّ ورجل طيب. كانت معركةٌ فاز بها بمشقة، لكنه لن يضطرّ لخوض واحدةٍ فظيعة مماثلة مرة أخرى، ورغم أن الأعداء سينهالون عليه من الداخل والخارج، فقد منحه الكتاب الصغير المرشد الذي يحمله المسيحيُّ في صدره، والحب والصبر والصلاة، الأخوة الجميلين، درعًا تبقيه بمأمن. لم يتعلم لبسها بعد، واغتاظ منها، مع إدراكه قيمتها والفضل يعود إلى الصديق المخلص الذي سانده طوال السنة العصيبة.

استعاد حرّيته، منهكًا يحمل ندبةً خلفها شجار، ولكنه في الخارج بين الناس وفي الشمس والهواء المباركَين. وحينما فكّر دان بالأمر أحس أنه لا يطيق صبرًا، بل عليه أن يحطّم تلك الزنزانة الضيقة ويولي مدبرًا، مثلما تلقي يرقات ديدان القمص التي اعتاد مراقبتها قرب الغدير أكفانَها القاسية، فتتسلق الأشنات وتدوّم في الفضاء. ليلة بعد ليلة هوّد على نفسه قبل النوم وهو يفكّر أنه متى التقى ميري ميسن كما وعد، فسيسرع إلى أصدقائه القدامى مباشرة، إلى الهنود الحمر، وفي البراري يخفي عاره ويداوي جرحه. وسيكفّر عمله في إنقاذ كثيرين عن خطيئة قتله واحدًا، كما ظن، وستبقيه حياة الحرية المعهودة بعيدًا عن الإغراءات التي تحاصره في المدن.

«وبعدئذ، حين أستعيد استقامتي، ولا يكون عندي ما أخجل منه سأعود إلى الديار»، قال ودقة أسرع من القلب الطائش الذي

يشتاق إلى أن يكون هناك كثيرًا، وجدها أصعب في كبحها من جياده غير المروّضة في السهول. «ليس بعد، عليَّ تجاوز هذا أولًا. سيرون صباغ السجن ويشمونه ويحسونه فيّ إن ذهبتُ الآن، ولن أستطيع النظر في وجوههم وقول الحقيقة. لا أريد خسارةَ حب تِد، وثقة الأم باير واحترام الـ... الفتيات، لأنهن يحترمن قوتي، لكنهنّ الآن لن يقتربن مني». نظر دان مرتعشًا إلى اليد السمراء التي قبضها دون أن يشعر عندما تذكّر ماذا فعلت منذ أن وضعت عليها يد بيضاء صغيرة بثقة. «سأجعلهم يفخرون بي، ولن يعلم أحد بأمر هذه السنة البغيضة. يمكنني محوها وسأفعل وليساعدني الرب!»، ورفع اليد المقبوضة كأنه يقسم قسمًا عظيمًا على أن تكون هذه السنة الضائعة درسًا، إن كان للعزم والتوبة أن يصنعا الأعاجيب.

# (١٦)

# في ملعب كرة المضرب

كانت الرياضة من الأشياء الأثيرة في پلمفيلد، والنهر الذي اعتاد القارب الصغير التمايلَ فيه وعليه حمولة من الأولاد الصغار، أو أن يرجعَ صدى الصرخات الحادة من الفتيات الصغيرات اللاتي يحاولن قطف الزنبق، كان نابضًا بقوارب من شتى الصنوف، من الزوارق الرشيقة وحتى قواربِ النزهات الأنيقة المزيّنة بالمخداتِ والظلل والأعلام المثلثية المرفرفة. جذّفَ الجميع، وكان للفتيات سباقٌ كالشبان، ومرّنوا عضلاتهم بأحسن الوسائل. كان المرجُ الكبير المنبسط قرب الصفصافة القديمة ملعبَ الكلية، وهنا اشتعلت معاركُ كرة القاعدة بالحماس، أو كرة القدم والقفز والرياضات المماثلة المناسبة لفصل أصابع المشاركين مفرطي الحماسة، وكسر أضلاعهم وشد ظهورهم. وكانت الرياضاتُ الألطف للآنسات تقام على مسافةٍ آمنة من شان دو مارس هذا[1]؛ إذ طقطقت مضاربُ الكريكت تحت أشجار الدردار التي حفت بالملعب، وعلت المضارب

(١) ساحة عامة خضراء، تقع في الحي السابع من مدينة باريس.

وهبطت بحيويةٍ في عددٍ من ملاعب كرة المضرب، وكانت البوابات من مختلف الارتفاعات متاحةً للتمرن على القفز الرشيق الذي لا بد أن تتقنهُ كلّ فتاة لتنقذ حياتها يومًا ما عندما يجأر خلفها الثور المجنون، الذي يبدو أنه قادم دومًا ولكنه لم يصل بعد.

سُمّي أحد ملاعب التنس «بملعب جو»، وهنا حكمت السيدةُ الصغيرة مثل ملكة، لتولّعها باللعبة. ولما عزمت على تطوير نفسها إلى أعلى درجات الكمال، فقد وُجدت في كل لحظة فراغ تنقض على ضحية ما. ذات عصر يوم سبتٍ جميل، كانت تلاعبُ بِس وتهزمها، ورغم أن الأميرةَ تفوقها جمالًا، فإنها أقلّ مهارة من قريبتها، وزرعت زهورها بطرائقَ أهدأ.

«أوه يا إلهي! إنكِ متعبة، وكل فتى محترم يحضر مباراة كرة القاعدة الغبية. فماذا أفعل؟»، تنهدت جوزي، دافعة إلى الوراء القبعة الحمراء التي اعتمرتها، محدقةً بحزن حولها لتجد عوالم أخرى تهزمها.

«سألعب لاحقًا، بعد أن أرتاح قليلًا. لكنه عمل ممل في نظري، لأني لا أفوز أبدًا»، أجابت بس، وهي تروّحُ على نفسها بورقة شجرٍ كبيرة.

كادت جوزي تجلسُ قربها على المقعد البسيط وتنتظر، عندما وقعت عيناها الحادتان من بعيد على شابين يلبسان قميصين قطنيين أبيضين، عندما حملتهما سوقهما الزرقاء إلى المباراة الدائرة على مبعدة، لكنهما لم يصلا إلى اللعبة قط. إذ بصرخة فرحٍ هرعت جو لتلتقيهما، عازمة على استغلال هذا الإمداد المرسل من السماء. توقف كلاهما

إذ جاءت مسرعة، وكلاهما رفع قبعته، ولكن أوه، يا للاختلاف في التحيتين! رفع البدين قبّعته بكسل وأعادها في الحال، كأنه مسرور لانتهائه من الواجب. أما الرشيق، ذو ربطة العنق القرمزية، فقد رفع عاليًا قبعته بانحناءة أنيقة، وهو يبادئ بالكلام الفتاة المتوردة اللاهثة، فيتيح لها أن ترى خصل شعره الأسود وقد فُرقت بنعومة، بتجعيدة صغيرة على الجبين. اختال دولي بنفسه بتلك الانحناءة، وتمرّن عليها أمام مرآته، لكنه لم ينحنها للكل على حد سواء، إذ عدها عملًا فنيًا، يلائم الأجمل والأحب بين معجباته، لأنه شاب وسيم يتصور نفسه أدونيس.

كان عدم اكتراث جوزي المتحمّسة بهذا التشريف جليًا، لأنها بإيماءة من رأسها أشارت إليهما «بالقدوم ولعب كرة المضرب، وألّا يذهبا ليتّسخا ويشعرا بالحر مع كل الأولاد». كان لهذين الأمرين وقعهما، إذ أحسّ ستفي بحرارةٍ أكثر مما يود، ودولي يلبس بدلة جديدة يود الحفاظ على نظافتها ما استطاع، مدركًا أنها شديدة الأناقة.

«يسعدني الموافقة»، أجاب المهذب بانحناءة أخرى.

«العبا، وسأستريح»، أجاب الفتى البدين، تواقًا إلى الرقاد والحوار اللطيف مع الأميرة في الظل البارد.

«حسنٌ، يمكنك مواساة بس، لأني هزمتها وهي بحاجةٍ إلى شيء من المرح. أعرف أن في جيبك شيئًا لذيذًا يا جورج، فأعطها منه، وبوسع أدولفوس أن يأخذ مضربها. حسنٌ الآن، هلما»، وقادت جوزي فريستها أمامها، وعادت منتصرةً إلى الملعب.

ألقى ستفي- مثلما سنواصل تسميته رغم أن لا أحد آخر يجرؤ على ندائه بالاسم القديم- بجسمه الثقيل على المقعد الذي أنّ تحت ثقله، وأخرج بسرعةٍ علبةً من السكاكر، التي لا يخرج دونها أبدًا، وأبهج بِس بالبنفسج المغطّى بالسكر وغيره من الأطايب. أما دولي فقد بذل قصارى جهده ليحتفظ بمكانته أمام خصم عتيد. ولو لم تصرف انتباهه وتشتّته بقعة لا مرئية على بنطاله القصير أحدثتها عثرة تعسة لهزمها. انتشت جوزي للغاية بفوزها، وسمحت له أن يرتاح، وقدمت له مواساتها الساخرة لكربه الذي بدا استحواذه على عقله جليًا.

«لا تكن دلوعًا، يمكن تنظيفه. لا بد أنك كنتَ قطةً في حياة سابقة، إذ يثير الوسخُ قلقك كثيرًا، أو لعلك كنت خياطًا وعشت من أجل الثياب».

«هيا، لا تسخري من شابٍ في مصابه»، رد دولي من فوق العشب حيث استلقَى هو وستفي ليفسحا المكان للفتاتين على المقعد. بسط منديلًا تحته، واتكأ مرفقه على آخر، أما عيناه فلم يرفعهما عن البقعة ذات اللونين البنّي والأخضر التي أحزنته. «أحبُّ الأناقة، ولا أرى المشي في حذاء قديم وقمصانٍ قطنية رمادية أمام السيدات لائقًا. إن زملاءنا رجال محترمون ونلبس كما يلبس الرجال المحترمون»، أضاف مستاءً بعض الشيء من كلمة «خياط» لأنه مدينٌ لواحدٍ من هؤلاء الأشخاص الجذابين بمبلغ طائل.

«وكذلك طلابنا. لكن الثياب الأنيقة وحدها لا تصنع رجلًا

محترمًا، بل نطلبُ شيئًا أكبر من هذا»، ردّت جوزي، مستعدةً في الحال للدفاع عن كلّيتها. «ستسمع ببعض من الرجال الذين يلبسون أحذيةً قديمة وقمصاناً قطنية رمادية أثناء انشغالك أنت ورجالك المحترمين بربطات العنق وتطييب شعوركم بالرذاذ. أحب الأحذية القديمة وألبسها، وأكره الدلّوعين. ألا تفعلين يا بس؟».

«ليس إن كانوا لطيفينَ معي، ومن مجموعتنا القديمة»، أجابت بس بإيماءة شكرٍ لدولي، الذي أبعد بحذر يسروعةً عن حذائها النبيذي الصغير.

«أحب السيدةَ المهذبة دومًا، التي لا تقصف رأس الرجل إن كان ذا رأي مختلف. ما رأيك يا جورج؟»، سأل دولي مبتسمًا أجمل ابتساماته لبِس وناظرًا نظرة استهجان هارڤردية إلى جوزي.

كان رد ستفي الوحيد نخرةً صغيرة، فأعاد الضحكُ السلامَ للحظة، لكن جوزي أحبت إزعاجَ سادة الإبداع الذين يتباهون كثيرًا، وكرست وقتها لهجمةٍ أخرى حتى حان الوقت لها لتلعب مزيدًا من كرة المضرب. خاضت مباراةً ثانية، إذ كان دولي فارسًا محلفًا للسيدات، لذا لبّى نداءها تاركًا بس ترسم جورج وهو مستلقٍ على ظهره، ويقاطع ساقيه البدينتين، وقبعته تحجب نصف وجهه المدور. هُزمت جوزي هذه المرة وعادت شكسة، لذا أيقظت النائم الهادئ بدغدغةِ أنفه بقشة حتى عطس وجلس معتدلًا، وبحث غاضبًا عن «تلك الذبابة اللعينة».

«هيا اجلس، ولنتحدث حديثًا أنيقًا. عليكما أنتما «المغروران

الأنيقان» أن تطوروا عقلينا وأخلاقنا، لأننا لسنا سوى فتاتين ريفيتين مسكينتين نلبس الزريّ من الثياب والقبعات»، قالت الذبابةُ الهائمة مفتتحةً المعركة باقتباسٍ ماكر من أحد أحاديث دولي عن آنسات جادات تهمهن الكتب أكثر من الجمال.

«لم أقصدكما! لا بأس بثيابكما، وهاتان القبعتانِ أحدث طراز»، بدأ أدولفوس المسكين، مدينًا نفسه بالقول الأهوج.

«أوقعت بكَ هذه المرة. حسبتكما أيها الشابان رجلين محترمين، مهذبين ولطيفين. لكنكما تسخران دومًا من الفتيات ذوات الثياب الرثة، وليس في هذا شيء من الرجولة، كما تقول أمي»، وأحست جوزي أنها سددت ضربةً قوية إلى الفتى المتأنق الذي لو رأى ضريحًا حسن الزينة لانحنى له.

«لقد أمسكتْ بك أيها الفتى، وهي محقة. أنت لا تسمعني أتحدث أبدًا عن الثياب وتوافه كهذه»، قال ستفي يكتم تثاؤبه، وباحثًا عن قطعة سكاكر أخرى ينعش بها نفسه.

«أنت تتحدث عن الأكل، وهذا أسوأ ما في الرجل. ستتزوج طاهيةً وتدير مطعمًا يومًا ما»، ضحكت جوزي منقضة عليه في الحال.

أخرسته هذه النبوءة المخيفة لبضع دقائق، لكن دولي آزره وغيّر الموضوع بذكاء، وحمل الحرب إلى معسكر العدو.

«ما دمت تريدين منا أن نحسن أخلاقك، فاسمحي لي بالقول إن السيدات الشابات في المجتمع الراقي لا يعلقن تعليقاتٍ شخصية

أو يعظن، بل تفعل ذلك الفتيات الصغيرات اللاتي لم يخرجنَ إلى المجتمع، ويحسبْنه ذكاء، لكني أؤكد لك أنه ليس بالخلق الحسن».

صمتت جوزي للحظةٍ لتفيق من صدمة تسميتها «فتاة صغيرة»، في حين أن مجد بلوغها الرابعة عشرة يحيط بها، وقالت بِس بالنبرة المترفعة التي كانت أكثر تحطيمًا من صفاقة جو:

«هذا صحيح، ولكننا عشنا طوال حياتنا مع أخايرِ الناس، لذا لم نعرف حديث المجتمع مثل سيداتكَ الشابات، بل اعتدنا الحوار العاقل، ومساعدة بعضنا بعضًا بالحديث عن أخطائنا، وليس عندنا نميمة نقدمها لك».

عندما توبخ الأميرةُ، نادرًا ما يستاء الأولاد منها، لذا حفظ دولي عليه لسانه، وانفجرت جوزي حاذية حذو قريبتها الذي رأته مثالًا مرحًا:

«يحب أولادُنا أن نتحدث معهم، ويقبلون برحابة صدرٍ أي إشارة نقولها، ولا يحسبون أنفسهم يعرفون كلّ شيء ولا أنهم بالغو الكمال في عمر الثامنة عشرة، مثلما رأيت رجال هارڤرد يفعلون، وبخاصة الشبان منهم».

سُرّت جوزي غاية السرور بهذا الرد، وأظهر دولي أنه تأثّر من النبرة الغاضبة التي أجاب بها، بنظرةٍ متعجرفة إلى الجمع الصاخب الحار المغبرّ في ملعب كرة القاعدة:

«طبقة الشبان عندكم هنا بحاجة إلى التهذيب والثقافة اللذين

تقدمونهما لهم، وأنا مسرور بحصولهم عليهما. لكن طلابنا من خيرة الأُسر من كل البلاد، لذا لسنا بحاجةٍ لأن تعلّمنا الفتيات شيئًا».

«خسارة أنكم ليس عندكم كثيرون من مثل رفاقنا، إنهم يقدّرون ما تقدمه الكلية إليه ويحسنون استغلاله، ولا يرضيهم أن يتسللوا ليتسلّوا ويتملّصوا من العمل. أوه، سمعت رجالكم يتحدثون، وسمعت آباءكم يقولون إنهم يتمنون لو لم يهدروا المال والوقت لتقولوا إنكم ارتدْتم الكلية فحسب. أما عن الفتيات، فستكونون أفضل حالًا بكل الأشكال إن دخلن كليتكم، وجعلنكم بالمستوى المطلوب أيها الكسالى، كما نفعل هنا».

«إن كان لكِ هذا الرأي السيء بنا، فلم تلبسين لوننا؟»، سأل دولي شديد الإدراك بأنه لا يغتنم الامتيازات التي منحتها له الكلية القديمة، لكنه ملزمٌ بالدفاع عنها.

«لست أفعل، فقبعتي أرجوانية وليست قرمزية. يا لعلمك بالألوان»، سخرت جوزي.

«أعلم أن بقرةً شكسة ستجعلك تولّين الأدبار إن تباهيت بهذه القبعة الحمراء قرب أنفها»، رد دولي.

«أنا مستعدةٌ لها، أيمكن لسيداتكَ الأنيقات فعل هذا؟ أو أنت؟»، وتحرقت جوزي لعرض آخر مهاراتها، فركضت إلى أقرب البوابات، ووضعت يدًا على الحاجز الأعلى، وقفزت من فوقهِ بخفة طائر.

هزت بِس رأسها، وصفّق ستفي بفتور، لكن دولي الممتعض

من تحدّي فتاة له، قفز قفزة أعلى وحط على قدميه قرب جوزي قائلًا بهدوء:

«أيمكنك فعل هذا؟».

«ليس بعد، لكني سأفعل في وقت لاحق».

لانَ دولي لما رأى عدوته مغتمة قليلًا، وأضاف برفق بضع مناقبَ من النوع نفسه، غافلًا تمامًا أنه وقع في شرك مروّع، إذ إن الطلاء الأحمر الكامد على البوابة لم يعتد قبضًا مماثلًا، فانحل في خطوط على كتفيه عندما استدار في قفزةٍ للخلف وجاء باسمًا ليكافئه تعليقٌ رهيب:

«إن أردت أن تعرف ما القرمزي، فانظر إلى ظهرك، إذ انطبع عليه ولن تتمكن من غسله، كما أظن».

«لن يزول اللعين!»، صاح دولي، محاولًا أن يلقي نظرةً دون جدوى، واستسلم بامتعاضٍ كبير.

«أحسب أن علينا الذهاب يا دولف»، قال ستفي الهادئ شاعرًا أن الحكمة في الانسحاب قبل أن يقع شجارٌ آخر، إذ كان فريقه هو المهزوم.

«أرجوك ألا تتعجل. ابق وارتح، لا بد أنك بحاجةٍ للراحة بعد ذلك المقدار الهائل من الجهد العقلي الذي قدّمته هذا الأسبوع. لقد حان وقت درس الإغريقية، هلمّي يا بس. طابت عصريتكما أيها الرجلان المحترمان». وبانحناءةٍ كاسحة، تقدمت جوزي، وقبعتها

مرفوعة بعدائية، ومضربها محمول على كتف واحدة مثل راية النصر، إذ كان لها القول الأخير وأحست أنها تتصرف بكل شرف الحرب.

انحنى دولي لبس أفضل انحناءاته، ببرود، واستلقى ستفي بترف، وساقاه مرفوعتان في الهواء، يغمغمُ بنبرة حالمة:

«إن جو الصغيرة شكسةٌ للغاية اليوم، سأغفو غفوةً أخرى، فالجو حار جدًا ولا أطيق لعب شيء».

«فليكن. أتراها نافثة اللهب محقةً بأمر هذه البقع اللعينة؟»، جلس دولي يحاول تنظيفها تنظيفًا جافًا بأحد مناديله. «أنمت؟»، سأل بعد بضع لحظات من هذا العمل المضحك، خائفًا من أن يكون الصديق هانئ البال وهو يستشيط غضبًا.

«كلّا، كنت أفكّر أن جو ليست مخطئةً بشأن التملّص. عار ألا نفعل إلا القليل إذ يتعينُ علينا أن نكدح مثل مورتن وتوري وتلك العصبة. لم أرغب قط بالذهاب إلى الكلية، لكن وصيّي أجبرني، وفي هذا صالح كلينا!»، أجاب ستفي، متأوّهًا إذ يكره العمل ورأى أمامه سنتين أخريين طويلتين منه.

«إنها تمنح الرجل الوجاهة كما تعلم. ولا حاجة للكدّ، إذ سأحظى بوقتٍ مرح وأكون «مغرورًا أنيقًا» إن شئت. وأعترف لك إن وجود الفتيات لن يكون أمرًا سارًا؛ اللعنة على الدراسة! ولكن إن كان علينا أن ندير تلك الرحى، فسيكون وجودُ بعض الجميلات لمدّ يد العون أمرًا جميلًا، أليس كذلك؟».

«أريد ثلاثًا هذه اللحظة، واحدة لتروّح علي، والأخرى تقبّلني

والثالثة تقدم لي شراب الليمون المثلج!»، تنهّد ستفي، بنظرة شوقٍ نحو البيت الذي لم يأت منه غوث.

«ما رأيكما بجعة الجذور؟»، سأل صوتٌ خلفهما جعل دولي يهب واقفًا وستفي يتدحرج مثل خنزير بحر فزع.

كانت السيدة جو جالسة على المرقى الذي قطع الحائط القريب، وحول كتفيها إبريقان يربطهما حبل، وفي يدها عدد من أكواب الصفيح، وعلى رأسها قبعة شمسية قديمة الطراز.

«علمتُ أن الأولاد سيقتلون أنفسهم بشرب الماء المثلج، لذا أتيت هنا ومعي شيءٌ من جعتي اللذيذة المناسبة. لقد شربوا كالسمك، لكن سايلس كان معي، لذا فإبريقي لم يزل ملآن، أتريدان بعضها؟».

«أجل، شكرًا جزيلًا، دعينا نصبه»، وأمسك دولي الكوب وستفي يملؤه، وكلاهما ممتنٌّ لكنهما خائفان قليلًا أنها سمعتْ ما قالاه قبل أن تحقق أمنيتهما.

وتبين أنها سمعت إذ قالت، وهما واقفان يشربان في صحتها، وجلست هي بينهما مثل مُمَيّرة في منتصف العمر مع إبريقها وأكوابها:

«سررت لسماع قولكما إنكما تحبان وجود الفتيات في كليتكما، لكني آمل أن تتعلما الحديث باحترام أكبر عنهن قبل انضمامهن، لأن هذا سيكون الدرسَ الأول الذي سيعمدن إلى تلقينكما إياه».

«حقًا يا سيدتي، كنتُ أمزح فحسب»، قال ستفي عابًّا جعته على عجل.

«وكذلك أنا. أنا واثق... إنني مخلص لهن»، تلعثم دولي هلعًا، لأنه رأى أنه مقبلٌ على محاضرة من نوع ما.

«لم يكن ذلك مزحًا مناسبًا. قد تحب الفتيات الطائشات أن يدعين «بالجميلات الصغيرات» وأشياء من هذا القبيل. لكن الفتيات اللاتي تستهويهنّ الدراسة يتمنّين أن يعاملن مثل كائنات عاقلة، لا دمى يلعب بها. نعم، سأبدأ موعظة، فهذا عملي، لذا انهضا واستمعا مثل رجلين».

ضحكت السيدة جو، لكنها كانت جادة، لأنها عرفت عبر عدد من الإشارات واللمحات أثناء الشتاء الماضي أن الولدين بدأا «يريان الحياة» بالصورة التي تستهجنها تمامًا. كان كلاهما بعيدًا عن البيت، ولديهما ما يكفي من المال لتبديده، وكلاهما غرٌ وفضولي وساذجٌ كمثل الكثير من الفتية في عمرهما. لم يكونا مولعين بالكتب، لذا ليس عندهما حارس أمين يحمي كثيرًا من أقرانهما الجادين من الأذى، فأحدهما منغمس في ذاته متبطل اعتاد الرفاه للغاية فصار عنده تدليل الحواس سهلًا. والآخر مغرور، ككل الأولاد الملاح المفعمين بالخيلاء والمتعطشين للعثور على الحب في عين الرفاق فكان مستعدًا لأي شيء يحققه له. جعلت هذه الخصال والنقائص كليهما عرضةً للإغراءات التي تنهال على الفتية ضعيفي الإرادة محبي المباهج. عرفتهما السيدة جو جيدًا، وألقت عليهما عددًا من الكلمات

التحذيرية منذ ذهابهما إلى الكلية، ولكن يبدو أنهما حتى الآن لم يفهما بعضًا من إشاراتها اللطيفة، فعرفت أنهما الآن سيفهمان وأرادت أن تتحدث؛ لأن الخبرة الطويلة مع الأولاد جعلتها جسورةً وبارعة في إدارة المخاوف التي تترك للصمت عادة، إلى أن يفوت الأوان لفعل أي شيء إلا التحسر والتأنيب.

«سأتحدث إليكما مثل أم، لأن والدتيكما بعيدتانِ عنكما، وثمة أمور لا يحسنُ التعامل معها إلا الأمهات إن قمن بواجبهن»، قالت بوقار من أعماق القبعة الشمسية.

«يا للهول! ها قد وقعنا!»، فكر دولي في خوفٍ خفي، أما ستفي فتلقّى الضربة الأولى بمحاولة تمالك نفسه بشرب كوبٍ آخر من الجعة.

«لن يضركَ هذا، لكن لا بد لي من تحذيرك من شرب أشياء أخرى يا جورج. إن الإفراط في تناول الطعام قصةٌ قديمة، وبضع نوباتٍ من الغثيان ستعلمك أن تكون حكيمًا. لكن الشرب أخطر بكثير، ويقودك إلى ضررٍ أكبر مما يضر أي شيء ببدنك وحده. أسمعك تتحدث عن أنواع النبيذ كأنك تعرفها وتهتمّ بها أكثر مما يليق بفتى، وسمعت عددًا من المزحات التي يقصد بها الضرر. حبًا بالسماء، لا تبدأ اللعب بهذه النزعة تسليةً، كما تقول، أو لأن هذا هو الدارج، وما يفعله الفتيةُ الآخرون. توقفْ في الحال، وتعلّم أن الاعتدال في كلّ شيء هو وحده النهجُ القويم».

«أقسم بشرفي إني لا أشرب إلا النبيذ وشراب الحديد. أمي تقول

إني بحاجة لمقوٍّ لأصلح تلف أنسجة الدماغ من الدراسة»، اعترض ستفي منزلًا الكوب كأنه أحرق أصابعه.

«سيصلح اللحم الجيد والشوفان أنسجتك أفضل بكثير من أيّ مقوٍ من هذا النوع؛ وما تحتاجه هو العملُ واللهو البريء. وليتك كنت عندي هنا لبضعة أشهر بعيدًا عن دروب الأذى. سأخضعك لحمية بانتنغ، وأجعلك تجري دون لهاث، وتمضي اليوم دون أربع وجبات أو خمس. يا لها من يد رجلٍ حمقاء! عليك أن تخجل منها!»، وأمسكت السيدة جو القبضة البضة، ذات الغمزات العميقة عند البراجم، التي كانت تتحسس بقلق إبزيم الحزام الذي يطوّق خصرًا كبيرًا للغاية لشاب في مثل عمره.

«لا أستطيع تفادي ذلك، فكلّنا سِمان، هذه وراثة»، قال ستفي مدافعًا عن نفسه.

«وهذا سبب يدعوك إلى العيش حذرًا. أتريد الموت شابًا، أو أن تكون معتلًا طوال حياتك؟».

«كلا يا سيدتي!».

بدا ستفي خائفًا جدًا فلم تقسُ السيدة جو على أخطائه الناشئة، إذ يقع اللوم إلى حد كبير على أمه التي تفرط في دلاله، لذا رققت نبرة صوتها وأضافت بصفعةٍ صغيرة على اليد السمينة، كما اعتادت أن تفعل حين كانت صغيرة وتختلس قطع السكّر من سكريتها:

«كن حذرًا إذن، لأن الرجل يخطّ شخصيته على وجهه، وأنت لا تريد النهم والعصبية في شخصيتك كما أظن».

«لا أريدهما بالتأكيد! اكتبي من فضلك قائمة طعام وسألتزم بها إن استطعت. إنني أغدو بدينًا، ولست أحب هذا، وكبدي خامل، وعندي خفقانٌ وصداع. أمي تقول إنه من فرط العمل، ولكن لا بد أنه من فرط الأكل»، وتنهّد ستفي تنهيدة امتزجت فيها الحسرة على الأشياء اللذيذة التي سيقلع عنها، والراحة لأنه فرغ من إرخاء حزامه حالما غدت يده حرّة.

«سأفعل، والتزمْ بها وفي غضون عام ستصبح رجلًا لا حقيبة طعام، والآن دورك يا دولي»، واستدارت السيدة جو إلى المذنب الآخر، الذي ارتجف وتمنّى لو لم يأت.

«أتدرس الفرنسية بجد كما فعلت الشتاء الماضي؟».

«كلا يا سيدتي، لست مهتمًا بها لأني منشغل بالـ.. بالإغريقية الآن»، أجاب دولي قائلًا بشجاعة، دون أن يدري مغزى ذلك السؤال الغريب إلى أن جعلته الذاكرةُ يتلعثم وينظر إلى حذائه باهتمامٍ عميق.

«أوه، إنه لا يدرسها، بل يقرأ الرواياتِ الفرنسية فحسب ويترددُ على المسرح عندما يبدأ عرض الأوبرا الهزلية»، قال ستفي مؤكدًا ببراءة شكوكَ السيدة جو.

«هذا ما فهمته، وهذا ما أودّ الحديث عنه. إذ أراد تِد فجأة أن يتعلم الفرنسية بتلك الصورة، من شيء قلته يا دولي، فذهبت بنفسي وتأكدت تمامًا أنه ليس مكانًا يليق بشابٍ محترم. لقد خرج طلابكم كلهم، وسررتُ لرؤية أن بعض الشبان الصغار خجلوا مثلي. لقد

استمتع بها الأكبر عمرًا، وحينما خرجنا كنا ننتظرُ أولئك الفتيات المتبرجات لتناول العشاء. أذهبت معهن يومًا؟».

«مرة».

«أأعجبكَ الأمر؟».

«كلا، لقد انصرفتُ باكرًا»، تلعثم دولي واحمر وجهه بحمرة ربطة عنقه الرائعة.

«يسرني أنك لم تفقد سمة الخجل بعد، ولكنك ستفعل قريبًا إن استمررْتَ بهذا النوع من الدراسة ونسيت الإحساس بالخجل. إن رفقة نساءٍ كهؤلاء ستفسدك على النساء المحترمات، وتأخذك إلى المتاعب والخزي والخطيئة. أوه، لماذا لا يوقف آباء المدينة هذا الشر وهم يعلمون الضرر الذي يحدثه؟ يؤلمني قلبي لرؤية هؤلاء الأولاد، الذين يجب أن يكونوا في البيوت وفي فرشهم، يخرجون لليلة من اللهوٍ تحطّم بعضهم إلى الأبد».

ذُعر الشابان لاحتجاج السيدة جو المفعم بالحماس على إحدى المباهج الدارجة في ذلك الوقت، وانتظرا صامتين صمت تأنيب الضمير؛ فستِفي سعيد لأنه لم يذهب قط إلى حفلات العشاء اللاهية تلك، ودولي شاكرٌ للغاية أنه انصرف باكرًا. ووضعت السيدة جو يدًا على كتف كل منهما، وقد اختفت خطوط الخوف من سحنتها، فواصلت كلامها بنبرةٍ أمومية، متلهفةً لتفعل لهما ما لن تفعله أيّ أمّ أخرى، وأن تفعله برفق:

«يا ولديّ العزيزين، لولا أني أحبكما، ما قلت هذه الأمور.

أعلم أنها كريهة، لكني لن يهنأ لي بال إن كان الحديث سيجنبكما أكبر خطيئتين تفسدان العالم وترسلان الكثير من الشبان إلى حتفهم. لقد أخذتما تشعران بإغرائهما، وسرعان ما يغدو فكاككما عسيرًا. توقفا الآن، أرجوكما، ولا تنقذا نفسيكما فحسب بل ساعدا آخرين على ذلك بالقدوة الحسنة. تعالا إليّ إن أقلقكما أمر، ولا تخشيا شيئًا ولا تخجلا، لقد سمعت اعترافاتٍ أكثر حزنًا من أي شيء قد يأتي به أحدكما، واستطعت تقديم العون للكثير من الشبّان المساكين الذين ارتكبوا أخطاء لأنهم احتاجوا النصح في وقته. افعلا هذا، وستقدران على تقبيل أمّيكما بشفاه طاهرة، ومن ثم يكون لكما الحقّ في أن تطلبا من الفتيات البريئات حبّهن».

«أجل يا سيدتي، شكرًا لك، أحسب أنكِ محقة، لكن الالتزام صعب إن قدّمت السيدات النبيذ والرجال المحترمون يرافقون بناتهم لرؤية إيمي»، قال دولي متنبئًا بالعراقيل رغم معرفته أن الوقت حان للتماسك.

«ليكن، لكنّ الشرف نصيبُ الشجعان الأذكياء الذين يقاومون الرأي العام والخلق اللاهي للرجال والنساء الفاسدين. فكر بأشخاص تحترمهم كثيرًا، وبتقليدك لهم ستنال احترام الناظرين إليك. أؤثرُ أن يسخر من ولديّ ويستهزئ بهما مئة أحمق على أن يخسرا ما إن ذهب مرة فلن تستطيع قوةٌ استعادته، وأعني البراءةَ واحترام الذات. لست أعجب أن ترى الالتزام صعبًا، إن كانت الكتبُ والرسوم والحفلاتُ الراقصة والمسارح تقدم لك الإغراء، لكنك تستطيع المقاومةَ إن حاولت. قلقت السيدة بروك على جون

الشتاء الماضي الذي يتأخر كثيرًا في عمله، لكنها حين تحدثت إليه عن أمور يراها ويسمعها في رواحه وغدوه إلى المكتب بعد منتصف الليل، قال بأسلوبه الوقور: «أعلم ما تعنين يا أمي، ولكن لن يخطئ شابٌ ما لم يكن راغبًا بذلك»».

«هذا طبع الشماس!»، قال ستفي وعلى وجهه السمين ابتسامةُ إعجاب.

«سعدت لإخبارك لي بهذا. إنه محق، ولأنه لا يودّ ارتكاب الأخطاء فإننا جميعًا نحترمه»، أضاف دولي رافعًا رأسه وعلى وجهه سيماء طمأنتْ معلمته أنها مست الوتر الصحيح، وانتابته رغبةٌ في الاقتداء به، أكثر نفعًا ربما من أية كلماتٍ أخرى مما قالته. فسُرّت لدى رؤيتها هذا وقالت وهي تتأهبُ لمغادرة المحكمة التي مثُلَ أمامها المخطئان ووجدا مذنبَين، ولكنهما طلبا الرحمة:

«كونا للآخرين ما كانه جون عندكما، قدوةً حسنة. اغفرا لي إزعاجكما يا ولديّ العزيزين، وتذكّرا موعظتي الصغيرة. أظنها ستنفعكما رغم أني لستُ متأكدةً. كلماتٌ عابرة قيلت برفق تساعد كثيرًا، ولهذا وُجد الكبار، لئلا تكون خبرتهم بلا فائدة؛ والآن اذهبا وانضمّا إلى الشباب، وأرجو ألا أضطر لإغلاق بواباتِ پلمفيلد في وجهيكما، مثلما فعلت ببعض رجالكم المحترمين. أود إبقاء أولادي وبناتي بمأمنٍ إن استطعت، وهذا مكان صالح تُعاش فيه الفضائل القديمة وتعلم».

تأثر دولي لهذا الوعيد المخيف، وساعدها لتنهض باحترام

عميق، وأراحها ستِفي من أباريقها الفارغة، وهو يقسم بوقارٍ على أن ينصرف عن كل المشروبات المخمرة إلا جعة الجذور، ما دام اللحم الطري يكسو جسمه. لا شك أنهما سخرا من محاضرة الأم باير عندما انفردا بنفسيهما، فهذا متوقع من رجال من طبقتهما ولكنهما شكراها في قرارة نفسيهما لأنها هزتْ ضميريهما الصبيانيين، وتذكرا ممتنين أكثر من مرة في وقت لاحق نصف الساعة في ملعب كرة المضرب.

# (١٧)

# بين الغيد

رغم أن هذه القصة عن أولاد جو، فلا يمكن تجاهل فتياتها، لأنهن يحتللن مكانة رفيعة في هذه الجمهورية الصغيرة، وأولي لهن اهتمام خاص ليؤدينَ أدوارهنّ بجدارة في الجمهورية الكبيرة التي قدمت لهنّ فرصًا أوسع وواجبات أكثر جدية. كان الأثر الاجتماعي في نظر الكثيرات الجزء الأفضل من التنشئة التي تلقينها، فالتعليم ليس مقتصرًا على الكتب، وكثيرٌ من أرفع الشخصيات لم تتخرج في الكليات، بل كانت التجربة أستاذهن والحياة كتابهن. اهتمت أخرياتٌ بالثقافة العقلية وحدها، وكن عرضة لخطر الإفراط في الدراسة جراء الوهم الذي غزا نيو إنغلند بوجوب تلقّي العلم بأي ثمن، ناسياتٍ أن الصحة والحكمة الحقيقية أفضل. وجماعة ثالثةٌ من الفتيات الطموحات لا يعرفن ما يردن، لكنهن متعطشاتٌ لما يمكّنهن من مواجهة العالم وكسب العيش، تدفعهن الحاجةُ والموهبة نصف الواعية، أو قلقُ طباع الشباب القوية للانعتاق من أسْرِ الحياة المحدودة التي لم تعد ترضيهنّ.

في پلمفيلد، وجدت كلّ واحدةٍ شيئًا يساعدها، لأن الكلية الناشئة لم تجعل قوانينها ثابتةً كقوانين الميديين والفُرس، وآمنت بقوةٍ بحق كل الأجناس والألوان والطوائف والطبقات بالتعليم. وكل من يطرق الباب له مكان، وقوبل بالترحيب الشباب الفقراء من الريف، والفتيات المتلهفات من الغرب، والمحرَرين الخجولين من الجنوب رجالًا ونساء، أو التلاميذ عريقو الأصل الذين جعل فقرهم هذه الكلية احتمالًا إن سُدت الأبوابُ الأخرى في وجوههم. ما زال يشوب الأماكن الراقية كِبرٌ وسخف وإهمال، ونبوءاتٌ بالفشل للتصدي لها، لكن الكلية ضمّت رجالًا ونساء متفائلين مفعمين بالأمل رأوا إصلاحاتٍ كبيرة تنبع من جذورٍ صغيرة، وتزهر جيدًا بعد فصلٍ عاصف، لتزيد من رفاه الأمة وشرفها. فواصلوا عملهم بخطى ثابتةٍ وقضوا وقتهم متحلّين بإيمانٍ متزايد بمحاولاتهم كلما كبرت الأعدادُ ونجحت خططهم، وباركهم إحساسٌ بفائدتهم في أكثر المهن حيويةً بمكافآته الحلوة عامًا إثر آخر.

من بين العادات الكثيرة التي نشأت تلقائيًا كانت واحدةٌ مثيرة ومفيدة «للفتيات» كما تحبّ الشابات أن يُدعين. ونشأت هذه من ساعة الخياطة القديمة التي لم تزل الأخواتُ الثلاث يتمسكن بها بعد أن كبرت صناديق الأشغال الصغيرة لتصبح سلالًا كبيرة مليئةً بثياب تحتاج إصلاحًا. كن نساء مشغولات، وجهدن يوم السبت للقاء في واحدةٍ من غرف الخياطة الثلاث، وحتى پارناسوس الفخم فيه ركنٌ كثيرًا ما جلست فيه السيدة إيمي بين خادماتها، تعلمهن الخياطة ورفو الثياب، وتجعلهن يقدّرن الاقتصاد، فالسيدةُ

الثرية لم ترَ بأسًا في رفْو الجوارب وإصلاح الأزرار. في هذه الأشغال المنزلية، إلى جانب الكتبِ والعمل، وبناتهنّ قربهن، قرأنَ وخِطْنَ وتحدّثنَ بالخصوصية الحلوة التي تحبها النساء البيوتيات، لأنها مفيدة بمزيجها الذكيّ من الطبخ والكيمياء، ومفارش المائدة واللاهوت، والواجبات المبتذلة والشعر الجميل.

كانت السيدة مِغ أول من اقترح توسيع الدائرة، لأنها لما دارت في جولاتها الأمومية بين الشابات وجدت قلة النظام والمهارة والحرفية في هذا الفرع من التعليم. ازدهرت اللاتينيةً والإغريقية والرياضيات العالية والعلوم من شتى الأنواع جيدًا، لكن الغبار تراكم على سلال الأشغال، وظلت المرافق المهترئة مهملة، وكانت بعض من الجوارب الزرقاء بحاجةٍ ماسة للرفو. وخشيت أن تنطبق السخريةُ المعتادة من النساء المتعلمات على «فتياتنا»، فقد أغرت اثنتين أو ثلاثًا من أكثر الفوضويّات بالقدوم إلى بيتها، وجعلت الساعة مبهجةً للغاية، والدرس يمر بلطف ففهمن التلميح، وشكرن معروفها، وطلبن المجيء ثانية. سرعان ما توسّلت أخريات لجعل الواجب الأسبوعي الثقيل أخفّ بالانضمام إلى المجموعة، ثم صار امتيازًا ترغب به كثيرات، فأعيد ترتيبُ المتحف القديم بآلات خياطةٍ وطاولات وكراسي هزازة ومصطلى جميل، لتواصل الإبر عملها دون مقاطعة، صحوًا كان الجو أم مطرًا.

كانت السيدة مِغ هنا في أوج مجدها، ووقفت ممسكةً بمقصها الكبير مثل ملكةٍ وهي تقص المطرزات البيضاء، وترتب الثياب، وتوجه ديزي، معاونتها الخاصة، حول تزيين القبعات، وإكمال

كشاكش المخرمات والشرائط التي تضفي أناقةً على أبسط الفساتين وتوفر على الفتيات الفقيرات أو المشغولات كثيرًا من المال والوقت. أدلت السيدة إيمي برأيها، وأجابت السؤال الصعب حول الألوان ولون البشرة، إذ تحب جلّ النسوة ـ حتى أكثرهن تعليمًا ـ المظهر الذي يضفي ملاحة على الوجه الخالي من الحسن، مثلما يتحول الجمال إلى قبح بسبب الافتقار إلى المهارة والمعرفة في تنسيق الثياب. كما أخذت دورها لتقدم الكتب للقراءة، ولما كان الفنُّ معقلها فقد قدمت لهن مختاراتٍ من رسكن وهمرتن والسيدة جاميسن التي لا تشيخ أبدًا. قرأت بِس هذه الأعمال جهرًا إسهامًا منها، وقامت جوزي بدورها في القصص العاطفية والشِّعر والمسرحيات التي يرشحها عمّاها. وقدمت السيدة جو محاضرات قصيرةً حول الصحة والدين والسياسة، والمسائل المختلفة التي تهمهن جميعًا، إلى جانب مقتطفات وفيرة من كتاب الآنسة كوب «واجبات المرأة»، وكتاب الآنسة براكت «تعليم الفتيات الأمريكيات»، وكتاب السيدة دوفي «لا فرق بين الجنسين في التعليم»، والسيدة ولسن «إصلاح الثياب»، والكثير غيرها من الكتب الرائعة التي كتبتها نساءٌ حكيمات لأجل أخواتهنّ اللاتي بدأن ينهضن ويسألن: «ماذا أفعل؟».

كان طريفًا رؤيةُ الكبرياء تذوب عندما زال الجهل، وتحولت اللامبالاة إلى اهتمام، وأخذت العقول الذكية تفكّر، وأضفت سرعة البديهة وحذاقة اللسان نكهةً على النقاشات التي أعقبتها من غير ريب. وهكذا حملت الأقدام التي تلبس الجوارب المرفوّة جيدًا رؤوسًا أذكى من ذي قبل، وكست الفساتين الجميلة قلوبًا مفعمة بآمال أعظم،

وكانت الأيادي التي تركت الكشتبنات من أجل الأقلام والمعاجم والمجموعة الشمسية، أكثر ملاءمةً لعمل الحياة، سواء أكان ذلك هزّ المهد أو رعاية المريض أو المساعدة في العمل العظيم في العالم.

ثار نقاشٌ حيوي ذات يوم يتعلق بعمل النساء، فقرأت السيدة جو شيئًا حول الموضوع وسألت كل واحدةٍ من الفتيات الاثنتي عشرة الجالسات في الغرفة، عمّا تنوي فعله بعد ترك الكلية، وكانت الإجابات كالمعتاد: «سأدرّس، أساعدُ أمي، أدرسُ الطب، الفن، إلخ...»، لكنها انتهت بالقول: «إلى أن أتزوج».

«ولكن ماذا لو لم تتزوجن، فماذا تفعلن؟»، سألت السيدة جو، شاعرةً أنها صبية وهي تصغي إلى الإجابات وتراقب الوجوه الفرحة أو المتبصرة أو المتلهفة.

«سنكون عوانس كما أحسب. مريع، ولكنه أمر محتوم ما دام عدد النساء يفوق عدد الرجال»، أجابت فتاةٌ نشطة، جميلة جدًا ولا تخشى فقدان تلك النعمة إلا لو كان باختيارها.

«لا بد من أخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار، وهيّأنَ أنفسكن لتكنّ نساء نافعات، لا فائضات عن الحد. تلك الطبقة، بالمناسبة، قد شكلتها الأرامل إلى حد كبير كما عرفت، لذا لست أعدها قدحًا في العزوبية».

«هذا مريح! لم يعد يسخر من العوانس كما السابق، إذ أصبحت بعضهنّ ذائعات الصيت وأثبتن أن المرأة ليست نصفًا بل هي إنسان كامل، ويمكنها العيش وحدها».

«لا أطيق ذلك. لا نستطيع كلنا أن نصبح كالآنسة كوب والآنسة نايتنغيل والآنسة فلپس وغيرهن. فما الذي نستطيعه سوى الجلوس في زاوية والتطلع؟»، سألت فتاةٌ بسيطة وعلائم الاستياء على وجهها.

«ازرعي البهجة والرضا، إن لم يكن عندك شيء آخر. ولكن ثمة الكثير من الأعمال الصغيرةِ الغريبة بانتظار إنجازها فلا تحتاج واحدة إلى الجلوس عاطلة ومتطلعة إلّا إن اختارت»، قالت السيدة مِغ بابتسامة، واضعةً على رأس الفتاة قبعة جديدة زيّنتها للتو.

«شكرًا جزيلًا لكِ يا سيدة بروك، فهمت، إنه عملٌ صغير لكنه يجعلني أنيقةً وسعيدة، وشاكرة»، أضافت تنظر بعينين أشد لمعانًا وهي تقبلُ نتاج المحبة والدرس بحلاوة تماثل روح من قدمها.

«قامت إحدى أفضل النساء وأحبهنّ ممن أعرف بأعمال غريبة من أجل الرب لسنوات، وظلت تقوم بها حتى طويت يداها الحبيبتان في الكفن. لقد فعلت كل شيء؛ كأن تأخذ الأولاد المهملين وتضعهم في بيوت آمنة، وتنقذ الفتيات الضالات، وتمرّض النساء الفقيرات في سقمهن، وتخيط وتحوك وتهرول وتسترحم وتعمل من أجل الفقراء يومًا بعد يوم دون مكافأةٍ إلا الشكر من المحتاجين، والحب والاحترام من الأغنياء الذين جعلوا القديسة ماتيلدا وكيلة صدقاتهم. هذه حياة تستحق أن تعاش، وأظن أن تلك المرأةَ الصغيرة الهادئة سيكون لها مقعدٌ في الجنة أعلى من كثير ممن سمع عنهم العالم».

«أعلم جمال ذلك يا سيدة باير، لكنه مملٌّ في نظر الشباب، فنحن

نرغب بشيء من اللهو قبل انكبابنا على العمل»، قالت فتاة من الغرب لها وجهٌ يقظ.

«احصلي على اللهو يا عزيزتي، ولكن إن كان عليك كسب خبزك، فحاولي تحليته بالمرح، لا جعله مرًا بتحسرك كل يوم لأنه ليس كعكًا. رأيت دومًا قدري عسيرًا لأني اضطررتُ إلى تسلية امرأةٍ عجوز شكسة، لكن الكتب التي قرأتها في تلك المكتبة الوحيدة منحتني فائدةً عظيمة، وأورثتني العجوز العزيزة بلمفيلد من أجل خدمتي المرحة ورعايتي المحبة. لم أستحق هذا، لكني حاولت أن أكون مرحةً ولطيفة، وأن أستخلص من واجبي ما تهيأ لي من العسل، والفضل لمساعدة أمي ونصحها».

«يا إلهي! لو قدّر لي أن أجني مكانًا كهذا، لغنّيتُ طوال اليوم وكنت ملاكًا، ولكن على المرء انتهاز فرصته، وأن ينال شيئًا مقابل ألمه كما أحسب. أنا لن أفعل أبدًا»، قالت الفتاة الغربية التي كان وقتها عصيبًا لضآلة مواردها وكبر آمالها.

«لا تفعلي ذلك من أجل المكافأة، وتأكدي أنك ستحصلين عليها وإن لم تكن ما تنتظرينه. لقد عملتُ جاهدة من أجل الشهرة والمال ذات شتاء، ولم أحصل على أي منهما وأصابني الإحباط كثيرًا. وبعد عام وجدت أنني نلت جائزتين؛ مهارة في الكتابة، والأستاذ باير».

تردد رجع ضحكة السيدة جو بضحكات الفتيات المرحة، اللاتي أحببن سماع أحاديث كهذه تعززها أمثلة من الحياة.

«إنك امرأةٌ محظوظة جدًا»، قالت الآنسة الضجرة، التي حلقت

روحها فوق القبعات الجديدة، التي أحبتها إلا أنها لم تعرفْ أين تقودها.

«لكن اسمها كان «جو تعسة الحظ» ولم تحصلْ قط على ما أرادت حتى كفتْ عن الحلم به»، قالت السيدة مِغ.

«سأكفُّ عن الحلم إذن في الحال، وأرى إن كانت أمنياتي ستتحقق. لست أطلبُ إلا أن أساعد أهلي، وأدخل جامعة جيدة».

«خذي هذا المثل مرشدًا لك: «أعدّي بكراتِ الغزل والربّ سيرسل الكتان»»، أجابت السيدة جو.

«يجدر بنا كلنا فعل هذا إن كنا سنصبح عوانس»، قالت الجميلة مضيفة ببشاشة، «أحسب أني سأحب الأمر، فهن مستقلات إجمالًا. تفعل عمتي جِني ما تريد ولا تطلب إذن أحد، أما أمي فعليها استشارة أبي في كل شيء. أجل، سأتخلّى عن فرصتي يا سالي، وأصبح «زائدة» كما يقول السيد بِلوك».

«ستكونين أولَ من يدخل الأسر، وأراهنك على ذلك، ستضطرين إليه قطعًا».

«حسن، سأعدّ بكراتِ الغزل، وأقبل الكتّان الذي يرسله القدر، وحيدة أو معي زوج، كما يشاء الرب».

«هذا هو القول الصحيح يا نيللي، استمري، وانظري كيف ستكون الحياةُ إلى جانب القلب الشجاع واليد الماهرة والكثير مما يُفعل».

«لا أحد يعترضُ على وفرة العمل المنزلي أو البهجة، كما أرى، ولكن حالما نبدأ الدراسة يقول لنا الناس أننا لن نطيق الأمر، ويخبرونا أن نحذر للغاية. لقد جربت الأمور الأخرى، وجهدت للوصول إلى الكلية، رغم أن أهلي تنبؤوا لي بالإنهاك والقلق والموت المبكر، أترين أي خطر؟»، سألت فتاة رزينة، تعلو وجهها الجميل نظرة قلقة عكستها المرآة المقابلة.

«أأنتِ أقوى أم أضعف مما كنت قبل قدومك قبل عامين يا آنسة ونثروپ؟».

«أقوى بدنًا، وأسعد روحًا. أحسب أني كنت أموت سأمًا، لكن الأطباء سمّوا حالتي ضعفًا وراثيًا في البنية، وهذا ما يقلق أمي كثيرًا، وأتمنى ألا أموت باكرًا».

«لا تقلقي يا عزيزتي، إن عقلك اليقظ كان يتعطش لغذاء لذيذ، وقد تهيأ له الكثير، والعيش البسيط يلائمك أكثر من الرخاء والترف. إنه لكلام فارغ أن يقال إن الفتيات لا يقدرن على الدراسة مثل الأولاد. لا يمكن لأيّ منهم احتمال التقييد، ولكنهم يعملون أفضل تحت الرعاية المناسبة. لذا استمتعي بالحياة التي تقودكِ إليها فطرتك، وستثبت أن العمل الذهني الحكيم دواء لذلك الضعف أكثر من أي شراب مقوّ، وقراءة الروايات على الأرائكِ حيث تتحطم الكثير من فتياتنا اليوم. إنهن يشعلنَ الشمعة من كلا جانبيها، وعند انهيارهنّ يلقين باللوم على الكتب لا الحفلات الراقصة».

«كانت الطبيبة نان تخبرني عن إحدى مريضاتها التي ظنتْ أنها

تشكو مرضًا في القلب، حتى خلعت نان مشدّها ومنعتها من تناول القهوة والرقص طوال الليل، وجعلتها تأكل وتنام وتمشي وتعيش بانتظام لبعض الوقت، وها قد شُفيت تمامًا. هذا العلم مقابل العادة، كما تقول نان».

«لم يصبْني صداعٌ منذ قدومي إلى هنا، وأستطيع دراسة ضعفي ما أدرسه في البيت. إنه الهواء كما أظن، ومتعة التفوق على الأولاد»، قالت فتاةٌ أخرى، مربتة على جبينها الكبير بكشتبانها، كأنما الدماغ النشط داخله يعملُ جيدًا ويستمتع بالرياضة اليومية التي تمنحها له.

«الكيفُ لا الكمُّ هو من يفوز كما تعلمين. قد تكون أدمغتنا أصغر، لكني لا أراها قاصرةً عما يطلب منها، وإن لم أكن مخطئةً فأكبر الرجال رؤوسًا في صفّنا هو الأكثر بلاهة»، قالت نيللي بهيئةٍ رزينة أثارت عاصفة من الضحك، إذ عرفتْ كلهنّ أن الشاب غولياث الذي ذكرت قد قُتل مجازًا على يد ديڤد سريع البديهة في عدد من الميادين، رغم امتعاضه وامتعاض العديد من رفاقه.

«أأقياسي صحيح أم خطأ يا سيدة بروك؟»، سألت أفضل طالبات الإغريقية في صفها، معاينة مئزرًا حريريًا أسود بأمارات الحيرة.

«صحيح يا آنسة پيرسن، واتركي فراغًا بين الزمزمات، سيبدو أجمل».

«لن أخيطَ واحدًا آخر أبدًا، لكنه سيقي ثوبي من بقع الحبر، ولذا فإني سعيدة بحصولي عليه»، وواصلت الآنسة پيرسن المتبحّرةُ عملها، وهي ترى المهمة أصعب من أي جذر إغريقي تعلمته.

«علينا معشر ملطخي الورق أن نتعلمَ كيف نصنع الدروع، وإلا ضعنا. سأعطيك قالبًا لصنع الميدعة التي اعتدت لبسها في «أيام الدم والبرق» كما أسميها»، قالت السيدة جو محاولةً تذكّر ماذا حل بموقد الصفيح القديم الذي التهم عملها دومًا.

«الحديث عن الكتّاب يذكّرني بحلمي أن أكون جورج إليوت وأبهر العالم! لا بد أنه أمرٌ رائع أن يدرك المرء امتلاكه لقوةٍ كهذه، وأن يسمع الناس يعترفون بأن المرأة تتمتع «بذكاء الرجل!» لست أحب كثيرًا من روايات النساء، لكن رواياتها عظيمة، ألا ترينَ هذا يا سيدة باير؟»، سألت الفتاةُ ذات الجبين العريض، ونزعت شريطًا مجدولًا من تنورتها.

«بلى، لكنها لا تبهرني بقدر ما تبهرني كتبُ شارلوت برونتي الصغيرة، فيها عقل لكن القلب متروك جانبًا. إني معجبةٌ بجورج إليوت لكني لا أحبها، وحياتها أكثر حزنًا من حياة الآنسة برونتي، ورغم كل العبقرية والحب والشهرة فقدت النور الذي لا تكونُ الروح بغيره عظيمةً أو سعيدة أو خيرة».

«أجل أعرف، ولكن مع ذلك تظل رومانسيةً وجديدة وغامضة، وكانت عظيمة بصورة ما. إن عصبيتها وعسر هضمها تفسدان الصورة، لكني أحب المشاهير وأنوي الذهاب إلى لندن ومحاولة معرفتهم يومًا ما».

«ستجدين أخايرهم لا يأبهون إلا بالعمل الذي أوصيتكِ به، وإن أردت رؤية سيدةٍ عظيمة، فسأقول لك إن السيدة لورنس

ستستضيف واحدةً هنا اليوم. ستتناول الليدي أبركرومبي الغداء معها، وبعد أن ترى الكلية ستزورنا، لقد أرادت أن ترى مدرسةَ الخياطة، إذ تهمها أمورٌ من هذا النوع، وتطبقها في الديار».

«ويحي! تخيلتُ دومًا اللوردات والليديات لا يفعلون شيئًا سوى التجوّل في عربة تجرها ستة خيول، والذهاب إلى الحفلات، ويقدمون إلى الملكة معتمرين قبعات مردودة، وثيابهم مذيلة مريشة»، قالت فتاةٌ ساذجة من براري مين، حيث لا تُرى صحف مصورة إلا نادرًا.

«على الإطلاق. جاء اللورد أبركرومبي لدراسة نظام الحبس الأمريكي، والليدي مهتمةٌ بأمر المدارس، كلاهما كريم المحتد لكنهما من أبسط الناس وأكثرهم حساسيةً ممن التقيت في حياتي. ليس أيّ منهما بالشاب ولا الوسيم، وثيابهما بسيطة، لذا لا تتوقعي شيئًا باهرًا. أخبرني السيد لورنس الليلة الماضية عن صديق له التقى اللورد في المجلس، وبسبب المعطف الكبير الخشن والوجه الأحمر فقد ظنّه الحوذي، فقال: «والآن يا صديقي، ما الذي تفعله هنا؟» فعرّف اللورد أبركرومبي بنفسه متواضعًا، وأنه أتى للغداء، فاغتم المضيفُ المسكين قائلًا بعدئذ: «لماذا لا يضع نجومه وأوسمته فيعرف المرءُ عندئذ أنه لورد؟»».

ضحكت الفتيات ثانيةً، وفضح الحفيف الكثير تزين كل منهن قبل قدوم الضيفة المبجلة، حتى السيدة جو عدلت ياقتها، وتأكدت السيدة مِغ من قبعتها، أما بِس فهزت خصلَ شعرها ووقفت جوزي أمام المرآة متحديةً، إذ كن نساءً رغم الفلسفة والإحسان.

«أعلينا النهوض جميعًا؟»، سألت فتاة منفعلةً للغاية من الساعة المرتقبة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«سيكون ذلك لائقًا».

«أنصافحها؟».

«كلا، سأعرّف بكنّ بالجملة، وستكون وجوهكنّ البشوشة تعريفًا كافيًا».

«ليتني لبست أفضل ثيابي. كان عليكم إبلاغنا»، همستْ سالي.

«ألن يدهشَ أهلي إن أخبرتهم بزيارة ليدي حقيقية لنا؟»، قالت أخرى.

«لا تظهري أنك لم تري امرأةً من النبلاء من قبل يا ميلي. فنحن لسنا قادماتٍ من البراري»، أضافت آنسة وقورةٌ يعود أسلافها إلى ماي فلور، فأحست أنها مكافئةٌ للرؤوس الأوروبية المتوجة.

«صه، إنها قادمة! آه يا قلبي، يا لها من قبعة!»، قالت فتاةٌ مرحة هامسة همسًا مسرحيًا، وثبتت الأنظار على الأيدي المشغولة لما فتح الباب لإدخالِ السيدة لورنس وضيفتها.

كانت صدمة للفتيات نوعًا ما، بعد التعريف العام بهن، أن يرين سليلة مئات الإيرلات سيدة بدينة تلبس ثوبًا بسيطًا، وقبعة سفعتها الشمس، تحمل في يدٍ حقيبة أوراق وفي الأخرى دفترًا. لكن الوجه مفعمٌ بالإحسان، والصوتَ الجهوري لطيف، والأخلاقَ الدمثة ساحرة للغاية، وحول المرأة كلها هالةٌ لا توصف من النسب

الرفيع جعل الجمال بلا أهمية، والثياب تنسى سريعًا، واللحظة تبقى في ذاكرة الفتيات ثاقبات النظر اللاتي لم يفتهن شيء.

دار حديثٌ قصير حول بدء هذا الصف ونموه ونجاحه، ثم قادت السيدة جو الحديث إلى عمل السيدة الإنجليزية، تواقة لتظهرَ لطالباتها أن المنزلة الرفيعة تكرّم العمل، والثروة تبارك الإحسان.

كان حسنًا معرفة الفتيات عن المدارس المسائية اللاتي تدعمها وتدرّس فيها نساء تعرفهن [هؤلاء الفتيات] ويبجلهن، وبفوز احتجاج الآنسة كوب البليغ بحماية القانون للزوجات المعنفات، وإنقاذ السيدة بتلر للضائعات، والسيدة تايلر التي خصصت غرفة من بيتها الأثري لتكون مكتبة للخدم، واللورد شافتسبري المشغول ببناء الشقق في الأحياء الفقيرة في لندن، وإصلاح السجون، وكل الأعمال الجريئة التي أنجزت باسم الرب على يد الأغنياء والعظماء من أجل الفقراء والمساكين. لقد أثار إعجابهن أكثر مما تفعله كثيرٌ من المحاضرات البيتية، وأوقدت فيهن الرغبة في المساعدة عندما يحين وقتهن، مدركات تمام الإدراك أنه لا بد من فعل الكثير في أمريكا العظيمة قبل أن تصبح ما ينبغي لها، بلادًا للعدل والحرية والمجد. كما أدركن سريعًا أن الليدي أبركرومبي عاملتهن جميعًا معاملةَ الأنداد، من السيدة لورنس الراقية، وحتى جوزي الصغيرة التي لاحظت كلّ شيء وعزمت في سرها على أن يكون لها حذاءٌ إنجليزي متين النعل بأسرع ما يمكن. ما كان لأحد أن يعلم أنها تملك بيتًا كبيرًا في لندن، وقلعة في ويلز، ومجلسًا ريفيًا كبيرًا في اسكتلندا، إذ تحدثت عن پارناسوس بإعجاب، وعن پلمفيلد بوصفه «البيت الحبيب»

وعن الكلية لأنها شرفٌ لكل من يهتم بها. عندئذ علا كل رأس قليلًا، وحين غادرت الليدي كانت كل يدٍ مستعدة لمصافحة حارة صافحتهن بها النبيلة الإنجليزية، بكلمات تذكرنها طويلًا:

«يا لسروري برؤية هذا الفرع المهمل من تعليم المرأة وقد روعي جيدًا هنا، وعليّ أن أشكر صديقتي السيدة لورنس على واحدةٍ من أبهى الصور التي رأيتها في أمريكا؛ پينلوپ بين وصيفاتها».

راقب جمعٌ من الوجوه الباسمة الحذاء الضخم يبتعد، وتبعت نظرات الاحترام القبعةَ البالية حتى غابت عن الأنظار، وأحست الفتياتُ باحترام لضيفتهن المبجلة أصدق مما لو جاءت في عربة تجرها ستة خيول، واضعة كل جواهرها.

«ينتابني شعورٌ أفضل حيال «الأعمال الغريبة» الآن. ليتني أستطيع أداءها جيدًا مثل الليدي أبركرومبي»، قالت واحدة.

«شكرتُ حظي على أن عُرى أزراري كانت جميلة، لأنها نظرت إليها وقالت: «أقسم بشرفي إنها لبراعة»»، أضافت أخرى، شاعرةً أن ثوبها ذا النقوش المربعة بلغَ مراتب الشرف.

«أخلاقها عذبةٌ وحلوة مثل السيدة بروك، ليستَ رسميةً أو متعالية كما ظننت. أفهم الآن ما عنيته يا سيدة باير عندما قلت مرةً إن الناس ذوي الأصل العريق يتشابهون في كل أرجاء العالم».

انحنت السيدة مِغ شاكرةً على الإطراء، وقالت السيدة باير:

«أعرف هؤلاء عندما أراهم، لكني لن أكون قدوةً في السلوك.

يسرني أنكنّ استمتعتن بالزيارة القصيرة. والآن، إن لم يرغب الشبابُ في تفوق إنجلترا علينا بصور عدة، فعليكم أن تتحركوا وتساندوا بعضكم بعضًا، لأن أخواتنا جادات كما ترين، ولن يضعن الوقت في القلق على مكانهن، بل سيقدمن على أي واجب يدعوهن».

«سنبذل قصارى جهدنا يا سيدتي»، أجابت الفتياتُ بحماس، وسرنَ خارجات مع سلال الأشغال، ورغم أنهن لن يكنّ هارييت مارتينيز، أو إلزابث براوننغ، أو جورج إليوت، فإنهن قد يصبحن نساءً نبيلاتٍ نافعات مستقلات، ويكسبن لأنفسهن لقبًا حلوًا من شفاه الفقراء الممتنين، أفضل مما قد تمنحه أي ملكة.

## (١٨)

# يوم التخرج

لا شك أن موظف الطقس يهتم بأمر الشباب، فيرسل الشمس الساطعة يوم التخرج قدر ما استطاع. أشرق صباح جميل على پلمفيلد لدى اقتراب العيد السنوي جالبًا معه صحبه المعتادين من الورد والفراولة والفتيات لابسات البياض، والشبان المبتهجين والأصدقاء الفخورين والأعيان المهيبين المفعمين بالرضا الحقيق بالحصاد السنوي. ولما كانت كلية لورنس مختلطة، فقد أضفى حضور الشابات بوصفهن تلميذات على المناسبة أناقة وحيوية تفتقد تمامًا لو كان نصف المجتمع متفرجات فحسب. امتلكت الأيدي التي قلّبت صفحات كتب الحكمة المهارة لتزيين القاعة بالورد، وتلألأت الأعين التي أتعبها الدرس بدفء حميم للضيوف المجتمعين، وتحت ثياب الموصلين البيضاء نبضت قلوب يغمرها الطموح والأمل والشجاعة كتلك التي تحرك الأجواخ التي تكسو الجنس الغالب.

امتلأ كولج هِل وپارناسوس وپلم القديم بالوجوه البشوشة، إذ أسرع الضيوف والطلاب والأساتذة في غدوّهم ورواحهم في بهجة

إثارة الوصول والاستقبال. وكان الجميع محل ترحاب ودود، سواء أدرجت به عربةٌ فاخرة، أم جاء راجلًا ليرى الابن أو الابنة ينالان التكريم في اليوم السعيد الذي كافأ تضحيات مشتركة عديدة. وكان السيد لوري وزوجته في لجنة الاستقبال، وكان بيتهما الجميل ممتلئًا. وكانت السيدة مِغ، وديزي وجو مساعدتاها، تلبّي طلب الفتيات وتساعد في تزيين المتأخرات، وتبدي رأيها في الموائد، وتوجّه أمر التزيين. وكانت يدا السيدة جو مشغولتين باعتبارها زوجةَ الرئيس، وأم تِد إذ احتاجت تلك السيدة كل القوة والطاقة لتلبس ابنها بذلة الأحد.

لم يعترض على حسن الهندام، كلا قطعًا، إذ تستهويه الثياب الجميلة، ونظرًا لطوله البارز فقد تنعّم ببذلة كاملة أورثها له صديق متأنق. فكانت النتيجة طريفة، لكنه سيلبسها رغم سخرية رفاقه، وتنهّد ليحصل على عَمرةٍ بلا جدوى، لأن أمه الصارمة وضعت حدًا لهذا، وتوسل قائلًا إن الفتيان الإنجليز يلبسونها في عمر العاشرة وكانوا بالغي الأناقة، لكن أمه اكتفت بالإجابة، بتربيتة مواساة على الشعر الأشقر:

«يا صغيري، إنك مضحك بما يكفي هكذا. وإن جعلتك تعتمر قبعة طويلة، فلن يتسع بلمفيلد لأحدنا، إذ سينال الازدراء والسخرية من الناظرين. ارضَ بأن تبدو مثل شبح نادل، ولا تطلب أسخف قبعةٍ عرفت على وجه الأرض».

فحرم تِد من وسام الرجولة هذا، وداوى روحه الجريحة بوضع

ياقات ذات ارتفاع ونشاء رائعين، وربطة عنق أثارت إعجاب عيون كل الفتيات. وكانت هذه النزوة انتقامه من أمه قاسية القلب، فقد أصابت الياقات غسالة الثياب باليأس، إذ لا تحسن تنظيفها، وربطات العنق تحتاج فنًا في عقدها تجهد أحيانًا ثلاث نساء طويلًا قبل أن يستدير -مثل بو برومل[1]- من كومة «الربطات الفاشلة» ليقول بكلمات الرضا: «هذا جيد». انشغل روب بجلسات التجريب، وقد عرف هندامُه بسرعته وبساطته وأناقته. وعرف تِد بهياجه قبل أن يلبس البدلة، فتُسمع دمدمته وصفيره وأوامره وتأوهاته من العرين الذي يزأر فيه الأسد والحمل يعمل بصبر. واحتملت السيدة جو ذلك حتى تتكدّس الأحذية وينهمر مطر من الأمشاط، ثم خوفًا على سلامة ابنها الأكبر، تهبّ للنجدة، وبمزيج حكيم من المرح والسلطة تنجح أخيرًا في إقناع تِد أنه «آية في الجمال»، إن لم يكن «بهجة العين للأبد». فيتقدم أخيرًا بأبّهة، حبيس الياقات التي ستبدو كشاكش لا تستحق الذكر إن قورنت بياقات بايلر التعس أحد شخصيات دكنز. كان المعطفُ فضفاضًا ناحية الكتفين، لكنه أتاح فسحة جميلة لبروز الصدر اللامع، والمنديل الرقيق يميل بلا اكتراثٍ في الزاوية المناسبة، فأضفى جمالًا حقيقيًا. وظهر الحذاء اللامع الضيّق أيضًا عند طرف «مشجب الثياب الأسود الطويل»، كما تسمي جوزي تد، ووجه يافع رزين عند الطرف الآخر، يُميله في زاوية لو دامت طويلًا لأحدثت تقوسًا في العمود الفقري. قفازان خفيفان وعصًا و- آه، يا لها من

(١) شخص بارز في عهد الوصاية على العرش الإنجليزي وكان مستشارًا في ثياب الرجال، وارتبط اسمه بالتأنق والمظهر الحسن.

قطرة مريرة في كوب الفرح!- قبعة قش مذلة، ناهيك عن زُهيْرة من الطراز الأول في العروة، وسلسلة ساعة تحتها أكملت هندام الفتى الوسيم.

«ما رأيك بهذا الطراز؟»، سأل خارجًا على أمه وقريباته اللاتي سيقودهن إلى القاعة في هذه المناسبة المميزة.

حيّته صيحات ضاحكة، أعقبتها صيحات ذعر، لأنه أضاف ببراعةٍ شاربًا أشقر يضعه كثيرًا عندما يمثل. لقد كان آسرًا جدًا، وبدا البلسم الوحيد لدواء الجرح بعد خسارته قبّعته الحبيبة.

«أزلْه في الحال أيها الفتى العابث! ماذا يقول أبوك عن هوك في هذا اليوم الذي ينبغي لنا فيه أن نحسن التصرف؟»، قالت السيدة جو محاولة أن تعبس، لكنها في سرّها تقول إن من بين الشبان الكثيرين حولها لم يكن أحدهم جميلًا وأصيلًا بقدر ابنها الطويل.

«دعيه يضعه يا خالتي، إنه آسرٌ جدًا. ولن يحسب أحد أنه لم يبلغ الثامنة عشرة بعد»، قالت جوزي، التي رأت الأقنعة فاتنةً أيًا كان نوعها.

«لن يلحظه أبي، إذ سيكون منشغلًا بشعره المستعار والفتيات. ولا بأس إن رآه، إذ سيضحك للدعابة ويقدمني على أني ابنه البكر. ولن ينجح روب ما دمت في كامل أُبّهتي»، واحتلّ تِد خشبة المسرح بمشية تراجيدية، مثل هاملت يلبس معطفًا مذيّلًا وقبّة عالية.

«أطعني يا بُني!»، كانت كلمة السيدة جو هي القول الفصل إن

تحدثت بهذه النبرة. غير أن الشارب ظهر لاحقًا، وصدق كثيرٌ من الغرباء أن لآل باير ثلاثة أبناء. وهكذا وجد تد شعاعًا من الفرح يخفف كآبته.

كان السيد باير رجلًا فخورًا وسعيدًا حين نظر، في الساعة المشهودة، إلى روضة الوجوه الشابة أمامه، متذكّرًا الحدائق الصغيرة التي بذر فيها بذورًا طيبةً طوال سنوات آملًا مخلصًا، ومنها نبت هذا الحصاد الجميل. وأشرق وجه السيد مارش العجوز الهادئ بالرضا الجليل، إذ كان هذا حلم حياته يتحقق بعد انتظار صبور، وأظهر الحب والإكبار على سيماء الشباب والشابات الناظرين إليه أن الثواب الذي ابتغاه جاء على أكمل وجه. أعفى لوري نفسه في مثل هذه المناسبة بقدر ما تسمح به اللياقة، إذ تحدث الكل بامتنان في نشيد وقصيد وخطبة عن مؤسس الكلية وتوزيعه النبيل لعطاياه. واتقدت الأخوات الثلاث فخرًا وهن يجلسن بين السيدات يستمتعن، كما تفعل النساء فحسب، بالشرف الذي ناله الرجال الذين يحببن، أما «الپلميون الأصليون» كما يسمّي اليافعون أنفسهم، فقد رأوا عملهم يحصد نظرات الفضول والإعجاب والحسد من الغرباء بمزيجٍ من الإجلال والبهجة تثير رؤيتهما الضحك.

كانت الموسيقى رائعة، ولا بد أن تكون كذلك ما دام أپولو يلوّح بعصا القائد. وتنوعت روعة القصائد -كالعادة في مناسبات كهذه- إذ حاول المتحدثون اليافعون أن يصيغوا الحقائق القديمة في كلماتٍ جديدة، وأضفوا عليها القوة بحماس وجوههم الجادة وأصواتهم الفتية. كانت جميلةً رؤية الاهتمام والشوق الذي استمعت

به الفتيات إلى زميلٍ ذكي وصفقن له بحفيف كالريح فوق حوض من الزهور. وكانت الأبهى والأجمل رؤيةً وجوه الشبّان عندما وقفت فتاةٌ رشيقة تلبس البياض وخلفها الأعيان ذوو المعاطف السوداء، بوجنتين تحمرّان وتشحبان، وشفتين ترتعشان إلى أن هزم خوفُ الفتاة على يد الهدف الجاد، وتحدثت إليهم بقلب امرأة وعقلها حول الآمال والمخاوف، والطموح والمكافأة التي يعرفها الجميع، والرغبة والعمل لتحقيقها. وصل هذا الصوتُ الحلو الصافي إلى الجميع وأيقظ كل ما هو نبيل في نفوس الشباب، وختم كل سنوات الزمالة التي قدستها وخلّدت ذكراها إلى الأبد.

أجمع الكل على أن خطبة ألِس هيث كانت قمة اليوم، دون أن تكون حالمة أو عاطفية، كما هو حري بأن تكون الحال مع المحاولات الأولى للخطباء الشبّان. لكنها كانت جادةٌ معقولة ملهمة للغاية فتركت المنصةَ بعاصفة من التصفيق، إذ اتقد حماس الزملاء الطيبين بفعل مناشدتها المؤثرة بأن «يسيروا جنبًا إلى جنب»، كأنها تترنم بـ «لامارسييز»[1] في تلك اللحظة. كان أحدُ الشبان متحمسًا للغاية حد أنه اندفع من مقعده ليستقبلها وهي تتعجل إخفاء نفسها بين رفيقاتها، اللاتي رحبن بها بوجوه ملؤها الفخر الرقيق والعيون المغرورقة بالدمع. لكن أختًا حصيفة أوقفته فاستطاع الإصغاء بهدوءٍ إلى ملاحظات الرئيس.

---

(١) النشيد الوطني للجمهورية الفرنسية، كُتب في عهد الثورة الفرنسية، واعتمدته فرنسا نشيدًا لتسع سنوات إلى عهد الإمبراطورية الفرنسية، وفي عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة اعتمد نشيدًا دائمًا. «انهضوا يا أبناءَ الوطن/ فقد دقت ساعة المجد! بعد أن رُفعت في وجهنا/ راياتُ الاستبداد المدممة».

كانت جديرة بالاستماع إليها، لأن السيد باير تحدث كأب للأبناء الذين يُخرجهم اليوم إلى معركة الحياة، ومكثت كلماته الحنون الحكيمة المعينة في قلوبهم طويلًا بعد أن نسوا المديح. ثم بدأت التمارين التي يشتهر بها پلمفيلد، والختام. لماذا لم يطِر السقف عندما غنّت الرئات القوية للشبان المتحمسين ترنيمة الختام ذاك ما سيظل سرًا إلى الأبد، لكنه ظل متماسكًا ورددت الزينة الباهتة موجات الموسيقى والتفّت عاليًا ثم تلاشت، تاركة أصداءً عذبة تملأ المكان عامًا آخر.

استغرق العصريةَ تناولُ الغداء والمرطبات، وعند الغروب خيم على المكان هدوء خفيف كأنما أراد الجميع غفوةً قصيرة قبل بدء احتفالات المساء. كان استقبال الرئيس أحد الأمور الممتعة المنتظرة، والرقص في پارناسوس أيضًا إلى جانب التنزّه والغناء والتودد، مثلما يجمعها في بضع ساعات شبابٌ وشابات تخرجوا لتوهم. وأخذت العربات تدرج، وجلست مجموعات فرحة في الشرفات المقنطرة وعلى المروج ومقاعد النوافذ متراخية تبين من بينهم الضيوف. وأثار منظرُ العربات المغبرّة المحملة بالصناديق قرب باب مَضافة السيد باير تعليقاتٍ فضولية من المتسكعين، وبخاصة عندما خرج منها رجلان نبيلان هيئتهما أجنبية، تتبعهما شابتان، واستقبل الأربعة ببكاء الفرح وكثيرٍ من العناق لدى آل باير. ثم اختفوا كلهم في البيت، وأدخلت الأمتعةُ، وتُرِكَ المتفرجون ليتساءلوا عن هوية الغرباء الغامضين، حتى قالت تلميذةٌ من الكلية إنهما ابنا أخت الأستاذ، وأحدهما قادمٌ من أجل زفافه.

كانت محقة، إذ قدّم فرانز عروسه الشقراء الجميلة البضة، ولم تكد تنال القبلات والمباركات حتى جاء إميل بفتاته الإنجليزية البيضاء ميري، معلنًا بفرح:

«خالي، عمّتي جو، هذه ابنةٌ أخرى! أعندكما مكانٌ لزوجتي أيضًا؟».

لديهما بلا ريب، وأنقذت ميري بمشقةٍ من العناق السعيد لأقاربها الجدد الذين أحسوا أن هذه هي النهايةُ الطبيعية السعيدة للرحلة الطويلة التي بدأت بكثير من المحن، بعدما تذكّروا كل ما مر به الاثنان معًا.

«ولكن لماذا لم تخبرْنا لنستعد لعروسَين عوضًا عن واحدة؟»، سألت السيدة جو، وهي تبدو في حال مزرية كعادتها ملتفةً بدثارها وواضعةً دبابيس التعقيص، وقد هرعت للأسفل من غرفتها حيث كانت تستعدّ لأعمال المساء.

«حسن، تذكرتُ اعتباركم زفاف العم لوري مزحة، وفكّرت بمنحكم مفاجأة أخرى جميلة»، ضحك إميل، «أنا في إجازة، وبدا أن عليّ استغلال الريح والتيار، وأن آتي مرافقًا لفتانا هذا. تمنينا أن نصل البارحة، ولم نستطع اللحاق بالقطار، وها نحن في الموعد المناسب لنهاية اليوم السعيد على أية حال».

«آه، يا ولديّ، بهجةٌ للقلب أن أرى كليكما سعيدين وفي بيتنا القديم ثانية، ليس عندي كلمات أعرب بها عن امتناني، لكني سأطلب من الرب العزيز في السماء أن يبارككم ويحفظكم جميعًا»، قال الأستاذ

باير، محاولًا جمع الأربعة بين ذراعيه، والدموع تنهمر على خديه، إذ خانته لغته الإنجليزية.

صحا الجو بعد وابل من شهر أبريل وأراح قلوب العائلة السعيدة، ثم أخذ الجميع يتحدثون؛ فرانز ولودميلا بالألمانية مع الخال، وإميل وميري مع الخالات، وحول هذا الجمع تحلّق الصغار، محتشدين لسماع كل شيء عن تحطم السفينة والنجاة ورحلة العودة. كانت قصة مختلفة تمامًا عن المكتوبة، ولما استمعوا إلى كلام إميل المفعم بالصور، وصوت ميري الرقيق يتدخّل بين الفينة والأخرى لإضافة حقيقةٍ أظهرت شجاعته وصبره وتضحيته بنفسه، التي لم يمر عليها إلا لمامًا، غدت رؤية هذا الثنائي السعيد يقصّ كل الخطر العظيم والنجاة أمرًا مهيبًا وجليلًا.

«لا أسمع وقع المطر الآن دون أن تعتريني رغبةٌ في تلاوة صلواتي. أما النساء، فأود أن أرفع قبعتي لكل واحدة منهن، لأنهن أشجع من أيّ رجل رأيته»، قال إميل باحترام جديد كان آسرًا فيه بقدر اللطف الذي عامل به الجميع.

«إن كانت النساء شجاعات، فبعض الرجال رقيقون يضحّون بأنفسهم بقدر النساء. أعرف واحدًا دسَّ في الليل حصته من الطعام في جيب فتاة، رغم تضوّره جوعًا وجلس لساعاتٍ يهز رجُلًا مريضًا بين ذراعيه حتى يخلد للنوم قليلًا. كلا يا حبيبي، سأحكي وعليك أن تدعني أحكي!»، قالت ميري ممسكةً بكلتا يديها اليد التي وضعها على شفتيها ليسكتها.

«لقد فعلتُ واجبي فحسب. لو دام البلاء أطول قليلًا فلربما كنت سيئًا بقدر باري المسكين وعريف الملاحين، ألم تكن ليلةً مريعة؟»، وارتعش إميل وهو يتذكّرها.

«لا تفكّر بها يا عزيزي، احكِ عن الأيام السعيدة على أورانيا عندما تماثل بابا للشفاء وكنا كلنا بأمان نيمّم شطر الديار»، قالت ميري بنظرة واثقة ولمسة مؤنسة بددت الظلمة واستعادت الجانب المشرق من تلك التجربة الرهيبة.

ابتهج إميل من فوره، وجلس مطوقًا «فتاته الحبيبة»، وقصّ النهاية السعيدة للحكاية بأسلوب بحّارٍ حقيقي.

«يا للوقت السعيد الذي قضيناه في هامبورغ! لم يكن العمّ هيرمن قادرًا على العناية بالقبطان، فاعتنت به ماما، واهتمّت بي ميري. كان عليّ الذهاب إلى المرفأ للإصلاح، وقد آذت النار عيني، وجعلهما البحث عن شراع والحاجة إلى النوم مغبشتَينِ مثل ضباب لندن. فكانت مرشدي وخير مرشد كما ترين، غير أنني لم أستطع أن أفارقها فصعدت على ظهر السفينة بوصفها مساعدًا أول، وأنا أتّجه نحو المجد».

«صه! هذا سخفٌ يا عزيزي»، همست ميري محاولة أن تسكته بدورها، بخجلها الإنجليزي حول المواضيع الرقيقة، لكنه أخذ اليد الناعمة في يده، وعاين فخورًا الخاتم الذي تضعه، وتابع حديثه بهيئة الأدميرال على متن بارجته.

«اقترح القبطان أن ننتظر لفترة، لكني أخبرته أننا لن نرى طقسًا أسوأ مما خضناه معًا، وإن لم نعرفْ بعضنا بعضًا بعد سنة كهذه، فلن

نفعل أبدًا. كنت واثقًا أنني لا أستحق مكافأتي لولا وجود هذه اليد على الدفّة، لذا شققت طريقي، وأبحرَت امرأتي الشجاعة الصغيرة في الرحلة الطويلة. باركها الرب!».

«أستبحرين معه حقًا؟»، سألت ديزي معجبة بشجاعتها، لكنها تجفل كالقطة من أهوال البحر.

«لستُ خائفة»، أجابت ميري بابتسامةٍ مخلصة، «لقد عرفتُ قبطاني في الصحو والمطر، وإن تحطمت سفينته ثانية، أؤثر أن أكون معه على الانتظار والمراقبة من الشاطئ».

«امرأةٌ حقيقية، وُلدتْ لتكون زوجة بحار! إنك لرجل سعيد يا إميل، وأنا واثقةٌ أن هذه الرحلة ستكون مثمرة»، قالت السيدة جو، مسرورةً بالطعم الأجاج لهذا الغزل. «أوه يا فتاي العزيز، أحسست دومًا أنك ستعود عندما نال اليأس من الآخرين ولم أستسلم، لكني أصررتُ أنك متشبثٌ بالشراع الرئيس العلوي في مكانٍ ما في ذلك البحر المخيف»، وأبدت السيدة جو إيمانها بالإمساك بإميل بإيماءة يلميكودية.

«كنت كذلك حقًا!»، أجاب إميل بحماس، «وشراعي الرئيس العلوي في هذه الحال كان التفكيرُ بما قلته أنتِ وخالي لي. لقد أبقاني ذلك متماسكًا، وبين ملايين الأفكار التي خطرت لي أثناء تلك الليالي الطويلة لا شيء كان أوضح من فكرة الخيط الأحمر، والبحارةُ الإنجليز وكل ذلك، أتذكرين؟ أحببت الفكرة، واهتديت إلى أن الشريط الأحمر سيكون موجودًا إن بقي شيء من حبلي طافيًا».

«وقد كان يا عزيزي، لقد كان! يشهد القبطان هاردي بذلك، وها هي مكافأتك»، وقبّلت السيدة جو ميري بحنان أمومي فضح حبها للوردة الإنجليزية أكثر من زهرة القنطريون الألمانية زرقاء العينين، رغم حلاوتها وتواضعها.

استجلى إميل الاحتفال الصغير بانشراح قائلًا، وهو ينقل نظره في أرجاء الغرفة التي ظنّ أنه لن يراها أبدًا: «أليس غريبًا أن يستعيد المرء صغائر الأمور في لحظات الخطر؟ ونحن طائفون هناك، نتضور جوعًا يائسين، ظللت أحسب أني سمعت الأجراس تقرع هنا، وتِد ينزل خابطًا، وأنت تنادين «يا أولاد، يا أولاد، حان وقتُ النهوض!» لقد استنشقت رائحة القهوة التي نشربها عادةً، وكدت أبكي ذات ليلة لما استيقظت من حلم بكعكات الزنجبيل التي تصنعها آسيا. أعترف أن أقسى لحظات الخيبة في حياتي مواجهة الجوع ورائحة البهار تداعب منخري. أعطوني واحدةً إن كان لديكم شيئًا منها!».

اندلعت غمغمةٌ مشفقة من الخالات والأنسباء، وأخذ إميل على الفور يأكل من الكعكات المشتهاة، إذ إنها في متناول اليد دومًا. انضمت السيدة جو وأختها إلى المجموعة الأخرى، مسرورةً بما كان فرانز يقوله عن نات.

«حالما رأيت نحوله ورثاثة ثيابه، عرفت أن في الأمر خطبًا، لكنه هوّن الأمر وسعد كثيرًا بزيارتنا وأخبارنا ولم أتركه إلا بعد اعتراف موجز. وذهبت إلى الأستاذ بومغارتن وبيرغمن، ومنهما عرفت القصة كاملة عن تبديده مالًا أكثر مما يجب ومحاولته التكفير عن ذلك

بمزيد من العمل والتضحية. يرى بومغارتن أن هذا سينفعه، لذا أبقى الأمر سرًا حتى أتيت، ولقد نفعه حقًا، فقد سدد ديونه وكسب قوته بعرق جبينه مثل رجلٍ شريف».

«أحب هذا كثيرًا في نات. إنه -كما قلت- درسٌ وقد تعلمه جيدًا. لقد أثبت أنه رجل واستحق المكان الذي عرضه عليه بيرغمن»، قال السيد باير مسرورًا للغاية حين أضاف فرانز بعض الحقائق التي قيلت قبلًا.

«أخبرتك يا مِغ أن جوهره طيب، وحبه لديزي سيبقيه مستقيمًا. الفتى العزيز، ليته هنا هذه اللحظة!»، قالت السيدة جو ناسيةً في غمرة سرورها الخوف والقلق اللذين أقضّا مضجعها لأشهر مضت.

«إنني في غاية السعادة، وأحسب أني سأستسلم كما أفعل دومًا، بخاصة بعد أن استعر الوباءُ بيننا. لقد عصفت أنت وإميل برؤوسهم، وستبحث جوزي عن عاشق في غمضة عين»، أجابت السيدة مِغ، بنبرة يأس.

لكن أختها رأت تأثّرها ببلاء نات، وسارعت بالحديث عن نجاحاته، ليكون النصر كاملًا لأن النجاح ساحرٌ دومًا.

«إن عرض السيد بيرغمن جيد، أليس كذلك؟»، سألت رغم أن السيد لوري قد طمأنها حول هذا الأمر من قبل عندما ذكر نات الخبر.

«جيد جدًا بكل الأشكال. سيحصل نات على منصبٍ رفيع في أوركسترا، ويرى لندن مبتهجًا، وإن كان جيدًا فسيعود معهم إلى

الديار، بين آلات الكمان. ليس شرفًا كبيرًا، لكنه إنجاز وخطوة للارتقاء. هنأته وكان مسرورًا به للغاية قائلًا كعاشق حقيقي: «أبلغ ديزي، احرص على إخبارها بهذا». سأترك لك هذا الأمر يا عمتي مِغ، كما يسعك أن تخبريها برفقٍ أن الفتى الحبيب له لحية شقراء، آسرةٌ جدًا، تخفي شفتيه الرفيعتين، وتضفي على عينيه سمة النبل و«سيماء مندلسن»[1] مثلما سمتها فتاة مندفعة. بحوزة لودميلا صورة له من أجلك».

أسعدهم هذا، واستمعوا إلى العديد من الأخبارِ المثيرة الأخرى، التي لم ينس فرانز الطيب، في خضم سعادته، أن يتذكّرها حبًا بأصدقائه، فتحدث بكلام طيب، وصوّر تغيّر نات الصبور والمثير للشفقة تصويرًا حيًا، حتى كادت السيدة مِغ تلين رغم أنها لو علمت عن حكاية مينا وعزف الكمان في الحانات والشوارع، لما لانت بهذه السرعة. حفظت كل ما سمعته، وكعادة النساء، وعدت نفسها بحديثٍ حلو مع ديزي ستسمح لنفسها من خلاله أن تلين شيئًا فشيئًا ولعلّها تغّير عبارتها الشكاكة «سنرى» إلى عبارة مؤنسة «لقد أبلى حسنًا، فاسعدي يا عزيزتي».

في خضم هذا الحديث الجميل دقت الساعة دقاتٍ مفاجئةً وأعادت السيدة جو من الخيال إلى الواقع، وقالت وهي تتحسس مشابك التعقيص:

---

(١) موسيقار ألماني وقائد للأوركسترا في الحقبة الرومانتيكية المبكرة. ولد لعائلة يهودية ذائعة الصيت، فجده هو موسى مندلسن الفيلسوف الألماني البارز في القرن الثامن عشر.

«يا أحبتي، عليكم أن تتناولوا الطعام وتنالوا قسطًا من الراحة، وعليّ أن أتهندم وإلا استقبلت الضيوف بهذه الثياب المخجلة. هلا أخذت لودميلا وميري إلى الأعلى واعتنيت بهما يا مِغ؟ يعرف فرانز الطريق إلى غرفة الطعام، تعال معي يا فرتز وتأنق اليوم، لأن كلينا في حالٍ مزرية من الحرارة والانفعال».

# (١٩)
# ورود بيضاء

أثناءَ ارتياح المسافرين، ومجاهدة زوجة الرئيس للبسِ فستانها، هرعت جوزي إلى الحديقة لتجمع زهورًا للعروسين. فقد سحر الفتاة الرومانسية الوصولُ المفاجئ للفتاتين المثيرتينِ للاهتمام، وامتلأ رأسها بصور النجاة البطولية، والإعجاب الرقيق، والمواقف الدرامية، والفضول الأنثوي إن كانت الجميلتان ستضعان خماريهما أم لا. كانت تقف أمام شجيرة كبيرة للورود البيضاء، تنتقي أجملها للباقتين اللتين تود ربطهما بشريط معلّق على ذراعها، وتضعهما على طاولات الزينة للقريبتين الجديدتينِ في لفتة رقيقة. فأفزعها وقع أقدام، ورفعت نظرها ورأت أخاها قادمًا من آخر الدرب بذراعين متقاطعتين، ورأس مطأطئ، وشرود امرئ غارق في تفكير عميق.

«صوفي وكلز»، قالت الفتاةُ الذكية، بابتسامة نصر وهي تمصّ إبهامها الذي وخزته أغصان شائكة جذبتها بحماس.

«ما الذي تفعلينه هنا أيتها اللئيمة؟»، سأل ديمي، بإجفال

إرڤنغي[1]، إذ أحس بما يقلق أحلام يقظته دون أن يراه. «أقطف الورد لعروسينا. ألا تتمنّى لو كان لك واحدة؟»، أجابت جوزي التي أوحت كلمة «اللئيمة» بأحبّ تساليها.

«عروس أم زهرة؟»، أجاب ديمي بهدوء رغم أنه نظر إلى الشجيرة المزهرة كأنما أثارت اهتمامه فجأة وعلى غير العادة.

«كلاهما، أنت تحصل على الأولى وأنا أقدّم لك الأخرى».

«ليتني أستطيع!»، وانتقى ديمي برعمًا صغيرًا بتنهيدة اخترقت قلب جوزي الدافئ.

«ولم لا؟ رؤية الناس سعداء جدًا أمرٌ حلو، والوقت الآن مناسب لتفعل ذلك إن أردت، إذ ستغادر قريبًا».

«مَن؟»، وسحب ديمي برعمًا يوشك أن يتفتح، وقد تلون وجهه فجأة، وفرحت جو الصغيرة بعلامة الاضطراب هذه.

«لا تكن محتالًا، تعلم أني أعني ألس. والآن يا جاك، أنا أحبك كثيرًا وأود مساعدتك، فالأمر ممتعٌ جدًا، أعني كل هؤلاء العشاق وحفلات الزفاف وغيرها، ولا بد أن يكون لنا نصيبنا. لذا خذ بنصيحتي واعترف كرجل، وتأكّد من ألس قبل مغادرتها».

ضحك ديمي على جدية نصيحة الفتاة الصغيرة، لكنها أعجبته وأبدى موافقته له إذ قال برقة، بدلًا من زجرها كعادته:

---

(١) نسبة إلى واشنطن إرڤنغ الكاتب الأمريكي الشهير.

«إنك لطيفةٌ جدًا يا صغيرة، وما دمت حكيمة، أتمنحنيني إلماحة حول أفضل الطرق «للاعتراف» كما وصفته بأناقة؟».

«أوه، حسنٌ لديك طرقٌ كثيرة كما تعلم. في المسرحيات يجثو العاشق على ركبته، لكن هذا مربك إن كان له ساقان طويلتان. لن يُحسن تِد فعل ذلك أبدًا، رغم أني سأدربُه لساعات. يمكنك أن تقول كوني لي، كوني لي! «مثل الرجل العجوزِ الذي ألقى بالخيار من فوق الحائطِ إلى السيدة نكلبي»[1]، إن أردت أن تكون بسيطًا أنيقًا، أو يمكنك أن تكتب أغنيةً شاعرية، أحسب أنك جربتها من قبل».

«ولكن صدقًا يا جو، أنا أحب ألس وأظنها تعلم ذلك. أود أن أخبرها، لكني أهلع كلما حاولت، ولا أبالي إن جعلتُ من نفسي أحمق. ظننتكِ ستقترحين طريقةً جميلة، فأنت رومانسية للغاية وتقرئين الكثير من الشعر».

حاول ديمي أن يفصح عن مكنونات نفسه بصراحة، لكنه نسي رزانته وتحفظه المعتاد في الحيرة الحلوة لحبه، وسأل أخته الصغيرةَ أن تعلمه كيف يقول السؤال الذي تجيب عنه كلمة واحدة. إن وصول القريبين السعيدين بعثر خططه الحكيمة وقراراته الشجاعة بالانتظار أكثر، وقد منحته مسرحية عيد الميلاد الجرأة على التمنّي، وملأته خطبة اليوم بالفخر الرقيق، لكن رؤية هاتين العروسين الجميلتين والعريسين المسرورين كانت كثيرة عليه، وسعى للحديث إلى ألس دون لحظة تأجيل. كانت ديزي موضع أسراره في كلّ الأمور عدا

(١) من شخصيات دكنز.

هذا، إذ جعله إحساسٌ أخوي بالعطف يحجم عن إخبارها بآماله، لأن آمالها محظورة. كانت أمه تغارُ من أية فتاة يعجب بها، ولكنه يعلم أنها تحب ألس، فاستمر في حبها واستمتع بسرّه وحده، عاقدًا العزم على إخبارها بالأمر قريبًا.

كأن جوزي وشجيرة الورد أوحتا له فجأة بنهايةٍ سريعة لحيرته الرقيقة، واضطر لقبول عونها كما طلب الأسدُ الواقع في الشّباك عون الفأر.

«أظنني سأكتب»، قال ببطءٍ بعد صمتٍ حاول فيه كلاهما أن يأتيا بفكرة جديدة لامعة.

«وجدتُها! رائع تمامًا! والأمر يناسبها ويناسبك أنت أيضًا لأنك شاعر!»، قالت جوزي وهي تقفز.

«ما الأمر؟ لا تكوني سخيفةً من فضلك»، توسل العاشق المُضنى متحمسًا وخائفًا في الآن نفسه من سلاطة لسان هذه الفتاة.

«قرأت في إحدى قصص الآنسة إجزورث عن رجل يقدم ثلاث وردات لسيدته، برعم، ونصف متفتحة، وأخرى في كامل تفتّحها. لست أذكر أيها اختارت، لكنها طريقة جميلة، وألِس تعرفها لأنها كانت موجودةً حين قرأناها. وهنا كل الأنواع، لديك البرعمان، واختر أجمل ما تجده من الورود، وسأعقدها لك وأضعها في غرفتها، ستأتي لتتزين مع ديزي، لذا فإني أستطيع فعلها بسهولة».

فكّر ديمي للحظة وعيناه على الشجيرة العرائسية، وعلت وجهه

ابتسامةٌ لا تشبه أي واحدة ابتسمها من قبل، وهذا ما رأته جوزي، وأشاحت بنظرها كأنها ليس لها الحق في رؤية فجر عاطفة عظيمة تجعل الشابّ سعيدًا كإلهٍ حال دوامها.

«افعلي ذلك»، كان كل ما قاله، وقطف وردة متفتحة لتكمل رسالة حبه الوردية.مكتبة سر من قرأ

فتنت جوزي بأن يكون لها يد في هذه القضية الرومانسية، فعقدت ربطة أنيقة من الشرائط حول السيقان، وأنهت باقتها الأخيرة بكثير من الرضا، وكتب ديمي بطاقة:

«عزيزتي ألس، تعلمين معنى الزهور. فهلا وضعت واحدة أو كلها الليلة وجعلتني أكثر فخرًا وحبًا وسعادة مما أنا عليه؟

المخلص تمامًا

جون».

وأعطاها لأخته، وقال بنبرة جعلتها تدرك خطورة المهمة:

«إنني أثق بك، وهذا يعني لي كل شيء، لا مزاح يا عزيزتي، إن كنت تحبينني».

كان جواب جوزي قبلة وعدت بكل شيء، ثم هرعت إلى «نشاط رقيق» مثل أرييل[١]، تاركةً ديمي ليحلم بين الورود مثل فردناند.

---

(١) طيف في مسرحية العاصفة لشكسبير، وفردناند أمير نابولي في المسرحية نفسها.

أُخذت ميري ولودميلا بالباقتين، وسُرّت المانحة بوضع بعض من الزهور في الشعر الداكن والفاتح إذ لعبت دور الوصيفة لدى طاولة زينة «عروسينا» وهذا ما عوّض عن خيبة أملها في أمر الخِمارين.

لم يساعد أحد ألِس في زينتها، إذ كانت ديزي في الغرفة المجاورة مع أمها، ولم ترَ عيونهما السرور الذي تلقت به الباقة الصغيرة، ولا الدمع والابتسامات واحمرار الوجه الذي جاء وذهب وهي تقرأ البطاقةَ وتفكّر أي جواب تختار. ما من شك في الجواب الذي تمنّت منحه، لكن الواجب منعها، إذ كان في البيت أمّ عليلة وأب عجوز. كانا بحاجتها هناك، بكلّ العون الذي يمكنها تقديمه بما نالته من مؤهلات بعد أربع سنوات من الدراسة الجادة. بدا الحبّ في غاية العذوبة، وسيكون بيت لها ولجون جنة صغيرة على الأرض، ولكن ليس بعد، فوضعت جانبًا -ببطء- الزهرة المتفتحة وهي تجلس قبالةَ المرآة، تفكّر مليًا في سؤال حياتها.

أمنَ الحكمةِ واللطف أن تطلب منه الانتظار، أو أن تلزمه بأي وعد، أو أن تصيغ في كلمات الحب والاحترام اللذين تكنهما له؟ كلا، سيكون أكثر سخاءً أن تضحّي وحدها، وتعفيه من ألم حلم تحطّم. إنه شاب، وسينسى، وستقوم هي بواجبها على نحو أفضل، ربما، إن لم ينتظرها عاشق لجوج. بعينين يغشاهما الدمع، ويد أطالت المكوث عند ساق الوردة التي نزع عنها الشوك، وضعت الوردةَ نصف المتفتحة قرب المكتملة، وسألت نفسها إن أمكنها وضع البرعم الصغير. بدا ضئيلًا وباهتًا قرب الأخريين، لكنها مستعدة

للتضحية بالذات التي يدفع إليها الحب الحقيقي، ورأت أنها لا يسعها الإيحاء بأمل صغير، ما لم تتبعْه بشيء أكبر.

حين جلست تنظر بحزن إلى رموز المحبة التي تكبر كل لحظة، أصغت نصف ساهمة إلى همهمة الأصوات في الغرفة المجاورة، إذ جعلت النوافذ المفتوحة والسواتر الرقيقة وهدوء شفق الصيف تفادي السماع أمرًا مستحيلًا، وفي لحظات قليلة لم تستطع الإحجام لأنها تتحدث عن جون.

«كرمٌ من لودميلا أن تجلب لنا كلنا زجاجات من الكولونيا الألمانية! هذا ما نحتاجه تمامًا بعد اليوم المرهق! تأكدي أن يحصل جون على زجاجته! إنه يحبها للغاية!».

«أجل يا أمي، أرأيته يقفز حين أنهت ألس خطبتها؟ لو لم أمنعه لذهب إليها. لست أعجب أن كان مسرورًا وفخورًا، فقد أتلفت قفازيّ وأنا أصفق، ونسيت بغضي لرؤية النساء على المنصات، فقد كانت جادةً ومشغولة وجميلة بعد اللحظة الأولى».

«أأخبرك بشيء يا عزيزتي؟».

«كلا، وأحسبني أعرف السبب، فالفتى اللطيفُ يظن أنه سيحزنني. كلا، لكنني أعرفُ أساليبه، لذا أنتظر وأرجو أن يسير كل شيء على ما يرام معه».

«بلا شك، فلن ترفض فتاة عاقلة مثلها ابننا جون، رغم أنه ليس بالثريّ ولن يكون أبدًا. ديزي، كنت أتحرّق شوقًا لأخبرك بما فعل

بماله، إذ أخبرني الليلة الماضية، ولم تسنحْ لي الفرصة منذئذ لإخبارك. لقد أرسل الشابَ بارتن المسكين إلى المستشفى، وظل هناك إلى أن أنقذ نظره، وهذا أمر مكلف، لكن الرجل يستطيع العمل والاهتمام بوالديه المسنين. كان فقيرًا مريضًا يائسًا، وعزيز النفس فلا يتوسل، وعرف ابننا الغالي بالأمر، وأخذ كل پنس يملكه، ولم يخبر أمه حتى أجبرته».

لم تسمع ألس رد ديزي، إذ انشغلت بعواطفها، السعيدة الآن، إن أردنا القول من الابتسامة التي أشرقت في عينيها والإيماءة العازمة التي وضعت بها البرعم على صدرها، كأنها تقول: «يستحق مكافأةً للخير الذي فعله، وسيحصل عليها».

كانت السيدة مِغ تتحدث عن جون أيضًا عندما تناهى إلى سمعها مرة أخرى:

«قد يقول البعض إن هذا غباءٌ وتهور، إذ لم يزل جون صغيرًا. لكني أرى استثماره الأول آمنًا وجيدًا، و«من يعطِ الفقراء فإنه يقرض الرب»، وكنت فرحةً فخورة، ولن أفسد ذلك بأن أعطيه ولو پنس».

«إن ما يبقيه صامتًا عدم حيازته ما يقدمه كما أحسب. إنه نزيه جدًا، ولن يسألها حتى يكون بحوزته ما يعطي. لكنه نسي أن الحب كل شيء، أعلم أنه غني جدًا في هذا الجانب، إذ أرى وأشعر وخليق بأي امرأة أن تسعد بحصولها عليه».

«أصبت يا عزيزتي، لقد أحسست بهذا، وكنت مستعدة للعمل والانتظار مع زوجي جون».

«وكذا هي، وأرجو أن يدركا هذا. إنها مطيعة وطيبة للغاية، وأخشى أنها لن تسمح لنفسها بالسعادة. أتوافقين يا أمي؟».

«من كل قلبي، فليس على وجه البسيطة فتاةٌ أفضل وأنبل منها، إنها كل ما أتمناه لولدي، ولا أود خسارة العزيزة الشجاعة إن استطعت إلى ذلك سبيلًا؛ فقلبها كبير يسع الحب والواجب، وبوسعهما الانتظار بسعادةٍ أكبر وهما معًا، إذ عليهما الانتظار قطعًا».

«مسرورة لأن اختياره أعجبك يا أمي، وقد نجا من أقسى أصناف الخيبة».

تهدّج صوت ديزي، ووشى حفيفٌ مفاجئ أعقبه همس ناعم بأنها في حضن أمها، تطلب الراحة وتجدها.

لم تسمع ألس المزيد، وأغلقت نافذتها بإحساس بالذنب ووجهٍ مشرق، لأن المثل عن المتنصّتين أخطأ هنا[1]، وعرفت أكثر مما أملت. تغيرت الأمور فجأة، وأحست أن قلبها كبيرٌ يسع الواجب والحب معًا، وعرفت أنها ستكون موضع ترحاب أم وأخت. وتماثل أمامها قدر ديزي الأقل سعادة، واختبار نات المضني، والتأجيل الطويل، واحتمال الفراق للأبد، أمامها نابضًا بالحياة فبدا التفكير قسوة، أو تضحية بالذات أو حماقة عاطفية أو أي شيء إلا الحقيقة كاملة، بأنها خيانةٌ لعاشقها. ولما كان هذا رأيها، انضمّت الزهرة نصفُ المتفتحة إلى البرعم، ثم بعد وقفةٍ قبّلت الوردة المكتملة وأضافتها إلى الباقة الواشية، قائلة لنفسها بشيء من الرصانة العذبة، كأن الكلمات قسم:

---

(١) «لا يسمع المتنصت مدحًا له».

«سأحب جون وأعمل وأنتظر معه ومن أجله».

من حسن حظها أن ديمي لم يكنْ موجودًا حين نزلت إلى الأسفل للانضمام إلى الضيوف الذين بدؤوا يتوافدون إلى البيت بسيل هادئ. وفسّر الإشراقُ الجديد الذي علا وجهَها المتأمل عادةً بأنه عائد إلى التهاني التي تلقتها على خطبتها، وزال الاستياء الملحوظ الخفيف عندما اقتربت دفعةٌ جديدة من الرجال المحترمين، إذ لم يلحظ أي منهم الورود التي وضعتها فوق قلبها السعيد.

كان ديمي أثناء ذلك يرشد عددًا من الشخصيات الجليلة في أرجاء الكلية، ويساعد جده في تسليتهم بنقاش المنهج السقراطي في التعليم، وفيثاغورس، وپستالوزي وفروبل وغيرهم، الذي تمنى بخشوع أن يكونوا في أعماق البحر الأحمر، لأن عقله وقلبه مليئان بالحب والورد، والأمل والخوف. وتقدمَ «الإقطاعيون المهيبون الجليلون الموقرون» بأمان إلى پلمفيلد، وحطّ بهم الرحال أمام عمه وخالته باير، الذين استقبلوا الضيوف بأناقة، وبوقفة ملأى بالفرح الأصيل بكل الناس والأشياء من جانب، ومن جانب آخر تتألم باسمةً وهي واقفة تصافح اليد تلو اليد، متظاهرةً بغفلتها تمامًا عن الحقيقة الحزينة بوقوف الأستاذ پلوك على ذيل فستانها الفخم من القطيفة.

نظر ديمي من حوله متنفسًا الصعداء بحثًا عن محبوبته. سيستغرق معظم الأشخاص وقتًا قبل أن تقع أعينهم على ملاكٍ بعينه بين الحشد المسربل بالبياض في الردهات والبهو والمكتب، لكن عينه اتجهت

-مثل البوصلة إلى القطب- إلى الزاوية حيث شمخ رأس ناعم داكن بشعره المجدول كرأس الملكة، برأيه، فوق الحشد المحيط بها. أجل، كان على صدرها زهرةٌ، واحدة، اثنتان، أوه يا له من منظر بهيج! رآه عبر الغرفة، وزفر زفرةً نشوى جعلت شعر الآنسة پيري الأجعد القصير يتموّج مع النسيم المفاجئ. لم يرَ الوردة، إذ حجبتها ثنيات الدانتيلا، وحسنٌ أن تأتي تلك السعادة شيئًا فشيئًا، وإلا فلربما أفزع الجمع الغفير بطيرانه إلى معبودته، فلم تكن ديزي موجودةً لتمسك به من معطفه المذيل. أمسكته سيدة بدينة تتعطش للمعلومات في تلك اللحظة المثيرة، واضطر للإشارة إلى المشاهير بصبر القديسين استحق جوابًا أفضل مما ناله، إذ إن شرود الذهن واختلاط الكلام أحيانًا جعلا الأرملة الجاحدة تهمس لأول صديق التقته بعد هروب ديمي:

«لا أرى أي نبيذ على الطاولات، ولكن من الجلي أن بروك الشاب شرب الكثير. يا له من رجل محترم، لكنه ثملٌ قليلًا، يا إلهي».

آه، هكذا كان! لكنه ثمل بخمر أسمى من أي نبيذ لمع في غداء يوم التخرج، رغم أن الكثير من الطلاب يعرفون طعمه. وعندما قدّم للسيدة، استدار مسرورًا ليعثر على الشابة عازمًا على الحصول على كلمة، رآها تقف قرب البيانو، تعزف الموسيقى بتراخٍ وهي تتحدث مع عدد من الرجال. أخفى ديمي فراغ صبره تحت هدوء الباحث، وحام قريبًا مستعدًا للتقدم في اللحظة السعيدة، متسائلًا أثناء ذلك عمّا يجعل الكبار يصرّون على الاستحواذ على الأصغر

سنًا عوضًا عن الجلوس في الزوايا مع مجايليهم. انصرف الكبار أخيرًا، ولكن ليحل محلهم شابان مندفعان توسلا للآنسة هيث أن ترافقهما إلى پارناسوس للانضمام إلى الراقصين. تعطّش ديمي لدمهما، لكنه هدأ بسماع جورج ودولي يقولان وهما يمكثان لحظة بعد رفضها:

«حقًا، أنت تعلمين، لقد تحولتُ إلى التعليم الموازي، وأتمنى لو بقيت هنا، إذ تضفي الأناقة، بل المتعة حتى على الإغريقية رؤية فتيات فاتنات فيها»، قال ستفي، الذي وجد مأدبة العلم جافة للغاية، وستكون أي صلصة محل ترحيب، وأحس كأنما اكتشف واحدةً جديدة.

«أجل بحق جوف! علينا معشر الشبان الاحتراس وإلا نلتنّ كل مراتب الشرف. لقد كنت بديعة اليوم، وأبهرتنا كلنا كوقع السحْر رغم أن الجو كان حارًا هناك، وأظنني ما كنت لأطيقه لأجل أحد آخر»، أضاف دولي، جاهدًا ليكون شهمًا ومقدمًا دليلًا آسرًا على إخلاصه، إذ أذابت الحرارة ياقته، وأفسدت تجعيدات شعره، وأتلفت قفّازَيه.

«المكان يسعُ الجميع، وإن تركتم الكتب لنا، فسنسرّ بالتخلّي عن كرة القاعدة والتجذيف والرقص والتودد، التي تبدو الفروع المحببة لديكم»، أجابت ألس بعذوبة.

«آه، إنك تقسين علينا! لا يمكننا أن نجدّ في الدرس طوال الوقت، وأنتن معشر السيدات لا تمانعن في أخذ دوركنّ في الفرعين

الأخيرين اللذين ذكرتهما»، رد دولي بنظرةٍ إلى جورج الذي قال بوضوح: «لقد نلت منها».

«تفعل ذلك بعضنا في السنوات الأولى، لكننا نتخلّى عن الأمور الصبيانية كما ترى. لا تجعلاني أؤخركما عن پارناسوس»، وصرفتهما بإيماءة باسمة، تتألق تحت إدراك الشاب المرير.

«لقد نالت منك يا دول، ويجدر بك ألا تحاول العبث مع هؤلاء الفتيات المتعاليات، لا شك أنك ستُمنى بالهزيمة، راجلًا أو فارسًا أو ممتطيًا ظهر تنّين»، قال ستفي مبتعدًا وهو يقعقع، شكسًا من الموائد الكثيرة.

«يا لها من ساخرة لعينة! لا أصدق أنها تكبرنا بكثير، فالفتَيات يكبرن بسرعة، وليست بحاجة لتتظاهر وتتحدث كالجدات»، دمدم دولي، شاعرًا أنه ضحى بأطفاله على مذبح آلهة الحكمة پالاس الجاحدة.

«تعال لنعثرْ على شيء نأكله. لقد تعبت من الكلام الكثير. وحاصرني پلوك العجوز وجعل رأسي يدور بالحديث عن كانْت وهيغل وتلك العصبة».

«وعدت دورا وست أنني سأراقصها، ولا بد أن أجدها. إنها صغيرةٌ مرحة ولا تهتم بشيء سوى الحفاظ على الخطوات».

وسار الشابان يتأبطان ذراعي بعضهما، تاركين ألس تقرأ الموسيقى بضجر كأن المجتمع لا يجذبها، ولما انحنت لتقلب الصفحة،

رأى الشاب المتلهف خلف البيانو الوردة وأصابه الخرس من الفرح، حملق لحظة، ثم هرع ليحتل المكان المشتهى قبل أن يصل جمعٌ آخر من المملّين.

«ألس، لا أصدق -أتفهمين- كيف لي أن أشكرك؟»، همس ديمي منحنيًا كأنه هو أيضًا يقرأ الأغنية، دون أن يرى منها نغمة أو كلمة.

«صه! ليس الآن. فهمت -لا أستحقها- إننا صغيران جدًا، وعلينا الانتظار لكني فخورةٌ وسعيدة يا جون!».

تسري بي رعشةٌ كلما فكّرت بما حدث عقب تلك الهمسة الرقيقة، لو لم يأت توم بانغز مستعجلًا بتعليق فرح:

«موسيقى؟ عز الطلب. بدأ الإرهاق ينال من الناس، ونحن بحاجة إلى شيء من الانتعاش، يدور عقلي تمامًا بكل العلوم والفلسفات التي سمعت نقاشاتها الليلة. أجل، أسمعينا هذه، أغنية حلوة! الأغاني الأسكتلندية بديعةٌ دومًا».

حدجه ديمي مغضبًا لكن الفتى البليد لم يرَ ذلك، ووجدتْ أَلِس في هذا مخرجًا آمنًا لكثير من العواطف التي لا تُكبح، فجلست من فورها وغنّت الأغنية التي أوحت بردّها أفضل مما تفعل:

لننتظرْ قليلا

تذكّر، العجوزان المسكينانِ في البيت،

ضعيفان يتوجّعان،

وأعرفُ حقّ المعرفة أنهما سيفتقداني، يا فتاي،
إن لم أعدْ إلى البيت.
لقد طلعت الذرة، والوقتُ عصيب،
والبقرات ثلاثٌ فحسب،
لا أستطيعُ ترك العجوزين الآن.
لننتظرْ قليلًا.
أخشى أنهما سيتألمان
لأني عندما أفارقهما،
سيقولان يا للسماء بأسى،
وسيفطر ذلك قلبي.
لذا يا فتاي، لا تتعجلْني الآن،
سيفطر قلبي حقًا،
لا أستطيع ترك العجوزين.
فلننتظرْ قليلًا».

كانت الغرفةُ تغرق في الهدوء لدى انتهاء المقطع الأول، وتخطتْ ألس الثاني خشيةَ ألا تتمكن من المتابعة، إذ كانت عينا جون عليها، تعرفان أنها غنت له وتركت الأنشودة الحزينة القصيرة تعبر عما يجب أن يكون ردُّها، فتقبّله كما قصدته، وابتسم لها بسعادة جعلت قلبها يهزمُ صوتَها، فنهضت بسرعةٍ قائلة شيئًا عن الحرارة.

«أجل، إنك متعبةٌ فاخرجي وارتاحي يا غاليتي»، وبسيماء المفتون

أخذها ديمي إلى ضوء النجوم، تاركين توم يحدق بهما طارفًا بعينيه كأنما مر به شهاب.

«ليبارك الرب روحي! لقد كان للشماس غرضٌ الصيف الماضي ولم يخبرْني. ألن تضحك دورا؟»، وخرج توم على عجلٍ لينقل اكتشافه ويفرح به.

لم يعرفْ قَط ما قيل في الحديقة، لكن عائلة بروك سهرت طويلًا تلك الليلة، وأي عين فضولية قرب النافذة رأت ديمي يتلقى الثناء من نساء بيته لما قصّ الحكاية القصيرة؛ ونسبت جوزي الفضلَ الكبير لنفسها، مصرةً على أنها من وافقهما، وكانت ديزي مفعمةٌ بأعذب الفرح والعطف، والسيدة مِغ سعيدةٌ كل السعادة حد أن جو -لمّا راحت تحلم بخماري العروسين، وجلس ديمي في غرفته يعزف ناعم البال لحن «لننتظر قليلًا»- تحدثتْ عن نات وأنهت كلامها معانقةً ابنتها المطيعة وكانت هذه الكلمات المحبة مكافأتها:

«انتظري حتى يعود نات إلى الديار، وستضع ابنتي الحبيبة ورودًا بيضاء أيضًا».

# (٢٠)
# الحياة لأجل الحياة

كانت أيامُ الصيف التالية مفعمةً بالراحة والبهجة للكبار والصغار، إذ قاموا بواجب ضيوفهم السعداء في پلمفيلد. أثناء انشغال فرانز وإميل بشؤون العمّ هيرمن والقبطان هاردي، عقدت لودميلا وميري الصداقات في كل مكان، إذ كانت كلتاهما فتاة مهذبة آسرة رغم اختلافهما الشديد. وجدت السيدة مِغ وديزي العروس الألمانية ربة منزل توافق طباعهما، وقضتا أوقاتًا سارة في تعلّم أطباق جديدة، وسماع أمور التنظيف شبه السنوية وغرفة البياضات الرائعة في هامبورغ، أو نقاش الحياة الأسرية في كل فروعها. لم تُعلّم لودميلا أشياء كثيرةً فحسب، بل تعلمتها أيضًا، وعادت محملةً بأفكار جديدة مفيدة في رأسها الأشقر.

رأت ميري الكثير من العالم الذي كان نابضًا بالحياة فوق العادة في نظر فتاة إنجليزية، وجعلت مهاراتها المتنوعة رفقتها مستحبة. وصيّرها العقل صبورة، وأضفت عليها التجارب الأخيرة في الخطر والسعادة جلالًا عذبًا أحيانًا، اختلف تمامًا عن طبعها المرح. كانت

السيدة جو راضية كل الرضا عن اختيار إميل، ووثقت أن هذه المرشدة الصادقة الرقيقة ستوصله سالمًا إلى المرفأ في الطقس الصحو أو العاصف. وخشيت أن يصبح فرانز مواطنًا يعيش رغدًا ويجمع المال، ويكتفي بذلك، لكنها سرعان ما أدركت أن حبه للموسيقى وفتاته الهادئة لودميلا قد أقحما كثيرًا من الشاعرية على حياته المشغولة، وجنّبه أن يصبح شديد الابتذال، فارتاحت من جانب هذين الشابين، وقضت وقتًا ممتعًا في زيارتهما برضا أم حقيقية، إذ فارقتهما في سبتمبر بكل الأسى والأمل، حين أبحرا في الحياة الجديدة التي تنتظرهما.

أعلنت خطبة ديمي لأفراد العائلة المقربين فحسب، إذ عُدّ الاثنان صغيرين جدًا للإقدام على شيء سوى الحب والانتظار. وكانت سعادتهما بالغةً وكأنما توقّف الزمان من أجلهما، وبعد أسبوع ناعم افترقا بشجاعة؛ إذ ذهبت ألس لواجبات البيت بأمل ساندها وأسعدها في بلاءات كثيرة، والتفت جون لعمله، مفعمًا بحماس جديد سهّل كل الأمور ما دامت تلك المكافأة تنتظره.

ابتهجت ديزي لأجلهما، ولم تسأم من سماع خطط أخيها للمستقبل. وقد أعادها أملها الوشيك إلى ما كانت عليه؛ فتاةً فرحة مشغولة بابتسامة وكلمة لطيفة ومد يد العون للجميع، ولما رجعت إلى عادتها للغناء في أرجاء البيت، أحست أمها أنها وجدت تعويضًا ملائمًا لحزن الماضي. وما زال الخوف والقلق يراودان البجعة الأمُ، لكنها احتفظت بهما لنفسها، وهي تعد الاختبارات الفاحصة الكثيرة لتختبر بها نات لدى عودته إلى الديار، مبقية رقابتها الشديدة على

رسائل لندن، إذ عبرت البحارَ إشارة غامضة، وانعكست طمأنينة ديزي في هدوء بال نات راهنًا.

فقد تجاوز فترة ڤرتر، وجرب قليلًا من فاوست؛ تجربته التي حدّث بها مارغريته كأن لها معرفة بميفستوفلس وبلوكزبرغ وقبو نبيذ أورباخ، وأحسّ أنه الآن ڤلهلم ميستر، يتتلمذ على أساتذة الحياة العظام. عرفت ديزي بخطاياه الصغيرة وتوبته الصادقة، فاكتفت بالابتسام لمزيج الحب والفلسفة الذي أرسله لها، مدركة أن عيش شاب في ألمانيا دون أن يُعدى بالطباع الألمانية أمر مستحيل.

«إن قلبه على ما يرام، وسيصفو ذهنه قريبًا عندما يخرج من ضباب التبغ والبيرة والميتافيزيقا التي كان يعيش فيها. ستوقظ إنجلترا حسّه، وستذهب حماقاته الصغيرة أدراج الريح المالحة الطيبة»، قالت السيدة جو، مسرورةً بالمستقبل الجيد الذي ينتظر عازفها؛ الذي تأجلت عودته حتى الربيع، من أجل مزيد من الاحتراف، رغم حزنه سرًا.

قضت جوزي شهرًا مع الآنسة كامِرون على الشاطئ، وانكبت بكل قواها على الدروس المقدمة لها حتى وضعت حيويتها ووعدها وصبرها حجر الأساس لصداقة لا متناهية القيمة في نظرها في السنوات الجميلة المشغولة القادمة، إذ كان حدس جوزي الصغيرة صحيحًا، وموهبة التمثيل لآل مارش ستثمر أخيرًا ممثلة فاضلة ومحبوبة.

كان توم ودورا يمشيان بهدوء نحو المذبح، إذ خشي بانغز الأب أن يغيّر ابنه رأيه ثانية ويجرب مهنة ثالثة، فمنح الإذن لزواج

مبكر، ليكون مرساة تثبت توماس المتقلب. ما عاد توماس المذكور آنفًا يشكو الجفاء، إذ كانت دورا رفيقة صغيرة مُحبّة مخلصة، جعلت الحياة بهيجة للغاية في نظره ويخايل للمرء أنه فقد موهبته في التورط في المتاعب، وبدا أنه سيصبح رجلًا ناجحًا، بموهبة لا تضاهى في التجارة التي اختارها.

«سنتزوج في الخريف، ونعيش مع أبي لبعض الوقت. إن الوالد يتقدم في السن كما ترين، ولا بد لي أنا وزوجتي أن نعتني به، سيكون لنا بيتنا في وقت لاحق»، كان حديثه المفضل عن ذلك الوقت، ويقابل عادة بالابتسامات، فأن يكون توم بانغز «رب بيت» فكرة لا يقاوم كل من يعرفه الضحك منها.

كانت الأمور في طور الازدهار، وأخذت السيدة جو تظن أن كربها قد انقضى لذلك العام، عندما حدث أمر جديد. فقد وصل عدد من البطاقات البريدية تفصلها فترات زمنية طويلة من دان، الذي أعطاها «لعناية السيدة م. ميسن، والبقية» ليكون عنوانه. وبهذه الوسيلة استطاع إرواء شوقه لأخبار البيت، وإرسال رسائل موجزة ليخفف استغرابهم من تأخره في الاستقرار، ووصلت الأخيرة في سبتمبر ومعنونة «من مونتانا»، وقال فيها بإيجاز:

أنا هنا أخيرًا، أجرّب استثمار المناجم، لكنني لن أمكث طويلًا. واجهت كل صنوف الحظ، وتخليتُ عن فكرة المزرعة. سأعرض خطتي قريبًا. حسنٌ، مشغول وسعيد جدًا. د. ك.

لو أنهم عرفوا معنى الخط العريض تحت كلمة «سعيد»، لكانت

تلك البطاقة قطعة من الورق المقوى بليغة جدًا، إذ كان دان حرًا، ويمم في الحال شطر الحرية التي تحرّق شوقًا إليها. والتقى صدفة بأحد الأصدقاء القدامى، أجبره بداعي الحاجة أن يعمل وصيًا لبعض الوقت، فوجد رفقة عمال المناجم الأفظاظ ممتعة جدًا، وفي العمل العضلي شيئًا بديعًا للغاية، بعد أن احتبس في مشغل الفرش طويلًا. وقد أحب عزق الصخر والأرض والصراع معهما حتى ينال منه الإنهاك، الذي يحدث بسرعة، إذ أثرت سنة الحبس على قواه البدنية الرائعة. واشتاق للذهاب إلى البيت، ولكنه انتظر أسبوعًا بعد آخر ليمحو صباغ السجن ومسحة الإرهاق عن وجهه. أثناء ذلك صادق المعلمين والعاملين، وإذ لم يعلم أحد بحكايته، فقد اتخذ موضعه في العالم بامتنانٍ وسرور، وقليل من الفخر، ولم تكن له خطة سوى فعل الخير في مكان ما، ومحو الماضي.

كانت السيدة جو ترتب مكتبَها ترتيبًا هائلًا ذات يوم من أكتوبر، والمطر ينسكب في الخارج، والسلام يخيم على بيتها، فمرت على البطاقات البريدية، وتأملتها ثم أدخلتها بحرص إلى الجارور المعنون «رسائل الأولاد» قائلة لنفسها وهي تلقي بأحد عشر طلبًا لتوقيعها في سلة المهملات:

«لقد حان الوقت لوصول بطاقةٍ أخرى، ما لم يكن قادمًا ليعلن خططه. يراودني الفضول لمعرفة ما الذي فعله طوال هذا العام، وكيف يبلي الآن».

تحققت الأمنية الأخيرة في غضون ساعة، إذ جاء تِد مندفعًا يحمل

صحيفة بيد، وفي الأخرى مظلة مصروعة، ووجه ملؤه الإثارة، قائلًا كل شيء في جملة واحدة دون نفس:

«انهار منجم، انحبس عشرون رجلًا، لا منفذ، الزوجات يبكين، الماء يعلو، عرف دان القناة القديمة، جازف بحياته، أخرجهم، مات معظمهم، ضجت الصحف بالقصة، عرفت أنه سيكون بطلًا، مرحى لدان العزيز!».

«ماذا؟ أين؟ متى؟ من؟ كفّ عن الصخب ودعني أقرأ!»، أمرتْه أمه، الذاهلة تمامًا.

نبذ تِد الصحيفة، وأتاح لها أن تقرأ بنفسها، مع مقاطعات منه، وتبعه روب سريعًا، متلهفًا لمعرفة الحكاية. لم يكن بالأمر الجديد، لكن الشجاعة والإخلاص يحركان القلوب السخية دومًا، ويظفران بالإعجاب، لذا كان الوصفُ مفعمًا بالصور والحماس، واسم دانيل كين، الرجل الشجاع الذي أنقذ حياة الآخرين مجازفًا بحياته، كان يتردد على الشفاه الكثيرة ذلك اليوم. اكتست وجوه هؤلاء الأصدقاء بالفخر وهم يقرؤون أن دان كان الوحيد، الذي في خضم الهلع جراء الحادث، تذكّر القناة القديمة التي تفضي إلى المنجم، وأنها مسدودة لكنها الأمل الوحيد في النجاة، إن استطاع الرجال الخروج من هناك قبل أن يغرقهم الماء المرتفع. ونزل وحده، مخبرًا الآخرين أن يتراجعوا حتى يتأكد أنها آمنة، وسمع الرفاق المساكين يعزقون لإنقاذ حياتهم على الجانب الآخر، وبالطرق والنداءات أرشدهم إلى البقعة الصحيحة، ثم تقدم فرقة الإنقاذ، وعمل كبطل، وأخرج

الرجال في الوقت المناسب. ولما سحب للأعلى آخر الجميع، انقطع الحبل المهترئ، فوقع وقعة مروعة، وكانت إصابته بليغة لكنه على قيد الحياة؛ وقبّلت النسوةُ الشاكرات وجهه المسود ويديه الداميتين، عندما حمله الرجال منتصرين، ووعده مالكو المنجم بمكافأةٍ مجزية إن عاش ليحصل عليها!

«لا بد أن يعيش، وسيفعل ويعود إلى البيت لنمرّضه حالما يستطيع الحركة، وإن ذهبت وأحضرته بنفسي! عرفت دومًا أنه سيفعل شيئًا جميلًا شجاعًا، إن لم يطلق عليه النار أو يشنق لأجل مزحة جامحة»، صاحت السيدة جو من فرط الإثارة.

«اذهبي وخذيني معك يا أمي، يجب أن أكون من يصحبك، فدان يحبّني جدًا وأنا أحبه كثيرًا»، قال تِد شاعرًا أن هذه ستكون رحلة يشتهيها قلبه.

قبل أن يتسنّى لأمه الرد، دخل السيد لوري بصخبٍ وحماس بقدر حماس تِدي الثاني وصخبه، قائلًا وهو يلوّح بصحيفة المساء:

«أرأيت الأخبار يا جو؟ ما رأيك؟ أأذهب في الحال، وأعتني بالفتى الشجاع؟».

«ليتك تفعل، ولكن قد لا يكون ذلك صحيحًا، فالأخبار تكذب، لعل بضع ساعات أخر تحمل لنا نسخة مختلفة من القصة».

«هاتفت ديمي ليخبرني بكل ما يستطيع معرفته، وإن كان ذلك صحيحًا سأذهب من فوري، وأحب الرحلة. سأجلبه معي إن كان

قادرًا، وإلا بقيت هناك لأعتني به، سينجو منها، ولن يموت دان من سقطة على رأسه، إن له تسعَ أرواح، ولم يفقد نصف واحدة منها بعد».

«أتسمح لي بمرافقتك إن ذهبت يا عمي؟ أتحرق شوقًا للذهاب في رحلة، وسيكون الذهاب معك هناك متعة. سأرى المناجم ودان وأسمعُ بالأمر وأقدم العون، يمكنني التمريض، أليس كذلك يا روب؟»، قال تِدي في أكثر نبراته مداهنة.

«قطعًا. ولكن إن لم تسمح لك أمي، فأنا مستعد إن كان عمّي بحاجة لأحد»، أجاب روب بأسلوبه الهادئ، وهو يبدو أكثر ملاءمة للرحلة من تِد المتحمس.

«لا يمكنني الابتعاد عن كليكما، إذ يقع ولداي في المتاعب دومًا ما لم أبقهما قريبينِ من البيت. ليس لي الحق في منع الآخرين، ولكني لن أسمح لكما أن تغيبا عن ناظريّ، وإلا وقع مكروه. لم أشهد عامًا كهذا قط، سفنٌ محطمة وحفلاتُ زفاف وسيول وخطبة، وكل صنوف الكروب!»، قالت السيدة جو.

«إن كانت صنعتك الأولاد والبنات، فعليك قبول هذا الأمر يا سيدتي. ثم إني سأساندكِ، لأنك بحاجة إلى كلّ عون ومواساة، وبخاصة إن شب تِد عن الطوق باكرًا»، ضحك السيد لوري مستمتعًا بحسراتها.

«لا أحسب شيئًا يدهشني بعد اليوم، لكن القلق يأكلني على دان، وأشعر أن الأفضل أن يذهب إليه أحد. إنه مكان قاس، وقد يحتاج

رعاية تمريضية. يا للفتى المسكين، يبدو أنه نال عددًا من الضربات القاسية! غير أنه يحتاجها لتكون «علاجًا لنزقه» كما تقول هانا دومًا».

«سنسمع أخبارًا من ديمي قريبًا، ثم سأنطلق»، وغادر السيد لوري بهذا الوعد الضحوك، ولما وجد تِد أمه حازمة تبع عمه يتملّقه ليأخذه معه.

أكد التحري الأنباء وزادها إثارة. فسافر السيد لوري من فوره، ورافقه تِد إلى البلدة، ولما يزل يتوسل ليؤخذ إلى دان بلا جدوى، وغاب طيلة اليوم، لكن أمّه قالت بهدوء:

«هذه نوبةٌ من نوبات حرده لرفض طلبه. إنه بأمان مع توم أو ديمي، وسيعودُ إلى البيت جائعًا خانعًا في الليل، أنا أعرفه».

لكنها عرفت سريعًا أن ثمة ما يفاجئها، إذ لم يأتِ المساء بتد، ولم يره أحد. كان السيد باير على وشك الخروج للعثور على ابنه المفقود، حين وصلت برقية من إحدى المحطات الواقعة على طريق السيد لوري:

وجدت تِد في العربات، وأخذته معي؛ سأكتب غدًا.

ت. لورنس

«لقد شبّ تِد عن الطوق أسرع مما ظننت يا أمي. لا تقلقي، سيعتني به عمي، وسيفرح دان لرؤيته»، قال روب حين جلست السيدة جو محاولة أن تتفهم أن ابنها الأصغر في طريقه إلى براري الغرب.

«يا له من ولدٍ عاق! سيعاقَب عقابًا شديدًا، إن رأيته ثانية. لقد شارك لوري في هذه الدعابة، أنا واثقة من هذا، ألن يقضي المحتالان وقتًا رائعًا؟ ليتني كنتُ معهما! لا أظن ذلك الفتى المجنون أخذ منامة أو معطفًا. حسنٌ، سيكون عندنا مريضان نعتني بهما عند عودتهم، إن عادوا. فالقطارات السريعة الهوجاء تسقط في المهاوي دومًا، أو تحترق أو تتصادم. آه يا تدي! يا بني الحبيب، كيف سمحت لك بالابتعاد عني؟».

وكعادة الأمهات، نسيت السيدة جو العقوبة التي توعدت بها في حسرتها الرقيقة على العابث السعيد، الذي يطوف القارة مختالًا بنجاح تمرّده الأول. كان السيد لوري أكثر فرحًا بإصراره على هذه الكلمات، «عندما يشبّ تد عن الطوق»، وأوحى له بالفكرة، ولذا فإن المسؤولية تقع على كاهله. فتقبلها عن طيب خاطرٍ منذ اللحظة التي صادف فيها الهارب نائمًا في عربة، دون أثر لمتاع إلا زجاجة نبيذ من أجل دان وفرشاة تلميع الأحذية لنفسه. ومثلما ظنت السيدة جو، قضى «المحتالان» وقتًا رائعًا. وصلت رسائل التوبة سريعًا، ونسي الوالدان الغاضبان تقريعهما في خضم قلقهما على دان، الذي كان عليلًا للغاية ولم يتعرف أصحابه لعدد من الأيام. ثم أخذ يتعافى، وغفر الجميع للفتى السيء حين أبلغهم فخورًا أن أولى كلمات دان لما استعاد وعيه: «مرحبا يا تِد!» بابتسامة سرورٍ لدى رؤيته وجهًا مألوفًا منكبًا عليه.

«يسرّني أنه ذهب، ولن أوبخه، والآن ماذا نضع في الصندوق

الذي نرسله لدان؟»، وصرّفت السيدة جو فراغ صبرها لرؤية العليل بإرسالها من وسائل الراحة ما يكفي مستشفى.

بدأت الأخبار السعيدة تنهال، وقيل أخيرًا إن دان قادرٌ على السفر، لكنه لا يتعجل العودة إلى البيت، رغم أنه لم يسأم قط من حديث ممرضيه عنه.

«لقد تغيّر دان تغيرًا غريبًا»، كتب لوري لجو، «ليس من هذا المرض وحده، بل من شيء حدث قبلًا بلا ريب. لست أدري ما هو، وسأترك أمر السؤال لك، ولكن من هذيانه محمومًا أخشى أنه وقع في مأزق خطير العام الماضي. يبدو كمن كبر عشر سنوات، لكنه أفضل حالًا، أهدأ وعظيم الامتنان لنا. تثير شفقتي رؤية الشوق في عينيه حين ينظر إلى تد، كأنه لا ينال منه كفايته. يقول إن كنساس كانت فشلًا، لكنه لا يقول المزيد، لذا أتحين فرصتي. يحبه الناس هنا كثيرًا، وأخذ يهتم لهذا الأمر، وكانت عادته قبلًا أن يسخر لإظهار العاطفة كما تعلمين، غير أنه يودّ الآن أن يظن به الجميع الظن الحسن، ولا يكتفي من فعل الخير ليظفر بالحب والاحترام. أما تد فهانئ وسعيد، وقد عنت له الرحلةُ الكثير. دعيني آخذه إلى أوروبا حين نذهب، إذ لا يلائمه ربطه بالمئزر أكثر مما وافقني لما اقترحت الهرب إلى واشنطن معك قبل قرن، ألا تندمين أننا لم نفعل؟».

أثارت هذه الرسالة الخاصة خيال السيدة جو الجامح وتصورت كل ما تعرفه من جرائم وابتلاءات وعقبات يحتمل أنها حلّت بدان. لقد كان واهنًا جدًا ولا يمكن إقلاق راحته بسؤال كهذا، لكنها

وعدت نفسها باكتشافات مثيرة حالما يصل إلى البيت سالمًا، إذ كان «مشعل الفتن» أكثر فتيانها إثارة. توسلت إليه أن يأتي، وقضت من الوقت في كتابة رسالة تعيده أطول مما تفعل في كتابة حلقة مثيرة من «أعمالها».

لم ير أحد الرسالةَ سوى دان، وأعادته ذات يوم من نوڤمبر إذ أسند السيد لوري رجلًا واهنًا ليترجل من عربةٍ عند باب پلمفيلد، واستقبلت الأم باير الجوال مثل ولد عائد، أما تِد الذي اعتمر قبعة مخجلة ولبس حذاء مدهشًا، فقد رقص رقصة الحرب حول الجمع المثير.

«اصعد إلى الطابق العلوي ونل قسطًا من الراحة، سأكون ممرضتكَ الآن، ويجب أن يأكل هذا الشبح قبل أن يتحدث إلى أحد»، أمرت السيدة جو، محاولة ألا تظهر صدمتها لدى رؤية هذا الظل مقصوص الشعر الحليق الذاوي الممتقع للرجل الأشوس الذي فارقته.

كان مستعدًا للطاعة، واستلقى على الأريكة الطويلة في الغرفة المهيأة له، ناظرًا حوله بسكينةٍ كما يفعل طفل مريض عاد إلى غرفته وذراعي أمه، وأطعمته ممرضته الجديدة وسقته، وهي تكبح بجَلَد الأسئلةَ التي تشتعل على لسانها. ولما كان منهكًا ضعيفًا فقد غط في النوم، ثم ذهبت لتستمتع بصحبة «المحتالين» اللذين وبّختهما ودللتهما، وغنّجتهما وأثنت عليهما حتى رضي قلبها.

«أظن دان ارتكب جريمة يا جو، وعانى بسببها»، قال السيد

لوري لما غادر تِد ليتباهى بحذائه ويحكي لرفاقه القصص التي تتقد حماسًا عن أهوال حياة عمال المناجم ومسراتها. «لقد مر الفتى بتجربة مروعة كسرت روحه. كان يهذي لدى وصولنا، وقد سهرت عليه فسمعت عن تلك الجولات الحزينة أكثر من أي أحد. إذ تحدث عن «القيّم» ومطاردةٍ ما ورجل ميت، وبلير وميسن، وظل يمدّ لي يده سائلًا إياي الصفح عنه. مرة، حين كان مهتاجًا للغاية، أمسكت ذراعيه وهدأ في لحظة متوسلًا إياي ألا «أضع الأصفاد في يديه». أعترف أنني أحيانًا فزعت لسماعه في الليل يتحدث عن بِلم القديم وعنك، وتوسله ليسمح له بالخروج ليذهب إلى البيت ويموت».

«لكنه لن يموت، بل سيعيش ليتوب عما فعل، لذا لا تعذبني بهذه الأمور المحزنة يا تِدي. لست أهتم إن خرق الوصايا العشر، إذ سأقف معه، وكذلك أنت، وسنوقفه من جديد ونجعله رجلًا صالحًا. أعلم أنه ليس فاسدًا، لدى النظر إلى وجهه المسكين. لا تخبر أحدًا بشيء، وسأعرف الحقيقة قريبًا»، أجابت السيدة جو، التي لم تزل مخلصة لفتاها الشرير، رغم حزنها لما سمعت.

ارتاح دان لبضعة أيام ولم ير إلا أشخاصًا قليلين، وأخذت رعايتهم الحسنة ومحيطهم المبهج وعزاء العودة إلى البيت تؤتي أكلها، وقد استعاد نفسه رغم لواذه بالصمت كثيرًا نظرًا لتجاربه الأخيرة، منصاعًا لتعليمات الطبيب بألا يكثر من الكلام. أراد الجميع رؤيته، لكنه أجفل من أيّ أحد سوى الأصدقاء القدامى، و«لن يحفل مقدار ذرة»، قال تِد الذي خاب أمله لعدم قدرته على التباهي بدان الشجاع.

«ألن يفعل رجل وجد في المكان مثلما فعلت، فلماذا أحدث ضجة حولي؟»، سأل البطل خجلًا أكثر من كونه فخورًا بالذراع المكسورة، التي بدت مثيرة في الجبيرة.

«ولكن ألا يسرك أن تعرف أنك أنقذت عشرين حياة يا دان، وأعدت الأزواج والأبناء والآباء إلى النساء المحبات؟»، سألت السيدة جو ذات مساء حين كانا وحدهما بعد الاعتذار من عدد من الزوار.

«يسرني؟! هذا كل ما أبقاني على قيد الحياة، كما أظن. بلى، أُفضّل فعلي هذا على أن أصبح رئيسًا أو أي منصبٍ آخر كبير في العالم. لا أحد يعلم راحتي بإنقاذ عشرين رجلًا لأدفع ثمن...»، وصمت دان، وقد أطلق العنان لعاطفة قوية لم تعرف مستمعته لها دليلًا.

«هذا ما ظننته، رائع أن يخاطر المرء لإنقاذ آخرين، ويكاد يفقد حياته، كما فعلت»، قالت السيد جو متمنية أن يتابع حديثه العفوي كما كانت عادته القديمة.

«مَن أضاع حياته مِن أجلي يجدها»[1]، همس دان محدقًا بالنار الدافئة التي أضاءت الغرفة، واتقدت على وجهه النحيل بوهج أحمر.

دهشت السيدة جو لسماع هذه الكلمات من شفتيه فقالت مرحة:

---

(١) «مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِيعُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا». متى ٣٩:١٠.

«لقد قرأت الكتاب الصغير الذي أعطيته لك ووفيت بوعدك إذن؟».

«قرأته مرارًا بعد مدة، لست أعرف الكثير، لكني جاهز للتعلم، وهذا إنجاز».

«هذا إنجازٌ كبير. أوه يا عزيزي، أخبرني بالأمر! أعرف أن شيئًا يثقل على قلبك، دعني أساعدك في حمله فيكون عبئك أخف».

«أعلم ذلك، وأريد إخبارك، لكن بعض الأمور لن يغفرها لي حتى أنت، وإن تركتني أخشى أني لن أستطيع مواصلة البقاء بعيدًا عن المتاعب».

«تغفر الأمهات كل شيء! أخبرني، وثق أني لن أتركك، وإن أدار العالم كله ظهره لك».

أخذت السيدة جو إحدى يديه الكبيرتين المتعبتين وأمسكتها بقوة، وانتظرت صامتة حتى ألانت لمسة المساندة قلب دان المسكين، ومنحته الشجاعة ليتحدث. جالسًا جلسته القديمة، ورأسه بين يديه أخبرها كل شيء بهدوء، ولم يرفع رأسه مرةً إلى أن قال آخر كلماته.

«ها قد بتّ تعرفين، أتغفرين لقاتل وتبقين خريج سجون في بيتك؟».

كان جوابها الوحيد أن عانقته، ووضعت الرأس الحليق على صدرها، بعينين مغرورقتين بالدمع لم تريا سوى الأمل والخوف الخافتين اللذين جعلا خوفه محزنًا للغاية.

كان هذا أفضل من الكلمات، وتشبث دان المسكين بها في امتنان أبكم، شاعرًا بنعمة حب الأم، تلك النعمة الإلهية التي تواسي وتطهر وتقوي كل من يبحث عنها. قطرتان مريرتان أو ثلاث دفنتا في الوشاح الصوفي الصغير حيث وضع دان خده، ولم يعلم أحد قَط نعومته وراحته في نظر دان بعد الوسائد التي استلقى عليها طويلًا. لقد كسر ألم الروح والبدن قوته وكبره، ومنحه انزياح الهم راحة كبرى فصمت لحظة لينعم بالفرح الصامت.

«يا ولدي المسكين، كم عانيت طوال هذا العام ونحن حسبناك حرًا في البراري! لمَ لمْ تخبرنا يا دان، لنساعدك؟ أساورك الشك في أصدقائك؟»، سألت السيدة جو ناسية كل عواطفها في خضم شفقتها، حين رفعت الوجه المخبّأ ونظرت مؤنبة إلى العينين الكبيرتين الغائرتين التي نظرتا إليها صراحة.

«خجلت. حاولت احتمال الأمر وحدي بدلًا من صدمتك وإحباطك، مثلما أعرف أني فعلت، رغم محاولتك إخفاء ذلك. لا تقلقي، سأعتاد هذا»، وأخفض دان نظره ثانية كأنه لا يطيق رؤية القلق والذعر اللذين رسمهما اعترافه على وجه أعزّ أصدقائه.

«إنني مصدومة ومحبطة من الخطيئة، لكنني سعيدة جدًا وفخورة وممتنة أيضًا أن مخطئي قد تاب، وكفّر وهو مستعد للاستفادة من الدرس القاسي. لن يعلم أحدٌ بالحقيقة إلا فرتز ولوري، إذ ندين لهما بذلك، وسيشعران بمثل شعوري»، أجابت السيدة جو، وهي ترى بحصافة أن الصراحة دواء أفضل من العطف المفرط.

«كلا، لن يفعلا، الرجال لا يغفرون كالنساء، ولكنك محقة، أخبريهما عني ولننتهِ من الأمر. أحسب أن السيد لورنس يعرف، لقد ثرثرت أثناء هذياني، لكنه ظل لطيفًا. يمكنني احتمال معرفتهما بالأمر، لكن ليس تِد والفتيات!»، أمسك دان بذراعها متضرعًا فبادرت لطمأنته بأن أحدًا لن يعلم سوى الصديقين القديمين، فهدأ كأنه خجل من هلعه المفاجئ.

«أقول لك إنها ليست جريمة قتل، بل دفاع عن النفس. لقد سحب سلاحه أولًا وكان علي أن أضربه. لم أقصد قتله، لكني أخشى أن الأمر لا يقلقني كما يجب، لقد دفعت الثمن غاليًا، والأفضل لمحتال كهذا أن يكون خارج العالم، إذ يأخذ الأولاد إلى طريق الجحيم. أجل، أعلم أنك ترين هذا فظيعًا فيّ، لكني لا أستطيع تفاديه، أكره الأنذال كما أكره القيّوط المتسلل، وتراودني رغبة في ضربه دومًا. ربما لو قتلني لكان أفضل، فقد ضاعت حياتي».

غطت كآبة السجن القديمة وجه دان مثل غيمةٍ سوداء وهو يتكلم، وفزعت السيدة جو للمشهد الذي تخايل لها بخروجه من النار حيًا، لكنه يحمل ندبة طوال حياته. قالت مبتهجة آملةً أن توجّه تفكيره نحو أمور أسعد:

«كلا، ليست كذلك، لقد تعلمت قيمتها أكثر واستغللتها أحسن استغلال في هذا الاختبار، لم يكن عامًا ضائعًا، بل مفيدًا أكثر مما يعرف أحد. جرّب أن تفكّر هكذا، وابدأ من جديد وسنساعدك، ونثق بك ثقة أكبر لأجل هذا المطب، فكلنا نفعل هذا ونواصل الكفاح».

«لن أكون مثلما كنت. أشعر أني في الستين، ولا يهمّني شيء ما دمت هنا، دعيني أبقَ حتى أقف على قدميّ، ثم سأرحل ولن أزعجك بعد اليوم»، قال دان يائسًا.

«إنك ضعيفٌ ولا تحسن التقدير، وهذا سينقضي، وستذهب في عملك التبشيري بين الهنود بالحيوية القديمة والصبر الجديد وضبط النفس والمعرفة التي كسبتها. أخبرني أكثر عن القسّ الطيب وميري ميسن والسيدة التي ساعدتك كلمتها غير المتوقعة، أود معرفة المزيد عن اختبارات ولدي المسكين».

أشرق وجه دان، وقد أحس باهتمامها الحنون، وتحدث إلى أن قص حكاية هذا العام المرير، وشعر بتحسن لانزياح الهم.

لو علم ثقله على قلب مستمعته، لاحتفظ بصمته، لكنها أخفت حزنَها حتى أرسلته لينام، هادئًا مرتاحًا، ثم بكت بحرقة، مثيرةً خوف فرتز ولوري إلى أن سمعا الحكاية كلها وحزنا معها، ثم فرح الجميع وتشاوروا معًا حول الفائدة الكبرى التي جلبها هذا العام «الكارثي» عليهم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# (٢١)

# فارس أسلوغا(١)

كان التغيير الذي طرأ على دان بعد ذلك الحديث طريفًا، فقد ارتاح من القلق، ورغم ظهور الطبع النزق أحيانًا، لكنه عزم على إظهار امتنانه وحبّه وإجلاله لهؤلاء الأصدقاء الحقيقيين بتواضعه وثقته الجديدين اللذين أسعداهم، وعادا عليه بالفائدة. بعد سماع القصة من السيدة جو، لم يشرْ إليها الأستاذ أو السيد لوري بأكثر من المصافحة الحارة، والنظرات العطوفة، والحديث الموجز المرح الذي يُبدي من خلاله الرجال تأييدهم، واللطف المضاعف الذي لم يترك للشك موضعًا. شرع السيد لوري يثير اهتمام عدد من الأشخاص ذوي النفوذ بمهمة دان، وحرك الآلات التي تحتاج الكثير من التزييت قبل فعل أيّ شيء تهتم الحكومة لأمره. ومنح الأستاذ باير، المدرس الحقيقي الماهر، عقل دان المتعطش شيئًا يفعله، وساعده في فهم نفسه بمواصلته مهمة القسّ الطيب بأبوية فأحس الفتى المسكين أنه عثر على أب. أخذه الأولاد في نزهات، وأمتعوه

(١) قصة أخرى لفوكيه (سبق ذكره). تدور أحداثها حول الفارس الشهم فرودا الذي يقرأ أسطورة ليدي أسلوغا، ويقع في غرامها ثم يزوره طيفها ويظل مخلصًا لها إلى الأبد.

بمزاحهم وخططهم، أما النساء صغارهن وكبارهن، فقد اعتنين به ودللْنه حتى لكأنه سلطان بين جمع من الجواري المخلصات، يحققن له أصغر أمانيه.

كان القليل من كل هذا كافيًا لدان، الذي يرتعد خوفًا كأي رجل من «الدلال»، ولما عرف المرض قليلًا تمرد على تعليمات الطبيب بأن يلزم الهدوء، واحتاج إجباره على ألا ينهض من الأريكة قبل أن يتعافى من آلام الظهر وإصابة الرأس لكل سلطة السيدة جو وذكاء الفتيات. طبخت ديزي من أجله، واهتمت نان بأدويته، وقرأت له جوزي لتنقضي الساعات الطويلة من التبطل التي ألقت بثقلها على يديه، أما بِس فقد أحضرت كل لوحاتها وقوالبها لتسليه، ونزولًا عند رغبته، وضعت مقعد النحّات في ردهته، وأخذت تنحت رأس الجاموس الذي أهداه لها. كانت هذه العصريات أكثر ساعات اليوم بهجة، وكان بوسع السيدة جو، المنهمكة في مكتبها القريب، رؤية الثلاثي المرح والتمتع بالمشاهد التي يصنعونها. سُرّت الفتاتان كثيرًا بنجاح جهودهما، واجتهدتا في تسلية دان وتهدئة نزقه بالكياسة الأنثوية التي تتعلمها معظم النساء قبل أن يهجرن لبس الميادع. إن كان فرحًا ترددت في الغرفة أصوات الضحك، وإن كان كئيبًا، قرأتا أو عملتا في صمت جليل حتى يُعيد صبرهما الجميل إليه فرحه، وإن كان متوجّعًا حامتا حوله مثل «الملائكة» كما قال. كان يُسمّي جوزي «الأم الصغيرة»، وبس «الأميرة» دومًا، وكان أسلوبه مع القريبتين مختلفًا تمام الاختلاف. كثيرًا ما أثارت جوزي غضبه باندفاعها، والمسرحيات الطويلة التي تحبّ قراءتها، والتأنيب الأمومي الذي

تمطره به عندما يخرق القوانين، إذ فرحت بأن يكون أحدٌ خاضعًا لإمرتها وودت أن تحكمه بقضيب من الحديد لو أطاع. لكنه لم يُظهرْ لبِس قط، في خدمتها الرقيقة، أي تبرم أو سأم، بل أطاع كلمتها وجهد ليكون بمظهر حسن في حضرتها، واهتم بالغ الاهتمام بعملها فاضطجع ناظرًا إليها بعينين لا تكلان، وجوزي تقرأ له بأفضل طرقها غافلة عن ذلك.

لاحظت السيدة جو هذا الأمر، وسمتهما «أونا والأسد»[1] وناسبهما تمامًا، رغم أن لبدة الأسد كانت مقصوصة، وأونا لم تحاول مرةً أن تشد وثاقه. قامت السيدات الكبيرات بدورهنّ في تحضير الأطايب وتأمين كل حاجياته، لكن السيدة مِغ مشغولة في بيتها، والسيدة إيمي تحضّر لرحلتها إلى أوروبا في الربيع، والسيدة جو تحوم حول إعصار وشيك، إذ إن الكتاب القادم قد تأخر كثيرًا جراء الأحداث العائلية الأخيرة. لما جلست إلى مكتبها، ترتّب الأوراق أو تقضم قلمها متفكرة وهي تنتظر الوحي الإلهي ليتنزل عليها، كثيرًا ما نسيت أبطالها وبطلاتها الخياليين في معاينة النماذج الحية أمامها، ومن ثم اكتشفت من خلال النظرات والكلمات والإيماءات العرضية قصة حب صغيرة لم يشعر بها أحدٌ آخر.

كانت الستائر بين الغرفتين ترفع عادة، متيحة النظر إلى المجموعة عبر النافذة الناتئة؛ بس تجلس في جانب، بقشابتها الرمادية مشغولة

(١) ٥ جنيهات بريطانية من الذهب، نقش على أحد وجوهها صورة الملكة فكتوريا مكتوب عليها باللاتينية «فكتوريا بنعمة الرب ملكة الأراضي البريطانية»، وعلى الوجه الثاني صورة لها تمثي قرب أسد وباللاتينية «ليهدِ الرب خُطاي».

بأدواتها، وجوزي في الجانب الآخر مع كتابها، وبينهما على الأريكة الطويلة، مرفوعًا بعدد من المخدات، يضطجع دان في منامة متعددة الألوان من الغرب أهداها له السيد لوري ولبسها ليسعد الفتاتين، رغم أن العليل فضّل سترته القديمة «دون أن يكون له ذيل بغيض يزعجه». واجه غرفة السيدة جو، وكأنه لا يراها، إذ كانت عيناه مثبتتين على قوام رشيق أمامه، وضوء الشمس الشتوية الشاحبة يلمس شعرها الذهبي، واليدين الرقيقتين تنحتان الصلصال ببراعة. كانت جوزي مرئية، تهز بعنف الكرسي الصغير عند رأس الأريكة، والهمهمة الرزينة لصوتها البناتي الصوت الوحيد عادة الذي يكسر هدوء الغرفة، ما لم يبدأ نقاش مفاجئ حول الكتاب أو الجاموس.

شيء في العينين الكبيرتين، وقد غدتا أكبر وأكثر سوادًا من ذي قبل في الوجه النحيل الأبيض، ثابت بعزم على موضوع واحد، سحر السيدة جو لبعض الوقت، وراقبت التغيير فيهما بفضول، إذ لم يكن عقل دان يركّز على القصة، وكثيرًا ما نسي أن يضحك أو يعلق على الأحداث المضحكة أو المثيرة. كانتا أحيانًا رقيقتين حزينتين، والرقيب مسرورة للغاية بأن كلتا الآنستين لم تنتبها للنظرة الخطرة، لأنها تتلاشى كلما تحدثتا، وكانت أحيانًا مليئة بنار الشوق، واللون يأتي ويذهب متمردًا، رغم محاولته إخفاءه بإيماءة سئمة من اليد أو الرأس، لكنها غالبًا كئيبة حزينة صارمة، كأنما هاتان العينان تنظران من السجن إلى نور أو فرح محرم. كثيرًا ما ظهرت هذه السيماء على وجهه فساور القلق السيدة جو، وودت لو ذهبت وسألته ما الذكرى القاسية التي تُلقي بظلالها على تلك الساعات

الهادئة. عرفت أن جريمته وعقابه يثقلان على عقله، لكن الشباب والزمن والآمال الجديدة ستجلب الراحة، وتساعد في التخلص من قسوة السجن. واختفت في أوقات أخرى، كأنه ينساها تمامًا حين يمزح مع الأولاد، أو يتحدث مع الأصدقاء القدامى، أو يتمتع بندَف الثلج الأولى حين يخرج للنزهة في أيام الصحو. لماذا يخيّم عليه الحزن هكذا في صحبة هاتين الفتاتين البريئتين الودودتين؟ لم تريا شيئًا، وإن نظرت إليه أي منهما أو تحدثت، رسم ابتسامة سريعة مثل شعاع الشمس خلال الغيوم ليجيبهما. واصلت السيدة جو مراقبتها، تتساءل وتكتشف إلى أن أكد حادث مخاوفها.

استدعيت جوزي ذات يوم، وعرضت بِس التي تعبت من عملها أن تحلّ محلها إن أراد أن يسمع المزيد.

«أجل، أحب قراءتك أكثر من قراءة جو. إنها تسرع كثيرًا فيضطرب عقلي الغبي ويبدأ الصداع. لا تقولي لها، إنها صغيرة عزيزة، ولطف منها أن تجلس هنا مع دب مثلي».

كانت الابتسامة حاضرة لما ذهبت بس إلى الطاولة لتأخذ كتابًا جديدًا، وقد انتهت القصة السابقة.

«لست دبًا، بل نراك طيبًا وصبورًا جدًا. يصعب على الرجل أن يحبس، كما تقول ماما، ولا بد أن هذا يزعجك، وأنت الذي تمتعت بحريتك دومًا».

لو لم تكن بِس تقرأ العناوين لرأت دان يجفل كأن كلماتها الأخيرة جرحته. لم يحر جوابًا، لكن عينًا أخرى رأت وفهمت لماذا

بدا كأنه يود النهوض والانطلاق في واحدة من سباقاته الطويلة نحو التلة، كعادته حين يصعب كبح توقه إلى الحرية. حملت السيدة جو سلة أشغالها، وقد تأثرت بالاندفاعة المفاجئة، وذهبت لتنضم إلى جيرانها، إذ أحست بالحاجة إلى عازل، لأن دان كان شبيهًا بسحابة رعدية مليئة بالكهرباء.

«ماذا نقرأ يا خالتي؟ لا يبدو دان مهتمًا، وأنت تعرفين ذوقه، فأعطيني شيئًا هادئًا لطيفًا قصيرًا، إذ ستعود جوزي قريبًا»، قالت بِس، ولم تزل مستديرة نحو الكتب التي تكدست على طاولة الوسط.

وقبل أن يتسنى للسيدة جو أن ترد، سحب دان مجلدًا صغيرًا باليًا من تحت وسادته، ومده لها وقال: «اقرئي لي الثالثة من فضلك، إنها قصيرة وجميلة، وأحبها كثيرًا».

فتح الكتاب على الصفحة المطلوبة، كأنما القصة الثالثة قرئت كثيرًا، وابتسمت بِس لما رأت الاسم.

«يا إلهي يا دان، لم أعلم أنك تهتمّ بهذه الحكاية الرومانسية الألمانية، فيها قتال لكنها عاطفية للغاية، إن لم تخنّي ذاكرتي».

«أعرف ذلك، لكني قرأت قصصًا قليلة، وأحب البسيطة منها. لم يكن عندي ما أقرأه أحيانًا، وأحسب أني أحفظها عن ظهر قلب، ولم أسأم من هؤلاء المحاربين، والشياطين والملائكة والسيدات الجميلات. اقرأي «فارس أسلوغا» وستعجبك. كان إدولد رقيقًا بعض الشيء في تصوري، لكن فرودا فارس من الطراز الأول والطيف ذي الشعر الذهبي ذكرني بك دومًا».

بعدما تحدث دان، جلست السيدة جو حيث يمكنها رؤيته في المرآة، واحتلت بس الكرسي الكبير المقابل له، قائلة، وهي ترفع يديها لعقد الشريط الذي يضم خصلات شعرها الناعمة الكثيفة خلف رأسها:

«آمل أن شعر أسلوغا لم يكن متعبًا مثل شعري، لأنه ينسدلُ إلى الأسفل دومًا، سأكون جاهزِة في لحظة».

«لا تربطيه من فضلك، ودعيه ينسدل، أحب رؤيته يلمع هكذا، سيكون أكثر راحةً لرأسك وأنسب للقصة يا غولدلوكس»، توسل دان، مناديًا إياها باسم الطفولة وكأنه عاد إلى صباه أكثر مما فعل لأيام.

ضحكت بِس، وهزت شعرها الجميل، وأخذت تقرأ، مسرورةً لأنه يخفي وجهها بعض الشيء، إذ يثير الإطراء خجلها، أيًا كان قائله. أصغى دان باهتمام، والسيدة جو، بعينين تتنقلان بين الإبرة والمرآة، رأت دون أن تلتفت، أنه استمتع بكل كلمة كأنها تعني له أكثر من غيره من المستمعين. أشرق وجهه كثيرًا، وسرعان ما ارتسمت عليه الهيئة التي تكسوه حين يثيره شيء شجاع أو جميل ويمس ذاته الفضلى.

كانت القصة الأخّاذة لفوكيه عن الفارس فرودا، وابنة سيغورد الجميلة، التي كانت طيفًا، تظهر لعاشقها في ساعة الخطر والابتلاء، إلى جانب ساعات النصر والفرح، حتى غدت مرشدته وحارسته، مانحة إياه الشجاعة والنبل والصدق، آخذةً بيده إلى الأفعال العظيمة

في الميدان، والتضحيات لأجل من يحبّ، والانتصار على نفسه بفضل لمعان الشعر الذهبي، الذي أشرق عليه في المعركة والأحلام والمحن ليلًا ونهارًا حتى وجد بعد الموت الطيف الجميل بانتظاره ليستقبله ويكافئه.

من بين كلّ قصص الكتاب كانت هذه آخر ما يظن دان أنها ستكون الأثيرة عنده، وفوجئت السيدة جو بأنه فطن إلى العبرة من الحكاية عبر الخيال الرقيق واللغة الرومانسية اللذين رسمت بهما. ولكنها لما رأتْ واستمعت أدركت الأثر بين العاطفة والتهذيب المسترين في طباع دان مثلما يستتر عرق الذهب في الصخر، وصيره سريع الإحساس والاستمتاع باللون الجميل في زهرة، أو جمال حيوان، والعذوبة في امرأة، والبطولة في الرجال، وكلّ الأواصرِ الرقيقة التي تجمع القلب بالقلب، رغم أنه كان بطيئًا في إظهاره، فلم يكن عنده من الكلمات ما يعبّر به عن الميول والطباع التي ورثهما من أمه. لقد روض الألم في الروح والبدن عواطفَه القوية، ونقّى جوّ الحب والرحمة الذي يحيط به الآن قلبه وأدفأه حتى أخذ يتعطش إلى الطعام الذي تجاهله أو أنكره طويلًا. كان هذا مكتوبًا بوضوح على وجهه المعبر، وظنه لم يرَ فجعله يبدي الشوق للجمال، والسلام والسعادة التي تتجسد في الفتاة البريئة الجميلة الماثلة أمامه.

أدركت السيدةُ جو هذه الحقيقةَ الحزينة الطبيعية متألمة، لأنها عرفت أن هذا الحب بلا أمل، إذ لا فرق بين النور والظلام أكبر من الفرق بين بِس النقية كالثلج ودان الملطخ بالخطيئة. لم يقضّ مضجع الفتاة الصغيرة حلمٌ بشيء كهذا، كما أظهرت غفلتها بوضوح.

ولكن كم سيطول الأمرُ قبل أن تفضح السر العينان البليغتان؟ ثم أي خيبة تنتظر دان، وأي خوف ينتظر بِس الهادئة الراقية النقية مثل تماثيلها، ونفرت من فكرة الحبّ بتحفظ الغيد.

«يا لقسوة كلّ شيء على فتاي المسكين! كيف أفسد عليه حلمه الصغير، وأسلبه الطيف الذي يحبه ويشتاقه؟ لن أعاني هكذا حين يستقر أولادي الأحباء، لأن هذه الأمور تفطر القلب، ولا أود تصوّر المزيد»، قالت السيدة جو في نفسها، وهي تضع بطانة لكمّ معطف تدي مقلوبة، إذ انتابتها الحيرة والحزن الشديدين لهذا المصاب الجديد.

انتهت القصة سريعًا، ولما أبعدت بِس شعرها سألها دان بلهفة صبي:

«ألا تعجبك؟».

«بلى، إنها جميلة جدًا، وأدرك المغزى منها. لكن أونداين كانت قصتي المفضلة دومًا».

«طبعًا، فهي تشبهك، زنابقُ ولآلئ وماء نمير. كانت سنترام المحببة إليّ، لكني أحببت هذه حين كنت -إحم- أعاني تعس الحظ ذات مرة، وأمتعتني فهي فرحة وروحانية في معناها كما ترين».

فتحت بِس عينيها الزرقاوين متعجبةً من ميل دان لشيء «روحاني» لكنها هزت رأسها قائلةً: «بعضُ الأغنيات القصيرة جميلة ويمكن تلحينُها».

ضحك دان: «اعتدتُ غناء الأخيرة على لحن مني لدى المغيب أحيانًا:

الإصغاء إلى الأغاني السامية
يعطفُ نظرتك الصافية
إلى الضياء الحي النقي
إنكَ لمبارك، يا فارس أسلوغا!

مكتبة
t.me/soramnqraa

وكنت مباركًا»، أضاف هامسًا وهو ينظر إلى ضياء الشمس المتراقص على الجدار.

«هذه تناسبك أكثر»، وفرحت بِس بأنها تسعده بشيء يهمها فقرأت بصوتها الناعم:

«تعافي سريعًا، تعافي سريعًا يا جراح البطل،
أيها الفارس، استعد قوتك سريعًا!
معركة محمودة
لخاطر الرفعة والحياة
أوه، لا تُبطئ كثيرًا!».

«أنا لست بالبطل، ولن أكون أبدًا، «والرفعة والحياة» لن تغرياني، لا تهتمي، اقرأي لي هذه الصحيفة من فضلك، لقد جعلتني الضربة التي تلقيتها على رأسي أحمق».

كان صوت دان رقيقًا، لكن الضياء انسل من وجهه، وتململ في جلسته كأن وسائد الحرير يغطيها الشوك. لما رأت بِس مزاجه تغيّر،

تركت الكتاب بسرعة وأخذت الصحيفة، وبحثت في المقالات عن شيء يناسبه.

«لا يهمك سوق المال كما أعلم، ولا الأخبار الموسيقية. هذه جريمة، وأنت تحب هذا النوع، أأقرأها لك؟ عن رجل يقتل آخر...».

«كلا!».

ليست سوى كلمة واحدة، لكنها جعلت السيدة جو ترتعش، ولهنيهةٍ خشيت النظر إلى المرآة الواشية. وحين فعلت كان دان مستلقيًا بلا حراك واضعًا يدًا على عينيه، وبِس تقرأ سعيدةً الأخبار الفنية لأذنين لم تسمعا كلمة مما قالت. تسللت السيدة جو عائدة إلى مكتبها، وقد أحست أنها لصٌّ سرق شيئًا نفيسًا، وتبعتها بِس بعد قليل لتقول إن دان غطّ في النوم.

أرسلتها الأم باير إلى البيت، وعقدت العزم على أن تبقيها هناك قدر الإمكان، وحظيت بساعة من التفكير الجاد وحدها في حمرة المغيب. وحين أخذها صوت إلى الغرفة المجاورة، وجدت أن النوم المدعى صار رقودًا حقيقيًا، إذ استلقى دان يتنفس بصعوبةٍ، وعلى خدّيه بقعتان أرجوانيتان، ويد واحدة تمسك بصدره العريض. أشفقت عليه أكثر من ذي قبل، وجلست على الكرسي الصغير قربه، محاولةً العثور على مخرج من هذا المأزق، حتى انزلقت يده، فانتزعت سلسلة يضعها حول عنقه وأوقع محفظة صغيرة على الأرض.

التقطتها السيدة جو، ولما لم يستيقظ جلست تنظرُ إليها، تتساءل

أيَّ تعويذة تحمل، لأن المحفظة كانت صنيع الهنود الحمر، والسلسلة المقطوعة، من العشب المجدول زكيّ الرائحة أصفر شاحبًا.

«لن أتطفل على أسرارِ الفتى المسكين الأخرى، سأصلحها وأعيدها، ولن أخبره أني رأيت تعويذته».

فقلّبت وهي تتكلم المحفظةَ الصغيرة لتعاين الكسر، فوقعت بطاقةٌ في حجرها. كانت صورةً مقصوصة لتناسب غطاءها، وكتب تحت الوجه كلمة واحدة «أسلوغاي». للحظةٍ تصورت السيدة جو أنها ستكون صورتها، إذ يملك كل الأولاد واحدة لها، ولكن لما سقطت الورقة الرقيقة، رأت صورةً التقطها ديمي لبِس ذلك اليوم الصيفي السعيد. لم يعد للشك مكان، وأعادتها متنهدةً، وكادت تضعها في جيب دان فلا تكشف قطبة [من جيبه] أنها تعرف، وحين مالت نحوه رأت أنه ينظرُ إليها مباشرةً بلا تعبيرٍ أدهشها أكثر من أي من الأشياء الأخرى الغريبة التي رأتها على هذا الوجه المتقلب من قبل.

«انزلقت يدكَ، فسقطت. كنت أعيدها»، قالت السيدة جو موضحةً، كأنها طفلٌ مشاغب أمسك بالجرم المشهود.

«أرأيت الصورة؟».

«أجل».

«أتعلمين أي أحمق أنا؟».

«أجل يا دان، وحزينة للغاية...».

«لا تقلقي علي، أنا بخير... يسرّني أنك عرفت رغم أني لم أنوِ إخبارك. إنه ليس إلا خيالي المجنون، ولن يسفر عن شيء، ولم أظن غير ذلك، يا إلهي! ماذا ستكون تلك الملاك الصغيرة في نظري إلا ما كانت... حلمًا بكل ما هو جميل ولطيف؟».

حزنت السيدة جو للاستسلام الهادئ في نظرته ونبرته أكثر مما يفعله حماس العاشق، ولم تقل وملء وجهها الحنان سوى:

«إن الأمر صعب للغاية يا عزيزي، وما من زاويةٍ أخرى للنظر إليه، إنك حكيم وشجاع لتدرك هذا، وأن تحتفظ بالسرّ بيننا».

«أقسم إني سأفعل! لن تصدر منّي كلمة أو نظرة إن استطعت، ولن يعرف أحد، وإن لم أضايق أحدًا، فما ضر لو احتفظت بهذه، وأن أتعزّى بالخيال الجميل الذي حفظ عليّ عقلي في ذلك المكان اللعين؟».

كان وجه دان متلهفًا، وأخفى المحفظة المهترئة الصغيرة كأنه يبعد أي يدٍ تود أخذها منه. قالت السيدة جو بهدوء، رغم رغبتها بمعرفة كل شيء قبل تقديم العزاء والمشورة:

«احتفظ بها وأخبرني كل شيء عن «الخيال». وما دمت اطلعت على سرك، فدعني أعرف كيف حدث، وكيف أساعدكَ في جعل احتماله أخف».

«ستضحكين، لكني لا أبالي، لقد عرفت أسرارنا دومًا وبثثت فينا الحماس. حسنٌ، لم أهتم بالكتب كثيرًا كما تعلمين، ولكن هناك

عندما عذّبني الشيطان كان علي أن أفعل شيئًا وإلا جننت، لذا قرأت الكتابين اللذين أعطيتِني، كان أحدهما يفوق فهمي، حتى علمني ذاك الرجلُ الطيب كيف أقرأه. لكن الآخر، هذا، كان عزائي كما أخبرك، لقد سلاني وكان كالشعر. أحببته كله، وقرأتُ سنترام أكثرها، أرأيت كم شقي؟! ثم وصلت إلى هذه، وقد توافقت مع الجانب الآخر السعيد من حياتي، الصيف الماضي... هنا».

توقف دان لحظةً إذ تلكأت الكلمات على شفتيه، بنفس طويل، وواصل كأنما يصعب عليه أن يكشف قصة الحب الحمقاء الصغيرة التي نسجها حول فتاة، صورة، وقصة طفلة هناك في غياهب ذلك المكان المروع في نظره بقدر جحيم دانتي، حتى وجدَ بياتريسه.

«فارقني النوم، وكان علي التفكير بشيء، لذا أخذت أتخيل أنني فولكو، وأرى لمعان شعر أسلوغا في غياب الشمس على الجدار، وبصيص مصباح الحارس، والنور الذي يتسلل فجرًا. كانت زنزانتي عاليةً، ولم أر إلا قطعة صغيرة من السماء، تضيء فيها نجمة أحيانًا، وكانت حلوةً مثل وجه. رأيت كثيرًا منها في تلك الرقعة الزرقاء، وحين تمرّ سحابة بيضاء، أجدها أجمل الأشياء في العالم. أظنني كنت أحمق، لكنّ هذه الأفكار والأشياء ساعدتني، لذا فإنها كلها حقيقية جدًا في نظري، ولا أستطيع التخلّي عنها. الرأس الحبيب اللامع، والثوب الأبيض والعينان الشبيهتان بالنجمتين، والأسلوب الهادئ العذب الذي جعلها أعلى مني مثل القمر في السماء. لا تأخذيها! فهو ليس إلا خيال، ولكن ينبغي للرجل أن يحب شيئًا، وأؤثر حب طيف يشبهها على أي فتاة عادية مسكينة تهتم لأمري».

اخترق اليأس في صوت دان قلبَ السيدة جو، ولكن ما من أمل، ولم تمنحه واحدًا، بيد أنها أحستْ أنه محقّ، وأن حبه سيء الطالع قد يسمو به وينقيه أكثر من أيّ أحد آخر يعرفه. لن تهتم بالزواج من دان إلا قليل من النساء، غير أن هذا سيعيقه ولن يساعده في صراعه الذي ستخضعه له الحياة دومًا، والأفضل أن يسجّى في لحده عازبًا على أن يصبح رجلًا وسيمًا خطرًا بلا مبادئ، كوالده، ليكسر أكثر من قلب.

«أجل يا دان، من الحكمة إبقاء هذا الخيال، إن كان يساعدكَ ويعزيك، إلى أن يحدث شيء حقيقي وأكثر احتمالًا ليجعلك أسعد. ليتني أستطيع منحك أملًا، لكن كلينا يعلم حق العلم أن تلك الطفلة الحبيبة قرة عين أبيها، وبهجة قلب أمها، وأن أكثر العاشقين كمالًا لن يكون جديرًا بابنتهما الغالية. دعها تظل في نظرك النجمة العالية المتلألئة التي ترشدك إلى السمو وتجعلك تؤمن بالجنة».

صمتت السيدة جو هنا، إذ شقّ عليها أن تفسد الأمل الباهت الذي فضحته عينا دان، فلم تستطع أن تعظه لما تذكرت حياته القاسية ومستقبله وحيدًا. لربما كان أكثر ما أتته حكمة، لأنه وجد السلوان على خسارته في حنانها الصادق، واستطاع أن يتحدث بنبرةٍ شجاعة من التسليم لما لا يمكن تفاديه فأظهر صدق محاولته للتخلي عن كل شيء إلا ظل شاحب لما قد يبدو، في عين آخرين، احتمال سعيد.

تحدثا مطولًا وجديًا في الشفق، وقربهما هذا السر الثاني أكثر من

الأول، إذ لم تكن فيه خطيئة ولا عار، سوى الألم الرقيق والصبر الذي يصنع القديسين والأبطال من رجال يفوقون دان المسكين في سوئهم. ولما نهضا أخيرًا لنداء الجرس، تلاشى كل بهاء المغيب، وفي السماء الشتوية تعلقت نجمة واحدة، كبيرة رقيقة واضحة فوق العالم المغمور بالثلج. توقفت السيدة جو عند النافذة قبل إسدال الستائر، فقالت بحبور:

«تعال وانظر جمال نجمة المساء، ما دمت تحبها هكذا»، ووقف خلفها طويلًا شاحبًا، مثل شبح في ذاته السابقة، فأضافت برفق: «وتذكّر يا عزيزي، إن مُنعتَ عن الفتاة الحلوة، فالصديقة القديمة موجودة دومًا لتحبك وتثق بك وتصلي من أجلك».

لم يخبْ أملُها هذه المرة، ولو طلبت مقابلًا للمخاوف والقلق، فقد نالته عندما طوق دان عنقها بذراعه، إذ قال بصوتٍ أظهر لها أن جهدها في انتشال مشعل الفتن من الحريق لم يذهب هباء منثورًا:

«لن أنسى ذلك ما حييت، لأنها ساعدتني في إنقاذ روحي، وجعلتني أجرؤ على رفع رأسي والقول: «باركها الرب!»».

# (٢٢)
# المشهد الأخير قطعًا

«أقسم بشرفي إني ليُخيّل إلي أني أقيم في مخزنٍ للبارود، ولا أدري أيّ برميل سينفجر تاليًا، فيفقِدني توازني»، قالت السيدة جو لنفسها اليوم التالي، وهي تمشي متثاقلة إلى پارناسوس لتشير على أختها بأنه يجدر بأجمل الممرضتين الشابتين العودة إلى تماثيل الآلهة قبل أن تضيف دون أن تدري جرحًا آخر على ما أُصيب به البطل الفاني مسبقًا. لم تفشِ سرًا، ولكن التلميح كافٍ، إذ حرست السيدة إيمي ابنتها مثل لؤلؤة باهظة الثمن، واختلقت من فورها وسائل بسيطة للغاية للفرار من الخطر. كان السيد لوري ذاهبًا إلى واشنطن نيابة عن دان، وفرح باصطحاب أسرته معه لما طرحت الفكرة عرضًا. لذا نجحت الخطة تمامًا، وعادت السيدة جو إلى البيت، يخالجها شعور بالخيانة أكثر من ذي قبل. لقد توقعت ثورة، لكن دان تقبّل الخبر بهدوء شديد، ولا شك أنه لم يضمر أملًا، وكانت السيدة إيمي واثقة أن أختها الرومانسية مخطئة. ولو رأت وجه دان حين ذهبت بِس لوداعه، لرأت عين الأم أكثر بكثير مما فعلت الفتاة

الغافلة. ارتعدت السيدة جو خشية أن يفضح نفسه، لكنه تعلّم ضبط النفس في مدرسة صارمة، وتجاوز اللحظة القاسية بشجاعة، إلا حين أخذ كلتا يديها قائلًا بحب: «إلى اللقاء يا أميرة، وإن لم نلتقِ ثانية، فتذكّري صديقك القديم دان أحيانًا»، فأجابته بدفء جديد، متأثرةً بالخطر الذي تجاوزه مؤخرًا وسيمائه الحزينة: «وكيف لي ألا أفعل، وأنت فخرنا كلنا؟ بارك الرب مهمتك، وأعادك إلينا سالمًا!».

ونظرت إليه بوجه ملؤه المحبة الصريحة والأسف الرقيق، انبلج أمام دان كل ما كان يخسره نابضًا بالحياة، ولم يستطع مقاومة رغبته في أخذ «الرأس الذهبي الحبيب» بين يديه وتقبيله، بقوله «إلى اللقاء» كسيرًا، ثم هرع عائدًا إلى غرفته، وهو يتخيّلها زنزانة السجن، ولا نظرة للسماء الزرقاء تعزيه.

أفزعت هذه القبلة السريعة والمغادرة بِس قليلًا، إذ شعرت بفطرة الفتاة الثاقبة أن في تلك القبلة شيئًا لم تعرفه من قبل، وتبعته بنظرها بلون مفاجئ في وجنتيها وقلق جديد في عينيها. رأت السيدة جو ذلك، وخوفًا من سؤال عادي أجابت قبل أن يقال.

«اغفري له يا بِس. لقد مرّ بمشكلة كبيرة، وهذا ما يجعله رقيقًا لدى فراق الأصدقاء، لأنك تعرفين أنه قد لا يعود من البراري التي سيذهب إليها».

«أتعنين السقوط وخطر الموت؟»، سألت بِس ببراءة.

«كلا يا عزيزتي، بل أكبر من ذلك، لكني لا أستطيع إخبارك

بسوى أنه اجتازها بشجاعة، لذا يسعك أن تثقي به وتحترميه، مثلما أفعل».

«لقد خسر أحدًا يحبّه. يا لدان المسكين! يجب أن نكون رفيقين به».

لم تسأل بِس السؤال، لكنها بدت قانعة بحلها للغز، الذي كان صحيحًا أكدته السيدة جو بهزة رأس، وتركتها تذهب وهي تؤمن أن الفقدان والحزن الرقيق وراء التغيير الكبير الذي طرأ على دان، وجعله مُقلًا في الكلام عن العام الماضي.

لكن تِد ما كان ليقتنع بسهولة، وألجأه هذا التكتم غير المعهود إلى اليأس. حذرته أمه من إقلاق راحة دان بأسئلته حتى يتعافى تمامًا، لكن هذا الاحتمال بالرحيل الوشيك جعله يعزم على الحصول على سرد كامل وواضح مُرضٍ لكل المغامرات التي عرف أنها مثيرة قطعًا من الكلمات الشاردة التي تفوّه بها دان أثناء الحمى. وذات يوم حين كان المكان خاليًا، تطوع المبجل تِد لتسلية العليل، وفعل ذلك على النحو التالي:

«اسمعني يا فتاي العزيز، إن لم تُردْني أن أقرأ لك، فعليك أن تتحدث وتخبرني عن كنساس، والمزارع وذلك الجزء. أعرف قصة مونتانا، ولكن كأنك نسيت ما سبقها، فتشجّع وأخبرنا»، قال بسرعة أنهضتْ دان من المكتب البني عازمًا.

«كلا، لا أنسى، وهو لا يهم أحد سواي، لم أر أي مزارع، فقد تخليت عنها»، قال ببطء.

«لماذا؟».

«كان لدي أشياء أخرى أفعلها».

«ماذا؟».

«صنعُ الفرش مثلًا».

«لا تمازح صديقًا، وأخبرني الصدق».

«فعلت حقًا».

«ولمَ؟».

«لأبتعد عن ارتكاب الخطأ مثل أي شيء».

«حسنٌ، من بين كل الأشياء الغريبة -وقد فعلت الكثير منها- فإن هذا أغربها»، قال تِد مبهوتًا بخيبة الأمل، لكنه لم ينوِ الاستسلام، وقال ثانية.

«أي خطأ يا دان؟».

«لا عليك، فيجب ألا يهتم الأولاد».

«لكني أتحرق شوقًا لأعرف لأني رفيقك، وأحبك بلا حد، كما فعلت دومًا. هيا الآن، أخبرني حكاية جيدة، فأنا أحب المآزق، وسأغلق فمي كالصدفة إن لم تردْ أحدًا يعرف بالأمر».

«أتفعل؟»، ونظر إليه دان متسائلًا عن تغيّر وجه الفتى إن قيلت له الحقيقة فجأة.

«سأقسم على ذلك بقبضة مضمومة، إن شئت. أعرف أن الأمر كان ممتعًا وأتلهف لمعرفته».

«إنك فضولي كالفتيات، أكثر من... جوزي... وبِس لا تسألاني أبدًا».

«إنهما لا تباليان بالشجارات وما إلى ذلك، بل يعجبهما المنجم والأبطال وأشياء من هذا القبيل، وكذلك أنا، وإني لفخور بقدر بنش[1]، لكني أرى في عينيك أمرًا آخر حدث قبل هذا، وأنا حريص على معرفة من يكون بلير وميسن، ومن ضرب ومن هرب، وكل ذلك».

«ماذا؟!»، سأل دان بنبرة جعلت تِد يجفل.

«حسنٌ، لقد تكلمت عنهم في نومك، وتساءل العم لوري، وأنا كذلك، ولكن لا تهتم إن لم تستطع التذكّر، أو تفضّل ألا تفعل».

«وماذا قلت أيضًا؟ غريب. يا للأشياء التي يقولها الرجل حين يفقد صوابه».

«هذا كل ما سمعت، لكنه بدا مثيرًا، وذكرته لأني حسبته سيكون منعشًا لذاكرتك قليلًا»، قال تِدي بتهذيب شديد، لأن تجهم دان كان كبيرًا تلك اللحظة.

---

(١) من مسرحية الدمى بنش وجودي، التي عرضت في بريطانيا في ١٦٦٠، وفيها تترك الزوجة جودي طفلها في رعاية السيد بنش فيقتله، ويلقى القبض عليه ويسجن وهناك يحاول قتل الشرطي والطبيب والمحامي ومنفّذ حكم الإعدام، ويفعل ذلك جذِلًا فخورًا ويكرر عبارته «هكذا ننجز الأمور!».

لكنه زال لدى هذا الجواب، وبعد نظرة إلى الصبي المتململ بتبرم مكبوح في كرسيه، قرر دان أن يسلّيه بلعبة من الكلام المتناقض وأنصاف الحقائق، آملًا أن يلجم فضوله فينعم بالهدوء.

«دعني أرَ، بلير كان شابًا التقيته في القطار، وميسن رجل فقير كان في... حسنٌ، في ما يشبه المستشفى حيث صادف وجودي. هرب بلير من أخوته، وعلي القول إن ميسن تعرض للضرب، لأنه مات هناك. أيكفيك هذا؟».

«كلا، لا يكفيني. لماذا هرب بلير؟ ومن الذي ضرب الرجل الآخر؟ أنا متأكدٌ من نشوب شجار في مكان ما، أليس كذلك؟

«بلى».

«أظنني أعرف سببه».

«اللعنة! لنسمع تخمينك، لا بد أنه مسلٍّ»، قال دان متظاهرًا براحة لم يشعر بها.

فرح تد لأنه سمح له بأن يفرغ ما في جعبته، فكشف حلّه الصبياني للغز الذي كان يخفيه، إذ أحسّ بوجود لغزٍ في مكان ما.

«لا حاجة لتجيبني بنعم وقد أقسمت على كتمان الأمر. سأعرف من وجهك ولن أقول شيئًا، ولنر إن كنتُ محقًا. إنهم يرتكبون أفعالًا عنيفة هناك، وأظنك شاركت في أحدها، ولست أقصد قطع الطريق، والكوكلوكس كلان وأشياء من هذا القبيل، بل الدفاع عن المستوطنين، أو شنق أحد الأنذال، أو إطلاق النار على بعضهم، كما

يجدر بالمرء أن يفعل دفاعًا عن نفسه. آه ها! لقد أصبت كما أرى. لا داعي للكلام، أعرف الوميضَ في عينيك، وقبضة يدك»، وقفز تِد فرحًا.

«أكملْ أيها الفتى الذكي، ولا تضل الطريق»، قال دان، شاعرًا بإحساس غريب من الراحة في بعض هذه الجمل المبعثرة، ومتشوقًا، دون أن يجرؤ، إلى تأكيدِ الصحيحة منها، فقد يعترف بالجريمة لا العقوبة التي أعقبتها، إذ لم يزلْ إحساس العار يثقل عليه.

«علمت أنني سأصيب، لا يمكنك خداعي طويلًا»، قال تِد بهيئة الفخر فلم يستطع دان إلا أن يضحك.

«إنك تجد الراحة في أن تزيحها عن ذهنك، أليس كذلك؟ أسرّ إليّ الآن وسيكون سرك في أمان، ما لم تقسم على ألّا تقول».

«لقد فعلت».

«أوه، حسنٌ، لا تخبرني إذن»، وابتأس وجه تِد، لكنه عاد إلى طبعه ثانية في لحظة، وقال بهيئة رجل عليم: «لا بأس، أنا أفهم مواثيق الشرف والصمت حتى الموت وغيرها، يسرني أنك ساندت صديقك في المستشفى. كم قتلت؟».

«واحدًا فحسب».

«من الأنذال طبعًا».

«محتال لعين».

«حسن، لا تكن عنيفًا، فلا اعتراض لدي، ولن أمانع في

الهجوم على خسيس متعطش للدماء. كان عليك الاختباء والتزام الهدوء بعد ذلك كما أحسب».

«الهدوء الشديد لفترة طويلة».

«لقد انتهت على خير ما يرام، وذهبت إلى المناجم وقمت بذلك العمل الشجاع، أسمّي هذا بديعًا ومثيرًا حقًا. لقد سررتُ لمعرفته، لكني لن أفشي السر».

«احرصْ على ذلك. اسمعني يا تِد، إن قتلت رجلًا، هل سيقض مضجعك هذا، أعني رجلًا شريرًا؟».

فتح الولد فمه ليقول: «كلا أبدًا»، لكنه حبس الجواب كأن شيئًا في وجه دان غيّر رأيه. «حسنٌ، إن كان واجبي في حرب أو دفاعًا عن النفس، فأحسب أني لن أستاء، ولكن إن هاجمته في لحظة غضب، فلا بد أني سأندم كثيرًا. ولا أعجب أن شبحه سيطاردني، وأن الندم سيأكلُني كما فعل بآرام ورفاقه. أنت لا تبالي، أليس كذلك؟ لقد كان قتالًا عادلًا، صحيح؟».

«أجل. وكنت صاحب حق، ولكني ليتني كنت بعيدًا عنه. لا ترى النساء الأمر على هذا النحو، ويصيبهن الذعر لأمور كهذه، فيصعّبن الأمر، ولكن لا بأس».

«لا تخبرهن حتى لا يساورهن القلق»، قال تِد بهزة رأس معهودة في طباع بني جنسه.

«لا أعتزم ذلك. عليك أن تحتفظ بأفكارك لنفسك، لأن بعضها

ليست على درب الصواب. يمكنك أن تقرأ الآن إن شئت»، وها هنا انتهى الحديث، لكن تِد وجد فيه راحة كبيرة، وبدا حكيمًا مثل بومة بعده. أعقبت ذلك بضع أسابيع هادئة، اغتاظ دان خلالها من التأجيل، وعندما وصل أخيرًا خبر بجاهزية أوراقه، تحرق شوقًا للمغادرة، لينسى حبًا ضائعًا في معمعة العمل الشاق، والعيش من أجل الآخرين، ما دام لن يعيش من أجل نفسه.

سافر بطلنا سنترام ذات صباح مضطرب من شهر آذار، مع الفرس والكلب، ليواجه الأعداء الذين هزموه، لولا عون السماء ورحمة البشر.

«آه، ويحي! كأنَّ الحياةَ صُنعت للفراق، ويصبح أصعب كلما تقدمنا في العمر»، تنهدت السيدة جو بعد أسبوع، حين جلست في الردهة الطويلة في پارناسوس ذات مساء لما ذهبت الأسرة للترحيب بعودة المسافرين.

«واللقاء كذلك يا عزيزتي، إذ ها نحن هنا، ونات في طريق العودة أخيرًا، انظري إلى البطانة الفضية، كما تقول مارمي دومًا، واسعدي»، أجابت السيدة إيمي فرحة بعودتها من دون أن تجد ذئابًا تجوس قرب حظيرتها.

«ساورني القلق كثيرًا في الآونة الأخيرة، ولا أستطيع تجنب التشاؤم. أتساءل عمّا فكّر به دان حيال عدم رؤيتكم ثانية، فقد كان ذاك حكيمًا، لكن لعله ظفر بنظرةٍ أخيرة إلى الوجوه التي يألفها قبل أن يذهب إلى البراري»، قالت السيدة جو آسفةً.

«هذا أفضلُ بكثير، لقد تركنا له الملاحظات وكل ما قد يحتاجه، وتسللنا عائدين قبل قدومه؛ فبِس تشعر بالراحة وكذلك أنا بلا شك»، ومسّدت السيدة إيمي خطّ قلق على جبينها الأبيض، لما ابتسمت لابنتها التي تضحك سعيدةً مع أقربائها.

هزت جو رأسها كأن البطانة الفضية لتلك الغيمة يصعب العثور عليها، ولكن لم يتسنَّ لها الوقت لتتشاءم ثانية، إذ دخل عندئذ السيد لوري باديَ السرور لأمرٍ ما.

«وصلت لوحة جديدة، فلنذهب إلى غرفة الموسيقى وأخبروني كيف ترونها أيها الجمع الطيب. أسمّيها «عازف كمان فحسب»، مثل اسم حكاية أندرسن، فماذا تسمّونها؟».

فتح الباب على مصراعيه وهو يتكلم، وخلفه رأوا شابًا يقف بوجه مشرق، حاملًا كمانه. لم يساور الشك أحد في اسم هذه اللوحة، وبالصرخة «نات! نات!»، وقف الجميع. لكن ديزي وصلته أولًا، كأنها أسقطت رزانتها المعتادة في مكان ما من الطريق، إذ أمسكته وبكت من الصدمة والمفاجأة والفرح الكبير الذي لا يسعها احتماله بهدوء. لقد تقرر كل شيء بذلك العناق الباكي الرقيق، وأسرعت السيدة مِغ في إبعاد ابنتها، لأنها حلت محلها، وصافح ديمي نات بدفءٍ أخوي، ورقصت جوزي حولهم كأن ساحرات مكْبث الثلاث اجتمعن في واحدة، مترنمةً بأشد نبراتها جدية:

«مسقسقًا كنتَ، وعازف ثانٍ للكمان أنت، وستغدو عازفًا أول. مرحى، قولوا مرحى!».

أثار هذا الضحكَ وأضفى مرحًا وراحة على الجميع. ثم اندلعت نار الأسئلة المعهودة، ليجيب عنها نات بحماس، والأولاد يعجبون بلحيته الشقراء وثيابه الأجنبية، والفتيات يثنين على مظهره الحسن، إذ تورد من أكل اللحم وشرب البيرة الإنجليزيين، وأنعشه نسيم البحر الذي أعاده إلى الديار. وهلل الكبار لنجاحاته. وأراد الكل طبعًا سماع عزفه، وحين تعبت الألسن، عزف من أجلهم أفضل عزفه، مفاجئًا أعتى النقاد بتقدمه في الموسيقى أكثر من الحيوية والرصانة اللتين صنعتا رجلًا جديدًا من نات المعروف برخاوته. وأخيرًا بعد أن غنّى لهم الكمان -أكثر الآلات إنسانية- أجمل الأغاني من دون كلمات، قال ناظرًا حوله إلى هؤلاء الأصدقاء القدامى بما تسمّيه الأم باير «الامتلاء» بالسعادة والرضا:

«والآن دعوني أعزف شيئًا تتذكرونه جميعًا رغم أنكم لن تحبوه بقدري»، ووقف الوقفة التي خلّدها أول بِل، وعزف لحن الشارع الذي عزفه لهم في أولى لياليه في پلمفيلد. تذكّروها وانضموا إليه في جوقة شجية، عبرت عن أحاسيسه أحسن تعبير:

«إن قلبي حزين وقلق
أينما جلت،
أتحرق شوقًا إلى المزرعة القديمة
وإلى الأحبة في الديار».

«أشعر بتحسنٍ الآن»، قالت السيدة جو حين نزلوا التلة كلهم. «فشل بعض أولادنا، لكني أظنُّ هذا سينجح. إن ديزي الصبورة

سعيدةٌ أخيرًا. كان نات صنيعتك يا فرتز، وإني لأهنئك من صميم قلبي».

«آخ، ليس لنا إلا أن نغرس البذرة ونؤمن أنها ستنزل أرضًا طيبة. ربما زرعتها أنا، لكنكِ حرصت ألا تنقرها طيور السماء، وسقاها الأخ لوري بكل سخاء، لذا سنتقاسم الحصاد بيننا، وسأسعد بحصتي الصغيرة يا أحب الناس».

«حسبت البذرة نزلت على أرض صخرية مع فتاي المسكين دان، لكني لن أعجب إن تفوق على الآخرين في نجاحه الحقيقي في الحياة، فالفرح بتوبة المخطئ أكبر من وجود قديسين كثيرين»، أجابت السيدة جو، ولم تزل متشبثة بخروفها الأسود رغم أن قطيعًا كاملًا من البِيض يمشي حولها سعيدًا.

تُراود المؤرخَ المنهك رغبة قوية لختام هذه الحكاية بزلزالٍ يبتلع يلمفيلد وما يحيط به في أحشاء الأرض فلا يعثر شليمان[1] فتيٌّ على أثر له. ولكني سأحجم عن هذه النهاية الميلودرامية لما ستحدثه من صدمة لدى القارئ الرقيق، وسأستبق السؤال المعتاد «كيف كانت نهايتهم؟» بالقول بإيجاز إن كل الزيجات نجحتْ، وأفلح الأولاد في مهنهم المختلفة، وكذا الفتيات إذ نالت جوزي وبِس مراتب الشرف في مسيرتيهما الفنيتين، ووجدتا زوجين كفؤين بعد زمن. وظلت نان عانسًا مشغولة سعيدة مستقلة، وكرست حياتها لبنات جنسها المتعبات وأولادهن، وهذا عمل المرأة الحقيقية الذي

(١) هاينرش شليمان: عالم آثار ألماني، عثر هو وزوجته على مدينة طروادة مسترشدًا بالإلياذة.

وجدت فيه سعادة لا متناهية. لم يتزوجْ دان، بل عاش شجاعًا نافعًا بين قومه المختارين حتى قُتل دفاعًا عنهم، ورقد بسلام في البراري الخضراء التي أحبها كثيرًا، وعلى صدره خصلة من شعر أشقر، وتعلو وجهه ابتسامةٌ كأنها تقول إن فارس أسلوغا قد قاتل قتاله الأخير ورقد بسلام. أصبح ستفي عضو مجلس بلدي، ودولي رجل مجتمع بارزًا حتى خسر ماله، فعثر على عمل يحبه في مشغل لخياطة الثياب الأنيقة. أصبح ديمي شريكًا وعاش ليرى اسمه مكتوبًا على لافتة فوق الباب، وصار روب أستاذًا في كلية لورنس. لكن تِدي تفوق عليهم كلهم بأن أصبح قسًا شهيرًا مفوهًا، مانحًا أمه المندهشة فرحًا عظيمًا. والآن، وقد جهدنا لإرضاء الجميع بالكثير من حفلات الزفاف، والقليل من الموت، ومزيد من النجاح قدر ما يسمح به الانسجام اللامتناهي، فأوقفوا الموسيقى، وأطفئوا المصابيح، وأسدلوا الستار على عائلة مارش إلى الأبد.

**النهاية**

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة

"ليس لنا إلا أن نغرس البذرة ونؤمن أنها ستحلّ في أرض طيبة" ..

يتتبع الجزء الأخير من ثلاثية ألكوت، المنشور عام ١٨٨٦، حياة بنات مارش، إلى جانب أولاد جو - وبناتها- الذين نشؤوا في مدرستها، رغم أن بعضهم وجد لنفسه مسارًا بعيدًا كل البعد عن مسار بلمفيلد العتيق.

ومثل الجزء السابق -رجال صغار- تصوّر الكاتبة حياة أبطالها بعد مرور عشر سنوات، وقد أصبح الصغار شبانًا وشاباتٍ يحاولون شقّ دروبهم ويتعرّفون على العالم كلٌّ بطريقته، لكنهم ما زالوا بحاجة لرعاية الأم باير ونصحها ليظلوا على طريق الصواب، ولينجحوا في اجتياز الاختبارات التي تمطرهم بها الحياة، وتعينهم عليها ثقتهم بوجود الملاذ الآمن الذي يلجؤون إليه في كل شدة.

أدركت السيدة جو باير أن اختبارها هي أيضًا لم يكن سهلًا بعد أن كبر أولادها كما تسميهم. فهي، مثلهم، تحتاج إلى التحلي بالصبر والحكمة والفطنة لتتمكن من تقديم الرأي السديد لهم، إذ عرفت حق المعرفة حجم المسؤولية الملقاة على عاتقها، وأدركت أنها ما كانت لتنجح في هذه المهمة الشاقة لولا إيمان زوجها وعائلتها بها وبرسالتها.

هكذا سعت جو بكل ما أوتيت إلى أن تغرس البذرة، وتبذل ما في وسعها لسقايتها والاعتناء بها، وتؤمن أنها ستحل في أرض طيبة، وليس لها بعد ذلك إلا الصبر لترى ثمرة عملها، حلوةً سائغٌ طعمها، مثل معظم ثمارها، أم مُرة لا يُرجى منها خير. وقد آتت أشجارها أُكلها، ونالت مكافأة سعيها. ولم يبقَ بعد ذلك سوى أن "تصمت الموسيقى، وتُطفأ المصابيح، ويُسدَل الستار على حياة آل مارش".

المترجمة

telegram
@soramnqraa

لويزا ماي ألكوت

أولاد جو

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
9 789921 723823
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com